أعلام وعلماء

قدماء ومعاصرون

بقلم العلامة الكبير

الشيخ محمد أبو زهرة

اعتنى به

مجد أحمد مكي

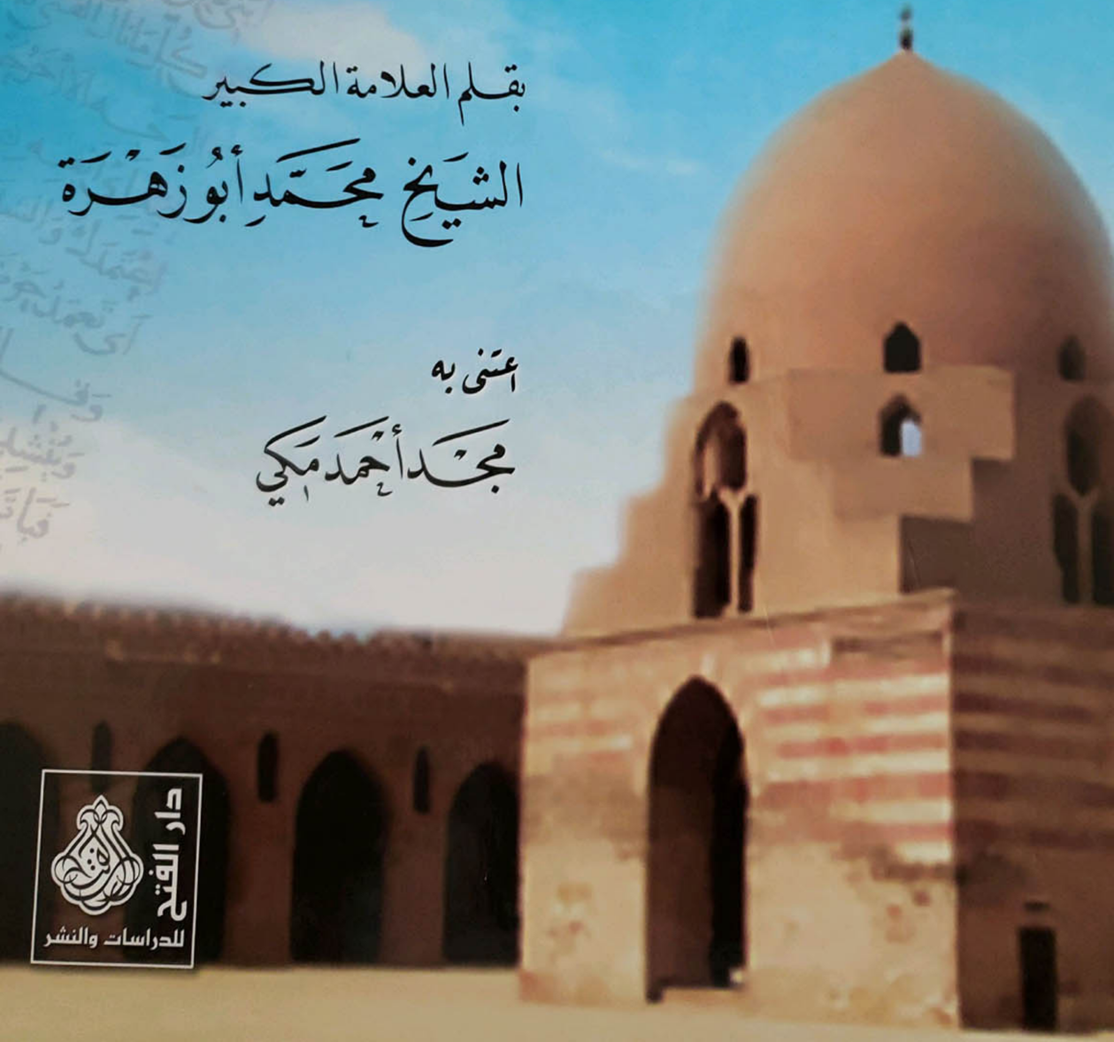

□ أعلام و علماء قدماء و معاصرون
بقلم العلامة: الشيخ محمد أبوزهرة
اعتنى به: مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد©
قياس القطع: ١٧×٢٤

دار الفتح للدراسات والنشر

تلفاكس ٤٦٤٦١٩٩ (٠٠٩٦٢٦)
جوال ٠٥٨ ٠٣٨ ٧٩٩ (٠٠٩٦٢)
ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمّان ١١١١٨ الأردن
البريد الإلكتروني: info@alfathonline.com
الموقع على شبكة الإنترنت: www.alfathonline.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing the publisher.

أعلام وعلماء

قدماء ومعاصرون

بقلم العلامة الكبير

الشيخ محمد أبو زهرة

اعتنى به

مجد أحمد مكي

2010

دار الفتح للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة المحقِّق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد وآله الأكرمين، ورضي الله تعالى عن صحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فهذه طاقة[1] عطرة من آثار العلّامة الشيخ محمد أبو زهرة، فيها تراجم تُنشر مجموعةً منسَّقةً مرتَّبةً أول مرة.

وهذه الطاقة تشتمل على تراجم لبعض الأعلام المتقدِّمين من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين وبعض العلماء المعاصرين، بلغ عددها أربعاً وأربعين ترجمة، منها: تسع عشرة ترجمة، نُشِرتْ في مجلة (العربي) الكويتيَّـة خلال سبع سنوات؛ ما بين سنة ١٩٥٩ وإلى سنة ١٩٦٦. ابتدأ فيها بترجمة الإمام مالك في العدد ١٢ من المجلة المذكورة، وآخر ما وقفت عليه ترجمة الإمام الترمذي في العدد ٨٨.

ورأيتُ جمعَ هذه التراجم وترتيبها وترقيمها، وجعلتها في ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: تراجم الفقهاء، وأوردتُ فيها تراجم الأئمة الفقهاء حسب وفياتهم: أبو حنيفة (١٥٠)، فمالك (١٧٩)، فالشافعي (٢٠٤)، فأحمد بن حنبل (٢٤١).

---

(١) الطاقة: مجموعة من الرياحين والورود، أما الباقة: فمجموعة البقول من المقدونس والنعناع ونحوهما.

والمجموعة الثانية: تراجم الـمُحدِّثين، وأوردت فيها تراجم الأئمة الخمسة المحدِّثين: البخاري (٢٥٦)، ومسلم (٢٦١)، وأبو داود (٢٧٥)، والترمذي (٢٧٩)، وابن ماجه (٢٧٣) . ولم يترجم الأستاذ محمد أبو زهرة للنسائي (٣٠٣).

والمجموعة الثالثة: تراجم المفسِّرين، وأوردتُ فيها ثلاث تراجم:

ابن جرير الطبري (٣١٠)، والزمخشري (٥٣٨)، والفخر الرازي (٦٠٦).

والمجموعة الرابعة: تراجم الوعّاظ والمتكلِّمين والمؤرِّخين، وأوردتُ فيها خمس تراجم:

الحسن البصري (١١٠)، وواصل بن عطاء (١٣١)، وأبو الحسن الأشعري (٣٢٤)، وأبو منصور الماتريدي (٣٣٣)، وأبو بكر الباقلاني (٤٠٣).

ثم ألحقتُ بهذه المجموعات ~~أربع~~ ثلاث تراجم: أبو الحسن الماوردي (٤٥٠)، وابن حزم الأندلسي (٤٥٦)، وابن خلدون (٨٠٨).

وجميع هذه التراجم نُشرت في مجلة (العربي) كما تقدَّم ذكره، سوى ترجمة ابن خلدون، وهي بحثٌ ضمن أعمال مهرجان ابن خلدون المنعقد في القاهرة سنة ١٩٦٢م، ويقع في ٢٨ صفحة، فيكون مجموع التراجم في القسم الأول المتَّصل بتراجم الأعلام المتقدِّمين: إحدى وعشرين ترجمة.

ومن المعلوم لدى جَمْهرة القرَّاء أنّ العلّامة محمد أبو زهرة أفرد تراجم ثمانيةٍ من الفقهاء الأعلام في كتب واسعة؛ درس فيها حياتهم وعصرهم وآراءهم الفقهية.

أولها: ترجمة الإمام الشافعي، الذي صدرت طبعته الأولى سنة (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م)، ويقع في ٤٠٨ صفحة.

وثانيها: أبو حنيفة، وصدرت طبعته الأولى سنة (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م)، ويقع في (٤١٠) صفحة.

وثالثها: مالك، وتـمَّت طباعته سنة (١٩٤٧م)، ويقع في (٣٩٧) صفحة.
ورابعها: أحمد بن حنبل، وطبع سنة (١٩٤٧م)، ويقع في (٤٧٨) صفحة.
وخامسها: ابن تيمية، وطبع سنة (١٩٥٢م)، ويقع في (٥٤٣) صفحة.
وسادسها: ابن حزم، وطبع سنة (١٩٥٤م)، ويقع في (٥٧٣) صفحة.
وسابعها: الإمام زيد، وطبع سنة (١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م)، ويقع في (٥٢٠) صفحة.
وثامنها: الإمام الصادق، وطبع بالقاهرة دون تاريخ، ويقع في (٥٦٧) صفحة[١].

وأكثر تلك التراجم هي في الأصل محاضرات ألقاها فضيلة الشيخ على طلبة قسم الدكتوراه في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، وأعطاها حقَّها من التمحيص والتدقيق والتحليل، وخصَّص فيها قسماً لدراسة فقه المترجَم.

وأما هذه المقالات فقد شملت تراجم الفقهاء، والمحدِّثين، والمفسِّرين، والوعّاظ، والمتكلِّمين، والمؤرِّخين.. وهي مختصرة نافعة متنوِّعة، وفيها استنباطات مفيدة، وتحليلات دقيقة، وفي بعضها دراسات مستوعبة.

وقد ألحقتُ بهذه التراجم ما كتبه الشيخ حول بعض العلماء المعاصرين من شيوخه وأقرانه، وقد وقفتُ على ثلاث وعشرين ترجمة، أوردتها حسب التسلسل التاريخي لوَفيَات الـمُتَرْجَمين.

وابتدأتها بكلامه عن الشيخ محمد عبده (١٣٢٣هـ) ومنهجه في التفسير، في تقديمه لكتاب الدكتور عبد الله شحاتة رحمه الله تعالى.

ثم ترجمته للعلّامة أحمد تيمور (١٣٤٨هـ) في تقديمه لرسالته: «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية».

---

(١) اختار الأستاذ أبو زهرة من هذه التراجم الثمانية ـ أو اختارت مجلة (العربي) ـ خمسةً من الفقهاء سوى: الصَّادق، وزيد، وابن تيمية.

ثم كلامه عن أساتذته في دار العلوم: محمد عاطف بركات (١٩٢٤م)، وعبد الحكيم محمد (١٩٢٣م)، ومحمد الخضري (١٩٢٧م)، ومحمد المهدي (١٩٢٤م)، وأحمد إبراهيم (١٩٣٥م)، وحسن منصور (١٩٣٢م)، وعبد الوهاب خير الدين، ومحمد عفيفي (١٩٣٦م)... وقد كان كلامُه عن شيوخه في دار العلوم في تقديمه لكتاب تلميذه مصطفى زيد: «المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي»[1].

ثم ترجمة العلّامة الشيخ محمد زاهد الكوثري (١٣٧١هـ)، التي نُشرت في مقدمة «مقالات الكوثري».

ثم ترجمة العالم الحقوقي الدكتور محمد بن عبد العليم صالح (١٣٧٢هـ) التي نُشرت هي وجميع التراجم الآتية على صفحات مجلة «لواء الإسلام» أو أُلقيت في ندوتها الشهرية.

ثم ترجمة قرينه العلّامة الفقيه عبد الوهّاب خلّاف (١٣٧٥هـ)، وكلمته في رثائه في ندوة «لواء الإسلام».

ثم ترجمة العلامة الشيخ عبد الحليم بسيوني (١٣٧٦هـ)، وكلمته في رثائه ورثاء الشيخ سلامة العزَّامي (١٣٧٦هـ) رحمهما الله تعالى في ندوة «لواء الإسلام» أيضاً.

ثم ترجمة صديقه العلّامة المفسِّر الدكتور محمد عبد الله دراز (١٣٧٧هـ).

ثم كلمته عن الأستاذ العلّامة محمد الخضر حسين (١٣٧٧هـ) في ندوة المجلة.

ثم كلمته عن الدكتور عبد الوهّاب عزّام (١٣٧٨هـ) في ندوة المجلة أيضاً.

ثم ترجمة الدكتور منصور فهمي (١٣٧٨هـ)، وكلمته عنه في ندوة المجلة.

---

(١) أما الحواشي الملحقة بتلك المقدِّمة فهي لصاحب رسالة «المصلحة» الدكتور مصطفى زيد رحمه الله تعالى.

ثم ترجمة الدكتور الطبيب حامد الغوابي (١٣٧٩هـ) في مجلة «لواء الإسلام».

ثم كلمته عن الأستاذ الشيخ محمد صبري عابدين (١٣٨٧هـ) في ندوة «لواء الإسلام».

ثم كلمته عن الدكتور مصطفى السباعي (١٣٨٤هـ) في ندوة «لواء الإسلام».

ثم ترجمته لصديقه العالم الأستاذ محمد البنا (١٣٨٩هـ)، وهذه آخر ترجمةٍ وقفتُ عليها مما كتبه الأستاذ أبو زهرة في تراجم بعض العلماء المعاصرين[1]، والذين بلغ عددهم ٢٤ ترجمةً ما بين ترجمةٍ في صفحات أو كلمات يسيرات، ولا شك أنَّ جمعَ هذه التراجم في صعيدٍ واحدٍ كثيرُ الجدوى؛ لأنَّ ترك الأمر إلى الجرائد والمجلات التي تُطْوى بعد انقضاء أيامها تركٌ للتراجم في مَجَاهلَ لا يمكن للباحث ارتيادها إلا بجهدٍ جهيد، ولهذا استحسنتُ جَمْعَ هذه التراجم في صعيدٍ واحدٍ؛ ليسهل الإلمام بها، وليُعرَف رأيُ العلّامة أبي زهرة في بعض المعاصرين لما في كلامه من معرفة بمراتب الرجال وتجرُّدٍ عن الهوى والشنآن.

ثم إنّ ثناء مثل الشيخ أبي زهرة على بعض العلماء الذين عرفهم واتَّصل بهم، له أثره في إنزال هؤلاء العلماء منزلتهم، فثناؤه ثناء العارف البصير الذي يعرف منازل العلماء بخلاف من يتكلَّم فيهم بهوى وعصبيّة وهو ليس أهلاً لأن يُقبل كلامه في ثناء أو ذمّ.

وكلام الأستاذ أبي زهرة عن شيوخه ومعاصريه، بل ثناؤه على تلاميذه؛ من أخلاق الوفاء ودلائل الإنصاف التي اتَّسم بها.

---

(١) ثم وقفت على تقدمته لكتاب «بين العقيدة والقيادة» للواء الركن محمود شيت خطاب (١٤١٩هـ) وكلمته عن صداقته وصلته به، وصفاته وخصائصه، فألحقتها في آخر التراجم، وبذلك يبلغ عدد المعاصرين الذين ترجم لهم أو تكلم عنهم ٢٤ ترجمة.

وما أصدقَ كلمة العلّامة الكوثري في أهمية تقدير الرجال وإنصافهم فيما قاله في تقديمه لكتاب «الأعلام الشرقية» ١:٥-٦ : «فالقائمُ بتراجم أناسٍ قد انطوت صفحات حياتهم، وفاتهم إمكانُ الدفاع عن أنفسهم، لدخولهم في ذمّة التاريخ؛ يكون نائباً عنهم في إنصافهم بدون استرسال في مدح أو قدح يبعد عن الاتّجاه الأسمى في تدوين التاريخ، والمؤرِّخ مُلْزَمٌ بحكاية الواقع كما هو من غير أن يسعى في إبراز السيئة بمظهر الحسنة، أو بَخْس حقِّ الجميل بحَمْله على غرض غير مقبول...».

هذا ولم يقتصر عملي في هذا الكتاب على الجمْع والترتيب والتَّصحيح والتَّنسيق، بل قمت بوضع العناوين الجانبية[1]، وخرَّجت الأحاديث القليلة الواردة، كما علَّقت بعض التعليقات النافعة الطويلة كما في ندم الإمام مالك عن التَّحديث ببعض الأحاديث ص٥٩، وتصحيح ما نسبه إلى الإمام ابن جرير في تفسير الاستواء ص١٤٩، وما أورد من حديثٍ لا يصحّ ص٢٥٠، وما نُسِبَ إلى الحسن البصري في مرتكب الكبيرة ص١٩١، وما نسبه إلى البخاري من اشتراط الملازمة عمَّن يَروي عنه ص١١١و١١٦، وما نسبه أيضاً إلى مسلم من اشتراط اللقاء ص١١١، وتقديم بعض العلماء لسُنن أبي داود على الصحيحين ص١١٨، واستدلاله بحديث «العلم يماني» على ظهور العلماء الأفذاذ في أرض فارس وخراسان ص١٢١. وقد تركتُ تعليقاتي دون ذكر اسمي في آخرها، وما كان من حواشٍ بقلم الشيخ أبي زهرة فقد ميّزته بذكر كنيته (أبو زهرة).

وقد استحسنتُ أن أُورد في مقدِّمة التراجم التي دبجتْها يراع الأستاذ أبي زهرة ترجمةً له، كتبها تلميذه الوفي الدكتور عدنان زرزور في ركن «رجل فقدناه» من مجلة

(١) في ترجمة أبي زهرة الملحقة بعد هذه المقدمة، وفي سائر المقالات، وأبقيت أكثر العناوين الفرعيّة المنشورة في مجلة (العربي) الكويتية، والتي كانت من اجتهاد المجلة.

«حضارة الإسلام» الدمشقيّة[1]، لما تَتميَّز به هذه الترجمة ـ وكل ما كتبه الدكتور عدنان من تراجم كثيرٍ من المعاصرين ـ من استيعاب وشمول وإنصاف ودقّة تحليل وجمال أسلوب.

وأسأل الله عزَّ وجل أن ينفع بجهدي ويتقبَّله منّي، ويُوفِّقني للعمل الصالح الذي يُرضيه عني، ويُحسن خاتمتي، ويتولاني في جميع أموري، ويجزي عني والديَّ خير الجزاء[2]، ويغفر لهما، ويرحمهما كما ربّياني وتعهَّداني صغيراً، وأن يجعل ما أقوم به من علم نافع وعمل صالح في صحيفة حسناتهما؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيبٌ قريب، وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وكتبه

الخميس ١ ربيع الأول ١٤٣٠هـ

---

(١) وهذه الترجمة التي سأوردها بعد قليل من مجلة «حضارة الإسلام» وعشراتٌ أمثالها قد جمعتُها ورتَّبتها وصحَّحتها، وعلَّقت عليها، وأضفت إليها مجموعة من التراجم، وستصدر ـ بعون الله تعالى ـ قريباً في مجلد كبير بعنوان: «رجال فقدناهم».

(٢) تُوفي والدي في حادث سيارة على طريق دمشق عن ثمانية وأربعين عاماً في يوم الاثنين ٢٢ ذي الحجة ١٣٩٩هـ، رحمه الله وغفر له وعوَّضه عن شبابه الجنة، وتُوفيت الوالدة الكريمة الفاضلة أثناء عملي في هذا الكتاب ومراجعتي له في يوم الثلاثاء ١٥ صفر ١٤٣٠هـ، وأنا بعيد عنها في دار الغربة. رحمهما الله تعالى وأغدق على قبريهما شآبيب مغفرته ورحمته ورضوانه.

الأستاذ العلّامة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله(١)

(١٣١٦-١٣٩٤هـ = ١٨٩٨-١٩٧٤م)

بقلم: الدكتور عدنان زرزور

نَعْيُ العلّامة الشيخ أبي زهرة بين التصديق والشك:

نَعَتْ أنباء القاهرة في الشهر الماضي فضيلة الأستاذ الشيخ أبي زهرة عن ثمانية وسبعين عاماً قضاها أستاذنا الراحل ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ في التأليف والتدريس والجهاد والمصابرة، والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين...

وقد حملني نبأ وفاته إلى أيام سعدتُ فيها بلقاء الشيخ والإفادة منه والتردُّد عليه... وإلى آرائه التي سمعتها منه، ومواقفه التي شهدته فيها ـ عَلِمَ الله ـ أسداً يذودُ عن حياض الإسلام ودعاته، ويتردَّد فيها صوتُه قوياً مُجَلجلاً يوم خانت كثيراً من الناس الحناجر، وهَلَعت منهم القلوب... وماتت الضمائر!

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، العدد الثالث من السنة الخامسة عشرة: ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

التطواف في صفحات التاريخ:

لَشدَّ ما آلمني أن يصل نبأ وفاته إلى سمعي على مراحل! بين مُصَدِّق للخبر ومُـتأكِّد منه، وبين شاكٍّ فيه مُـتَرَدِّد في مصدر سماعه! ولا يتأكد الخبر حتى يكون ذهني قد طوَّف بصفحات التاريخ... تاريخنا نحن الذي اعتاد فيه مُؤرِّخونا أن يؤرخوا لكلِّ سنة بعينها، ويُوردوا أهم ما حدث في تلك السنة... ألم يعتادوا أن يذكروا طرفاً من التاريخ السياسي وأنباء الملوك والمعارك... ثم يضمُّوا إليها أنباء الكوارث والزلازل وأهم أحداث الطبيعة... وأخيراً يختمون حديثهم عن «العلماء» الذين لقوا وَجْهَ ربِّهم في تلك السنة، مع ذكر طرف من سيرتهم وأخبارهم...

وعيُ المؤرِّخين القدامى:

صَحَوْتُ على خبر وفاة أستاذنا رحمه الله، والعالَـمُ من حولنا اليوم قد صغّرته وسائل الإعلام حتى صار كالبلد الواحد... لأذكر مؤرخينا القدامى رحمهم الله، بوعيهم الشامل، وحسِّهم في قراءة صورة المجتمع والعوامل الأساسية التي تؤثِّر في مَـجْراه... ولأذكر أنَّ عالمنا الصغير لم تتَّسع صُحفه وإذاعاته ـ في بلاد العروبة والإسلام ـ لما تـتَّسع له في العادة من أنباء وفاة الساسة والفنانين وسائر «الممثلين» من أبناء الشرق والغرب، البعيد والقريب.

الأموات لا يكسبون من هذا الإعلان ولا يخسرون... ولكننا نحن الذين نخسر احترامنا لأنفسنا حين لا نأبه ولا نبكي للذين تركوا لنا من ورائهم ما يُحيون به هذه النفوس! وفقيدُنا الجليل الكبير أبو زهرة رحمه الله واحدٌ من هؤلاء.

خواطر وذكريات عن أبي زهرة:

ليست هذه كلمة في أبي زهرة «العالم» المؤلف... ولا في «منهجه» في التأليف والكتابة والتدريس... ولا في أبي زهرة رجل مصر في بعض الأيام... فلذلك موضعٌ

آخر غير هذا الموضع، وقد حدَّثني مرة أن من جملة ما شغله في ذلك اليوم الذي رأيته فيه بعد مغيب شمسه: الكتابة إلى طالب أو باحث مسلم ـ وإن كان غير عربي فيما أذكر ـ كان يعدُّ رسالة «دكتوراه» في إحدى الجامعات عن الشيخ أبي زهرة نفسه، أو بحسب تعبيره هو رحمه الله: «موضوعها أنا»، وكان قد كتب إليه يستوضحه ويسأله عن بعض النقاط فيما يتصل بحياته ومنهجه ورأيه في بعض المشكلات... ويومها انتظر جوابي عن هذه «الظاهرة» في إعداد الرسائل الجامعية والكتابة عن مناهج المؤلفين فاكتفيتُ بالإشارة إلى أن هذا يتيح للباحث فرصة «التأكد» من صحَّة الفهم، وجواز نسبة بعض الفهوم والتفسيرات إلى الرجل موضوع البحث.. تحدَّثت عن الجانب الإيجابي في هذه القضية.. وأخفيتُ في نفسي ملاحظات سلبية أخرى.. ولكن الذي بقي ماثلاً في ذهني طيلة تلك الأمسية: الموت!... وكنت أتفرَّس في عيني الشيخ وكأنهما عينا عقابٍ هرم أو أسدٍ أسير... تشعَّان بالذكاء والحيويّة والعزم حتى حين بدأ النعاس يدبُّ في أجفانه على أشعة النور المبهر!.. ثم أقول في نفسي: مدّ الله في عمر هذا الرجل حتى يرى آمالاً أخرى له قد تحقَّقت.. وحتى يزيد المكتبة الإسلامية من عطائه الثر الثمين.

محاولة قراءة شخصية أبي زهرة:

ليست هذه الكلمة ـ إذن ـ في علم أبي زهرة ومعارفه... لأنَّ هذا يكتب فيه وسيكتب فيه ـ على نحو علمي ـ الشيء الكثير... ولكنها أقرب ما تكون إلى الخواطر والذكريات.. وإلى محاولة «قراءة» شخصيّـة هذا العالم الفذ، والوقوف على مفتاح هذه الشخصية التي يفسِّر لنا ما وراء المواقف والآراء.. وإن كان هذا لا يعفينا من الإشارة إلى كتبه ومكانته العلمية، وبعض ما كان يعتزُّ به من مؤلفاته وآرائه، كما سمعت ذلك منه رحمه الله.

لمحات من حياته:

ولد الأستاذ أبو زهرة سنة ١٣١٦هـ، وحصل على «عالمية القضاء الشرعي مع درجة أستاذ» سنة ١٣٤٣هـ كما حَصَل على معادلة «دار العلوم»، واشتغل بالتدريس في هذه الدار وفي كلية أصول الدين بالأزهر، ثم في كلية الحقوق بجامعة القاهرة ـ التي كانت تُدعى بجامعة فؤاد الأول ـ ولم ينقطع خلال ذلك عن المحاضرات والندوات العامة، وكان بعد إحالته على المعاش يحاضر في بعض المعاهد الخاصَّة، وبخاصّة معهد الدراسات الإسلامية الذي أسَّسه مع الدكتور العربي رحمه الله وبعض رجالات مصر، وكان يحاضر فيه بدون أجر... هذا إلى جانب اشتراكه في بعض لجان المجلس الأعلى للعلوم والآداب والفنون ولجان أخرى كثيرة كان فيها فارس الميدان حتى عُدَّ بمزاياه التي سنشير إلى بعضها فيما بعد من أكبر رجالات المؤتمرات والندوات في مصر والعالم الإسلامي..

إشرافه على عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه:

وتكفينا الإشارة إلى عشرات رسائل «الماجستير والدكتوراه» التي أشرف على إعدادها أو ترأس لجان مناقشتها في الفقه والقانون والتفسير والحديث وعلم الكلام وسائر فروع الثقافة العربية الإسلامية... في كليات الآداب والحقوق والشريعة وأصول الدين في جامعة القاهرة وعين شمس والأزهر والإسكندرية وغيرها من الجامعات العربية.

أثر مدرسة القضاء الشرعي:

ويمكن القول إن الأثر الأكبر في شخصية أبي زهرة العلمية وشغفه الذي لا حدّ له بالمعرفة والمطالعة والتأليف يعود إلى مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأتها الحكومة

المصرية أصلاً لما رغبت في إصلاح القضاء الشرعي ولم تستطع أن تعول في ذلك على علماء الأزهر ـ كما قال الشيخ المراغي رحمه الله ـ كما نشأت من قبل مدرسة دار العلوم أيام علي مبارك باشا لما أرادت أن تأخذ من الأزهر علماء للتعليم ـ أو مدرسين ـ فلم تجد بغيتها في الأزهر في ذلك الحين لأن طريقته في التعليم يومذاك لم تكن تلائم حالة النشء، كما ذكر ذلك الشيخ المراغي أيضاً..

عاطف بك بركات:

ويبدو أن مدرسة القضاء الشرعي هذه كانت شامخة في مناهجها وأساليبها، وفي شخصية «ناظرها» العالم المربي عاطف بك بركات الذي كان يثني عليه خريجو هذه المدرسة العليا... وقد بكاه أحمد أمين ـ خريج هذه المدرسة ـ طويلاً عندما توفي رحمه الله سنة ١٩٢٥م، أي بُعيد تخرج أبي زهرة في هذه المدرسة بنحو سنتين، وكان عاطف بركات بعد أن أقصي عن هذه المدرسة قد تفرَّغ للسياسة وانضمَّ إلى «الوفد»، وعُيِّن وكيلاً لوزارة المعارف.. وربما كان أبو زهرة رحمه الله لم يتتلمذ عليه ـ وإن كنت قد سمعته يثني عليه ويذكره بخير(١) ـ إلا أنَّ الجوَّ الذي تركه في المدرسة والطابع الذي طبعها به بقي ملازماً لها.. علماً وسياسة كذلك. ولعلَّ تأثر أبي زهرة بالوفد وإعجابه الشديد بسعد زغلول يعودُ من بعض وجوهه إلى هذا المعهد الذي كان يعدُّ صنيعةً من صنيعات سعد، وعملاً من أعماله الجليلة... وكان عاطف بركات نفسه من أقرباء سعد، ومن أقرب المقرَّبين إليه.

كتبه في فروع الثقافة الإسلامية:

شُغف أستاذنا رحمه الله بالدرس والتأليف، وخلَّف للمكتبة العربية الإسلامية أكثر من أربعين كتاباً في فروع الثقافة الإسلامية. وبخاصّة الفقه والقانون. نذكر له في

---

(١) ينظر ثناؤه عليه في مقالته في هذا الكتاب: ذكرى أساتذتي بدار العلوم ص٣١٠. (م).

الكلام والأديان: «تاريخ الجدل في الإسلام»، «محاضرات في النصرانية»، «مقارنات الأديان»، «المذاهب الإسلامية» في السياسة والعقائد.

وله في الاجتماع ونظام الإسلام: «تنظيم الإسلام للمجتمع»، «العلاقات الدولية في الإسلام»، «المجتمع الإنساني في ظل الإسلام»، «الوحدة الإسلامية».

ومن كتبه في الفقه والقانون: «أصول الفقه»، «الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي»، «الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية»، «الأحوال الشخصية»، «شرح قانون الوصية»، و«محاضرات في عقد الزواج وآثاره»، و«الميراث عند الجعفرية»، وفي «مصادر الفقه الإسلامي»، وفي «تاريخ المذاهب الفقهية» وفي «الأوقاف»، وبعض هذه الكتب يقع في أكثر من مجلد. وغيرها كثيرٌ عدا عن سلسلته الذهبية القيمة عن الأئمة المجتهدين وعصرهم وآرائهم وفقههم، كتب رحمه الله عن «الشافعي، ومالك، وأحمد، وأبي حنيفة، وابن تيمية، والإمام زيد، وابن حزم، والإمام الصَّادق..»، وخصَّ كل واحد من هؤلاء الأئمة بكتاب كبير.

وكان رحمه الله ينشر تفسيراً للقرآن يُعِدُّه تِبَاعاً لمجلة «لواء الإسلام» المصرية، وقد جاوز فيه نصف القرآن الكريم[1]، وقد أودع تفسيره هذا كثيراً من معارفه ومعارف العصر العامّة، وبخاصّة في المسائل الاجتماعية والسياسية وأصول الديانات،

(١) انتهى فيه إلى الآية ٥٤ من سورة الأنعام، ثم حيل بينه وبين نشر تفسيره على صفحات المجلة، قال الشيخ أبو زهرة في مقدمة «تفسيره» ١: ٢٢: «وكانت مجلة «لواء الإسلام» تنشر في كل عدد منها تفسيراً للقرآن، وكان يتولاه الرجل المؤمن العارف بالله الشيخ الخضر الحسين، وواصل تفسيره حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ووقف عند هذه الآية، وطلب مني أن أتمم ما بدأ، وأيده صاحب المجلة فيما طلب، فتوليت كتابة التفسير من هذه الآية راغباً دائباً، واستمررت في هذا العمل إلى أن مُنعت من التفسير ومن غيره بأمر طاغوتي بمن كان يحكم مصر إبان ذلك..».

وكان ينظر فيه إلى تفسير الزمخشري، وينحو فيه نَحْوَ السيد الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد عبده رحمهما الله، مع رعاية اختلاف العصر، واختلاف النظرة إلى نظام الإسلام والحضارة الغربية[١].

وقد ودَّعتُه ـ رحمه الله ـ في داره بضاحية الزيتون بالقاهرة قبل خمس سنوات، وقد بدأ بوضع كتابٍ في سيرة المصطفى ﷺ، والراجح أن يكون قد فرَغَ من وضعه منذ أمدٍ ليس بالقصير[٢].

مقالاته وبحوثه:

هذا.. عدا مئات المقالات التي كان يمدُّ بها كثيراً من المجلات الإسلامية في مصر وخارج مصر، والأبحاث التي كان يعدها للمؤتمرات والمجامع العلمية كبحثه القيم في «القضاء الإداري في الإسلام» ـ الذي نشرتْه هذه المجلة[٣] في عامها الأول ـ وبحثه في «ولاية المظالم في الإسلام»، وغيرهما كثير.

شدَّة اعتزازه بكتابه عن الإمام الشافعي:

ولا بدَّ لنا هنا من الإشارة العابرة إلى أنه كان شديد الاعتزاز، من سلسلته الفقهية السابقة، بكتابه عن الإمام الشافعي، الذي أعطاه حقَّه من التَّمحيص والتحرِّي

---

(١) ابتدأ بكتابة الجزء الذي كتبه الإمام الخضر، ليكون التفسير كله نسقاً واحداً، وانتهى إلى تفسير الآية ٧٣ من سورة النمل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وسقط ساجداً على أوراق التفسير، وفاضت روحه الكريمة عند أذان ظهر الجمعة في العاشر من رمضان ١٣٩٤ الموافق ١٢/ ٤/ ١٩٧٤. وقد صَدَرَ ما كتبه من التفسير كاملاً باسم «زهرة التفاسير» في أجزاء متتابعة، ثم جمع في عشر مجلدات، طبعته دار الفكر العربي بالقاهرة، بدون تاريخ، في حدود سنة ١٤٢٥.

(٢) صدر عن دار الفكر العربي في مجلدين بعنوان: «خاتم النبيين».

(٣) يعني بها مجلة حضارة الإسلام التي نُقلت منها مقالة الدكتور زرزور هذه.

والتدقيق... وسبب ذلك ـ كما حدَّثني مرةً رحمه الله ـ أنه وضع هذا الكتاب وهو على عتبة التَّـرقِّي إلى درجة أستاذ مساعد في كلية الحقوق، وكانت المنافسة بينه وبين سلفه الشيخ علي الخفيف ـ خريج مدرسة القضاء الشرعي أيضاً ـ على أشُدِّها، وإن كان أستاذنا رحمه الله يختار لهذه «المنافسة» اسماً آخر بطبيعة الحال، فكان كتابه الذي جاء فاتحة تلك السلسلة مثالاً يُـحْتذى ويُشَار إليه.

منهجه في الكتابة عن أعلام الاجتهاد في الإسلام:

وأمر آخر يتصل بهذه السلسلة، وهو أنَّ المؤلف رحمه الله يرى أنّ هذا النهج في الكتابة عن أعلام الاجتهاد في الإسلام لم يُسْبَق إليه، وبخاصّة كلامه عن «عصر» كل مجتهد... ولم يُبْدِ مرةً اعتراضه على ما بَدَر مني من رأيٍ حول «القَدْر» الذي يُـكتب عادة عن «عصر» مؤلفٍ أو إمامٍ موضوعِ دراسةٍ وبحث... وهو «القدر الذي يلقي ضوءاً على حياة المؤلف ويُمهد لفهم آرائه واجتهاداته فيما اشتهر فيه... ويضعه ـ من ثم ـ في موضعه بين من شاركوه في هذا المجال...» وإن كان من غير اللازم أن يكون شيخنا رحمه الله قد التزم في كتبه هذا القدر.

«محاضرات في النصرانية»:

أما كتابه الذي لم يكن يُـخْفي اعتزازه به حتى في بعض المجالس العامة، والذي كان يحب أن يلقى وَجْهَ ربه وأنه هو الذي كتب هذا الكتاب، فهو «محاضرات في النصرانية». ومَن اطّلع على هذا الكتاب علم ما كان يقول الشيخ رحمه الله... وقد وَجَده إن شاء الله بين يدي عليم خبير.

عميد الفقهاء ومجتهد العصر:

مات عميدُ الفقهاء.. ومجتهد العصر، فبماذا أصفه؟ ومن أين أبدأ الكلام على شخصيته المحبَّبة المتعدِّدة الجوانب؟

كان أبو زهرة أشبه الناس بالإمام الغزالي رحمه الله: بلاغةَ قول، وإخلاصَ حديث، وغزارةَ عبارة، وقوةَ حجة... فهل كان أبو زهرة غزالي العصر؟!

غزالي العصر:

كان في قوة دماغه واعتزازه بعلمه كالإمام الغزالي رحمه الله.. ولكنّ شيئاً من طبيعة «الأسد» كان يبدو في تناوله لمنهاج المعرفة ومسائل العلم.. كان يتناولها بقوة ويقضي فيها برجولة وسرعة. فهل كان ذلك على حساب «الثقة» والتعمُّق في الفهم والتحليل؟ ما أظن ذلك.. ولكن الذي لا شك فيه ـ فيما يبدو ـ أن عبارته في التعبير عن معنى من المعاني أو فكرة من الأفكار قد تطول بعض الشيء، وربما صَاحَبَها قليل من التكرار والدوران وبألفاظ جَزْلة فخمة.. ولكنه كان يصل إلى ما يريد من أداء المعاني الدقيقة والآراء الاجتهادية المعقدة.

الكلمة عند الأستاذ أبي زهرة:

ويمكننا القول: إنّ «الجملة» أو «الكلمة» عند أستاذنا الكبير رحمه الله أداة يقع عليها «طبعه» وفحولته فخمة جزلة... وتقع عليها «إرادته» وثقافته بسرعة للتعبير عن المعنى الذي يريد طال الكلام أو قصر... ويبدو الكلام طويلاً حيث يجب في مثل موضوعه الدقة والاحتراز.

الكلمة عند الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا:

وإذا جاز لنا أن نتَّخذ من «الكلمة» معياراً نقيس به اختلاف مَنْ تتلمذنا عليهم من رجال الفقه والتشريع ـ على اختلافهم في الإصابة من قضايا الأمة والمجتمع ـ فالكلمة عند أستاذنا الجليل الشيخ مصطفى الزرقا حفظه الله «حد» من حدود المنطق، وقَيْدٌ أو احتراس من قيود المعاهدات والمواثيق!.. يبحث عنها الأستاذ الزرقا بدأب، ويختارها بعناية، ويضعها في موضعها الذي خُلقت له غير نافرة ولا قلقة!

الكلمة عند الأستاذ السباعي:

وهي عند أستاذنا الداعية المجاهد مصطفى السباعي رحمه الله «كائنٌ عضويٌّ» ينبضُ بالحياة، ويضجُّ بحركة الروح والأعضاء!.. تمسُّ قلب القارئ، وتُحرِّك فيه كوامن الفكر والأدب والشعور... ولذلك فهي أقوى ما تكون وأفعل ما تكون حين يُعبَّر بها عن «فلسفة» النظام، لا عن نظام الفلسفة، وعن حكمة الإرث لا عن الأنصاف والأرباع والأسداس.. وعن قواعد الإسلام في بناء الأسرة وموضوع المرأة لا عن الأهلية والوصية وتوزيع التركات!

قدرة الأستاذ أبي زهرة على الخطابة في الفقه والقانون:

وإذا كانت الكلمة عند أستاذنا العلّامة الشيخ أبي زهرة ما قدَّمت.. فإن ذلك يفسِّر قدرته الفائقة على أن «يخطب» في «الفقه» والقانون.. وأن يردَّ اعتراضات المعترضين في الندوات والمحاضرات ومناقشات الرسائل الجامعية... وأن يكون في مقدمة رجال المحافل العلمية العالمية... يساعده في ذلك ذاكرة قوية، وبديهة حاضرة، واطِّلاع واسع، وقدرة عجيبة على التوليد والابتكار... وصوت قويٌّ مـُجَلْجِـل ينطلق من أعماق القلب والعقل جميعاً... إلى جانب ما عُرِفَ عنه رحمه الله من روح محبّبة، ونفس مَرحة، وطبع أصيل يسعفه بالإشارة الموحية، و«القفشة» الحاضرة!

وربما كانت حصيلة كتابات أستاذنا رحمه الله في مجال فقه الدعوة قليلة... أو دون من فرَّغوا أنفسهم لهذا الحقل، وأتوا فيه بالروائع والدقائق... ولكن يبقى أسلوب الشيخ أبي زهرة ـ بفحولته وجزالته وصدق صاحبه ـ يُصوِّر للقارئ أنَّ وراءه الشيء الكثير.

مفتاح شخصيته: الكرامة والعزة:

أما عزّة الرجل وكرامته وصلابته في الحقِّ فلم أجد لها مثيلاً فيمن عرفت من مشايخ مصر، وفيمن رأيت من علمائها... بل لعل مفتاح شخصيته الفذة يكمن في «الكرامة» أو

الرفض! رفض أن يبيع آخرته بدنياه... ورفض أن يسبقه أحدٌ أو يتقـدَّم عليه... ورفض أن يُهـزم في حوار أو جدال... ورفض أن يقول للظالـم: يا عادل... بل رفض أن يسكت عن الظلم... ورفض أن يأخذ على محاضراته العامة الكثيرة أجراً من المال... بل رفض الاعتذار عن إلقاء محاضرة وهو في غاية التعب والإرهاق.. وقد شهدتُ ذلك بنفسي أكثر من مرة، وبخاصّة مع طلاب كلية الهندسة وكلية التجارة بجامعة عين شمس، وكان طلاب هاتين الكليتين يحبُّونه حباً جماً، ولا يتركون مناسبةً إلا ويقومون بدعوته لإلقاء محاضرة عندهم... ولم يكن يتخلَّف، ولم يكن يجبن عن أن يقول كلمة الحق...

بل رفض الشيخ رحمه الله أن «يكون» شيخاً للأزهر، وليس في مصرَ رجلٌ أحقَّ منه بهذا المنصب! أقول: رفض، ولا أعني أنَّ المنصب عُرض عليه فأبى... بل أعني ما هو أبعد دلالة في شخصيَّته على مبدأ الرفض: لقد أبى أن يضع نفسه بحيث يُرى ويُدعى!... ولم يكن أبو زهرة يجهل شروط هذه الرؤية في تلك الأيام، ولكن نفسه ـ شهد الله ـ كانت تشمئز من مجرَّد تصوُّر هذه الشروط وسماعها، فضلاً عن قبولها والسعي إليها!

كرامة ليست فوقها كرامة، وعزة ليس وراءها عزة... ورفضٌ مطلق لإعطاء الدنيّـة في أيِّ مجال من مجالات الأخذ والعطاء...

فحولةٌ في القول، ورجولةٌ في العمل، وبطولةٌ في المواقف، وكرامةٌ وسَبْقٌ في جميع شؤون الحياة. هذه هي شخصيّـة فقيد الإسلام والمسلمين أستاذنا الشيخ محمد أبي زهرة كما عرفته وعرفه تلامذته ومُحبّوه، رحمه الله وجزاه عن دينه وعباده أفضل الجزاء.

حبُّه لسعد زغلول وتأثُّره به:

هذه النفس المنطوية على العبقرية والبطولة كانت تُـحبُّ الأبطال.. وقد انطبع في نفسه وهو غلام حَدَث يجري وراء عربة سعد زغلول ويسعى إلى النظر إليه... ثم وهو شاب يستمع إليه بكلِّ جوارحه وهو يخطب ـ وكان من الخطباء القلائل في تاريخ مصر

الحديث ـ انطبع في نفسه صورة هذا الزعيم فأحبَّه وتأثَّر به، وبقي على ذلك ـ لما جُبلت عليه نفسه من الصلابة والوفاء ـ حتى آخر يوم في حياته.. ومـمَّـا أكد ذلك في نفسه الصور التي كانت تجري على مسرح الحياة في مصر في تلك الأيام... وكان لا يمل من تذكر صورة سعد يوم أطلق عليه النار في محطة باب الحديد.. وكيف تحامل الرجل على نفسه ودمه ينزف ليصعد على منبر الخطابة لحظات يقول فيها: يعزُّ عليَّ أن أرى منبر الخطابة ولا أخطب! وميدان الكلام ولا أتكلم... ثم يعلن العفو عن خصمه الذي لم يُرد في نفسه لمصر إلا الخير!.. ثم يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله: أين هذا من حديث العجل؟

ومـمَّـا يكمل صورة نفس الشيخ رحمه الله في هذا الجانب تريُّثه ـ وربما تردُّده ـ في رفع بعض الناس إلى هذا المقام في نفسه، حتى يأتي أمر يعطيه «رؤية» جديدة ما كان له أن يقف على أبعادها لولا ذلك الأمر «الجوهري» الطارئ...

دخلتُ عليه مرة وقد ضُيِّـق عليه.. وحُجر على كتابه القيِّم «محاضرات في النصرانية» فهالني أمر الكتاب الذي مضى على وضعه بين أيدي الطلاب والباحثين أكثر من خمسة عشر عاماً ـ في ذلك الوقت ـ فقال: نعم... النصارى الأوروبيون يترجمون هذا الكتاب إلى أكثر من لغة ويدرسونه ويناقشونه.. ومُتنصِّرتنا يفعلون ما سمعت... هل تظنُّنا في دار حرب؟! ما أظنُّ الأمر يا بنيَّ إلا كذلك... وما أخالُ صاحبكم إلا واحداً من كرام الشُّهداء عند الله... إنه ولدنا فلان رحمه الله[(١)]... وكان شريطٌ مُـمْتد ثَـبَّت فيه أستاذنا الجليل رحمه الله كثيراً من الصُّور والمواقف.

ذكريات وصور:

الذكريات عن أستاذنا الراحل تملأُ الذاكرة... والصُّور تزحم الخيال... وهذه مجرَّد كلمة ندخل بها إلى ساحة نفسه الرَّحْبة... وعقله الواسع... ومواهبه الخِصْبة المتنوِّعة،

---

(١) يشير إلى الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى.

ولسوف يُكتب عن الرجل رحمه الله ـ فوق الدراسات العلمية الجامعية ـ عن أبي زهرة «المربِّي، والداعية، والأب، والصديق، والسياسي، والأديب، والخطيب» إلخ.. ونرجو أن نسهم في هذا المجال في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

عزمه على وضع كتابٍ في السيرة:

في أوائل عام ١٩٦٩م، وفي جلسة ممتدة في بيته الهادئ الرزين.. حدَّثني عن عزمه على وضع كتاب في السيرة النبوية الكريمة... وعرض لِطَرَف من مخطط الموضوع في ذهنه، والقضايا «الجديدة» التي لا بدَّ من إثارتها بين يدي كتابة السيرة، أو في التعقيب على بعض المواقف... وشعرتُ أنه يحبُّ أن أشترك في الحديث.. فأشرت إلى أن تلك القضايا قد كتب فيها «العقاد» في كتابه «مطلع النور» وفي بعض كتبه الأخرى، كما كتب في بعض المواقف الأخرى كُتّاب آخرون... فقال: إنه سيطلع على هذه الكتب قبل أن يبدأ بالكتابة.. وأذكر أنني وقفت عند بعض النقاط التي جدّ فيها من القول ما لا بدَّ لأبي زهرة بالذات من مناقشته والردِّ عليه.. كالحديث عن حياة النبي ﷺ الروحيَّة ونحو ذلك، وأشرتُ إلى من تولَّى كِبْرَ هذه الأمور من الكتّاب والمترجمين...

من عالم التَّبعات والحقوق إلى عالم السؤال والملكوت:

وكانت جلسة ممتدة عهد إليَّ الشيخ في نهايتها بإحضار هذه الكتب، وكل كتاب أُقدّر ضرورته أو أنَّ الشيخ لم يطّلع عليه! ولم يكن التقدير في اليوم التالي سهلاً، ولكنه جاء بحمد الله صحيحاً.. وحضرت صلاة العشاء، ففاجأني رحمه الله بحرصه على أن يعطيني ثمن ما اشتريت له قبل أن نُـؤَدِّي الصلاة... وقال بعد أن نادى على خادمه لِيُحضر المبلغ.. «أحسن بكره يموت الشيخ أبو زهرة... فتُدعى للصلاة عليه، فتقول: لا... إنَّ لي في ذمَّته مالاً لم يدفعه بعد!» وضحك ضحكته المشهورة بعد أن نقلني من

عالم التَّبِعَات والحقوق.. إلى عالم السؤال والـمَلكوت!... وتصوَّرت الخسارة والـخَطْب اللذين سيحلان من غيابه عن الساحة... ثم غاب رحمه الله ولم أكن في مصر ليكون لي ثواب الصلاة عليه وتشييعه... ولكنني هنا مع سائر تلامذته ومُـحبِّيه ندعو له كلما قرأنا كتاباً من كتبه، وذكرنا موقفاً من مواقفه... أو ذكَّرتنا الأيام والخطوب بالثغرة التي كان يقف عليها في دنيا الإسلام والمسلمين.

عمل ودأب وجهاد حتى آخر دقيقة:

وبعد، فهذه لمحة عن حياة الفقيد الجليل رحمه الله.. الذي أخذ من دنياه الكثير، وأعطاها الكثير. جاء خبـرُ نعيه وجمهورٌ غفير ينتظر حضوره في القاهرة لإلقاء محاضرة عامة كان قد أُعلن عنها في وقت سابق... عملٌ ودأب وجهاد حتى آخر دقيقة... وَوَقف الجمهور يتقبَّل في الشيخ العزاء بعد أن تحوَّل اجتماعهم إلى مأتم وعزاء.

آخر كلماته المكتوبة:

أما آخر كلماته المكتوبة فهي: «وأحسبُ في حياتي كلِّها أنَّ الله كان معي مع كثرة الذين يرومون بي السوء، وما خيَّب الله لي أملاً ولا رجاء. وكنت أُضطهد في العهود السابقة، فكلما اشتدَّ الكرب عليّ جاءني الفرج من حيث لا أحتسب».

«وإني أقول نصيحتي لأبنائي الذين أنعم الله عليّ بأنهم تخرجوا على يدي: كونوا يا بَنيَّ مع الحق دائماً، وأخلصوا لله دائماً، ولا تمالقوا أحداً في حق، ولا تكونوا على ضعيف أبداً».

وتلك هي علامة الإيمان والقَبول إن شاء الله... على القنطرة التي وصلت في آخر أيامه عالم الغيب بعالم الشهادة.

في صفحات التاريخ:

سيكتب المؤرّخ: في العاشر من رمضان سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف اقتحم جنود مصر قناة السويس، وسَقَطت تحت أقدامهم تحصينات العدو... وحناجرهم تُردِّد بصوت واحد: الله أكبر. ثم دخل عام أربع وتسعين وفيه تمَّ تحرير مدن القناة، ورُدّ العدو إلى داخل سيناء... وفيه تُوفِّي الفقيه العلّامة الشيخ محمد أبو زهرة وقد مُحيت من نفسه بعض الأحزان. وكان رحمه الله عالماً فاضلاً مُصنِّفاً كبير النفس، عالي الهمة، صادعاً بالحق، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لم يُعط الدنيّـة من دينه ولا من علمه وكرامته. وقد حزن الناس لموته حزناً شديداً، ورثاه غير واحد من الخلق داخل مصر وخارجها، رحمه الله رحمة واسعة وعوّض المسلمين خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

نعم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله.

* * *

تراجم الفقهاء

أبو حنيفة[1]

(٨٠-١٥٠هـ)

الإمام المستقل الذي عاش من تجاربه ورفض وظائف الدولة

كان الداخلُ إلى مسجدِ الكوفةِ في الربعِ الثاني من القرنِ الثاني الهجري يجدُ رجلاً هو رَبْعة من الرجال، لا هوَ بالطويلِ ولا بالقصير، فيه سُمْرة، وعليه بِزَّةٌ حسنة، قد عُنِيَ بثيابِه وتنسيقها عنايةً واضحة، فيه سِمةُ العلماء، وفيه تقوى المؤمنين، وله نظراتٌ فاحصةٌ في الأشخاصِ وفي الأشياء، كأنها نظراتُ تاجرٍ يَصْفِق في الأسواق، ويسْتَشِفُّ الرَّغَباتِ من الوجوه، ويتعرَّفُ القلوبَ من نظراتِ أصحابها، وقد جلسَ حولَهُ ثلاثونَ أو يزيدون يعرضُ عليهم مسائلَ الفقهِ، فيناظِرَهم ويناظرونه، وكأنّهُ سقراطُ الفيلسوفُ بينَ مُريديهِ وطالبي الحكمة، يهديهم إليها بحوارِه ومحاولاته، ولكنّ شيخَنا قد يقفُ المناقشةَ إن رأى فيها خروجاً على الصِّراط، لأنّه يناقشُ في دين، وإن كانَ يفكِّرُ فيه بعقلِ الفيلسوف، وإذا تكلمَ الشيخُ بالحكْم سكتت الأصواتُ كلها، وانتظرت منه فَصْلَ الخِطاب. ذلكم الرجل هو مخُّ العلم: أبو حنيفةَ النعمانُ بن ثابت.

---

(١) مجلة العربي: العدد ١٧، عام ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م.

مولده وحياته:

ولدَ أبو حنيفةَ بالكوفةِ سنةَ ٨٠ من الهجرةِ على روايةِ الأكثرين، من أبوينِ فارسيَّين، وأبوهُ هو ثابتُ بنُ زوطي، وقد كان جدّهُ مِن أهلِ كابل، أُسِرَ جدُّهُ عندَ فتحِ العربِ لهذهِ البلاد، ويظهرُ أنهُ قد مُنَّ عليهِ من غيرِ استرقاق. وقد كانَ ولاؤهُ لبني تَيْم، ولذلكَ يقالُ «أبو حنيفةُ التيميّ»، ولقد قيلَ إنّ جَدَّهُ قد اسْتَرقَتْهُ بنو تيم، ثمّ أعتقوهُ، فكانَ ولاؤهُ لهم بهذا الإعتاق، ولم يَـجْرِ الرقُّ على أبيهِ بإجماعِ المؤرخين، إلّا مَن أكلَ التعصُّبُ المذهبيُّ قلبَه.

ولقد نالَ أبو حنيفةَ أعلى المنازلِ بعلمِه لا بشرفِ نسبه، ولا بكرمِ أرومته. وقد كانَ أبو حنيفةَ يحسُّ بذلكَ الشَّرفِ النَّفسيِّ الذاتيِّ في وقتٍ قد اشْتدَّ فيه الفخرُ بالشَّرفِ النَّسَبي، ويروى في هذا أنّ بعضَ بني تَيْمِ الذينَ ينتهي إليهم ولاؤهُ قالَ لهُ مستعلياً: «أنت مولاي»، فقالَ أبو حنيفةَ معتزاً بالعلمِ والكرامةِ الشّخصية: «أنا والله أشرفُ لكَ منكَ لي».

وقد نشأ أبو حنيفةَ بالكوفةِ وتربَّى بها، وعاشَ أكثرَ حياتِه فيها. وقد كانَ أبوهُ من التجارِ أهلِ اليَسَار، وكان مُسلماً حَسَنَ الإسلام. وقد التقى أبوهُ بعليٍّ بن أبي طالبٍ كرّمَ اللهُ وجهه، فدعا لهُ بالبركةِ في رزقِهِ وولده.

وبذلكَ يتبينُ أنَّ أبا حنيفةَ نشأ في أسرةٍ إسلاميةٍ تعتزُّ بالإسلام، ولقد حفظَ القرآنَ في صدرِ حياتِه، واستمرَّ حافظاً له إلى مماته، فقد كانَ كثيرَ التلاوةِ له، وقد أخذَ عِلمَ القراءاتِ عن الإمامِ عاصمٍ أحدِ القراءِ السّبعة.

وقد كانت الكوفةُ التي نشأ فيها وترعرعَ موطناً لمدنياتٍ قديمة. وكان فيها السُّريانُ وقد أنشأوا لهم مدارس. ولما صارت قَصَبةَ الدولةِ العباسية، وفدَ إليها العلماء من كلّ البلادِ الشرقية، مِن الهندِ وخراسانَ وغيرهما من الأقاليمِ الشرقية، كما وَفَدَ إليها العلماءُ مِن السريانِ واليونانِ والرومان.

فُتِحَت عين أبي حنيفةَ فرأى هذهِ الأجناس، وأشعَّ عقلُهُ على هذهِ الآراءِ الـمُتَضَارِبةِ التي كانت تَسْتوطنُ العراق.

انصرافه إلى دراسة علم الكلام وعمله بالتجارة أولاً:

ولـمّا شدا وترعرعَ كان بينَ يديه طريقان: إمّا أن ينصرفَ إلى الجدلِ في العقائدِ وهو ما يسمَّى عِلْمَ الكلام، وإما أن ينصرفَ إلى التجارةِ كأبيهِ مِن قبل. ويظهرُ أنه نالَ مِن الطرفين، فكانَ يذهبُ في بواكيرِ شبابهِ إلى حلقاتِ الجدلِ في العقائد، وقد كانَ يسافرُ إلى البصرةِ لذلكَ الغرض، حيثُ كانَ بها المعتزلةُ وأهلُ النِّحلِ المختلفة. وكانَ يختلفُ معَ ذلكَ إلى الأسواقِ يتاجر، ثمّ غلبت عليه التِّجارةُ التي صارت مرتزقهُ إلى أن مات. ولكنّهُ مع اختلافِهِ إلى الأسواقِ كالتي انصرفَ إليها ابتداءً قد اتَّجهَ من بعد إلى الفقهِ بأكثرِ أوقاتِه، وصارَ للتجارةِ أقلها. ويُروى أن الذي وَجّهَهُ إلى ذلكَ عامرٌ الشَّعبيُّ المحدّثُ والفقيه، ويذكرُ أبو حنيفةَ قصّةَ هذا التوجيهِ، فيقول:

اختلافه إلى العلماء واتِّجاهه إلى الفقه:

«مررتُ يوماً على الشَّعبيِّ، وهو جالسٌ فدعاني، فقال لي: إلى مَن تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السُّوق، فقال: لم أعنِ الاختلافَ إلى السُّوق، عنيتُ الاختلافَ إلى العلماء. فقلتُ له: أنا قليلُ الاختلافِ إليهم. فقالَ لي: لا تغفلْ وعليكَ بالنظرِ في

العلمِ ومجالسةِ العلماء، فإني أرى فيكَ يقظةً وحركة. قالَ أبو حنيفة: فوقعَ في قلبي من قوله، فتركتُ الاختلافَ إلى السوق، وأخذتُ في العلم، فنفعني اللهُ بقوله».

اتَّـجه أبو حنيفة من بعدِ ذلك إلى الفقه، وخاضَ في علمِ الكلامِ قبلَ أن ينصرفَ انصرافاً كلياً إلى الفقه، ومعَ انصرافِهِ للعلمِ لم ينقطعْ عَنِ التجارة، بلِ استثمرَ متجرَه، ولكنْ كانَ لهُ شريكٌ يعاونُه، وقدِ اعتمدَ عليه في الإشراف على المتجر، وكان يختلف إلى السُّوقِ في طَرَفٍ من النهار ليعرف سَيْـرَ المتْجرِ واستقامةَ أحوالِه، وعدم خروجه عمّا يوجبه الدِّينُ في الاتِّـجار.

ولما اتَّـجه أبو حنيفةَ إلى الفقهِ أخذ يطلبُه من كلِّ مصادره، وأكثرَ من الرحلة ليتصلَ بالرُّواة، وكان الحجُّ موسمَ العلمِ لهُ ولأمثالِه ممن ينتجعون إلى مَظَانِّ العلم.

وكانت الكوفةُ هي المقامَ الأصليَّ له، وهي موطنه العلميُّ، كما أنها كانت مُقامَهُ ومُقام أهله من قبلِه، وكان يرى فيها بيئةً علمية، وإن لم يمنعه ذلك من اقتطافِ ثمراتٍ في غيرها، وله رأي قيِّمٌ في التكوين العلمي لكلِّ طالبٍ للعلم، وهو أنْ يعيش في بيئةٍ علمية ويلازمَ عالماً يختاره، فقد سُئِل مرة: «مِنْ أينَ جاءكَ هذا العلم»؟، فقال: «كنت في معدنِ العلمِ والفقه، ولزمت فقيهاً من فقهائهم». فهو يرى أن البيئة تبعث نوازعَ العلم وتفتحُ الآفاق، والشيخُ يوجِّه ويركز.

مدرسة الكوفة اختلفت عن مدرسة مكة والمدينة:

كانت في الكوفةِ مدرسةٌ فقهية تختلف عن مدرسةِ مكةَ ومدرسةِ المدينةِ في المنهاجِ والشيوخ، فكان فيها في عصرِ الصحابة عبدُ الله بنُ مسعود، ثم أقام بها عليٌّ

ابن أبي طالب، أقضى الصَّحابةِ كما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ[1]، وكان لهما تلاميذُ بعدهما منهم عَلْقَمة، وإبراهيم النَّخَعي. وأبرزُ من حمل فقهَ عبدِ الله بن مسعود هذانِ الفقيهان، وقد نقلاهُ إلى الأخْلافِ وخرَّجا عليه، وفرَّعا الفروعَ الكثيرة. وقدِ امتازَ فقهُ النخعي وتلاميذِهِ بالقياس، والقياس هو إلحاق أمرٍ غير منصوصٍ على حكمه بأمرٍ آخَرَ منصوص على حكمِهِ لاشتراكٍ في العلَّة.

وهم في هذه الأقيسةِ مُتأثِّرون بالمصلحةِ وبالعُرف، وكانوا في دراستهم للأقْيسةِ الفقهيةِ وتعرُّفِ العللِ التي بُنِيتْ عليها الأحكامُ المنصوص عليها يفرضون وقائعَ لم تقعْ ليختبروا عليها تلك العلل. ولذلك نشأ في الكوفة بمدرسةِ إبراهيم النَّخَعيّ ما سُمِّيَ بالفقهِ التَّقديري، وهو تقديرُ وقائعَ لم تقعْ على أنها واقعة، ويستخرجونَ أحكامَها على مقتضى ما اسْتَنْبطوه من عللٍ للأحكام.

وفي تلك المدرسةِ شاعَت أحاديثُ عبدِ الله بن مسعود، وأحاديثُ عليٍّ بن أبي طالب وفتاويهما، وأحاديثُ أبي موسى الأشعريّ وأقضيتُه، وقضايا شُرَيْحٍ وغيرِهِ من قضاةِ الكوفة وسائرِ العراق.

---

(١) روى البخاري (٤٤٨١) عن ابن عباس: قال: «قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أُبيٌّ، وأقْضَانا عليٌّ..». قال الحافظ في «الفتح» ٨: ١٦٧: «كذا أخرجه موقوفاً»، وأما قوله: «وأقضانا عليّ» فوَرَدَ من حديثٍ مرفوع عن أنس رفعه: «أقضى أمتي علي بن أبي طالب». أخرجه البغوي. وعن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن النبيِّ ﷺ مرسلاً: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقْضَاهم عليّ..» الحديث. ورويناه موصولاً في «فوائد أبي بكر محمد بن العباس بن نجيح» من حديث أبي سعيد الخدري مثله. وروى البزار من حديث ابن مسعود قال: «كنا نتحدَّث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

رحلته إلى الحج والمناسك وأخذه عن فقهاء مكة والمدينة:

حَمَل عَلَم هذه المدرسة، بعد إبراهيم النَّخَعيّ، حَمَّادُ بن أبي سليمان، أستاذُ أبي حنيفة، وهو الفقيهُ الذي لزمه في معدِنِ العلم، وقد لزمه أكثرَ أوقاتِه في مدى ثمانيةَ عشرَ عاماً من عُمُرِه المبارك. ولم تكنْ هذه الملازمةُ كاملةً إذ كان كثيرَ الرحلةِ إلى الحجِّ للمناسِك، وليشهدَ منافعَ له أهمُّها العلم، وقد كان يلتقي بالفقهاءِ وبالرواةِ من التابعين، فرَوى عن فقهاءِ مكة ورواتها، مثل عطاء بن أبي رباح. وروى عن علماءِ المدينة ورواتها فروى عن الإمام محمدٍ الباقِر، وروى عن الإمام جعفرٍ الصادقِ ابنِه، وروى عن عبدِ الله بن حسنِ بنِ حسن. ولما جاء الإمام زيدُ بن عليّ إلى العراق أخذَ عنه، وقال فيه: إنه أعلم أهلِ عصرِه، ولم يجدْ باباً من أبوابِ الفقه إلا دخل منه، ولا عالماً مهماً تكن فرقته إلّا أخذَ عنه.

وبذلكَ أخذَ من كلِّ الثمرات أينعَها مع ملازمتِهِ لشيخِه حمّاد في أكثر غُصونِ السَّنة، ومَثَلُه في ذلك كمَثَلِ الطالبِ النابغة الذي لا يقْتصرُ على ما يُلقى عليه، بل يُنمِّي علمَه بدراساتِه الخاصة.

ومع أنه لم يستقلّ عن شيخِهِ في وجودِه، كانتْ له تخريجاتٌ وآراء، وخصوصاً عندما يكونُ في رحلة، ولذلك شاعَ ذكرُه في مجالسِ العلماء قبلَ أن ينفردَ بمجلسٍ خاصّ لدرسِه.

جلوسه للدرس ومنهجه في الدراسة الفقهية:

لم يتطاول أبو حنيفة إلى أن يكونَ له مجلسُ درسٍ خاصّ وحمّادٌ شيخه على قَيْدِ الحياة، حتى إذا مات حماد سنةَ ١٢٠هـ، جلسَ أبو حنيفةَ في مجلس درسِه بالكوفة،

وفتح عيونَ الفقهِ ووسَّع نطاقَ الفقه التَّقديريّ، ورسم لنفسِهِ منهاجاً، وصار فقيهَ العراق غيرَ مُنازَع، وأعلن خطَّةَ الفقه التي التزمها، فكان يأخذ بالكتاب، فإن لم يجد في كتابِ الله ما يسعِفُه بالفتوى أخذ بسنَّةِ رسول الله ﷺ، فإن لم يجدْ أخذ بأقوالِ الصحابة، فإن كانوا مختلفينَ اختار من أقوالهم، ولا يخرجُ عنها، ولكنه لا يتَّبع غير الصحابة، ويقول قولةَ الفقيهِ المستقلّ: «إذا جاء الأمر إلى إبراهيم (النَّخعيّ) والحسنِ (البصريّ) فهم رجالٌ ونحنُ رجال».

وقد وسَّع أبو حنيفةَ باب الدراسةِ الفقهية، وكان يدرسُ النصوصَ دراسةَ فاحصٍ متعمِّق في دراستها، لا يكتفي بتعرُّف ما تدلُّ عليه ألفاظها، بل يدرس المقاصدَ والأغراض والصَّوالح التي تُبْنى على الأخذِ من هذه النصوص، ومن وراء ذلك يتعرَّفُ العلّةَ، ثم يأخذ في اختبارها على ضَوْء العُرف، الذي هو أعلم الناسِ به، لأنهُ تاجرٌ يصْفِقُ في الأسواق.

رأيه في العقود التجاريَّة أسلم الآراء:

وقد امتاز فقهُهُ بظاهرتين اختصَّتا به:

إحداهما: أنّ آراءَهُ في العقودِ التجارية أسلمَ الآراء في الفقه الإسلاميّ، لأنها آراءُ تاجر يَصْفِقُ في الأسواق، ويعرفُ مواضعَ الأمانة ومواضعَ الخيانةِ في معاملاتِ التجّار، وما يدفع به أسبابَها.

مناصرته الحرية الفردية:

الثانية: أنه كان أكثرَ الفقهاء المسلمينَ مَيْلاً إلى الحريَّةِ الشخصية، فقد كان رجُلاً حرّاً يُـقَدِّر الحرية في غيره كما يُقدِّرها في نفسه. فهو لا يسمحُ لقاضٍ أو غيره أن

يتدخَّلَ في حريةِ الناس الشخصية ما دام العقل قد توافر، وما دام التصرُّفُ لا ضَرَرَ فيه لأحدٍ، ولم يستبحِ الشخص حُرمةً من الحرمات.

إنَّ النُظُم الإنسانية القائمةَ والغابرةَ تنقسمُ في اتجاهاتها إلى نُظُمٍ تغلب فيها النَّزعةُ الجماعية التي تعطي للجماعة ممثَّلةً في الدولة حقَّ التَّدخُّل في شؤون الآحاد، وإلى نُظُمٍ أخرى تتَّجه إلى تنمية الإرادة الشخصيَّة وتوجيهِها بوسائل التربية والتهذيب، ثم لا تتركُ حَبْلَها على غاربِها.

وكان أبو حنيفةَ يتجهُ إلى النظامِ الثاني، ولذلك انفرد من بين فقهاءِ المسلمينَ بإطلاق حريةِ المرأة في اختيار زوجِها من غير تدخُّلِ وليِّها، ولا يتدخَّل إلّا إذا أساءتْ الاختيارَ بالفعل بأن تزوَّجت غيرَ كُفْء. فهو لا يمنعُها لتوقُّع الإساءة، ولكنْ يبيحُ التدخُّل عند وقوع الإساءةِ بالفعل.

وانفرد من بينِ فقهاءِ الدُّنيا، من عَصْرِ الإسلام إلى اليوم، بمنع الـحَجْرَ على السفيه الذي يُبذِّر ماله ما دام عاقلاً مُدْرِكاً، لأنّ الفقيه الحر رأى أن الـحَجْر عليه قد يكون فيه حفظُ مالِه، ولكنْ فيه إهدار حُرّيتِهِ وشخصيّتِهِ، وخير له أنْ يكون ذا إرادة وحُريّةٍ وشخصيّة ولا مالَ له، من أَنْ يكونَ له مال ولا كرامةَ ولا شخصيةَ له. والعمل القضائي يدلّ على سلامة نظرِه، فما رأيْنا سفيهاً لُوحظ عند الحجْر مصلحتُه بل يغلب في الدعاوى قَصْدَ الكيدِ والأذى.

ويقرِّر، رضي الله عنه، أن كلَّ إنسان حرٌّ فيما يملك، لا تُقيَّد ملكيتُه إلَّا إذا اعتدى على حقِّ غيره، بل منع لزوم الأوقاف، لأنّها تُنافي حريّـة المالك فيما يملك.

أكثر الفقهاء تسامحاً في معاملة غير المسلمين:

ومع هذه النزعةِ الحرة في فقهِ أبي حنيفة، تجد بجوارِها نزعةَ التَّسامح، فهو أكثرُ الفقهاء تسامحاً في معاملةِ غير المسلمين الذين يستظلُّون بالراية الإسلامية، فأباحَ لهم الحريّـةَ الدينيةَ في أوسعِ دائرة.

وهكذا نجده الفقيهَ الحرَّ الـمُسْتقلَّ الإنسانيَّ في تفكيرِه ونَزَعاتِه وآرائه.

صفاته:

وقـد اتَّصف أبـو حنيفـةَ بصفاتٍ شخصيّـةٍ، جعلت منـهُ العالِـم ذا الـخُلُقِ الكامل.

أ ـ وأولُ هذه الصفاتِ: **ضَبْطُ النفس** عندما يُهاجَم بألفاظٍ نابية، أو عندما يُهاجَم باعتراضٍ معترض. ومعَ ضَبْطِ نفسه كان قويَّ الإحساس خصوصاً في الناحيةِ الدينية. قال له قائلٌ: «يا مبتدع! يا زنديق!» فقالَ الشيخ الوقورُ في هدوء: «غفر اللهُ لك، [إنّ] الله ليعلم مني خلافَ ذلك، وأني ما عَدَلتُ به مُذْ عرفته، ولا أرجو إلّا عفوه، ولا أخاف إلّا عقابه». ثم بكى عند ذكر العقاب. فقال له الرجل: اجعلني في حِلٍّ ممّا قلت، فقال التقيّ المتسامحُ: «كلُّ مَنْ قال فينا شيئاً من أهل الجهل، فهو في حِلّ».

كانت نفسُه الطيِّبة كأنّها صَفْحَةٌ مَـجْلُوّةٌ مَلْسَاءُ لا ينطبعُ فيها شيءٌ من أدران الحقد، بل تنحدرُ عنها أسبابه ولا يتصل بها شيءٌ منه.

استقلال في التفكير:

ب ـ وقد أُوتي **استقلالاً في التفكير**، جعله لا يندمج بفكره في غيره، وقد لاحظَ عليه ذلك شيخه حمّاد، فقد كان ينازعُه النظرَ في كلِّ مسألة، وكذلك كان طول حياته، لا يأخذ قولاً من غير مناقشة إلّا أنْ يكون كتاباً أو سنّة أو فتوى صحابيّ ولا يتَّبِعُ أحداً من بعدِ ذلك، بل يقول قوله المستقلّ: هُمْ رجالٌ ونحنُ رجال. وقد دفعه استقلالُه الفكريّ لأنْ يأخذَ العلم من كل مصادره، غير تاركٍ مصدراً أو شيخاً لِـنِحْلته أو نَزْعته، فأخَذَ من أئمةِ آلِ البيت، بل أخذ من بعضِ الذين قالوا في التشيُّع لآل البيت كجابر الجُعْفيّ، وكان يتمثّل كلَّ ما يأخذه في عقله وقلبه علماً نقياً خالصاً.

عميق الفكر:

جـ ـ وكان **عميقَ الفكرة** لا يكتفي بالبحث في ظواهرِ الأمورِ والنصوص، بل يسير وراءَ مراسيها القريبةِ والبعيدة، فيبحث عن العِللِ والغايات، ولعلَّ ذلك العقلَ الفلسفيَّ الـمُتَعمِّقَ هو الذي [جَعَله] يتَّجِه في أوَّل حياتِه العلميةِ إلى علم الكلام ليرضيَ تلك النُّهمةَ العقلية، وأنَّ ذلك التَّعمُّق هو الذي دفعه لأنْ يَدْرُسَ القرآن والحديث دراسةَ باحثٍ عن العلل ليستخرجَ منها القياس، حتّى إذا استقامت العلةُ الباعثة على الحكم في نظرِه اطَّرد القياس وفرضَ الفروضَ لتطبيقه.

سرعة بديهته:

د ـ وكان حاضرَ البديهة تجيئُه أرسال المعاني متدافعةً في وقتِ الحاجة إليها، فلا يُفْحَمُ في جدال، ولا يُغلَقُ عليه في نظر، وله في ذلك المناظراتُ العجيبةُ والإجابات الـمُسَدَّدة التي تُروى على أنها من غرائبِ العقل المستيقِظِ المدرك.

يُروى عن الليثِ بن سعد فقيهِ مصر أنه قال: «كنت أتمنّى رؤيةَ أبي حنيفة، حتى رأيتُ الناس مُتَقَصِّفين على شيخ، فقال رجل: يا أبا حنيفة، وسألهُ عن مسألة: فوالله ما أعجبني صوابُه كما أعجبني سرعةُ جوابِه».

وكان مع حضورِ بديهتِه واسعَ الحيلةِ في الجدل، يأتي مناظرَهُ من أقربِ طريقٍ يفحمه.

إخلاصُه للحق:

هـ - وكان أبو حنيفة مخلِصاً في طلب الحقِّ، وتلك هي صفة الكمالِ التي رفعته وأنارتْ قلبَهُ وبصيرتَهُ، فإنَّ القلبَ المُخْلِصَ يستقيم إدراكُه وفكرُه، إذ لا توجد شهواتٌ أو أهواء تُفسدُ عليه مقصدَه.

ولقد خلَّص أبو حنيفةَ نفسَه إلّا من الرَّغْبة في فهم الدينِ فهماً صحيحاً، فجعل نفسَه وقلبَه وعقلَه للحقِّ وحدَهُ وما يهدي إليه الدين، وكان ذلك شأنه في مناظراتِه يطلبُ الحقَّ سواءٌ أكان غالباً أم كان مغلوباً، بل إنه الغالب دائماً ما دامَ يطلب الحقَّ وحدَهُ. وكان لإخلاصهِ لا يفرضُ أنَّ ما وصل إليه هو الحقُّ الذي لا تَشُوبُهُ شائبَة. وقد قيلَ له مرةً: «يا أبا حنيفة، أهذا الذي تُعنَى بهِ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه»؟ فقال محتاطاً لدينه: «والله لا أدري لعله الباطلُ الذي لا شكَّ فيه!».

ولم يكن أبو حنيفةَ لهذا من المتعصِّبين لآرائِهم، بل دفعهُ الإخلاص وَسَعَةُ الأُفُق لأنْ يفتحَ قلبَهُ لرأي غيرِه، وإنّ التعصُّبَ إنما يكون ممَّن غلبت أهواؤه على أفكارِه، أو مِمَّن ضعفت أعصابُه، أو ممَّن ضاق نطاقُ فكرِهِ، ولم يكن أبو حنيفةَ شيئاً من هذا، بل كان القويّ في عقلِه، المستوليّ على نفسِه، المخلِصَ في طلبِ الحقِّ، الخائِفَ من ربِّه، فقدَّر لنفسِهِ الخطأ كما قَدَّر الصَّواب.

قوة شخصيته:

و ـ وكان يُتوِّجُ هذه الصفاتِ صفةٌ أخرى لعلها مظهرٌ من مظاهر هذه الصفات كلِّها، أو هي هبةٌ من الله لبعضِ النفوس. تلك الصفةُ هي قوةُ الشخصيةِ والنفوذِ والمهابةِ وقوة الروح.. كان له تلاميذ يخصُّهم بعنايتِه، ولم يكنْ يفرضُ عليهم رأيَهُ، بل يدارسُهم، ويناقشُهم مناقشةَ النظراء، فإذا انتهى إلى رأي صَمَتَ الجميع، وكثيراً ما يرفعون أصواتهم في مناقشةٍ حتى إذا أخذ يُمضي القولَ في الحكمِ سكتوا، حتّى قد قال بعضُ معاصريه، وقد رأى هذا المشهدَ: «وإنَّ رجلاً يُسْكِتُ اللهُ به هذهِ الأصواتَ لعظيمُ الشأنِ في الإسلام!».

هذه صفات أبي حنيفة، وبعضُها فِطْريّ، وجُلُّها كَسْبيّ، كَسَبه برياضةِ نفسِه وعقلِه، وعُمْقِ بحثه ومعالجتِهِ للحياة ومشاكلِها. ولا بُدَّ أنْ نتكلَّمَ في هذا الموجزِ في أمريْن: أولهُما: في صِلتِهِ بتلاميذِه، وثانيهما: في صِلتِهِ بالحُكَّام.

صلة أبي حنيفة بتلاميذه:

لقد كان لأبي حنيفةَ تلاميذُ كثيرون، منهم مَنْ كان يرحلُ إليه ويستمع إليه أمداً قصيراً، ثم يعود إلى بلدِه، بعد أَنْ يأخذَ طريقَهُ ومنهاجَه، ومنهم مَنْ لازمَه. وقد قالَ في تلاميذِهِ الذينَ لازموه هؤلاءِ ستةٌ وثلاثون رجلاً، منهم ثمانيةٌ وعشرونَ يصلحونَ للقَضاء، وستةٌ يصلحون للفَتوى، واثنانِ أبو يوسُفَ وزُفَر، يصلحانِ لتأديبِ القُضاة وأرْبابِ الفتوى.

ولقد كان أبو حنيفة تاجراً يكتفي بالربحِ القليل الذي لا يُخالِطُه إثْم أو شُبْهةُ إثْم، أو اشتِباهٌ في حلٍّ أياً كان، ومعَ ذلك كانت تجارتُه تدرُّ عليهِ الربحَ الوفير. وكان

يُنفق على تلاميذِهِ الفقراءِ من تجارتِه، ويُعينُ مَنْ يُريد الزواجَ منهم على الزواج، ويمدُّه بما يحتاجُ إليه.

ولم يكنْ خَيْـرُه عائداً على تلاميذِهِ فقطْ، بل كان يعودُ على كلِّ معاصِريه من أهلِ بلدِهِ من الفقهاءِ والمحدِّثين. كان يدَّخِر لنفسِه من ربحِهِ ما يكفيه عاماً هو وأهلُه بالمعروف، ويُنفقُ الباقي على الفقهاءِ والمحدِّثين بالكوفة، فقد جاء في «تاريخ بغداد»: «أنه كان يجمع الأرباحَ عندهُ مِنْ سنةٍ إلى سنةٍ، فيشتري بها حوائجَ الأشياخ والمحدِّثين وأقواتَهم وكِسوتَهم، ويقضي جميعَ حوائجِهِم، ثم يدفعُ إليهم باقيَ الدنانيرِ من الأرباح، فيقولُ لهم: أنفِقوا في حوائجِكم ولا تحمدوا إلّا الله، فإني ما أعطيْتكم من مالي شيئاً، ولكنْ من فَضْلِ الله عليَّ فيكُم».

ولم يكنْ يرعى تلاميذَهُ بالمالِ فقط، بل كانَ يرعاهُم بالنصيحةِ والتوجيهِ والإرشادِ إذا تولَّوا شأناً من شُؤونِ الدولة، ولقد قال أحد تلاميذِهِ في معاملتِهِ لهم: «كان يُغْني مَنْ يُعلِّمه، ويُنفقُ عليه وعلى عيالِه، فإذا تعلَّم قال له: لقدْ وصلْتَ إلى الغنى الأكبرِ بمعرفةِ الحلالِ والحرام».

ولقد كانتْ دراستُه بالمناظرةِ والمناقَشةِ لا بالتَّلْقينَ والإلقاء، كما أشرْنا، وكانوا يناقشونَهُ في كلِّ قياسٍ فقهيٍّ يعرضُه، وقد قال محمد بنُ الحسنِ أصغرُ تلاميذِه: «كانَ أصحابُ أبي حنيفةَ يُنازعونَـهُ في القياس، فإذا قال: «أَستَحْسِن» لم يَلْحَقْ به أحد».

وكان يقودُهم إلى التعمُّق في فهمِ النُّصوص، ويقول لهم: «مَثَلُ مَنْ يطلبُ الحديثَ ولا يتفقَّه، مَثَلُ الصَّيدلانيِّ يجمعُ الأدوية ولا يدري لأيِّ داء، حتَّى يجيءَ الطبيب، هكذا طالِبُ الحديثِ لا يعرفُ وجهَ حديثِهِ حتَّى يجيءَ الفَقيه».

وإنّ هذا النوعَ من الدراسة مع قُوَّةِ عقلِهِ وَسَعةِ أُفُقِه، جَعَل لهُ نظراً ثاقِباً في التربيةِ والتعليمِ والتوجيهِ الاجتماعي، وكتُبُـهُ ووصاياهُ لتلاميذِهِ تُنْبِئ عن عقلٍ مُرَبٍّ عميقِ النَّظْرةِ في النفوسِ وفي المجتمع، وهو يقول لأحد تلاميذه، وقد ذهب إلى البصرةِ ليتولَّى الدرسَ والإفتاء: «خَبِّرْهم بجَلِيِّ العلم دونَ رقيقِه، وآنِسْهُم ومازِحْهُم أحياناً، وحادثْهُم، فإنّ المودَّةَ تستديم، وتَغَافَلْ عن زَلَّاتِهم، وارْفُقْ بهم ولا تُـبْدِ لأحدٍ منهم ضيقَ صَدْرٍ أو ضَجَر، وكُنْ كواحدٍ منهم، واسْتَعِنْ على نفسِك بالصيانةِ لها».

اتِّصاله بالسياسة في عصره:

انقطعَ أبو حنيفةَ عنِ السلطان، ولم يأخذْ جائزةً أو هدية من أميرٍ أو خليفة، وقد كان فيه محبَّـةٌ لآلِ عليٍّ من غيرِ تشيُّعٍ أو تعصُّب، ولذلك لم يُوالِ الأمويين ولم يُعلنِ التمرُّدَ عليهم، أو يَدْعُ إلى الفِتنةِ، ولكنَّ قلبَه كان مَعَ مَنْ يخرجُ عليهم من آلِ عليّ. ولما خرجَ زيدُ بنُ عليٍّ زينِ العابدين على هشامِ بنِ عبدِ الملك قال: «ضاهى خروجُهُ خروجَ رسولِ الله ﷺ يومَ بدر».

ولقد اشتدّت المحنةُ عليه من بعدِ ذلك، فأخذ بنو أُمية يُـحْصُون عليهِ أقوالَه، وأرادوا أنْ يختبروا ولاءَه، فطلبهُ الوالي الأمويّ للقضاء، فامتنع، فعرض عليه أنْ يُولِّيه بعض الولاية على بيتِ المال، ولكنَّ الشيخَ التقيَّ يأبى ويشتدُّ في الإباء، ويناشدُه الفقهاءُ والقُضاةُ أنْ يقبلَ فيرفض، لأنه لا يريدُ أنْ يتولَّى المظالِـم، ثم يقولُ في عَزْمة المؤمنِ الـمُسْتَمْسِك، وقد أراد أنْ يولِّيه الـخَتْمَ بأنْ يُمضيَ الكتب: «لو أرادني أنْ أَعُدَّ له أبواب المسجدِ لم أدخلْ في ذلك، فكيف وهو يريد مني أنْ يكتب دمَ رجلٍ يَضْربُ عنقَهُ ظالماً، وأَختمُ أنا الكتابَ على ذلك؟».

حَبَسَهُ الأمويُّون وضربوه:

فحُبِسَ أبو حنيفةَ، وضُرِبَ في مَحْبِسِه حتى أُخرِجَ، على ألّا يُقيمَ بالعراق، فذهبَ وجاور البيتَ الحرامَ سنة ١٣٠، واستمرَّ حتَّى سقطتِ الدولةُ الأموية، فعادَ إلى الكوفة لما استقرَّ الأمرُ للعباسيين، وقد اسْتَبْشَرَ بولايتِهم، وذهب مع وَفْدِ العلماءِ إلى أبي العبّاسِ السفّاح وألقى كلمتهم، فقال: «إنّ هذا الأمرَ قد أفضى إلى أهلِ بيتِ نبيِّكم ﷺ، وجاءكم اللهُ بالفضْلِ وأقامَ الحقّ، وأنتم معشرَ العلماءِ أحقُّ مَنْ أعانَ عليه.. فبايعوا بيعةً تكون عند الله حُجَّةً لكم وعليكم، وأماناً في مَعَادِكم، لا تلقَوا اللهَ بلا إمامٍ فتكونوا مِمَّنْ لا حُجَّةَ له».

ولكنَّ استبشارَهُ لم يَدُم طويلاً، فإنه قد حَدَث لبني عَليٍّ مِنْ أولادِ عُمومتِهم العبّاسيين مِثْلُ ما حدث لهم مِنَ الأمويـين، فظنَّ بهمُ الظُّنون، ونَقَمَ عليهم كما نَقَمَ على مَنْ قبلهم، ولما خرجَ محمدٌ النفسُ الزكيَّةُ بالمدينة، وخرج أخوه إبراهيم بالعراق، كانت عباراتُ أبي حنيفةُ في درسِهِ لا تخلو مما يدلُّ على ما في نفسه، وصَدَرت عنه فتاوى مُثبِّطة لبعضِ قُوّاد المنصورِ عن أنه يخرجوا لقتالِ العلويين الذين خرجوا. وعينُ أبي جعفرِ المنصورِ مُترَقِّبةٌ مُترَصِّدةٌ مُحْصِية، ولقد انتهتِ المعركة بقتلِ الإمامَـيْن محمدٍ وإبراهيم، وموتِ أبيهما عبدِ الله بن الحسنِ في محبسِ المنصور، وقد كان شيخاً لأبي حنيفة. وبعد انتهاءِ المعركةِ أخذَ المنصورُ يُحصي على أبي حنيفةَ فتاويَه، وأبو حنيفةَ يجهرُ بالحقِّ لا يخشى فيه إلا اللهَ سبحانَهُ وتعالى. ويُروى في ذلك أنَّ أهلَ الموصلِ خرجوا على المنصورِ فتغلَّبَ عليهم، وأخَذَ عليهم شرطاً أنْ تُباحَ دِماؤُهم إذا انتقضوا عليْهِ مرةً أخرى. ثمَّ انتقضوا، فجمع العلماءَ وفيهم أبو حنيفةَ فعرض عليهم تنفيذَ

الشرط الذي أخذه عليهم، فأباحوا دماءهم وأبو حنيفةَ صامتٌ صمتاً عميقاً، فقال أبو جعفر: «وأنت يا شيخُ ما تقول»؟ فقال أبو حنيفةَ كلمةَ الحق: «إنهم شرطوا ما لا يملكونَه، وشَرَطْتَ عليهم ما ليسَ لك، لأنَّ دم المسلمِ لا يُباح إلّا بأحد معانٍ ثلاثة، فإنْ أخذتَهم، أخذتَهم بما لا يحلّ، وشرطُ الله أحقّ أنْ يُوفى به».

وحَبَسَهُ العباسيُّون وضربوه:

ضاق أبو جعفر ذرعاً بأبي حنيفة، فأرادَ أنْ يختبر ولاءَه، فعَرَض عليه القضاءَ فرفض، فَعَرَضَ عليه أن يُراجع أحكامَ القُضاة فرفض، فأقسم عليه أنْ يتولّى، وأقسمَ أبو حنيفة ألّا يفعل، فَحَبسه، وعَذَّبه. وكان يُضْرَب كلَّ يومٍ عَشْرةَ أسواط، ولما خيفَ عليهِ الموتُ من العذابِ داخِلَ السِّجنِ أُخْرِج، ومُنِعَ من الإفتاء، ومات من بعدَ ذلك بقليل، وأوصى ألّا يُدفنَ في أرضٍ غَصَبها الأمير أو اتُّهِم بغصبِها.

يموتُ حرّاً شهيداً:

وهكذا ماتَ أبو حنيفة شهيداً، ومن خيرِ الشهداء، فقد قالَ كلمةَ الحقِّ عندَ الـجَوْر، وقد قال النبيُّ ﷺ: «خيرُ الشهداءِ: حمزةُ بن عبد المطلب، ورجلٌ قال كلمةَ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائِر فقَتَله»[1]. وهكذا مات أبو حنيفةَ مجاهداً في سبيلِ الحقّ، فرحِمَ اللهُ الإمامَ الأعْظَم.

* * *

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٣: ٢١٥ (٤٨٨٤) من حديث جابر مرفوعاً بلفظ: «سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

مالك بن أنس[1]

(٩٣-١٧٩هـ)

الفقيهُ الذي عَمَّت فتاويه مَشْرِقَ الدولة ومَغْربها

كان الداخل إلى المسجد النبوي في منتصف القرن الثاني الهجري يرى رجلاً طُوالاً، مَسْنون اللحية، أشْقَرَ الوجه، جميلَ الثياب، جليلَ المنظر، فيه مَهَابةٌ، وله وقارٌ، ولعينيه بريقٌ ينفذ إلى القلوب، يجلسُ في أكبر حلقة علميَّـة في ذلك التاريخ.

ذلك الرجل هو مالك بن أنس رضي الله عنه، قد آتاه الله تعالى بَسْطة في العلم، والجسم، والـخُلق.

وقد اختار أن يكون درسه في مسجد رسول الله ﷺ، وهو ثالث المساجد التي تُشَدُّ إليها الرِّحال. واختار أن يكون موضع جلوسه المكانَ الذي كان يجلس فيه عمر بن الخطاب في قضائه وتدبيره شؤون الدولة، وفتاويه للناس، وكان أيضاً مجلس شُوراه الخاصَّة الذي يَتَشاور فيه مع عليٍّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن ابن عوف، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وغيرهم من فقهاء الصحابة وذوي الرأي منهم.

---

(١) مجلة العربي الكويتية، العدد ١٢، نوفمبر ١٩٥٩م.

مكانته ومهابته:

وقد تحدَّث أهل المدائن والأمصار باسم مالك، وكانت فتاويه تُنشر وتُذاكر في مصر والشام وبلاد المغرب كلها.

وكان في الأندلس الإمامَ الذي لا يُذكر بجواره إمام، حتى كان أهل الأندلس يَسْتَسْقون بقلنسوته، إذ يتَّخذونها بركة، ويَضْرَعُون إلى الله أن تُمطر السماء، وهم حاملون لها.

وقد كان له سلطان في المدينة يصلُ إلى سلطان الولاة بها، وإن لم تكن له ولاية، ولقد قال بعض الشعراء في وصفه:

يَأْبى الجوابَ فما يُراجَعُ هَيْـبةً ... والسَّائلونَ نـواكسُ الأذْقَـانِ
أدَبُ الوقار وعزُّ سُلطانِ التُّـقَى ... فهو الـمُطَاعُ وليسَ ذا سُلطان

إنَّ تلك المكانة ما جاءته عَفْواً، بل لها أسبابٌ من نشأته، ومن جهوده، ومن شيوخه، ومن شخصه، ثم ما أفاض على الناس من علم غزير، واستنْباطٍ فقهيٍّ سليم، وإدراك لمصالح الناس، وعلم بالقرآن والسنة، وتنقيح الرواية ونقْدها بدراية عميقة مدركة.

وقد عاش في عصر ماجَتْ فيه فتن كموج البحر، وكان هو يركب سفينة النجاة، ولا يخوض فيها، ويَستنقِذ العلمَ والفقه والدين بشخصه القويِّ الذي لا يُفرَض عليه أمرٌ إلا ما كان من أمر الله ونهيه.

من بيت عُنِـي بالحديث والفتاية:

لقد وُلِدَ إمامُ دارِ الهجرة على أرجح الروايات سنة ٩٣، بعد أن اسْتَـتَبَّ الأمر لبني مروان، وهو ينتمي إلى ذوي أصْبح، وهم قوم من اليمن. وقد أسلم قومه في

عهد الرسول ﷺ، وكان أهل بيته يُعْنَون بالحديث، واستطلاع أخبار الصحابة وفتاويهم، وقد تَوَارثوا الفتاية بذلك خلفاً عن سلف.

فجدُّه **مالك بن أبي عامر**، كان من كبار التابعين، روى عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وأمِّ المؤمنين عائشة. وقد روى عنه بنوه، ومنهم: أنس أبو الإمام، ولكنّ أنساً هذا لم يشتهر بالرواية كما اشتهر عمّاه: ربيع ونافع المكنّى بأبي سهيل.

وبهذا يَتَبيَّن أنَّ مالكاً رضي الله عنه قد وُلد في أسرة اشتهرت بالرواية، ونشأ بين رواةٍ مُـحَدِّثين.

وكان الفقه إلى ذلك الإبّان مختلطاً بالحديث، فلم يكن قد تميَّز عنه، فالرواة يروون فتاوى الصَّحابة، ويُطبِّقونها على الحوادث التي تقع بين ظَهْرانيهم، ويُسْتَفْتَون فيها.

ولذلك اتَّجه الإمام مالك، بعد أن حَفِظَ القرآن كشأن كثيرين من المؤمنين، وبعد أن تَفَصَّح بالعربية؛ إلى طلب علم الرواية، ومع علم الرواية الفقه.

ومدينته مدينة العلم والرواية:

وقد كانت البيئة العامة كبيئته الخاصّة، تُوجِّهه نحو المعرفة وطَلَب الرواية، فقد وُلد وعاش بمدينة الرسول ﷺ، ومُهاجَرِهِ الذي هاجر إليه، ومنزلِ الشَّرع الإسلامي، ومَعْقِد حكم الإسلام الأول، إذ كانت قَصَبةَ الدولة الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين.

وقد كان بها في عهد الفاروق عمر رضي الله عنه كلُّ فقهاء الصحابة أو جُلُّهم، أبقاهم بجواره ليتعرَّف الرأي القويم من آرائهم، وجعل من كبارهم شُوراه الخاصة،

وقد خرج بعضهم منها بعده، ولكنهم عادوا إليها بعد أن كانت الفتن والحروب بين المسلمين، إذ وجدوا فيها الموئل والمثابة والأمن.

وكذلك قَصَدها التابعون الذين كانوا يريدون فقهَ الصَّحابة الذين لم يُجاوزوا حدود المدينة أو آبوا إليها بعد أن خرجوا منها.

ولقد كان للمدينة تلك المنزلة العلميّة في العهد الأموي، وكانت مَهْدَ السُّنن والفتاوى المأثورة، حتى لقد كان الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكتب إلى الأمصار يُعلِّمُهم السنن والفقه، ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عمَّا مضى، ويعمل بما عندهم. وكتب إلى أبي بكر بن حزم من علماء التابعين بالمدينة أن يجمع له السنن، ويكتب بها إليه، ولكنه تُوفي قبل أن يتمَّ له ما أراد، وهو تعميم فقه التابعين بالمدينة في كلِّ الأمصار.

أمُّه تُرْشِدُه وتُسَدِّد خُطَاه:

هذه هي البيئة التي عاش في ظلِّها مالك، وتلك أُسرته، وكلتاهما تُنَمِّي فيه النُّزوحَ إلى العلم والاتِّجاه إليه، ولقد كان له بجوار هاتين البيئتين هادٍ مُرشدٌ يدفع ويُسدِّد، ولكنه لا يظهر في كثير من الأحوال، وهو أمه[١]، فقد كانت ذاتَ رأيٍ صائب وفكرٍ مستقيم. وكانت تُشْرِفُ على توجيه مالك حتى شَبَّ عن الطَّوْق، بل إنها كانت تختار له شيوخه، وتُرشده إلى ما يأخذه من كل واحد منهم لينال من كل شيخ خير ما عنده، فكانت تقول له وهو يذهب إلى ربيعة الرأي أحد شيوخه: «اذهب إلى ربيعة

(١) واسمها: العالية بنتُ شَريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية.

فتعلَّم من علمه قبل أدبه»، وقد كان ربيعة فقيهاً ذا رأي عميق، واستنباط دقيق، وله لسانٌ طويل فصيح، ولعلها رضي الله عنها كانت ترى في لسانه بعض النَّبوَات كشأن كثيرين من ذوي الفصاحة، فَحَذَّرت ولدها في عبارة رفيقة من أدبه.

كان يتصيَّد شيوخه في خلوتهم:

وبهذا التوجيه الكريم، والبيئة الخاصّة الهادية، والبيئة العامّة التي تُمكِّن طالب العلم من أنْ يَرِدَ موارده؛ انْصَرَف مالكٌ الناشئ إلى العلم، وذهب إلى مصادره من التابعين، رواةِ أحاديث رسول الله ﷺ وأقضية الصحابة وفتاويهم. وأقبل على ذلك بإخلاص وجدّ ودأب.. كان يذهب إلى شيوخه في كلِّ وقت، لا يمنعه حَرٌّ ولا برد، ولقد رُوِيَ عنه أنه قال:

«كنتُ آتي نافعاً (مولى عبد الله بن عمر) نصفَ النهار تُـظَلِّلني شجرةٌ من الشمس، أتحيَّن خروجه، فإذا خَرَجَ أدَعُهُ ساعةً كأني لم أره، ثم أتَعرَّض له فأُسلِّم عليه وأدعه حتى إذا دخل أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني، ثم أحبس عنه، وكان فيه حِدّة».

ولقد كان ينتهز كل فرصة ليخلو إلى الشيخ الذي يريده حيث لا ضجّة ولا صَخَب. ولنتركه يتحدَّث إلينا عن قصَّته في تَـتَـبُّع الزهري الذي كان يُسمِّيه «بحر العلوم»، فهو يقول:

«شهدتُ العيد، فقلت: هذا يوم يَـخْلو فيه ابن شهاب. فانصرفت من الـمُصَلَّى، حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من بالباب؟ فسمعتها تقول:

مولاك الأشقر مالك. قال: أدخليه. فدخلتُ، فقال: ما أراك انصرفتَ بعدُ إلى منزلك! قلت: لا. قال: هلّا أكلتَ شيئاً؟ قلت: لا. قال: اطعمْ، قلت: لا حاجة لي فيه. قال: فما تريد؟ قلت: تُحدِّثني، قال: هات. فأخرجت ألواحي، فحدَّثني بأربعين حديثاً، فقلت: زدني. قال: حَسْبُـك، إنْ كنتَ رَوَيْتَ هذه الأحاديث فأنت من الحفّاظ. قلت: قد رَوَيْتها! فَجَبذ الألواح من يدي، ثم قال: حَدِّث، فحدَّثته بها، فردَّها إليَّ وقال: «قم فأنت من أوعية العلم».

شابٌّ يافع.. لكنه وقور!

اتَّجه هذا الاتِّجاه إلى طلب العلم مع صِفَةٍ لازمته من وقت أن كان غلاماً إلى أن صار إماماً، وهي حبُّه للوقار والاتِّزان، وقد مرَّ وهو يافع بأحد شيوخه وهو أبو الزِّناد[1]، فوجده يـُحَدِّث في مُزْدحم، وكان المكان ضَيِّقاً، فلم يجلس ولم يستمع، ولما التقى به من بعد قال له الشيخ عاتباً: ما منعك أن تجلس إليَّ؟ فقال الشاب الوقور الذي يُجِلُّ السُّنة: «كان المكان ضَيِّقاً، فَكَرِهْتُ أن أكتبَ حديثَ رسولِ الله ﷺ وأنا قائم».

وقد تلقَّى من شيوخ كثيرين، فقد كان في مدينة رسول الله ﷺ، وهي معدن العلم، وإليها أوى التابعون أو جلهم في عهد الأمويين. والذين اختاروا غيرها مقاماً كانوا يجيئون إليها الوقت بعد الآخر، لزيارة الروضة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم. وكان في هذا يتلقَّى أحاديث الرسول من أصحابه الذين شاهَدُوا وعَاينوا، وتلقوا التنزيل وتفسيره من صاحب الرسالة عليه السلام.

---

(١) هو عبد الله بن ذكوان القرشي، مات سنة ثلاثين ومائة.

انتقاؤه الثقات في الرواية:

وكان ينتقي الثقات من أهل الرواية وأهل الدراية، وهو يقول: «إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون منه. لقد أدركتُ سبعين ممَّن يقولون: قال رسول الله، عند هذه الأساطين ـ وأشار إلى المسجد ـ فما أخذتُ عنهم شيئاً. وإنَّ أحدهم لو اؤْتُمن على بيت مال لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن».

دروسه في الفقه والحديث:

وبعد أن وعى مالكٌ القويُّ الفكرِ والـخُلُقِ والدين، ما أدركه من علم أهل عصره، اتَّجه عند نُضْجه في السنِّ والعقل إلى الدرس، واختار ـ كما قلنا ـ أن يكون مجلس درسه هو المجلس الذي كان يجلس فيه الإمام عمر رضي الله عنه، وكان من حُسْن الاختيار أنه كان يسكن في المنزل الذي كان ينزل فيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فالعلم كان يُظِلُّ فكرَه في المكان، كما كان يظلُّه في كل أعماله وكلِّ الأزمان.

وعندما جلس للدرس، قسَم درسه قسمين: أحدهما: لرواية الحديث، والثاني: للفقه، ويُسمِّيه المسائل، لأنه ما كان يتكلَّم في الفقه إلا فيما يسأل عنه من وقائع تقع.

وكان في درسه يبتعد عن الغُلو، مع أنه لم تكن فيه جَفْوة ولا خشونة، وقد قال بعض تلاميذه: كان إذا جلس معنا كأنه واحد منا، يتبسَّط معنا في الحديث، وهو أشدُّ تَطَامُناً منا له، فإذا أخَذَ في حديث رسول الله تهيَّبنا كلامه كأنَّنا ما عَرَفناه ولا عَرفَنا.

ومع أنه كان المهيبَ في عامّةِ أحواله، فإنه في درسه كان يخصُّ الحديث بسَمْت خاص يلتزمه، فكان إذا حدَّث توضأ وتهيَّـأ، ولبس أحسنَ ثيابه.

ولما مرض انتقل درسه إلى بيته، ومع ذلك كان للدرس سَمْته ووقاره. يحكي أحد تلاميذه أنه عندما انتقل درسه إلى داره: «كان إذا أتاه الناسُ خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم: أتريدون الحديث أم المسائل؟ فإن قالوا: المسائل خرج إليهم فأفتاهم، وإن قالوا: الحديث، قالت لهم: اجلسوا، ودخل مُغْتَسله فاغتسل وتطيَّب، ولبس ثياباً جُدداً وتعمَّم، وتُلقى له المنصَّة، ولم يكن يجلس على المنصَّة، إلا إذا حَدَّث.

رأى فتناً كقِطَع الليل:

ولنترك مالكاً في درسه الذي مكث فيه نحواً من خمسين سنة، إلى ما كان يجري حَوْله من شؤون السياسة والحكم وموقفه منها، فقد عاش في شبابه وبعضِ كهولته في عصر عاصفٍ بالفتن، وأدرك في صدر صباه عهد عمر بن عبد العزيز، وكان له في نفسه ذكرى طيِّبة، وفي عقله أثر شديد، وجعل حكمه ميزاناً للحكم العادل إذ رآه وعاينه وشاهده.

ولما ثارت الفتن في شبابه وكهولته على الحكم الأموي، اعتزل القائمين بها، ولم يخض فيها. وقد رأى فتناً كقطع الليل المظلم، علم فتنةَ مقتل الإمام الشهيد زيد ابن علي بن زين العابدين، ورأى فتنة أبي حمزة الشاري سنة ١٣٠ التي قُتل فيها عدد كبير من أبناء المهاجرين والأنصار، وعاصر خروج الحكم من أيدي الأمويين إلى أيدي العباسيين، ثم رأى الفتن التي قامت في عهد أبي جعفر المنصور وخروج محمد النفس الزكية على أبي جعفر، وأُوذيَ في هذه الفتنة أبلغ الإيذاء.

رأى إمامُ دار الهجرة كل هذا، وكان يرى أنه في ضجّة الفتن يختفي صوتُ الحق، ويكون الشحُّ الـمُطَاع، والهوى المتَّبع، فانتهى مـمَّا رأى وعاين إلى أن الأجدر

بالمؤمن في هذه الفتن أن يأتي إلى سيفه فيدقَّه، ويلجأ إلى زراعة الزرع أو رعاية الغنم، فإن لم يكن زرعٌ ولا ضرعٌ، لجأ إلى شعَاف الجبل كما قرَّر النبيُّ ﷺ[1].

وقد سُئل مالكٌ عن بعض الفتن التي خرج فيها الخارجون على الحكّام فقال: «إذا خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم، وإن لم يكن مثل عمر بن عبد العزيز فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما».

مالكٌ يُضرَب بالسِّياط!

رأى مالكٌ رضي الله عنه في تلك الفتن أنَّ الظلم يشتدّ، وأنه يقع فيها من المظالم ما لا يقع في استبداد سنين، ولذلك جانَبَها. ولكنه يستمرُّ في تقرير الحقائق الدينية من غير نظر إلى كَوْنها تُؤيِّد الخارج أو الحاكم. ولقد كان محمدٌ النفس الزكيّة يتَّهم أبا جعفر المنصور بأنَّ بيعته أُخذت كرهاً، وأنَّ الـمُسْتَكرَه لا يُؤْخذ يمينه، وقد كان يستشهد لهذا بقوله ﷺ: «ليس لِـمُسْتَكْرَهٍ يمين»[2]. فنهى والي المدينة مالكاً عن أن

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١٥٣٣)، والبخاري (١٨، ٣٠٥٥، ٣٣٣٣، ٦٠١٤، ٦٥٦١)، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطْر، يفرُّ بدينه من الفتن». والشعف: رأس الجبل وقمته.

(٢) لم يرد في المرفوع، وإنَّما هو موقوف على ابن عباس، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٩: ٥٦٩ (١٨٣٣٠) من طريق هُشيم، عن عبد الله بن طلحة الـخُزاعي، عن أبي يزيد المديني، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ليس لمكره ولا لـمُضْطهد طلاق»، ورجاله ثقات. وعلَّقه البخاري ٩: ٣٤٣ في الطلاق ولفظه: «وقال ابن عباس: طلاق السكران والـمُسْتَكْرَه ليس بجائز». وقال الحافظ: وصله ابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، جميعاً عن هُشيم، عن عبد الله بن طلحة الخزاعي، عن أبي يزيد المديني، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ليس لسكران ولا لمضطهد طلاق». =

يتحدَّث بهذا الحديث، ولكن مالكاً يعصي أمره، لأنَّ النهيَ عن إذاعة أحاديث رسول الله ﷺ فيه عصيانٌ لله ورسوله، وعلى المرء المسلم السمع والطاعة إلا إذا أُمر بمعصية فلا سَمْعَ ولا طاعة، ولذلك لم يُطع الوالي، فَضُرِبَ ـ وهو الشيخ الوقور ـ بالسياط، فكانت شارة الجهاد وعظمة التقوى ونداء الحق.

كان ينصح الرشيد والخلفاء:

وكانت علاقة مالك بالحكّام، سواء أكانوا ولاة أم كانوا خُلفاء، أساسها النُّصح والإرشاد، فكان ينصحهم إن وجد ما يُوجب النُّصح، وكانوا يستمعون إليه، لأنه كان يخلص فيما يقول لا يبغي به عُلواً ولا فتنة، وله وصايا كثيرة للخلفاء، من أخصِّها وصيّته للرشيد، وهي وصيّة هادية واعظة مرشدة، ولكن تَزيّد فيها الرواة، ومع ذلك يستطيع القارئ الفاحص أن يُميِّز صحيحها من السقيم الذي زِيدَ فيها.

ولقد كان يُوصي الخُلفاءَ بأهلِ المدينة، ويُروى في ذلك أنه دخل على المهدي فقال له: أوْصِني، فقال:

«أُوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه، فإنه بلغني أن رسول الله قال: «المدينة مُهاجري، وبها قبري، وأهلها جيراني،

= والمضطهد: المغلوب المقهور. وثمّة آثار في عدم وقوع طلاق المكره عن عمر، وابن عمر، وابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وعطاء، والضحاك، ذكرها ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٩: ٥٦٩-٥٧٦.

واحتجَّ البيهقي في هذه المسألة بحديث عائشة: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق».

وحديث عائشة أخرجه أحمد ٦: ٢٦٧، وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، والحاكم ٢: ١٩٨، والبيهقي ٧: ٣٥٧ وفسَّر علماء الغريب الإغْلاق بالإكراه. وقيل: الغضب، وقيل: الجنون.

وحقيقٌ على أمتي حفظي في جيـراني، فمن حفظهم كنتُ لـه شهيـداً وشفيعـاً يوم القيامة»[١].

وكان أخشى ما يَـخْشَاه على الولاة والـخُلفاء المدحَ الكاذبَ الذي يجيء على ألسنة مَنْ يعيشون حولهم، فإنّ ذلك المدح يجعل السيئ من أعمالهم حَسَناً، فلا تتّسع قلوبهم لإرشاد مُرشد. ولا شيء يُوبقُ الحكّام في السَّيِّئات أكثر من التَّزكية الكاذبة لكلِّ أعمالهم، ولذلك كان يغضب من الثناء الكاذب على الولاة. ويُروى أنَّ والي المدينة كان عند مالك مرة، فأثنى عليه بعض الحاضرين، فغضب مالكٌ وقال للوالي:

«إيَّـاك أن يغرَّك هؤلاء بثنائهم عليك، فإنَّ من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك، أوشك أن يقـول فيك من الشرِّ ما ليس فيك، فاتَّق الله فإنك أعـرفُ بنفسك منهم، فإنه بلغني أنَّ رجلاً مُدِحَ عند النبيِّ ﷺ، فقال: «قطعتم ظهره أو عنقه»[٢]، لو سمعها ما أفلح[٣]. وقال ﷺ: «احثُوا الترابَ في وجوه المدَّاحين»[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني ٢٠: ٢٠٥ (٤٧٠) بلفظ مقارب من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة مُهاجري ومَضْجعي من الأرض، وحقٌّ على أمتي أن يكرموا جيراني ما اجْتنبوا الكبائر. فمن لم يفعل ذلك سقاه الله من طينة الخبال..». قال الهيثمي في «المجمع» ٣: ٣١٠: فيه عبد السلام بن أبي الجنوب، وهو متروك.

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٩)، ومسلم (٥٣٢١)، من حديث أبي موسى الأشعري قال: سمع النَّبيُّ ﷺ رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة، فقال: «لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل».

(٣) روى أحمد (١٩٦٠٧) عن أبي بكرة: ذُكر رجلٌ عند النبيِّ ﷺ، فأثنى عليه رجل خيراً، فقال ﷺ: «ويحك قطعت عنق أخيك، والله لو سمعها ما أفلح أبداً»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إذا أثنى أحدكم على أحد فليقل: والله إنَّ فلاناً ولا أزكِّي على الله أحداً».

(٤) رواه مسلم (٥٣٢٣) عن المقداد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم المدَّاحين، فاحثوا في وجوههم التراب».

كان في عُسْرة، ثم وسَّع عليه الله:

وقد كان في أوَّل أمره في عُسْرة شديدة، وقد لازَمَتْه تلك العُسْرة مدَّة طلبه للعلم. حتى إنه كان يبيع الأخشاب من سقف بيته ليواصل طلب الحديث والفقه، ولا ينصرف عنهما. وكان يقول: «لا يبلغ أحدٌ ما يريد من هذا العلم حتى يَضْربه الفقر». فلما علا شأنه جاءته جوائز الخلفاء، وبُسِطَ له في الرزق، وقد بَدَت النعمة في مأكله وملبسه وسكنه، فكان يُعْنَى بمأكله، يُحْسِن تخيُّر أنواعه. وكان يُعْنَى بملبسه ويَتَخيَّر البياض لصفائه، كما كان يُعْنَى بمسكنه، فكان فيه نمارقُ مصفوفة ومطروحة يَمْنَةً ويَسْرَةً في نواحي البيت، يجلسُ عليه من يأتيه من قريش وأبناء الأنصار ووجوه الناس.

ذاكرة واعية حافظة:

لقد آتاه الله تعالى ذاكرةً تثير انتباهه لكلِّ ما يُلقى عليه، وحافظةً تعي كل ما تُودَعه. فإذا استمع إلى قول استمع إليه في حرص ووعاه وعياً تاماً، وكان الحفظ والوعي والذاكرة يُنَـمِّيها اعتماد الناس على ذاكرتهم في هذا الزمان، فما كان العلم يُؤْخَذُ من الكتب، بل كان يُؤْخَذُ من أفواه الرجال، وكانت أحاديث رسول الله ﷺ غير مُدوَّنة في كتاب مسطور، بل كانت مجموعة في القلوب، وكان مالك بهذه الذاكرة القوية مع مساعدة غيرها من الصِّفات، المحدِّث الأول في عصره حتى لقد قال فيه تلميذه الشافعي: «إذا جاء الحديث فمالك النَّجْمُ الثاقب».

وكان رضي الله عنه يحفظ كل ما يسمع من أخبار عن النَّبيِّ ﷺ، ولكنه لا يُلقي على تلاميذه إلا ما يستقيم مع مقاييس نقده في الفحص، وتمييز الصحيح من غير الصحيح، حتى إنهم وجدوا بعد موته صندوقين من الكتب دوَّنها ولم يُعلِّمها..

وروى الشافعي أنه قيل لمالك: «عند ابن عُيينة أحاديثُ [عن الزهري] ليست عندك»، فقال: «أنا أحدِّثُ [عن الزهري] بكلِّ ما سمعت؟! إني إذن أحمق، إني أريد أن أُضِلَّهم إذن، ولقد خَرَجَتْ مني أحاديث لوددت أني ضُرِبْتُ بكلِّ حديث منها سَوْطاً ولم أُحدِّث بها»(١).

---

(١) سقط ما بين المعكوفين. وجاء في «مناقب الشافعي» ص١٩٩ لابن أبي حاتم الرازي: قال الشافعي: قيل لمالك بن أنس: إنَّ عند ابن عُيينة عن الزُّهري أشياء ليست عندك؟ فقال: مالك: وأنا كلُّ ما سمعت من الحديث أحدث به؟! أنا إذن أريد أن أظلمهم.
وروى الحاكم في «معرفة علوم الحديث وكميَّـة أجناسه» في النوع التاسع عشر: عن عبد الله بن وَهْب يقول: سمعتُ مالك بن أنس يقول: لقد حَدَّثْتُ بأحاديث وَدِدْتُ أني ضُربتُ بكلِّ حديث منها سَوْطين ولم أُحدِّث بها! ثم قال الحاكم: فمالكُ بن أنس على تحرُّجه وقلَّة حديثه يتَّقي الحديث هذه التَّقيَّـة، فكيف بغيره ممن يُـحَدِّث بالطِّمِّ والرِّمِّ؟! أي دون تمييز بين الصحيح والضعيف.
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١: ٢٢٥ في شرح قول عليٍّ: «حدِّثوا الناس بما يعرفون ـ أي: يفهمون ـ، أتُـحبُّون أن يُـكَذَّب اللهُ ورسوله؟!»: «وفيه دليلٌ على أنَّ المتشابه لا ينبغي أن يُذكر عند العامة. ومثله قول ابن مسعود: «ما كنت مُحدِّثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»، رواه مسلم.
وممن كره التحديث ببعضٍ دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصِّفات، وأبو يوسُف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدَّم عنه في الجرابَيْن وأنَّ المراد: ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديثَ أنس للحَجَّاج بقصة العُـرَنيين لأنه اتَّخذها وسيلةً إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. وضابط ذلك: أن يكون ظاهر الحديث يُقوِّي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمْساك عنه عند من يُخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب، والله أعلم». انتهى.

العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقيّ خاشع:

وقد صَاحَب ذكاءَ مالك وعبقريتَه في الحفظ والوعي وصبرَهُ وجَلدَه ودأبه، إخلاصٌ منير مشرق.. أخلص في طلب الحقيقة، فاتَّـجه إليها من غير غرض ولا هوى ولا عوج، وأخلص في طلب العلم جملة، فطلبه لله تعالى لا يَبْغي به عُلواً في الأرض ولا فساداً، وخلَّص نفسه من الأهواء والشهوات ليقول الحق وينطق به، ويدركه ويفكر فيه تفكيراً سليماً، إذ لا شيء يُعكّر الفكر كالغرض والامْتراء، وإرادة الاستعلاء، وكان يعتقد أنَّ نور العلم لا يكون إلا في قلب تقيّ، فقد أُثر عنه أنه كان يقول: «العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع»، وكان يقول: «ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة».

تريُّثه في الفتوى:

وكان لإخلاصه لا يحبُّ العَجَلة في الإفتاء، بل يؤثر التريُّث، ويستأني المستفتي، وأحياناً يقول: «انصرف حتى أنظر»، ويتردَّد فيها، وقد اعترض عليه بعض تلاميذه في ذلك فبكى، وقال: «إني أخاف أن يكون لي في المسائل يوم وأيُّ يوم، مَنْ أحبَّ أن يجيب عن مسألة فَلْيعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة».

ولإخلاصه للكتاب والسنة واحترازه عن الخطأ في دينه كان لا يقول: «هذا حلال وهذا حرام» إذا كان ما وصل إليه في أمرٍ أساسه الرأي والاجتهاد، لا النص من الكتاب والسنة، بل كان يقول فيما يرى إباحته: «ليس به من بأس»، وما يرى تحريمه: «إني أكرهه»، ولنتركه يتكلَّم فيما كان يتبعه في الفتيا، ومن كان يقتفي آثارهم من الصحابة، فقد رُوي عنه أنه قال:

«ما من شيءٍ أشدَّ عليَّ من أن أُسأل عن مسألة من الحلال والحرام، فإنّ هذا هو القطع في حكم الله تعالى، ولقد أدركتُ أهل العلم والفقه ببلدنا، وإنَّ أحدهم إذا

سُئل عن مسألة فكأن الموت أشرف عليه، ورأيتُ أهل زمانا هذا يشتهون الكلام والفتيا، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه لقلّلوا من هذا، وإنَّ عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب، وخيار الصحابة كانت تَرِدُ عليهم المسائل، وهم خير القرون الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، وكانوا يجمعون أصحاب النبيِّ ﷺ ويسألون ثم حينئذ يفتون، وأهل زماننا هذا قد صار همُّهم الفتيا. ولم يكن من أمر الناس، ولا من مضى من سلفنا الذين يُـقْتدى بهم ويُعوِّل أهل الإسلام عليهم أن يقولوا: هذا حلال، وهذا حرام، ولكن يقال: أنا أكرهُ كذا، وأما حلال وحرام فهذا هو الافْتراء على الله. ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ [يونس: ٥٩]؛ لأن الحلال ما أحلَّ الله ورسوله».

ولإخلاص مالك في الإفتاء كان يقول: «لا أُحسن» أو «لا أدري» بصوت جهير إذا لم ينته من المسألة التي استفتي فيها إلى رأي يطمئنُّ إليه. وقد كان السائل يجيئه أحياناً من أقْصَى الأرض، ومع ذلك إذا لم ينته إلى أمر يطمئن إليه قال في صراحة: «لا أدري».

وأحياناً كان يقول: «لا أدري» إذا كان قد انتهى إلى أمر في المسألة لا يحسن إعلانه، لأنه ربما يُـجرِّئ الفسَّاق على الدين.

كان يكره الجدل في الدين:

ولقد دفعه إخلاصه للدين وللحقائق الدينيَّـة إلى كراهة الجدل في الدين، وهو يقول في ذلك: «المراء والجدال في الدين يَذهبُ بنور العلم من قلب العبد»، ويقول أيضاً: «إنّ الجدال يُـقسّي القلب ويُورث الضغن».

وقد عاش مالكٌ في عصر كَثُرت فيه المجادلات ومجالس المناظرات، فكانت مناظرات بين أهل الفرق المختلفة، وكان المعتزلة يجادلون في الردِّ على أهل الأهواء، ولكنّ مالكاً كان يريد أن يُبعَد الفقه والحديث عن الجدل، لأنه علم الحلال والحرام وهو يقتضي النظرة الشاملة لا النظرة الجانبية، ويرى أنَّ الجدل يجعل أقوى الناس بياناً أغلب وأسبق، ولذلك يقول رضي الله عنه: «كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل!».

وكانت المناظرات الفقهيّـة قد كَثُرت في العراق وبين كبار العلماء، ولكن مالكاً كان يكره هذا، ويراه مسابقة لا تليق بوقار العلماء، ولا بطلب الحقيقة، ويُروى في هذا أنَّ الرشيد جمع في مجلسه بالحجاز بين الإمام أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة، وكان قاضي قضاة الإسلام، وبين إمام دار الهجرة مالك، رضي الله عنهما، فقال الرشيد لمالك: «ناظر أبا يوسف»، فقال الإمام القويُّ تلك الكلمةَ القويّـةَ: «إنّ العلم ليس كالتَّحريش بين البهائم والدِّيَـكَة».

كان ينصحُ ولا ينتقد:

وكان مالكٌ رضيَ الله عنه يحترم أحكام القضاة ويُبعدها عن مواطن الرَّيْب، ولذلك كان لا يُعلن بين الناس نَقْدَها، حتى لا تذهب قُوَّتها ورَوْعَتها، وقد يدفع ذلك إلى التَّمرُّد عليها والعصيان لها، ولقد قال تلميذه ابن وَهْب: «سمعته يقول فيما يسأل عنه من أمر القضاة: «هذا من متاع السلطان»».

مالكٌ إذن ما كان يتعرَّض لأحكام القضاة بالنقد، ولكن كان يُرشدهم في الخفاء، حتى لا تذهب رَوْعة الأحكام التي يُصدرونها، إذ أنَّ التعرُّض لها بالنقد على

الملأ يُذهِب ما ينبغي أن يكون لها من إجْلال، لِتُجْتَثَّ المنازعات من جُذورها، ولكيلا يفتح على الناس باب الطعن بالباطل وبالحق.

فِرَاسَةٌ لا تُخطئ!

وقد كان الإمام مالك مع تلك الصفات العلميَّة والشخصيَّة ذا فِراسة قوية ينفذ بها إلى بواطن النفوس، وبواطن الأمور. ولقد قال الشافعي في فراسة مالك: «لما سِرْتُ إلى المدينة ولقيتُ مالكاً، وسمع كلامي، نظر إليَّ، وكانت له فراسة، ثم قال: ما اسمك؟ قلت: محمد. قال: يا محمد اتَّق الله، واجْتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأنٌ من الشأن».

وقد قال أحد تلاميذه: «كان في مالكٍ فِراسةٌ لا تُخطئ».

والفراسةُ النافذةُ في القلوب هي صفات قادة الأفكار الذين يتَّصلون بالناس ويُرشدونهم ويَهْدُونهم، وهي التي يَعرف بها القائد الفكري كيف يأتي النفوس مما تُحب ليصل إلى ما يُحب، حتى لقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنَّ للقلوب شهواتٍ وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قِبَلِ شهواتها وإقبالها، فإنَّ القلب إذا أُكره عَمِي».

هَابَه حتى الخلفاء!

وقد اختصَّ الله مالكاً بصفةٍ لازمته طول المدة التي تَولَّى فيها الدرس والإفتاء، وهي المهابة. فقد أجمعت الأخبار على اتِّصافه بهذه الصفة، هابه تلاميذه حتى إنَّ الرجل يدخل عليه في مجلس درسه فيُقْرئ السلام، فلا يرد عليه أحد إلا هَمْهَمةً وإشارة، ويشيرون إليه ألا يتكلَّم، وقد يستنكر ذلك، ولكنه ما أن يملأ عينيه بمالكٍ وسَمْته، ويقع تحت تأثير نظراته؛ حتى يأخذه ما أخذهم.

ويهابه الحكّام، حتى إنهم ليُحسُّون بالصِّغر في حَضْرته، بل ويَـهَابه الخلفاء أنفسهم.

ومما يُروى في ذلك: أنَّ المهدي دعاه، وقد ازدحم الناس بمجلِسِه، ولم يَـبْـقَ مَـوْضعٌ لجالس، حتى إذا حَضَر مالكٌ تنحَّى الناس له، حتى وصل إلى الخليفة فتنحَّى له عن بعض مجلسه، ورفع إحدى رجليه ليفسح لمالك المجلس.

لقد بلغت هَـيْـبَـةُ مالكٍ حدّاً لم يبلغه الملوك والخلفاء، فكان المهيبَ من غير جَبَروت ولا سلطان.

قال بعض الأندلسيين الذين عاصروه ورأوه: «ما هِبْتُ أحداً هَيْـبَتي عبد الرحمن ابن معاوية (أي عبد الرحمن الداخل)، فدخلتُ على مالكٍ فهبته هَـيْـبَـةً شديدة صَغُرت معها هيبة ابن معاوية»!

وكان أشدّ الناس هَـيْـبَـةً له والي المدينة، حتى إنه ليشعر بالذلة بين يديه.

قصّة التقاء الشافعيِّ بمالك:

ولننقل لك قصّة التقاء الشافعي بمالك ومعه والي المدينة. وقد قال الشافعي في ذلك: «دخلت إلى والي مكة، وأخذت كتابه إلى والي المدينة، وإلى مالك بن أنس، فقدمت المدينة، وأبلغت الكتابَ إلى الوالي، فلما قرأه قال: يا فتى، إنَّ مشيي من جَوْف المدينة إلى جوف مكة حافياً أهونُ عليَّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلستُ أرى الذل حتى أقف على بابه. فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يُوجِّه إليه ليحضر. فقال: هيهات! ليت إني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا تراب العقيق نلنا بعض

حاجتنا. فَوَاعدتُه العصر، وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال، أصابنا تراب العقيق، فتقدَّم رجلٌ فقرع الباب، فخَرَجتْ إلينا جاريةٌ سوداء، فقال الأمير: قولي لمَوْلاكِ إنني بالباب، فدخلت، فأبطأت، ثم خرجت، فقالت: إنَّ مولاي يُقْرِئك السلام، ويقول لك: إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس، فقال لها: قولي له إنَّ معي كتاباً من والي مكة إليه في حاجة، فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته، وإذا أنا بمالك وقد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخٌ طويلٌ، فجلس وهو مُتَطلِّس فرفع إليه الوالي الكتاب، فبلغ إلى هذا: إنَّ هذا رجلٌ من أمره وحاله، فتحدِّثُه وتفعلُ وتصنع... فرمى بالكتاب من يده! ثم قال: سبحان الله! أَوَ صار علم رسول الله ﷺ يُؤْخذ بالوسائل؟! فرأيت الوالي قد تهيَّب أن يكلِّمه.

وهكذا عاش عزيزاً في نفسه، مُكرَّماً عند الناس، حتى جاءه أجله سنة ١٧٩، فانطفأ نورُ الجسم، ولم ينطفئ نور العلم، فترك علماً نافعاً ينتفع به.

* * *

الشافعيّ[١]

(١٥٠-٢٠٤هـ)

خطيبُ العلماء وفيلسوفُ الفقهاء

في العقْدِ التاسع مِنَ القرنِ الثاني الهِجريّ، كان يجلس في البيتِ الحرام، قريباً من بئرِ زمزم، شابٌّ عليهِ ثيابٌ بِيض، تعلو وجهَهُ سُمرة، حَسَنُ السَّمْت، حَسَنُ العقل، وكان يُدارس مَنْ يحيطون به الفقهَ والحديث، ويروي لهم الشعرَ والأدب. وكانت حلقتُه تتَّسع في أشهرِ الحج المعلومات حيثُ يفدُ الناسُ من كلِّ فجٍّ عميق، إذ كان يقصدُ طلّابُ علم الإسلام مكةَ للحجِّ ومذاكرةِ العلم في منازلِ الوحي، ومهابطِ الرسالة. وكانت مكة ندوة العلماء يجتمعون فيها ويتذاكرون الفقهَ ويَروي الحديثَ بعضُهم عن بعض.

ولقد استرعى مجلسُ هذا الشابِّ وحديثُه وعلمُه شاباً آخرَ دونه سناً، هو أحمدُ بنُ حنبل، فجلس إليه فراعَهُ قولُه، وأخذ يحدِّث من مَعَه بحديثِ ذلك العالِم الشابّ، وقال لصاحبه وهو يحاورُه: «قم معي حتى أُريَك رجلاً لم ترَ عيناك مثلَه»، فَعَجِب صاحبُه من أنْ يأخذه من مجلسِ المشْيَخةِ في الحديث إلى مجلس هذا الشابّ، فيشتدُّ أحمد في الحماسةِ للعالم الشابّ، ويقول لصاحبه: «اسْكُتْ، فإنْ فاتَكَ حديثٌ

---

(١) مجلة العربي: العدد ١٥، عام ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م.

بعُلوّ، تجدْهُ بنزول[١]، ولا يضرُّك، أمّا إنْ فاتك عقل هذا الفتى، فإني أخافُ ألّا تجدَه إلى يومِ القيامة، ما رأيتُ أحداً أفقهَ في كتاب الله من هذا الفتى القُرَشيّ».

الشافعيُّ ذو نسَبٍ بالنبيِّ ﷺ:

ذلكم العالمِ الفتى هو محمدُ بن إدريسَ الشافعيُّ القُرشيّ المطَّلبي، ينتهي نسبُه إلى المطّلبِ بن عبدِ مناف، فهو يلتقي معَ النبيِّ ﷺ في عبدِ مناف، وبنو المطّلِب وبنو هاشم كانوا على مودّةٍ في الجاهليّة وفي الإسلام، حتى إنهم يأبَوْن إلّا أنْ يشاركوا بني هاشمٍ فيما نزل بهم عن أذى قريش، بسبب حمايتِهم للنبيِّ ﷺ ونُصرته بعد مبعثه.

وُلِد الشافعيّ في سنة ١٥٠ بحيِّ اليمن في غزة، وكانت أمُّهُ أزديّة يَمَنيّة، ولم تكتحلْ عيناهُ برؤيةِ أبيه إذ مات وهو صغير في المهد، ولكنه كان قُرَّة عين أمِّه، ولقد عُنِيَتْ بتربيتِه، وكان رضي اللهُ عنه يُحدِّثُ عن أُمِّهِ وعن عنايتِها به فيقول: «وُلدتُ بحيِّ اليَمَن، فخافتْ أُمي عليَّ الضَّيْعة، وقالتِ: الـحَقْ بأهلِك، فإنّي أخافُ عليك أنْ تُغْلبَ على نفسِك، فَجَهَّزتْني إلى مكة، فقدِمْتُها، وأنا يومئذٍ ابنُ عشرٍ أو شبيهٌ من ذلك».

فهذه الأمُّ الصَّالحة رَضِيَتْ بفِراقِ ابنِها الوحيد في سبيل مصلحتِه، فذهب وأقامَ بين ذويه، وتثقَّف بثقافةِ أهلِ مكة، ويظهرُ أنّها لحقتْ به بعد أَنْ أصلحتْ من شؤونِها ورتَّبتْ أُمورَها.

---

(١) معنى روايةِ الحديث بعلوّ: أن يكونَ عددُ رجال السند قليلاً، كأن يرويَ مالكٌ عن نافع عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ. ومعنى روايته بنزول: أن يكون رجال السند أكثر، كأن يروي مالك عن أبي الزناد عن ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ. (أبو زهرة).

في مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما:

نشأ الشافِعيُّ فقيراً، ونسيباً رفيعاً، فَعَلا بنسبِهِ عن سَفْسَافِ الأمور، وتَطَامَنَ من غير هوانٍ ولا ضِعَة، فكان الأليفَ المألوف، لم تنلْه كبرياءُ الأنسباء، ولم يُذِلَّ نفسَهُ فقرُ الفُقَراء.

اتجهَ بتوجيهِ أُمِّه وأقربائِهِ من قُريش إلى حفظ القرآنِ الكريمِ وجمعِ الحديثِ وروايتِه، وكانت مكة هي مدرسةَ عبدِ الله بنِ عبّاسٍ التي ترك فيها تلاميذَه، ولذلك كانتْ فيها علومُ القرآن والناسخِ والمنسوخ، إذ كان ذلك من أهمِّ ما كان يُعنَى به عبدُ الله بنُ عبّاس، حتى لقد سُمِّيَ تَرجمانَ القرآن.

وكان في مكة عددٌ من كبارِ رواة الحديثِ، منهم سفيانُ بن عُيينة، ومسلمُ بن خالدٍ الزَّنجيِّ، وغيرُهم كثير، وقد تلقّى عليهم الشافعيُّ كثيراً، حتى بلغ مبلغَ الإفتاء، وهو في سنِّ العشرين.

خرج إلى البادية ليَتَـفَصَّح لسانه:

وكان وهو يشدو في طلب الفقهِ والحديثِ وعلومِ القرآن، يعمل على أنْ يَتَفَصَّحَ لسانُه العربيّ، حتى لا تكون فيه عُجْمةٌ في وقتٍ خالطت العُجمةُ بعض المتكلمين بالعربيّة في المدائنِ والأمصار، وفي سبيل تنقيةِ لسانه خرج إلى البادية، فلزِمَ قبيلةَ هُذَيل، وكانت أفصحَ العرب، وكان يرحلُ برحيلهم، وينزل بنزولِهم، ويحفظُ أشعارهم، حتى كان روايةً لهذه الأشعار، ولقد قال الأصمعيُّ ـ ومكانته في رواية الأدب مرموقة: «صَحَّحتُ أشعارَ هُذَيل على فتىً من قريش يُقال له: محمدُ بنُ إدريس..».

الشافعي يلقى مالكاً:

أتمَّ الشافعيُّ العشرين من عُمُره بمكة، وأُذن له بالإفتاء، ولكنَّ حديثَ مالكٍ كان ذائعاً، فهمَّ بالذهابِ إليه، ولم يُرد أنْ يذهب إليه خاليَ الوِفاضِ من علمه، ولذلك جاء إلى الموطَّأ فقرأه، وحفظ الكثيرَ منه، وقيل حَفِظه كلَّه، ثم ذهبَ إليه ومَعَه توصيةٌ من والي مكة إليه. وكانت مكانةُ مالكٍ قد بلغت ذِروتَها، فلمّا التَقى بإمام دار الهجرة، وهو ذو فِراسة، نظر إليه نظرةً فاحصةً نافِذة، ثم قال له: «يا محمدُ اتَّقِ الله، واجتنبِ المعاصي، فإنه سيكون لك شأنٌ من الشأن، إنَّ اللهَ تعالى قد ألقى على قلبكَ نوراً، فلا تُطفئْه بالمعصية».

لزم الشافعيُّ مالكاً، وقرأ عليه الموطأ في أول مَقْدَمِه، وكانت قراءتُه وحسنُ أدائِه يُعجبانِه، ويقول في ذلك الشافعيّ: «وابتدأت أقرأ، والكتاب في يدي، فكلَّما تهيَّبْتُ مالكاً، وأردتُ أنْ أقطع، أعجبه حُسْنُ قراءتي وإعرابي، فيقول: «يا فتى، زِدْ»، حتى قرأته عليه في أيامٍ يسيرة».

وقد عاش الشافعيُّ مَعَ مالكٍ تسعَ سنواتٍ تلقّى عليه فقْهَ المدينة، ولكنه كان معَ ذلك يقوم برحلاتٍ في البلاد العربية يستفيد منها ما يستفيده المسافرُ الأريب من علمٍ بأحوالِ الناس وشؤون اجتماعِهم، وكان من وقتٍ لآخرَ يذهبُ إلى مكة يزور أمَّه، ويستنصحُ بنصائِحها، وكان فيها ـ كما رأينا ـ رأيٌ صائِب، ونظرٌ مستقيم، وحُسْنُ فهمٍ ونُبْلٌ وأدب.

يَرْهن داره بحثاً عن الرزق:

ولما مات مالكٌ سنة ١٧٩هـ، عاد الشافعيّ إلى مكة، واتجهت نفسُه إلى عملٍ يدرُّ عليه رزقاً يدفع حاجته.

وصادف أن قَدِم والي اليمن إلى الحجاز، فخاطبه بعضُ القرشيِّين في شأنِ الشافعيّ، فأخذه الوالي مَعَه، ويقول الشافعي: «ولم يكنْ عندَ أُمّي ما أتحمَّل به فرهنْتُ داري».

تولّى الشافعي عملاً في نَجْران، ولما بلغ الفقهاءَ والمحدِّثين ما صنع لامُوه ونقدوه. وَلْنضربْ صَفْحاً عن ملامةِ اللائِمين، ولنتجهْ إلى ما كان منه في هذا العمل. لقد نشَرَ لواءَ العدل. وكان الناسُ في نجران كما هم في كلِّ عصر يُصانِعون الولاةَ والقُضاة ليجدوا السبيلَ إلى نفوسِهم، ولكنّهم وجدوا في الشافعيَ عدلاً، وأنّه لا سبيلَ إلى الاستيلاء على نفسِه بالمصانعةِ والملَق، إذ الملَقُ هو البابُ الذي يلجُ صغارُ النفوس به إلى الكبراء ليُحَوِّلوهم عن مَجْرى العدلِ والحقّ، وقد سدّ الشافعيُّ هذا البابَ، ولكن العدلَ مركبٌ صعْب، لا يقوى عليه إلا أُولو العزم منَ الرجال، وهم يتعرضون لخشونةِ الزمان وأذاه، وكيد الكائدين، وجهل الجاهلين.

محنتُه: وِشايةٌ عند الرشيد:

ونزلَ باليمن ـ ومن أعمالِها نجران ـ والٍ ظالم، فكان الشافعيّ يأخذ على يديْه، ويمنعُ ظلمَه أنْ يصل إلى مَن تحتَ ولايتِه، ورُبَّما نال الشافعيُّ ذلك الوالي بما يملكه العلماءُ من سيفٍ يُحسنون استعمالَه، وهو النقد، وألسنةُ العلماء وهم غِضاب تعملُ ما لا تعملُه السيوفُ القِضاب. وأخذ الوالي من جانبه يكيد له بالدسِّ والوِشاية، وكلٌّ مُيسَّر لما خُلِق له.

ولقد جاء في وشايتِه من ناحيةِ الضعف عند العباسيين، وهي خوفُهم من العلويِّين، فاتَّهم الشافعيَّ بأنه علويٌّ، وأرسل إلى الرشيد يقول له: «إنَّ هنا رجلاً من ولد شافعٍ المطَّلبيّ، لا أمرَ له معه ولا نهي، يُعمل بلسانِه ما لا يقدرُ المقاتلُ عليه بسيفِه».

وقد أحضَره الرشيد إليه، ووجَّه إليه التهمةَ بأنهُ علويٌّ، فانبرى يدفعُ التهمةَ عن نفسِهِ ببلاغته قائلاً: «يا أميرَ المؤمنين ما تقولُ في رجلين، أحدُهما يراني أخاه، والآخرُ يراني عبدَه، أيُّهما أحبُّ إليّ؟».

قال: «فالذي يراكَ أخاه».

فقال الشافعي: «فذاكَ أنتَ يا أميرَ المؤمنين. إنكم ولدُ العبّاس، وهُمْ ولدُ عليّ، ونحنُ بنو المطَّلب، فأنتمْ بني العبَّاس تَروْنَنَا إخوانكم، وهم يَرَوْنَنا عبيدَهم».

ساق الشافعيّ هذه الحُجَّة، وهي في فحواها تدلُّ على شَمَمٍ وإباءٍ وسُمو، فمَظِنّة الكذبِ غير قريبة. وكان في المجلس محمدُ بنُ الحسن الشيباني، تلميذُ أبي حنيفة، فاستأنسَ به الشافعيّ، ورأى أنّ العلم رَحِمٌ بين أهلِه، فذكر أنَّ له حظّاً في الفقهِ والحديث. واستشهد بالقاضي محمدِ بنِ الحسن، فقال القاضي الفقيه: «له مِنَ العلمِ حظٌّ كبير، وليس الذي رُفِعَ عنه مِنْ شأنِه»، فقال الرشيد: «خذْهُ إليك حتى أنظرَ في أمرِه».

إقامته في بغداد ومذاكرته محمد بن الحسن الشيْباني:

نجّاه العلم من الولاية ومحنتها فعاد إليه، وأخذ يُذاكِرُ محمدَ بنَ الحسن فِقْهَ العراقيِّين، والتَقى عنده بذلك فِقْهُ العراقِ وفِقْهُ المدينة وفِقْهُ مكة. وقد أخذ مِنْ علمِ محمدٍ صاحب أبي حنيفةَ وكتبه، ونقلَ عنه وقيَّد ما نقلَ، حتى لقد قال: «حملتُ عَنْ محمدِ بنِ الحسن وَقْر بعير، ليسَ فيه إلّا سماعي منه».

ولقد أقام ببغداد أمداً ليس بالقصيرِ في ضِيافةِ الإمام محمدِ بنِ الحسن. وهذا الأمدُ لم يذكر المؤرخون مقدارَه، ولكنّا لا نُباعِدُ إذا قدَّرناه بنحو السنتيْن، عاد بعدَهما وعندَه نوعانِ من الفقهِ مختلفان، ورأى تَشَعُّبَ الآراء، واختلافَ الأنظار، وتباينَ

الاتِّجاهات، فكان لا بُدَّ له مِنْ أنْ يُفكِّرَ في أمرٍ آخرَ غيرِ الفتاوى والفروعِ الجزئيَّـة، وهو وضع مقاييسَ لمعرفةِ الحق مِنَ الآراء، أو على الأقل لمعرفةِ ما يكون أقربَ للحقِّ منها، فإنه ليسَ مِنَ المعقول بعد أنْ رأى ما بينَ نظرِ العراقيين والحجازيين مِنْ خِلاف، وكلا الفريقين له احترامه في نفسه ـ أنْ يحكمَ ببطلانِ أحدِ النظريْن جملةً من غيرِ ميزانٍ دقيقٍ ضابط.

الشافعيّ يضع مناهجَ الاستنباط:

لهذا فكَّر في وضع مناهجِ الاستنباطِ لتكونَ المقياسَ والميزان، وهو في سبيلِ هذا توافَرَ على الكتابِ يعرف طرقَ دلالاتِه، وعلى الأحكام يعرفُ ناسخَها ومنسوخَها، وعلى السنةِ يعرف مكانَها مِنَ الشريعة، وصحيحَها وتمييزَهُ عَنْ غيرِه، وطرق الاستدلال بها، ومقامها مِنَ القرآن الكريم، ثم كيفَ تُتعرَّفُ الأحكامُ إذا لم يكنْ في الموضوعِ كتابٌ ولا سنّة؟ وما ضوابطُ الاجتهاد؟ وما الحدودُ التي تُرسم للمجتهد؟ فلا يعدوَها، ليأمنَ الشَّطَط.

من أجلِ هذا التفكيرِ العميق، طالتْ إقامتُه في هذه المرّةِ في مكة، وقد عهدناه صاحبَ أسْفار، وفي هذه الفترةِ الطويلةِ التَقى به أحمدُ بنُ حنبل وغيره من فقهاءِ العراق، وفقهاءِ المدينة، وأخذوا عنهُ تلك المناهج.

وكان هذا العصرُ عصرَ المناهج، فالخليلُ بنُ أحمد قد وضع قواعدَ العروض ومناهجَه، وأبو الأسود الدؤليُّ قد وضعَ مناهجَ الفُصْحى وقواعدَها، والجاحظُ قد أخذ يَضَعُ مناهجَ النقدِ الأدبيّ، وكذلك المبردُ وغيرُهما، فلم يكنْ غريباً عن العصر أن يتَّجه الشافعيّ إلى وضعِ مناهجِ الاستنباطِ وأصولِه.

عودته إلى العراق بمناهجه:

تكامل للشافعيّ في أثناء إقامته بمكة مجاوراً بيتَ الله الحرام علمٌ لا بُدَّ أن يعلنه للدرس والتمحيص، فانتقل إلى بغداد وقدِمها للمرةِ الثانية سنةَ ١٩٥، وهو يحملُ في حقيبتِهِ علماً كلياً، وليس حلولاً جزئيَّة، وقواعدَ عامّةً لا فتاوى وأقضيةً خاصَّة، فانثالَ عليه الفقهاءُ والمحدِّثون، ولَمْ يكنْ ما مَعَه قولاً غيرَ مدوَّن، بل كان معه كتبٌ مُدوَّنةٌ حاويةٌ للمناهج والفروع التي اسْتَنْبطها بتطبيق هذه القواعد.

وأخذ يُمْلي هذه الكتبَ على تلاميذِه، فدوّنوا الرسالة، وهي التي وضَّح فيها المناهج، وأصولَ الاستنباط، ودوَّنوا كتابَ الأم، وهو الذي يشتمل على الفروع، وفيه أيضاً مناهجُ ككتابِ جماعِ العلم، وكتاب إبطال الاستحسان، وقد كتبَ عنه كلَّ هذا تلميذُه الزعفراني.

وقد مَكَثَ في بغدادَ في هذه المقدمة نحوَ سنَتيْن، اطمأنَّ فيها إلى نشرِ آرائِه ومناهجِه بينَ الملإ من الفقهاءِ والمحدِّثين.

رحلته إلى مكة، وعودته إلى بغداد، وإقامته مصر:

ثم عاد إلى مكة، ولعله ذهب إليها حاجّاً، أو لإنهاءِ بعض شئونه بها.

وعاد بعدَ ذلك إلى بغداد سنة ١٩٨، ولكنَّه في هذه المرَّة لَمْ يُقِم بها إلا أشهراً، ثم نَزَحَ منها إلى مصر، فوصل إليها أول سنة ١٩٩.

وهنا يسألُ الباحث: لماذا لَمْ تَطلْ إقامتُه ببغداد هذه المرّة؟ ولعل الجوابَ عن هذا السؤالِ: أنَّ الخلافة قد آلتْ إلى عبدِ الله المأمون، وفي عهدِه كانَ أمران:

أحدُهما: أنَّ العنصرَ الفارسيّ سَيْطَر، إذ إنَّ المعركة التي كانتْ بينَ الأمينِ والمأْمونِ كانت في حقيقتِها معركةً بينَ العربِ يُناصِرون الأمينَ، والفُرْسِ يناصِرون المأْمون، فبانتصارِ المأمونِ غَلَبَ الفُرسْ.

ثانيهما: أن المأمونَ أدنى منه المعتزِلَة، وباعدَ بينَهُ وبينَ الفقهاءِ والمحدِّثين، حتى أدَّى الأمرُ قُـبَـيْـلَ وفاتِه إلى أنْ يُـنزلَ المحنةَ بالفقهاءِ والمحدِّثين.

وما كان الشافعيُّ العربيُّ القُرَشيُّ لِـيرضى عَنْ المقامِ في ظلِّ الغلبةِ الفارسيّـة، ولا أَنْ يُـقيمَ في دارِ الخلافةِ التي تُـقرِّبُ المعتزلةَ وتُـبْعدُ الفقهاء، فكان لا بُـدَّ من أَنْ يشدَّ رحالَـه إلى بلدٍ آخر.

واختارَ مصر، لأنها بتوسُّطِها في الديارِ الإسلامية بينَ الشرقِ، والغربِ والأندلس، كانتْ لها مكانةٌ علمية، لإقامةِ تلاميذِ مالكٍ بها، ولأَنَّ أميرَها كان عربيّـاً قُرشيّـاً عباسيّـاً. وقد أكرمَ وفادةَ الشافعيّ، وأجْرى عليه حِصَّتَه مِنْ بيتِ المالِ كقُرشيٍّ مُـطَّلِبيّ، فإنّ النبيَّ ﷺ سوَّى بينَ بني الـمُـطَّلِبِ وبين هاشمٍ في العطاء.

أقام الشافعيُّ بالفُسْطاط، وأخذَ يُـلْقي دروسَهُ في جامعِها، وقد أَخذَت دراسَتُـهُ في الفُسْطَاط لوْناً جديداً منَ الدراسة، فأخَذَ يزِنُ الفقْهَ بالموازينِ التي وضَعَها، فوَزَنَ فقهَ العراقِين، وفقهَ مالك، واضْطرَّ أنْ يُخالِفَ أستاذَه، وكان منهُ بمنزلةِ أرسطو مِنْ أفلاطون.

وقد قال أرسطو عندَ خلافه معَ أفلاطون: «إنَّ أفلاطونَ صديقي، ولكنَّ صَدَاقتي بالحقِّ أوْثَق».

ولسانُ حالِ الشَّافعيّ يقول مثلَ هذه المقالة. فلَمْ يكدْ يبلغُه أنَّ أهلَ الأندلس يأخذونَ قَلَنْسُوةَ مالك ويَسْتَـقُون بها ـ أي يَضْرَعونَ إلى الله عندَ الـجَدْب، أن يُنزِل

عليهم الماءَ مُزْدَلفين إليه بهذه القَلَنْسُوة، حتّى أعلنَ كتابَهُ «اختلاف مالك» ليُثْبِتَ للناس أنّ مالكاً بَشَرٌ كسائرِ البشر، يُخطئ ويُصيب. وهكذا نجدُ إخلاصَه للحقّ يدفعُه إلى نقدِ شيخِه، ووفاءَه لشيخِهِ يمنعُه مِنْ إعلانِ النقد، وإخلاصَه لدينِهِ يدفعُهُ إلى الإعلان.

ولم يكتفِ بوزنِ آراءِ غيرِه، بل جاء إلى آرائِه نفسه، وأخذ يُمحِّصها ويَفحصُها، وانتهى إلى مخالفةِ اجتهادِهِ السابق في كثيرٍ من المسائل، وأملى من جديدٍ كُتُبَه على تلاميذِه بالفُسطاط مجدِّداً لآرائِه، وقد خالف بعضها وأقرَّ أكثرَها. وكان رَاويتَهُ لهذه الكتبِ الجديدة هو ربيعةُ بنُ سليمانَ المراديُّ المؤذِّن، وقد ألغى بهذه الكتبِ ما كان قد دوَّنه الزعفرانيّ عنه.

وصارَ للشافعيّ بهذا نوعان مِنَ الكُتُب، أحدُهما: كتبُه بالعراق، وهي القديمةُ والأُخرى بمصر، وهي الجديدة. وقد قال بعضُهم لهذا: إنّ له مذهبيْن: أحدُهما قديم، والآخرُ جديد. ولكنّ المذهبَ واحد، ولو اختلفتْ آراءُ الإمام، ولذلك كان يقول رضيَ الله عنه: كتابي الجديد وكتابي القديم.

صفاته ومواهبه:

لقد آتى اللهُ الشافعيَّ حظّاً كبيراً من المواهب العالية، جعلَه في الذِّروةِ من قادةِ الفكرِ الإسلامي، حتى لقد قال أحمد بن حنبل:

«يُروى عَنِ النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنّ اللهَ عزَّ وجل يبعثُ لهذه الأمّة على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ رجلاً يُقيمُ لها أمرَ دينِها»[1] فكان عمرُ بنُ عبدِ العزيز على رأسِ المائةِ الأولى، وأرجو أنْ يكونَ الشافعيّ على رأسِ المائةِ الأخرى».

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها».

وقد كان الشافعيُّ قويَّ المدارك، كان حاضرَ البديهة تَنْثالُ عليه المعاني انثيالاً في وقتِ الحاجةِ إليْها. وكان يُلقي على ما يدرسُ ضَوْءاً من تفكيره فتتَّضح بين يَدَيْه الحقائقُ ويستقيم منطقُها. وكان عميقَ الفكرة، وكان بعيدَ المدى في الفَهْم، لا يقف عند حدّ، حتى يصل إلى الحقِّ كاملاً. وكانت نتيجة اتِّجاهه إلى الكُلّياتِ أنْ وَضَعَ أصولَ الفقه، فكان في الفقهِ كأرسطو في المنطق.

قوَّة بيانه وفَصَاحَةُ لسانه:

وكان الشافعيّ قويَّ البيان، واضحَ التعبير، وأُوتِيَ مع فصاحة لسانِه وبلاغة بيانِه صوتاً عميقَ التأثير، يُعبِّر بنبراتِه، كما يوضِّح بعباراته. ولعمق تأثير صوته كان إذا قرأ القرآن جاهراً بقراءته أبكى سامعيه. ولقد قال ابنُ أبي الجارود:

«وما رأيتُ أحداً إلّا وكتبُه أكبر مِنْ شاهِدَته، إلّا الشافعيّ، فإنّ لسانَه أكبرُ من كتابِه». ولقد بلغَ من إجادتِه القولَ أنْ سمَّاه معاصروه «خطيبَ العلماء».

نفاذ بصيرته وقوَّة فِراسته:

وكان الشافعيُّ نافذَ البصيرةِ، قويَّ الفِراسة، بصيراً بنفوس الرجال وما تُطيقه مداركُهم، وتلك صفة لازمةٌ للمُناظر الأريب الذي يريد أن يَـجْذب خَصْمَه إليه، كما هيَ لازمةٌ للأستاذِ الـمُدْركِ الذي يُوائِم بين طاقةِ تلاميذِه في الفهم، وطاقته في التبيين، والمقدارِ المناسبِ من الحقائق العلمية. وقد آتى الله الشافعيَّ من ذلك حظاً كبيراً.

ومع هذه المواهب العقليةِ والبيانية كان الشافعيُّ صافيَ النفس من أدران الدُّنيا، ولذلك كان مُخلِصاً في طلب الحقّ، صادقَ النظر في الاتجاه إلى الحقيقة، ومنَ الحكمةِ المشرقية أنَّ الاتِّجاهَ الـمُخْلص في طلب الحقائق يُشْرِقُ في القلب بنور المعرفة.

إخلاصُه للحق:

وإنّ إخلاصَ الشافعيِّ في طلب الحقائق لازمه في كلِّ أدوار طلبه للعلم وتحقيقه وإعلانـه، فإذا اصْطَدم إخلاصُـه مع مـا يألفـه الناس من آراء أعلن آراءَه في جُرأةٍ وقـوّة. كـان النـاسُ فـي عهده بيـن متعصِّبيـن لعليٍّ بن أبـي طالب أشدَّ التعصُّب، ومُتَعصِّبين[1] عليه أشدَّ التعصُّب، فأعلن أنه يُفضِّل أبا بكرٍ عليه، فرماه المتشيِّعون لعليٍّ بأنه ناصبيّ (أي يناصبُ علياً وآلَه العداوة)، وأخذ بما فعله عليُّ بن أبي طالب مع معاويةَ وأهلِه، واعتبر فعلَهُ حُجَّةً في أحكام معاملة البُغاة، فرُميَ بأنهُ شيعيٌّ رافضيّ، ولكنه وهو يقولُ الحق لم يُبالِ، وقال في ذلك:

وفَـضْل أبي بكـرٍ إذا مـا ذكرتُـه رُمِيتُ بِنَصْبٍ عندَ ذكـرِيَ للفَـضْلِ
فما زلتُ ذا رَفْضٍ ونَـصْبٍ، كلاهمـا أديـنُ بـه حتـى أُوَسَّـدَ في الرَّمـلِ

ويقول:

إنْ كان رَفْضاً حُبُّ آلِ محمـدٍ فَلْيَشْهدِ الـثقلانِ أني رافـضي

وإذا اصْطَدم إخلاصُه في طلب الحقِّ بآراءِ شيوخه أعلن الحقَّ في غير مداجاةٍ ولا مُوَاربة، كما رأينا في كتابِه «اختلاف مالك».

ولإخلاصه في طلب الحقّ، كان يرجع عن قوله إذا علم فيه سُنَّـةً تُخالفه، ثم يقول في قضيةٍ كليَّـةٍ عامةٍ في آرائِه المخالفةِ للسنة: «وما مِنْ أحدٍ إلّا وتَذْهَبُ عنه سنةٌ لرسولِ الله ﷺ وتَعْزُب، فمهما قلتُ من قول، أو أصَّلتُ من أصلٍ فيه عن رسولِ الله ﷺ خلافُ ما قلت، فالقول ما قال رسولُ الله ﷺ، وهو قولي».

---

(١) في الأصل: والمتعصِّبين.

بُعدُه عن الزَّهْو والـخُيَلاء:

وهناك نوع من الإخلاص اختصّ اللهُ به صفوةَ عبادِه الذين يكونون قدوةَ الناس، وهذا الإخلاص هو الابتعاد عن الزَّهْو والخُيَلاء بعلمه، والإخلاص على هذا النَّحو مُرتقىً صعبٌ على الذين يُصاولون البيان ويقارعون بالدليل، فإنه يندرُ فيهم من لم يدخلْه زَهْو وحُبُّ استعلاء. والشافعيُّ كان من هذا النادر، ولذا ما كان يغضبُ في جِدال، ولا يستطيلُ على مجادلِه بعنفِ القول. ولقد بلغ في إخلاصه في طلب الحقِّ والبعدِ عن الخُيَلاء، أنْ كان يتمنّى انتفاع الناس بعلمه من غير أن يُنسبَ إليه، فقد جاء في تاريخِ ابنِ كثيرٍ أنه كان يقول: «وددتُ أنَّ الناس تعلَّموا هذا العلم، ولا يُنسبَ إليَّ شيءٌ منه، فأُوجَرُ عليه ولا يحمدوني».

ولقد أكسبه الإخلاص نُـبْلَ غَرَض، وذكاءَ قلبٍ، وقُوّةَ نفسٍ، وتَباعُداً عن الدَّنايا، وتَسامياً عمّا لا يليقُ بالرجلِ الكامل، فما عُرِفَ عنه أنه كذب في قول، حتى قال فيه يحيى بنُ معين: «لو كانَ الكذبُ مباحاً لكانتْ مروءةُ الشافعيّ تمنعُه أنْ يكذب». وهذا أسمى ما يصلُ إليه المخلصُ الصَّدوق.

وقد قَضَى نَحْبَهُ رحِمَه اللهُ في جهادِه العلميِّ سنة ٢٠٤ من الهجرة. ومدفنُه اليومَ في القاهرة.

رضيَ اللهُ عن الشافعيّ، ونفع اللهُ الناسَ بعلمِه وخُلُقِه وإخْلاصه وقُوَّةِ دينِه.

❊ ❊ ❊

أحمد بن حنبل[1]

(١٦٤-٢٤١هـ)

في الطريقِ بين دارِ السلام والرَّقَّة، في ربيع الثاني سنة ٢١٨، كان السائرُ يرى جنداً مُدجَّجين بالسلاح، ومعهم رجلان قد صُفَّا بالأغْلال، وأكثرا مِنَ التَّسبيح، ومعَ أنّ السياطَ كانت تنهالُ عليهما الوقتَ بعدَ الآخر، لم يَنِيَا[2] عن ذكرِ الله، قد عَمَرَ الإيمانُ قُلوبَهما فلم تُبرِّح بأنفسِهما السِّياط، وإن هرأت أجسامهما. وفي شقَّة الطريقِ ولأْوائِه، والضربِ وعذابه، ضَعُفَ جسمُ أحدِهما عن الاحتمال، فخرَّ صريعاً ومات شهيداً، وقلبُه في قُوَّتِه[3]، وبقيَ الثاني وحدَهُ يتحمَّلُ الألم، ولكنَّ الله مَعَه، فهو غيرُ منفردٍ مستوحش، بل هُو مُسْتأنسٌ دائماً بربِّه، وبَيْنا هو مَعَ الجند نَعَى النَّاعي الحاكمَ الذي نزل ذلك البلاءُ باسمِه، وهو المأمون، فأُعيدَ الشيخُ التَّقيُّ بأصفادِه إلى بغداد وأُنزل بسجنِها.

وذلكمُ الشيخُ هو إمامُ الفقهِ والحديثِ أحمدُ بن حنبل، اختُبِرَ فصَبَر، وباءَ الظالمون بإثْمهم. وظَفِر هو بالنَّجاة والذكرِ الحَسَن، فكان له لسانُ صدْقٍ في الآخرين.

---

(١) مجلة العربي: العدد ٢١، عام ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م.

(٢) أي: يضعفا.

(٣) هو محمد بن نوح بن ميمون، رفيق الإمام وزميله في المحنة.

مولده ونسبه ونشأته:

وُلِد الإمام أحمد في ربيع الأول سنةَ ١٦٤، وكانت ولادتُه ببغداد، وقد وُلِد في أسرةٍ عربيةٍ شَيْبانِيّة، فكلا أبويْه من شَيْبان، وشيبانُ قبيلةٌ من ربيعة، لها هِمَّةٌ في الجاهليةِ والإسلام، حتى لقد قيل: «إذا كنت في ربيعة فكاثِرْ بشيبان، وفاخِرْ بشيبان، وحارِبْ بشيبان».

وكان أبوه محمدُ بنُ حنبل من القُوّاد، وجدُّه حنبل ممَّن اشترك في نُصرةِ العباسِيين حتى أدال اللهُ مِنَ الدولةِ الأمويَّة وذهبت من المشرق، وقد ضربهُ حاكمُ الأمويين لذلك فاحتملَ حتى زالت تلك الدولة.

وأُمه كانت شَيْبانيةً كما أشرْنا، وكان أبوها جواداً كريماً قد فتح بابَه للعرب، تنزلُ عندَهُ وفودُ القبائل فيُضيِّفها.

ورث أحمد عن هذين الأبوين سُمُوَّ النَّفس، وبُعْدَ الهمَّة، وقوَّةَ الصبْر، والاحتمال، ولكنْ قُدِّر لأحمدَ أنْ يتربّى يتيماً، كما تربّى شيخُهُ الشافعيُّ يتيماً، فلم يُدركْ أباه.

وقد قامت أُمُّه على تربيته والعناية بتنشئتِهِ في ظلِّ بعضِ ذوي عُصْبتِه، ولم يتركْهُ أبوه كَلاًّ لا يجدُ ما يكفيه، بل ترك له عَقاراً يسكنُه، وبه حوانيتُ لها غَلّاتٌ ضئيلةٌ تُعطيه الكفافَ من العيش، ولا تُعطيه رافغَ العيش وليِّنَه، وقد استمرَّ يعيشُ من هذه الغلّة الضئيلة حتّى قَبَضَهُ اللهُ تعالى إليه، فعندما أقبلتِ الدنيا عليه، وأُلقيت بينَ يديْه، نحَّاها عنه بنفسٍ نَزِهَة. كانت بِدَرُ الأموال تجيئه من المتوكِّل فيردُّها في تواضعٍ كريم.

وقد ظَهَرتْ مظاهرُ الورع في أحمدَ منذُ كان طِفْلاً لم يستأنسْ رشدَه، فقد كان عمُّه يُرسلُ إلى بعضِ الولاة بأحوالِ بغداد، وكان يكتب بها، وقد كلَّف أحمد ابنَ أخيهِ

أن يُبلِّغَ الواليَ بعضَها، فأخذ الكُتبَ وألقى بها في النهر. ولما قيل له في ذلك قال متعجِّباً: «أنا كنتُ أرفعُ تلك الأخبار!!؟ رميتُ بها في الماء» فجعل الوالي، وهو الذي كان يُسائِلُه، يسترجعُ ويقول: «هذا غلامٌ يتورَّع، فكيف نحن؟!».

ابنُ حنبل يتَّجه للحديث بكليته:

ولهذا النُّزوعِ الدينيِّ مُنْذُ صِباه، اختارتْ له أُسرتُه الدراساتِ الدينيَّـة، فتعلَّم علومَ العربيةِ وحفظَ القرآن، حتى إذا بلغ الرابعةَ عشرةَ، وُجِّه إلى الديوان ليُمرَّنَ على الكتابةِ والتحرير.

حتى إذا أتمَّ هذا الدور، وشَبَّ عن الطَّوْق، أخذ يختارُ لنفسِه، فاختار ما يتَّفِقُ مع نُزوعه ومَعَ ما نشَّأته عليه أُسرتُه، وقد اختار أن يتَّجه إلى الحديث، فكان يذهب إلى حلقاتِه، فجلس في حلقةِ القاضي أبي يوسُف صاحبِ أبي حنيفة، وقد كان فقيهاً ومُحدِّثاً، فقبس من فقهِهِ قبسة، وإن لم يستمرَّ على الجلوسِ في حلْقتِه، فقد اتَّجه إلى الحديث بكُليَّته، وكان المحدِّثون في كلِّ بقاعِ الأراضي الإسلامية. ففي البصرة مُحدِّثون، وفي الكوفة مُحدِّثون، وفي بغدادَ كثيرون منهم، وبلادُ الحجاز تَزْخَرُ وتَفْخَرُ بهم. وقد التقتِ المدائنُ والأمصار التقاءً علمياً في ذلك العصر، فلم يكنْ ثمَّة مُحاجزاتٌ إقليميَّـة تجعلُ كلَّ إقليمٍ يكلف على حديث أهله، ولا يقبل رواية غيره، بل كانتِ الرحلةُ العلميةُ المستمرة واصلةً حِبالِ العلم.

وعندما اعتزم أحمدُ بنُ حنبل في مُستهلِّ شبابِهِ أنْ يطلبَ الحديثَ، أخذ نفسَه بالرحلةِ في طلبِه من كلِّ ينابيعِه، فجمع حديثَ الشام والعراق والحجاز، وإنه بلا رَيْب، طلبَ الحديثَ أولاً في بغداد، وابتدأ في طلبه في سنِّ الخامسةَ عشرة، أي سنةَ ١٧٩، واستمرَّ يسمع ويكتب في بغدادَ إلى سنةِ ١٨٦، ثم ابتدأ رحلاتِه العلمية.

وبذلك يكونُ قد بقيَ في بغدادَ نحوَ سبعِ سنين يطلبُ الحديثَ في مظانِّه فيها، ولَزِمَ مَعَ ذلك هُشَيْمَ بنَ بشيرِ بنِ أبي حازمٍ الواسطيِّ نحو أربعِ سنين منها، ومن بعدِ موتِ شيخه هذا تلقّى عن كلِّ شيوخِ الحديثِ في بغداد.

رحلاته:

أخذ في الرحلة من سنةِ ١٨٦، فرحلَ إلى البصرة خمسَ مرات، ورحل إلى الحجازِ مثلَها، وفي رحلتِهِ إلى الحجاز سنة ١٨٧ التقى بالشافعيّ، فأخذ عنه الفِقْه، كما أخذَ عن سفيانَ بنِ عُيَيْنة الحديث، وقد كان لقاؤُه بالشافعي بعد أن أنضج هذا فِقْهَه، وأخذ يُبيِّنُ مناهجَ الاستنباط الفقهيّ، وهنا نجدُ أحمدَ يضمُّ إلى دراستِه وجمعِه للحديث دراستَه للفقه، وبذلك التقى علمُ الفقهِ وعلمُ الحديث، وإنْ كان الحديثُ فيه أظهرَ وأوضح.

وكان يرحل الرحلاتِ الكثيرةَ مع قلةٍ في المال، حتّى إنه كان أحياناً يرحلُ ماشياً، وقد حجّ خمسَ مرات، منها ثلاثٌ كان راجلاً.

ولقد كانَ يَسْتطيبُ المشقَّةَ في طلبِ الحديث، لأنّ الشيءَ الذي يجيءُ بيُسْرٍ يكونُ قريبَ النسيان، وكان يحتسبُ النيةَ في الهجرةِ لأجلِ الحديث، وقد سافر إلى اليمن لطلبِ الحديثِ الذي رواه عبد الرزاقِ بنُ همّام بصَنْعاء اليمن. وفي هذا السَّفَرِ فُقِدَ منه الزاد، فكان يَكْري نفسَه لِـحَمْلِ أمتعةِ الناس، حتّى وصل إلى عبدِ الرزاق. ولما علم هذا بما عليه من مَشقّةٍ مدَّ إليه بدنانير، فقال أحمدُ الصَّابرُ الشاكر: «أنا بخير»، وردَّها، وقد مكث على هذه المشقَّةِ سنتيْن استهان بها فيهما، لأنّها في طلبِ الحديث، ولأنّ العملَ الشاقَّ خيرٌ من قَبولِ مِنَّةِ العطاء.

وهكذا طوَّف أحمدُ في الأقاليم الإسلامية طالباً للحديث، لا يستكثرُ منه الكثير، ولا يني عن الكدِّ واللُّغوب، يحمل حقائب كُتبِه على ظهره.

مع المحبَرة.. إلى المقبَرة!

وكلما كدَّ وجدَّ زاد مقامُـه.. وقـد بلغ مبلغَ الإمامـة، وصار مقصِدَ طـلاب الحديث، وفقهِ الحديث، والمستفتين من كلِّ بقاعِ العالم الإسلامي، وكان يُدوِّن كلَّ ما يستمعُ ويكتب، وقد رآه بعضُ تلاميذِه على هذا الحال وقد بلغ من الفضلِ ما بلغ، فقال له: «يا أبا عبدِ الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمامُ المسلمين، فلِماذا تكتب؟» فقال الإمامُ المجِدّ: «معَ المحبرَةِ إلى المقبرَة»، وكان يقول رضي اللهُ عنه: «أنا أطلبُ العلمَ إلى أن أدخلَ القَبر».

وكان الإمام أحمدُ مَعنيّاً بتدوين ما يسمعُ وما يكتبُ في كُتُب، فإنَّ العصرَ الذي عاش فيه كان عصرَ تدوين الكُتُب في شتّى العلوم، كان يكتب كلَّ ما يسمعُ ويحفظُه، وإذا سأله سائلٌ أو روى عنه راوٍ لا يَعتمِدُ على حفظِه في روايتِه، بل كان يُمليه ممّا كتب، ويستمعُ إليه ليقرأ ما كتبه راويه.

ولقد اتَّجه أحمدُ إلى الفقه من وقتِ لقائِه بالشافعيّ، فامتزج حديثُه بفقهِه، ودرس الفقهَ من ينابيعِه المختلفةِ حتى أنّ تلميذه الخلّال يقول: «كان أحمدُ قد كتب كُتُبَ أهلِ الرأي وحفظَها ثم لم يلتفتْ إليها». فهو يطلبُ الآراءَ المختلفة، وإنْ كان لا يُذعنُ لاتجاهِ بعضِها.

كتابُهُ العظيم «المُسنَد»:

وإنّ الأحاديثَ التي رواها هي حديثٌ وفقه، فقد روى الأحاديثَ النبويَّـةَ وفقهَ الصحابةِ فيما رواهُ مِنْ فتاويهم وأقضِيتِهم، وفقهَ التابعين فيما رواهُ مِنْ فتاويهم وأقضِيتِهم أيضاً، وكان حريصاً على روايةِ ما جاء في موطأ مالك من فتاوى وأقضيةٍ للصحابة،

بل كان حريصاً على تعرُّفِ فتاوى مالكٍ في مسائلِهِ، وخصوصاً ما كان يبنيه على عملِ أهلِ المدينة.

وقد سجَّل حديثه في كتابِه العظيم «المسنَد»، وهو أكبرُ موسوعةٍ لأحاديثِ رسولِ الله ﷺ وفتاوى الصحابةِ وأقضيتِهم.

لم يجلسْ للحديث إلا بعدَ الأربعين:

وقد جلس أحمد للحديث والإفتاء عندما بلغَ الأربعين مِنْ عُمُرِه، ويُروى أنَّ بعض معاصريه جاء إليه يطلب الحديثَ سنةَ ٢٠٣ فأبى أنْ يُحدِّثَه، فذهب ذلك الطالبُ إلى عبدِ الرزّاق باليمن، ثم عاد إلى بغدادَ سنةَ ٢٠٤ فوجده قد حدَّث واستوى الناسُ في مجلسِه.

ولماذا لم يُحدِّثْ قبلَ أنْ يبلغَ الأربعين؟ لعله في ذلك يقتدي بالنبيِّ ﷺ لأن النبيَّ ﷺ لم ينزلْ عليهِ الوحيُ قبلَ الأربعين.

وقد استوى أحمد من بعد الأربعين في مجلسه في الدرس والإفتاء، وأمَّهُ الناسُ من كلِّ ناحية، وكان درسُه بمسجدِ بغداد.

نُزولُ الـمِحْنةِ به:

كان الشيخُ الإمام يسيرُ في درسِه يجيبُ مَنْ يسألُه [عن] الحديث، ويَطْلبُ إليه أن يكتبَه، ويجيبُ مَنْ يسأله عن مسائِل، وينهاهُ عن أنْ يكتبَ ما يُفتي به إلّا أنْ تكونَ الفتوى في حديث، ونهى عن كتابةِ المسائل، حتى لا يتَّبِعَها مَنْ لا يَعرفُ مِن أين أُخِذَت.

وسَارتْ دُروسُه في هدوءٍ كريحٍ رُخَاءٍ لا عواصفَ فيها، ولكن جاء ما عكَّر صَفْوَ الدرس، وعَصَف بالشيخ، وذلك لمسألةٍ أُثيرت في العصرِ الأمويّ. وهي مسألةُ

خلقِ القرآن، قد أثارها ناس يريدون إثارةَ الجدل، ومَعَ الجدل الرِّيَب بين المسلمين، حتى تَضْعُفَ قوةُ اليقينِ في قلوبِهم، فقد أثار الـجَعْدُ بنُ درهمٍ مسألةَ خلقِ القرآن وكونِهِ مَـخْلوقاً لله تعالى، وقد استنكرَ كثيرون من العلماء ذلك، واعتبرُوا إثارةَ ذلك بدعةً لا تُثار، ولزم بقيةُ التابعين الصمتَ في هذه القضية، فلمْ يتعرَّضُوا لها سلباً أو إيجاباً، وقتل خالدُ بن عبدِ الله القسْريُّ الجعدَ بن درهم، وتَبعَ القولَ بخلقِ القرآن نَفْيُ صفةِ الكلام، واستَنَد جماعةٌ إلى كلامِ الله لموسى عليه السلام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]. واستغلَّ الدعاةُ إلى التَّشكيك من المسيحيين صَمْتَ المؤمنين عن القولِ في هذا، فتواصى دعاةُ المسيحية أنْ يُسائِلوا المسلمَ عمّا قاله الله تعالى في كتابه عن المسيح، ألـمْ يقُلْ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فإن أجاب بذلك، وسيجيبُ حتماً، سألوه: «أكلمةُ الله مخلوقةٌ أم لا؟»، فلا يجيب، وكأنهم فازوا بالـحُجَّة.

وكان بينَ المسلمين طائفةٌ قد تَصَدَّت للردِّ على كلِّ ما يثيره غيرُ المسلمين للطعنِ في الإسلام فوجدُوا أنه من الواجب أن يقولوا: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، وكلمةُ الله التي عبَّر بها عن المسيح هي مخلوقةٌ باعتبارِ أنَّ مسمّاها وهو المسيحُ مخلوق.

المأمونُ يضْطهد مَنْ لا يقولُ بخلقِ القرآن:

وقد جاء المأمونُ واتَّخذَ رأيَ المعتزلةِ مذهباً، وكان يقولُ عن المعتزلةِ أصحابُنا، فأخذَ يدعو إلى القول بخلقِ القرآن، وحاول في مُناظراتِه التي عَقَدَها أنْ يحملَ الفقهاءَ والمحدِّثين بالـحُجَّةِ والبرهانِ على اعتناقِ ما يرى. ولكنّهم توقَّفوا، لأنّهم لا يقولون ما لم يقلْه كتابُ الله ولا سُنَّـةُ رسولِه، ولا يَـخُوضون في أمرٍ لم يَرِدْ فيه نصّ، ولم يكنِ الناسُ في حياتِهم العمليةِ محتاجين إليه.

وقد استمرَّ المأمونُ يُجادلُ ويُناظرُ في هذا ستَ سنين من سنةِ ٢١٢ إلى سنةِ ٢١٨، ولكنه وهو في الرقّة خارجَ بغداد، مع كاتبه ووزيرِه أحمدَ بن أبي دؤاد كبيرِ المعتزلة في ذلك الحين، أخذتِ الكتبُ تجيء تَتْرى، يجيء الكتابُ تِلوَ الكتاب، وقد ابتدأ في كتبه بضَرورةِ حَمْلِ كلِّ مَنْ يَتولَّوْنَ أيَّ عمل في الدولة على القولِ بخَلْقِ القرآن، ولا تُقبَل شهادةُ أيِّ شخصٍ لا يقول بخلقِ القرآن، ثم تَرقَّى فمَنَعَ المفتين والمحدِّثين أنْ يقوموا بالفتوى وبالحديثِ إلّا إذا أقرّوا بخلق القرآن، ثم انتهى الكتابُ الأخيرُ المنسوبُ للمأمون إلى أنْ يُنزِلَ العقابَ الشديد، بل الإعدام، بمَنْ لم يقلْ إنّ القرآنَ مخلوق. وأمر بأن يُحمَلَ الفقهاءُ والمحدِّثون الذين لا يقولون ذلك، مُوثَقين إلى عسكرِ المأمون. وجاء في آخرِ الكتاب: «فإنْ لم يرجعوا ويتُوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوّةَ إلّا بالله».

وقد أجاب الجميعُ ما عدا ثلاثةً فسِيقوا إلى المأمون، فرجعَ أحدُهم في الطريق، ومات الثاني، وبقي أحمدُ وحدَه للمِحْنة فتلقّاها صابِراً.

وقد مات المأمون، وأحمدُ يُساقُ في الطريق، ولكنّ الوصيَّةَ كانت في كتاب المأمون إلى أخيه المعتصم بأنْ يُشَدِّد في مسألة خلقِ القرآن.

المعتصم يجري على سُنّة أخيه:

وقام المعتصمُ بالوصيّة فعذَّب أحمد بالضربِ المتوالي ثمانيةً وعشرين شهراً، ثم أفرج عنه على ألّا يُفتيَ أو يُحدِّث. ثم أذِن له بالإفتاء والتَّحديث حتى جاء الواثقُ فأعادها جَذَعاً، وأنزل بأحمدَ وغيرِه عقاباً وتعذيباً، حتى يَئِس، فأُخرِج، على أنْ يلزمَ بيتَه ولا يُفتيَ ولا يُحدِّث. حتى جاء المتوكِّل، فأزال المحنةَ وأبعدَ أحمدَ بنَ أبي دؤاد الذي كان مُحرِّكَ هذه الفتنة، والموسِوسَ بهذه المحنة.

بين المحدِّثين والمعتزلة:

والحقُّ أنَّ المعتزلةَ لهم وِجْهةٌ فيما يقولون، وليس فيما يقولون كفر ولا زَيْغ، بل إنَّ الذي دفعهم هو سدُّ الطريق على الذين يحاولون إفساد عقولِ المسلمين بتأويلِ بعض العبارات القرآنية تأويلاً باطلاً.

والإمامُ أحمدُ ومعه كلُّ المحدثين ما كانوا يريدون الخوضَ في ذلك، لأنّه لا نصَّ فيه، ولا توجدُ فائدةٌ عملية. ولقد جاءت مناظرةٌ في آخرِ عهدِ الواثق، وفي حَضْرتِه، بين مُحدِّثٍ وأحمدَ بنِ أبي دؤاد نذكرها لأنّها لا تخلو من توضيح موقفِ المحدِّثين، قال أحمدُ بن أبي دؤاد: لماذا لا تقول إنَّ القرآن مخلوق؟ فقال الشيخ الذي سيقَ للعذاب: «شيءٌ لم يَدْعُ إليه رسولُ الله ولا أبو بكرٍ ولا عمرُ ولا عثمانُ ولا عليّ، تدعو إليه أنت؟ ليس يخلو أنْ تقولَ علموه أو جهلوه، فإنْ قلتَ: عَلِمُوه وسكتوا عنه، وسِعَني وإيَّاك من السكوتِ ما وَسِع القوم، وإنْ قلتَ: جهلوه وعلمتَه أنت، فيا لُكَعُ بنَ لُكَعٍ، يجهلُ النبيُّ ﷺ والخلفاءُ الراشدون، رضي اللهُ عنهم شيئاً وتعلمُه أنت؟».

هذه صُورةٌ مُصَغَّرةٌ للمحنة وأسبابها. وقد خرج منها الإمام وبجسمِهِ نُدوبٌ وآثارُ جروح، ولكنَّ نفسَه خرجت مَصْقولةً نقيَّـةً كالسيفِ الـمُرْهَف، وعَلَتْ منزلتُه بينَ الناس، يُـقْصَد مِنْ أقصى البلاد الإسلامية ليُسمَع عنه الحديثُ وليُستَفتَى. واشتهر أمرُه في كلِّ البلادِ الإسلامية، حتى خَشيَ على نفسِه ودينِه من هذه الشُّهرة، فكان يقول: «وَدِدتُ أنْ أعيشَ في شِعْبٍ من شِعَاب مكة لا يعلمُ بي أحد».

وقد أخذ المتوكِّل يُرسلُ إليه العطايا فيردُّها رداً رقيقاً، وكان لا يأكلُ من طعامِ ابنِهِ لأنه علم أنه يقبلُ هدايا المتوكل، وكان عيشُه من غَلّات عقارِه الذي وَرِثه عن أبيه.

واستمرّ ذلك الإمام مطمحَ أنظار المسلمين بحديثِه وفقهِه، ونزاهةِ نفسِه وتورُّعِه في دينِه حتى قبضه اللهُ إليه في ١٢ من ربيعِ الأول سنة ٢٤١، فشيَّعته بغدادُ وما حولَها حتى لم تُرَ جنازةٌ في الإسلام قبلَه بمثلِ ذلك العددِ من المشيِّعين.

من صفاته: الحافظة الواعية:

اتَّصف الإمامُ أحمدُ بصفاتٍ رفعتْه في جيلِه، وجعلتْه في الذروةِ بينَ العلماء، وأُولى هذه الصفات: الصفةُ العلميةُ التي هي لازِمةٌ لكلِّ عالمٍ اشتغلَ بفرعٍ من فروع العلمِ الدينيّ أو الدنيويّ، وهي الحافظة الواعية، فهذه الحافظةُ أساسٌ لكل عِلمٍ ونَظَر، وخصوصاً علماءَ الحديث.

ولقد آتى اللهُ أحمدَ منها حظاً وفيراً، والأخبارُ عنه في هذا متضافِرة، وقد عدَّه كثيرون أحفظَ أهلِ عصره. ولقد قيل لأبي زرعةَ معاصِره: «مَنْ رأيتَ من المشايخِ والمحدّثين أحفظ؟»، قال: أحمدُ بنُ حنبل.

وكان معَ حفظِه ووَعيِه عميقَ النَّظْرَةِ في كلِّ ما ينقل، فهوَ يحفظُ أحاديثَ النَّبيِّ ﷺ وفتاوى الصحابة، وفتاوى كبارِ التابعين، ويَـتَفهَّم هذا كلَّه تَـفَهُّمَ العارفِ الـمُسْتَـنْبِطِ لا مُـجرَّدِ الراوي الحافظ، وقد اشتهرَ بذلك بين المحدِّثين، حتى عُدَّ فقيهَهم في عصرِه، ويقولُ في ذلك إسحاقُ بنُ راهَوَيْه: «كنا نتذاكرُ الحديثَ من طريقٍ أو طريقَيْن أو ثلاثة، فأقولُ ما مراده؟ ما فقهه؟ فيقفون كلُّهم إلّا أحمدَ بنَ حنبل». وقال تلميذُه إبراهيمُ الحرميّ: «أدركتُ ثلاثةً لم يُرَ مثلهم، ويعجزُ النساءُ أنْ يلدْن مثلَهم: رأيتُ أبا عُبيْدٍ القاسمَ بنَ سلّام، ما أُمثِّله إلّا بجبلٍ نُفِخَ فيه الروح. ورأيتُ بشْرَ بنَ الحارث، فما شبَّهتُه إلّا برجلٍ عُجِن من قَرنِه إلى قدمِه عقلاً. ورأيتُ أحمدَ بنَ حنبل، فرأيتُ كأنَّ الله جمع له علم الأوَّلين والآخرين من كلِّ صِنْف، يقولُ ما شاء، ويُمْسكُ ما شاء».

من صفاته: الصبر والـجَلَد:

والصفةُ الثانية، وهي أبرزُ صفاتِ أحمد: الصَّبْرُ والـجَلَدُ وقوَّةُ الاحتمال، وهي مجموعةُ سَجَايا كريمةٍ أساسُها قوة الإرادة وصدقُ العزيمة، وهذه الصفةُ هي مزاجُ صفاتِ الإمام أحمد، فقد جمع بها بينَ الفقرِ والجُودِ وعزَّةِ النفسِ والعِفّة، وجمعَ بها بين الإباء والعفْو، واحتمالِ الأذى والصَّفْحِ الجميل، وهي التي جَعَلته يتحمَّل الشدَّةَ في طلب العلم في الحضْرِ والبَدْو، وهي التي نازلَ بها الذين رامُوه بالأذى فصَبَر وصابَر، ولم يَهِنْ ولم يُجِبْهم إلى قولِهم، حتّى عَجَزوا وهم الأقوياء، وغَلَبَ وهو الضَّعيفُ في بدنِه، ولكنَّه القويُّ في نفسِه.

ولما زالتْ النِّقمةُ اخْتَبره اللهُ بالنعمةِ فصَبَر فيها كما صَبَر في الأولى، فردَّ عطاءَ الخليفةِ الموفورَ، ورضيَ أنْ يعيشَ هو وعيالُه في خَصَاصَةٍ من العيش.

وصبرُه صبرٌ لا أنينَ فيه ولا شكوى ولا ذهابَ جَنان، ساقوا اثنينِ بينَ يديْه فقتلوهُما، وهم يُهدِّدونه بالقتل، أو يقولَ ما يريدون، فوجد في بعض الأحياءِ المعذَّبين البويطيَّ صاحبَ الشافعيّ، فقال له: «ماذا قالَ الشافعيُّ في الـمَسحِ على الـخُفَّيْن؟»، فتعجَّب الجميعُ حتى قال أحمدُ بن أبي دؤاد مُتعجِّباً: «انظروا رجلاً هو ذا يُقدَّمُ لضربِ عُنُقِه فيُناظِرُ في الفقه!».

من صفاته: النَّزاهةُ بكلِّ ضُروبِها:

والصفةُ الثالثة: النزاهةُ بكلِّ شُعَبِها وضُروبِها، فهو نَزِهُ النفس، لم يأخذْ من مالِ غيرِه قليلاً أو كثيراً. وهو نَزِهٌ في إيمانِه فلم يجعلْ لغيرِ الله سُلطاناً عليه، لا يُداري ولا يُداجي، ولو كانَ السيفُ في يدِ مَنْ يُبرِقُ ويُرعِد. وهو نزهٌ في تفكيرِه، فلم يُرد أن

يفكِّر في أمرٍ لم يُـفكِّرْ فيه السَّلفُ الصَّالح، ولا يُـحقِّقُ حاجةً دنيويةً من حاجاتِ الزمان. وهو نَزِهٌ في فقهِه يأخذُ برأي الصحابة، فإنِ اختلفوا اعتبر أقوالهم أقوالاً له، وكذلك التابعون الكبار أهلُ الورع. وإذا لم يكنْ نصٌّ ولا فتوى لصحابيّ أو تابعيّ أخذَ بالقياس، واعتبرَه كأكلِ الميتةِ لا يحلُّ إلّا للضرورة وبقَدْرِها.

وكان مع زهادتِه ونَـزَاهةِ نفسِه يُبيحُ الحلالَ لكلِّ مَنْ يستطيعه مِنْ حلال، ويعتبرُ تناولَ الحلالِ يُليِّـنُ القلوب، وفي دائرةِ الحلال الذي لا شُبْهَةَ فيه تُسْتطابُ الحياة، ويقولُ في ذلك: «يؤكل كلُّ الطعام بثلاثة: معَ الإخوانِ بالسرور، ومعَ الفقراءِ بالإيثار، ومع أبناءِ الدنيا بالمروءة». وكان يفهمُ أنّ الصَّداقةَ البَرّة عِزّ، ولذا كان يقول: «إذا مات أصدقاءُ الرجل ذلّ». وإنَّ النزاهة المطلقةَ التي اتَّصفَ بها ذلك الإمامُ الجليل، انبعثتْ من إخلاصٍ مستفيض، حتى إنه لإخلاصِه كان يحبُّ أن يَخْمَل ذِكرُه، ويَغبطُ الذين خَمُل ذكرُهم، ويقولُ في ذلك: «طُوبى لمن أَخمل اللهُ عزَّ وجلَّ ذكرَه». ولإخلاصه كان يستقلُّ عبادتَه، ولا يستكثرُ المحنةَ التي نزلتْ به.

ومن صفاته: أنه كان مَهيباً:

والصفةُ الرابعةُ التي امتاز بها ذلك الإمامُ الجليل، هي المهابة. كان مهيباً من غيرِ خوف، وكان رجالُ الشرطةِ يهابونهُ حتّى عندما يُسَاوِرون دارَه. فإنه يُروى أنّ شُرطياً ذهبَ ليناديَه، فهابَ أنْ يَطْرقَ بابَه، وآثرَ أنْ يَطْرقَ بابَ عمِّه ويدخلَ إليه من بابِه، حتّى يؤنسَ نفسَه بذلك اللقاءِ المهيب.

وقد قال أحدُ معاصِريه: «دخلتُ على فلانٍ وفلانٍ من السلاطين، فما رأيتُ أهيبَ من أحمدَ بنِ حنبل. صرتُ إليه، أُكلِّمه في شيءٍ فوقَعَتْ عليَّ الرِّعدةُ حينَ رأيتُه من هيبتِه».

وإنّ الهيبةَ هبةٌ من الله تعالى، وقد نمّاها عند أحمدَ ما اتَّصف به من الجدِّ الذي لا مِزاحَ فيه، حتى إنه ليحسُب أنّ كلَّ مَزْحةٍ مَـجَّةٌ من العقل.. ونمّاها صَمْتُه، فإذا تكلَّمَ فلا لَغْوَ ولا تأثيمَ فيما يقول.. ونمّاها صبرُه في الـمِحَن، وعفّتُه عن أموالِ الحكّام.

وكان معَ هذه المهابة الأليفَ المأمونَ الموطَّأَ الكَنَفِ لتلاميذِه وأصحابِه. وقد قال أحدُ معاصريه في وصفِه: «ما رأيتُ أحداً في عصرِ أحمدَ مِـمَّنْ رأيت، أجمعَ منه ديانةً وصيانةً، وملكاً لنفسه، وفقهاً، وأدبَ نفس، وكرمَ خُلُق، وثباتَ قلب، وكرمَ مُجالسة».

الحنبليّـة:

ذاع بينَ الناسِ وَصْفُ التَّشدُّدِ في الدينِ بالحنبليَّـة، بل ذاعَ في العصورِ الإسلامية إلى عصرِنا هذا وصْفُ التشدُّد في النزاهةِ بالحنبليَّـة.

وإنّ هذا الوصفَ له صلةٌ بالإمام أحمدَ ذاتِه، وببعضِ الذين اعتَنَقوا مذهبَه، وآراء في مذهبِه.

فأمّا الذي يتَّصلُ بشخصِه فهوَ النزاهةُ والتورُّعُ عن الحرام، حتى إنه كان يمتنعُ عن أكلِ طعامِهِ إذا خُبِزَ بوَقودٍ ظنَّ أنَّ مالكَه لم يملكْه من حلال، أو فيه شبهةُ حرام. وإنَّ صفاتِـهِ وأعمالَه كلَّها تدلُّ على أنه أخَذَ نفسَه بشدَّةٍ لا يحتملُها سواه، وإن لم يَدْعُ الناسَ إلى أنْ يَسْلكوا مَسْلَكَه.

أمّا ما وقعَ من بعضِ الذين اعتنقوا مذهبَه فإن ابن الأثير يذكرُ في تاريخِه أنّه في سنة ٣٢٣ قامتْ فتنةٌ في بغداد بسببِ شدَّةِ الحنابلة، فأراقوا الأنبذة، وهاجموا دُورَ القَوّادين، وكسروا أدواتِ الغِناء، وضربُوا المغنِّيات، وكلَّما رأَوْا رجلاً يمشي مع امرأة

استوقفوهما، وسألوهما عنِ العلاقةِ بينَهما، ويندرُ أنْ يَسْلَمَ منهم أحد، وأغلظوا على الشافعيّة وعلى الشيعة في تقديسِ أئمتهم، ممّا جعل الخليفةُ ينْذرُهم ويمنعُ مناظراتِهم، ويحملُهم على الاستخفاءِ بمذهبِهم.

مفرداته في بعض مسائل الطهارة:

وأمّا ما يتعلق بالمذهبِ الحنبليّ نفسِه، فإنه قد اشتهر بالتَّشدُّد في الطهارة، وقد راجعنا المذهبَ الحنبليَّ في هذا، فوجدناه انفردَ بالتَّشدُّد في مسائل:

منها: أنه يوجبُ تطهيرَ أيِّ إناءٍ تقعُ فيه نجاسةٌ بغَسْله سبعَ مراتٍ إحداهُنَّ بالتراب، وذلك هو الراجحُ في المذهب.

ومنها: أن الماءَ الذي ينزلُ من الإناء الذي يقع فيه نجاسةٌ يُعدُّ نجساً فكلُّ الماءِ الذي ينزلُ من مراتِ الغَسيل يُعَدُّ نَجِساً.

ومنها: أنه إذا كان معَ الشخصِ إناءان، أحدُهما فيه ماءٌ طاهر، والثاني فيه ماءٌ نَجِس، وشكَّ ولم يعرفْ أيُّهما، أُريقا من غيرِ تَـحَرّ.

ومنها: أنّ الأوانيَ التي كان يستعملُها الوثنيون والمجوسُ يجبُ تطهيرها بطريقةِ الحنابلةِ قبلَ استعمالِها.

وبهذا حُقَّ للمِصْريِّين وغيرِهم أن يَصِفُوا كلَّ مُتَشَدِّدٍ في دينِه أو نَـزَاهتِه بأنه حَنْبليّ، فالوصفُ سليمٌ، وأكثرُ هذه الأسباب يرفعُ الحنبليةَ ولا يخفضُها.

رَحِمَ اللهُ ابنَ حنبلٍ في الصِّدِّيقين والصَّالحين.

* * *

تَـرَاجِمُ الـمُحَدِّثين

البُخارِيّ[1]

(١٩٤-٢٥٦هـ)

منذُ بعثَ اللهُ تعالى محمداً رسولاً للعالمين، عُنِيَ الذين اتَّبعوه بقولِهِ وعملِهِ وما يُقرُّهُ من أقوالٍ وأفعال، فحفِظُوا قولَه، لأنه من جوامعِ الكَلِم، ولأنه بيانٌ لكتابِ الله تعالى، ولأنهُ تبليغُ الرسالةِ المحمديَّة، ولأنه الأسوةُ الحسنة، ولأنّ أفعالَه وتقريراتِه بيانٌ للقرآنِ كأقوالِه.

النبيُّ ينهى عن كتابةِ كلامِهِ، ثم يجيز:

ولقد همُّوا في أوَّلِ الرسالةِ أن يكتبوا كلامَه فنهاهم، حتى لا يختلطُ عليهم قولُه بالقرآن، حتى إذا استطاعوا أنْ يُفرِّقوا بينَ كلامِ الحقّ، وكلامِ الرسول ﷺ في آخرِ حياتِه أَذِنَ عليه السلامُ لمنْ أرادوا الكتابةَ أنْ يكتبوا، فأَذِنَ لعبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاص أنْ يكتب فكتبَ هو وغيرُه.

كان الناسُ أحوجَ إلى سُنَّـةِ الرسول ﷺ بعد وفاته:

ولما انتقلَ النَّبيُّ ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى كانتِ الحاجةُ إلى معرفةِ سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ شديدةً ماسَّةً، لأنّ المسلمين في حاجةٍ إليها ليهتدوا بها، ويتعرَّفوا حُكمَ الإسلام

---

(١) مجلة العربي: العدد ٧٨، عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

منها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]. ولأنهم كانوا يطيعونَ النبيّ عليه السلام بسؤالِه في حياتِه، وطاعتُهُ بعد وفاتِه تكونُ بمعرفةِ أقوالِه فيما يعرِضُ لهم من أُمور، أخذاً بهذا النصِّ الذي تلوْناه، وبقولِه عليه السلام: «تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضِلُّوا بعدي أبداً: كتابَ الله تعالى، وسُنَّتي»[1]. ولذلك كان الأئمةُ الراشدون الأعلامُ إذا عَرَض لهم أمرٌ تعرَّفوا حكمَه من كتابِ الله تعالى، فإنْ لم يجدوا ما يُسْعفُهم تعرَّفوه من سُنَّـةِ رسولِ الله ﷺ، فتساءَلوا فيما بينَهم عن سُنَّةٍ عند بعضِهم وهي لا يمكنُ أن تغيبَ عن كلِّهم. ومن الصَّحابة من تفرَّغُوا لاستحفاظِ كلامِ النبيّ ﷺ، فحفِظوا منه أسطراً، وقد تناقلُوا فيما بينَهم ما كان يرويه بعضُهم بعدَ الاستيثاق من صحَّةِ نقلِه.

روى التابعون كلامَ الرسول ﷺ عن الصحابة، ثم روى عن التابعين تابِعُوهم:

وقد تَـتَلمذَ للصحابةِ تلاميذُ روَوْا عنهم، وهم التابعون لهم بإحسان، وتَـتَلمذَ لكُلِّ تابعيٍّ تابعٌ له نقلَ عنه ما حفِظ هذا عن أستاذِه من الصحابة، ثم جاءَ الذين من بعدِهم فتَـتَلْمَذُوا عليهم، وكلٌّ يُدَوِّنُ ما يأخذ، حتى كان مِنْ بعدِ ذلك مَنْ سجَّل هذه الرواياتِ بإسنادِها في كتب، بحيث كان يذكرُ كلُّ واحدٍ مَنْ روى عنه حتى

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٨٩٩) بلاغاً عن رسول الله ﷺ، ووصله ابن عبد البر في «التمهيد» ٢٤: ٣٣١ من طريق الحنيني ـ وهو ضعيف ـ عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده.

وقال ابن عبد البر: وهذا أيضاً محفوظ مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرةً يكاد يستغني بها عن الإسناد.

ورواه الحاكم في «مستدركه» ١: ٩٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما.

يصلَ إلى الصحابيّ الذي روى عن الرسولِ قولَه. وقد رُوِيَتْ تواريخُ الرجالِ رجلاً، رجلاً، وعُرِفَ مقْدارُ عدالتِهم، وعنايتِهم ما يَرْوون، وضَبْطِهم لما ينقلون، حتى كان جَـمْعُ الحديث النبويّ برواةٍ عدولٍ ثِقاتٍ ضابطين، يعرفونَ ما ينقُلونَ وما يدعون.

جوامعُ الحديثِ الشاملةُ في القرن الثالث، وأضبطُها صحيحُ البخاريّ:

وما جاء منتصفُ القرنِ الثاني، حتى كان الجمعُ والتدوين قد استوى على سُوقه، ولكن كلّ مجموعةٍ لم تكنْ شاملةٍ، حتى جاءتْ الجوامعُ الشاملةُ في القرنِ الثالث، وأوضحُها إشراقاً وقوةً وضبطاً: صحيحُ البخاري.

نشأة البخاري:

والبخاريّ هو أبو عبدِ الله محمدِ بنِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ المغيرة، كانَ مِنْ أسرةٍ مجوسيَّـةٍ في أصلِها، وأوّلُ مَنْ أسلمَ منها جدُّ أبيه المغيرة، أسلمَ على يدِ والي بُخَارى، وحَسُنَ إسلامُه، وحَسُن إسلامُ ابنِه وحفيدِه إسماعيلَ أبي البخاري، وكان هذا براً تقيّاً.

وقد وُلِدَ البخاريّ سنةَ ١٩٤هـ، وقد عيَّن ابنُ كثيرٍ في «تاريخه»، والخطيبُ في «تاريخ بغداد» ليلةَ مولدِه، فذكرا أنها ليلةُ الجُمُعةِ في الثالثَ عشرَ من شهرِ شوّال من هذهِ السنة.

ولعلّ عنايةَ البخاريّ بتاريخ رجالِ الحديثِ وأحوالِهم هي التي جعلتْه يتعرَّفُ تاريخَ مولدِه ويصلُ إلى معرفتِه يقيناً. وقد وُلِدَ من أبوينِ صالحيْن، فكان أبوه صالحاً، وكانت أمُّه تقيةً طيبةً طاهرة، أخْلَصَتْ لله في عبادتِها، وأرضَعَتْ ولدَها في صغرِه حبَّ الله تعالى، وتقواه.

دعاء أمِّ البخاريّ ردَّ بصرَه إليه:

فنشأ عابداً منذُ نعومةِ ظفرِه، وأحسَّ بفضلِ الله تعالى عليه، واستجابتِه دعاءَ أُمِّه، ذلك أنه وُلِدَ مبصراً ثم صارَ مُغمَضَ العينيْن لا يُبصر. فأخذتْ أُمُّه تَضرَعُ إلى الله تعالى، أنْ يردّ إلى ابنِها وقُرَّةِ عينِها بصرَه. قال المؤرِّخون: إنها رأتْ فيما يرى النائمُ أنّ أبا الأنبياءِ إبراهيمَ خليلُ الله عليه السلام، يقولُ لها: «يا هذه قد ردَّ اللهُ على ابنِكِ بصرَه لكثرةِ دعائِك أو بُكائِك، فأصبحَ مُبْصراً».

فلمّا استيقظَتْ من منامِها، رأتْ ابنَها قد ارتدَّ بصيراً، فعلمتْ أنها الرؤيا الصادقة.

شكر النعمة:

أحسَّتْ أمُّ البخاريِّ بنعمةِ الله عليها إذْ أعادَ النورَ إلى ولدِها، وأحسّ ابنُها بنعمةِ الله تعالى عليه، إذْ كتبَه في المبْصِرين، فوجَّهتْهُ أُمُّه إلى علمِ الدين يتدارسُه، فحفِظَ القرآنَ الكريم، وتتبَّعَ علماءَ الدينِ في عصرِه، واسترعاه ما ينقلونَه من أحاديثِ الرسولِ الكريم ﷺ، فوجدَ فيه الحكمة وفصْلَ الخطاب، فاتَّجه إليه بعدَ حفظِ القرآن. فلم يُعنَ بأقوالِ الفقهاء، وكلامِ العلماء، بل عُنِيَ بكلامِ مبعثِ النور، ومشرقِ المعرفة، وهو محمدٌ ﷺ.

اتَّجه إلى طلبِ الحديثِ بعدَ حفظِ القرآنِ الكريم، وقالوا: إنه أُلْـهِم طلبَه، وأُشْرِبَ حُبَّه وهو غلامٌ في العاشرة من عُمُرِه، وكان ذا حافظةٍ واعية، وذاكرةٍ قويّة، فالتقتِ الرَّغْبةُ الشَّديدة، مع الاستعدادِ الكامل، حتى إنه وهوَ في الحاديةِ عشرةَ من عُمُرِه صحَّح لبعضِ شيوخِه الرواية، وراجَعَه فيها المرةَ بعدَ الأخرى مراجعةَ المطْمئِنِّ المسْتَوْثِق، حتى أقرَّ الشيخُ بصحَّةِ ما رأى. واستمرّ يطلبُ الحديثَ بأرض سَمَرْقَنْد

ومَنْ حولَها، يأخذُ عن شيوخِ الحديثِ في تلكَ البلاد، وكان بها رواةٌ أعلامٌ أخلصُوا النيةَ، وطلبوا الحقّ، وهم ثِقاتٌ عُدولٌ ضابطون، يعرِفون ما ينقُلون وما يدّعون.

إلى البيت الحرام:

ولما استوى عُودُه، وصارَ فتىً سويّاً، إذْ بلغَ الثامنةَ عشرةَ من عُمُرِه، يَمَّمَ شَطرَ المسجدِ الحرام. فذهبَ حاجّاً معَ أبيه التقيّ. وكان غرضُ أبيه أداءَ الفريضة، وغرضُهُ هو أداءُ الفريضةِ وتلقِّي الحديثِ في مكةَ والمدينة، وكانتا في ذلكَ الإبّان، لا تزالانِ مَوْرِدَ الإسلامِ العَذْب، يَرِدُ إليهِ الصَّادِرون من مَشَارِقِ الأرضِ ومغارِبِها، فأقامَ في تلك الأرضِ المقدَّسةِ ما شاءَ أنْ يُقيم، حتى جمعَ من رواةِ الحديثِ فيها ما عندَهم من تَرِكةٍ مُثْرِية عن رسولِ الله ﷺ.

تَنَـقُّلُه في الأمصار، ينقلُ عن رواتِها:

وبعد أنِ ارتوى من ماءِ زمزم، وما حولَها من البقعةِ المباركة، وارتوى من حديثِ الرسولِ ﷺ بالحجاز، أخذ ينتقلُ في الأمصارِ الإسلاميةِ مِصراً مِصراً، فانتقلَ إلى البصرة، وإلى الكوفة، وإلى ما وراء النهر، لا يعلمُ بأرضٍ ثَبْتاً ثقةً إلّا رَحَلَ إليه. وقد رحلَ إلى دارِ السلام حيثُ التقى بإمامِها أحمدَ بنِ حنبل، وروى عنه وتلقَّى حديثَه، وأخذَ من سندِه. وما نقلَ حديثاً وضمَّنه كتابَه إلا إذا كانَ قد أخذَه من راويه. فقد كان منْ شَرطِه في الروايةِ ألّا يأخذَ عن مُعاصرٍ إلّا إذا لقيَه، فَمَنْ ماتَ قبلَه لا يأخذُ عنهُ مهما بعُدتِ الديار ونأتِ الأمصار، ومهما عَظُمتِ المشقَّة، ولذلك كَثُـرَ ترحالُه، لا يقيمُ في بلدٍ إلّا على نيةِ الرحيلِ عنه إلى آخرَ يكون فيه مُحدِّثٌ معاصِرٌ عُلِمَ أمرُه.

وقد أخذ يجمعُ ما سمِعَ ويُدوِّن، يَسْهَرُ الليالي ذواتَ العَدَدِ في تدوينِ ما جمع، ويشكرُ بالعملِ نعمةِ الله تعالى عليه في أن ردَّ بصرَه. فقد ذكر ابنُ كثيرٍ في تاريخِه: «أنَّ البخاريّ كانَ يستيقظُ في الليلةِ الواحدةِ من نومِه، فيوقدُ السِّراجَ ويكتبُ العابرةَ تمرُّ بخاطرِه، ثم يطفئ سراجَه، ثم يقومُ مرةً أخرى وأخرى، حتى كان يتعدَّدُ منه ذلك قريباً من عشرينَ مرة. فكانَ ذلكَ عبادةً يتعبَّدُ الله تعالى بها، وهذا مَعَ نُسُكِه وكَثْرةِ صلاتِه وتَـهَجُّدِه بالليلِ ممّا يرفعُه إلى مراتبِ العُبَّادِ الزُّهَّاد.

جلوسُه للعلم:

تذاكرتِ الرُّكبانُ باسمِ البخاريّ، وتناقلتِ الأسماع علمَه، وقد صارَ ينتقلُ للإلقاءِ بعَد أنْ كانَ يتنقَّلُ في الأمصارِ للتلقّي. وصار يَروي للأجيالِ من بعدِه بعد أن كانَ يُروى عمَّنْ سبقه من الثِّقات، وبذلك صار يعقدُ مجالسَ للحديث في الأمصارِ التي يحِلُّ فيها، أو بعبارةٍ أدقّ: صارتِ المجالسُ تنعقدُ حولَه عندَما يحُلُّ في أيِّ مِصر، من طالبي الحديثِ الذين يحفّون بالثقات، ويريدونَ أنْ يسمعوا من البخاريِّ روايةَ عصره.

وقد انعقدتْ له مجالسُ علمٍ في البصرةِ والكوفةِ ومصْرَ والريِّ وسَمَرْقند، وابتدأتْ هذه المجالس، وهو بعدُ شابّ لم يَصِلْ إلى حدِّ الكُهولة، وهو في كلِّ مجالسِه كانَ الثقةَ الذي لا يُمكنُ أنْ يضعُفَ له حديثٌ لعلةٍ في متنِه، أو شذوذٍ في حُكمِه أو ضَعْفٍ في رجالِه، حتى كانَ علمُهُ وشهرتُه به أكبرَ مِنْ سِنِّه.

في بغداد:

وكانتَ بغدادُ في عصرِه، ومن قبْلِه ومن بَعدَه، قصبةَ الدولةِ الإسلامية، وموئلَ العلماءِ في كلِّ أبوابِ العلمِ من لغةٍ وأدب، وفقهٍ وفلسفة، وفيها علمُ الحديثِ

والرواية قد بلغَ الذِّروة، وحَسْبُكَ أنْ تعلمَ أنّه كانَ فيها إمامُ المحدِّثين أحمدَ بنِ حنبل، فكانَ لا بُدَّ أنْ يأوي إليها البخاريّ، كما أوى إلى مكةَ والمدينة، ولذلكَ رحلَ إليها ثمانيَ مراتٍ يَتَغذّى من مَوَاردِ الحديثِ من الرواة، وعلى رأسِهم أحمدُ، الذي كانَ يكبرُه سِناً.

ولما بلغَ ما بلغَ من الشأنِ والعلم، وكانَ الإمامُ أحمدُ قد قبضَه اللهُ تعالى إليه، جلسَ للحديثِ فيها، وبدا نبوغُه، وبَدَتْ سَعَةُ عقلِه، واتِّساعُ آفاقِه، وقوَّةُ حافظتِه، ودقَّةُ روايتِه، حتى صاروا يَتَشكَّكونَ في كلِّ حديثٍ يذكرُ أنه لا يعرفُه، ولا يتردَّدون في قَبولِ أيِّ حديثٍ يعرفُه.

وكانَ الرواةُ من أهلِ الحديثِ الذين كان لهم ذكرٌ وشأنٌ يعقِدون فيما بينهم المجالسَ يختبرونَ مقدارَ علمِه، فكانوا يذكرونَ الأحاديثَ، ويقْلِبون إسنادَها، ويجيبُهم بتصحيحِ السند، فانتقلَ أكثرُهم من حالِ الاختبار إلى حالِ التقديرِ والإعجاب، بل انتقلوا إلى حالِ الأخذِ عنه والاتِّباع، وأقرُّوا له بالصِّدقِ في الرواية، وأذْعنوا له، واسْتمرَّتْ مجالسُه من بعدُ تسيرُ في بغدادَ وغيرِها برخاءٍ سهلة، حتى كان الحسد والحسَّاد.

الحسد:

كانت بغدادُ تموجُ فيها مَوْجَاتٌ من الآراءِ والأفكار، وكانتْ مسألةُ خلقِ القرآنِ تشغلُ العقلَ الإسلاميّ فيها وفي غيرِها من عواصمِ الأقاليمِ الإسلاميَّة، وذلك في أولِ القرنِ الثالثِ الهجريّ إلى أكثرِ من منتصفِه. وكانتِ المحنةُ تنزلُ برجالِ الحديثِ ابتداء، ثم نَـزَلتْ من بعدِ ذلك بخصومِهم، لما جاءَ المتوكِّل، وانتصرَ لأهلِ الفقهِ والحديث،

وعندئذٍ صارَ العالِـمُ يوصَفُ بسلامةِ الاعتقادِ إن قال: إنَّ القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوق، ويوصفُ بالزيغ إنْ قالَ: إنّ القرآنَ لفظهُ مخلوق، أو قالَ: هو غيرُ مخلوق، فعندئذٍ يُوصَفُ بالضلال، وخلعِ الربقة، وإنْ كانَ كلامُه ليسَ قاطعاً في أيِّ الرأيَيْن تأوَّلَ له المحبّون، واتّهمَهُ الحاسِدون.

وَجَدَ الحاسدون المغمزَ الذي يغمزون به شيخَ أهلِ الحديثِ في عصرِه من هذه الناحية، ذلك أنه تحفَّظ في القول، فلمْ يحكمْ في القضية، بل توقَّفَ، ولم يجدْ أنها من المسائلِ التي يَسُوغُ لمحدِّثٍ أنْ يخوضَ فيها، وهو المحدِّثُ الذي ينقلُ الأحاديثَ وأخبارَ الصَّحابة فيما يجدُ نقلاً مروياً في القضيَّـة، لا عن النبيِّ ﷺ، ولا عن صحابتِه الكرام. فتوقفّ ولم يقلْ، ووسِعَه ما وسِعَهم. ولكنّ الحسدَ الذي يأكلُ القلوبَ جعلهم يُـفسِّرون التوقُّف بما تهوى أنفسُهم، فادَّعوا أنه يرى أنه يقول: إنّ لفظي بالقرآنِ مخلوق، وذلكَ لأنهُ قال: أعمالُ العبادِ كلُّها مخلوقة. وأخذ ذلكَ من قولِ النبيِّ ﷺ: «إنّ اللهَ يَصْنعُ كلَّ صَانعٍ وصَنْعتَه»(١). وأوّلوا كلامَه بأنه يرى أنهُ يقول: لفظي بالقرآنِ مخلوق. وانْبرى لإمامِ الحديثِ رجلٌ حقودٌ حسود، وتَقوَّلَ الأقاويلَ على البخاري، حتى لقد بلغَ به الحقد، أن يقول: «مَنْ ذهبَ إلى محمدِ بنِ إسماعيلَ البخاريّ فاتَّهموه».

تَبرَّمَ البخاريّ لأنهُ أحسَّ بأنّ العامةَ يتبرّمون به، وقد أخَذَ يطُوفُ في الأقاليم، حتى أوى إلى سَمَرقند، ونزلَ بقريةِ (خرتنك) وبها بعضُ قَرابتِه فنزلَ عندَهم، وأحسّ الذي كان نقيَّ الإيمانِ سليمَ الاعتقادِ بتبرُّمٍ شديد، حتى اتَّجهَ إلى ربِّه يَضْرعُ إليه:

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد من حديث حذيفة رضي الله عنه. وهو حديث صحيح كما قال الحافظ في «الفتح» ١٣ : ٤٩٨.

«اللهمَّ إنه قد ضاقتْ عليّ الأرضُ بما رَحُبَت، فاقبضْني إليك. فقبضَهُ اللهُ تعالى إليه بعدَ شهرٍ من دعائِه».

آثارُه، وأشهرُها كتابُ «الجامع المسند الصحيح»:

تركَ البخاريُّ علماً كثيراً كلّه يتَّصلُ بالروايةِ والأثر، فقد كتبَ كتابيْن في التاريخ، هما «التاريخُ الصغير» و«التاريخ الكبير»، وهما في تاريخِ رجالِ الحديثِ والأثر. وترك كتابيْن آخريْن، هما كتابُ «الضعاف الصغير» و«الضعاف الكبير».

وترك الأثرَ الخالدَ الباقيَ مبيناً وموضِّحاً للشرع الإسلامي إلى اليوم هو كتاب «الجامع الصحيح»[١].

وقد ابتدأَ بجمعِه في شَرْخِ شبابِه، وهو يَتَنـقَّلُ في الآفاق يأخذُ عمَّنْ قبلَه، ويُعطي من دونَه، واسْتمرَّ على ذلك إلى أنْ بَلَغَ ما بلغَ من الثقةِ والاشتهارِ بالحفظ. عندئذٍ اتَّجه إلى تدوينِ «الجامع الصحيح»، ويقول في سببِ تدوينِه: «كنتُ عندَ إسحاقَ ابنِ راهَويْه، فقال لنا بعضُ أصحابِنا: لو جمعتُم كتاباً مختصراً لسننِ النبيِّ ﷺ. فوقعَ ذلك في قلبي، فأخذتُ في جمعِ هذا الكتاب» (يعني كتاب «الجامع الصحيح»).

وقد أخذَ بجمعِه في مكةَ والمدينة عندَ الروضةِ الشريفة، وقالوا: إنه ترجَمَ أبوابَه في الروضةِ الشريفة، ولم يكتفِ بطُهْرِ المكان، بل كانَ لا يكتبُ حديثاً من الأحاديثِ إلّا بعد التوضُّؤ وصلاةِ ركعتين، وقد استمرَّ في تدوينِه نحوَ ستةَ عشرَ عاماً.

وهو مُرتَّبٌ حسبَ ترتيبِ أبوابِ الفقه، لم يُؤْخَذْ عليهِ إلا نحوُ ثلاثين حديثاً، ونحوُ ستينَ رجلاً، ومجموعُ أحاديثِه: (٧٢٧٥) خمسةٌ وسبعونَ ومئتان وسبعةُ آلاف،

---

(١) واسمه: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيامه.

وهو كان يُكرِّر إذا تعدَّدتِ الرواية، وبحَذْفِ الـمُكرَّر، يكونُ المجموعُ نحوَ أربعةِ آلافِ حديث[١]، وقد اختصرَه الزَّبيْديّ.

عزّة العلم:

كانَ البخاريّ في جِدَةٍ من العيشِ والرزقِ الموفور، فالتقى فيه إيمانٌ وتقىً ورزقٌ طيِّب، ولذلك لم يَتَدَلَّ إلى العيشِ في كَنَفِ ملكٍ أو ذي سُلطان، وليسَ لابنِ حرة يدٌ عليه.

طلبَ إليه أميرُ بُخَارى بعد أنْ آبَ إليها أنْ يذهبَ إليه ليقرأ له كتابَ «الجامع الصحيح» و«التاريخ» ليسمعَ منه، فقال البخاريُّ لمنْ أرْسَله: «أنا لا أُذلُّ العلم، ولا أحملُه إلى أبوابِ النّاس، فإنْ كانتْ لك حاجة، فاحضُرْني في مَسْجدي أو في داري». فتَلَطَّف الأمير، وطلبَ إليه أنْ يحضرَ أولادُه إلى البخاريّ في مجلسٍ لا يحضُرُه أحَد. فردَّ العالِـمُ المعتزُّ بعزَّةِ الله قائلاً: «لا يَسَعُني أنْ أخصَّ بالسماعِ قوماً دونَ قوم». أي أنّه يُقدِّم العلمَ للناسِ على سواء، فحرَّضَ الأميرُ أذلّاءَ العلماء على أنْ يتكلموا في دينِ عزيزِهم التقيِّ النقيّ.

وهكذا عاشَ البخاريُّ عزيزاً، ومات مُعزَّزاً مُكرَّماً في ليلةِ عيدِ الفطرِ من سنةِ ٢٥٢هـ، فرضي اللهُ عنه وأثابَه على عملِهِ النافعِ إلى يومِ القيامة.

* * *

(١) قال الحافظ ابن حجر في «هدي الساري» ص٤٧٧: «فجميع ما في صحيح البخاري من المتون الموصولة بلا تكرير على التحرير (٢٦٠٢) ألفا حديث وستمائة حديث وحديثان. ومن المتون المعلقة التي لم يصلها في موضع آخر من الجامع المذكور (١٥٩) مائة وتسع وخمسون حديثاً. فجميع ذلك: (٢٧٦١) ألفا حديث وسبعمائة وأحد وستون حديثاً». انتهى.

مُسْلم بن الحجّاج[١]

(٢٠٤-٢٦١هـ)

انتشار علوم الشريعة في بلاد ما وراء المشرق:

كَثُرتْ علومُ الفقهِ والحديثِ والتفسير، في القرنِ الثالثِ الهجريِّ بمشرقِ البلادِ الإسلاميةِ خُراسان وفارسَ وسمرقند وما وراءَها، لأنّ أهلَ هذه البلادِ كانوا قبلَ الإسلام أهلَ علومٍ وحكمةٍ وفلسفة، فلما جاءَ الإسلام أشبعوا نهمتَهم العلميةَ في علومِه وكما رُوي في الأثر[٢]: «منهومانِ لا يَشْبعانِ أبداً: طالبُ علم، وطالبُ مال» ومَرَدُّ ذلك إلى كلِّ مَنْ أقامَ معَهم من العرب، ولأنّ أهلَ هذهِ البلاد سُلِبوا الولايةَ والحكمَ باستيلاءِ العربِ المسلمين على أراضيهم، فانصرفوا إلى العلم، لينالوا الرياسةَ عن طريقِه، وقد فَقَدوها عن طريقِ الحُكْمِ والسلطان، فاسْتَوْلَوْا على رياسةٍ خالدةٍ لا تبلى بِكَرِّ الغَدَاةِ ومرِّ العَشيّ، واستبدلوها برياسةٍ وقْتيَّـةٍ لا تبقى إلّا أمداً محدوداً مهما يكنْ طولُه أو قِصَرُه.

الحركة الفكرية في أول القرن الثالث:

ولم يتَّخذوا بغدادَ مستقراً ومُقاماً، لأنها كانت في أوَّلِ القرنِ الثالث، تحتَ سلطانِ المعتزِلةِ والحركةِ الفكريةِ في ظِلِّهم، وكانت فيها الفِتَن، بسببِ المعركةِ بين أهلِ الفقهِ

---

(١) مجلة العربي: العدد ٨٢، عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

(٢) من كلام ابن عباس رضي الله عنهما. رواه الدارمي (٣٣٤) في مقدمة سُننه. كما أورده أيضاً من كلام ابن مسعود (٣٣٢)، والحسن البصري (٣٣١).

والحديث، وأهلِ الاعتزال، وقد اكتوى بنارِها إمامُ السُّنةِ والفقه أحمدُ بنُ حنبلٍ رضي الله عنه، فكان علماءُ الفقهِ والحديثِ والتفسير، لا يَـرَوْن في مدينةِ دارِ السَّلامِ الهدأةَ والاطمِئنان. والعلمُ لا يعيشُ إلّا في جوٍّ هادئٍ مُستقرٍّ مطمئن. وفوقَ ذلك فإنه كانَ في تلك الجهاتِ النائية وُلاةٌ يُشجِّعون العلماء، ويُحرِّضون على العلمِ وطلبِه.

فلم يكنْ غريباً أنْ يوجدَ في هذهِ البلادِ البخاري كما رَوَيْنا من قبل، ثم رصيفُه[١] مسلمُ بنُ الحجّاج، أبو الحسينِ القُشيْريّ، صاحبُ الصحيحِ الذي يُقاربُ كتابَ البُخاريّ، أو يُساويه في نظر بعضِ العلماء، بل ادَّعى بعضُ المشارقةِ والمغاربة، أنّه خيرٌ منه.

ولادة الإمام مسلم ونشأته:

وُلِدَ مسلمٌ بنيسابور، ونَشَأَ نشأةً دينيةً لأنه كانَ في بيتٍ دينيّ، ومعَ أنه نشأَ في نَيسابور ووُلِدَ فيها، فهو ينتمي إلى أصلٍ عَرَبيّ. لأنه ابنُ بني قُشَيْر، وهي قبيلةٌ عربية، فهو يُشبِهُ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبل إذ وُلِدَ بخُراسان، وهو شيبانيٌّ من أسرةٍ عربية، ويظهرُ أنها آوَتْ إلى تلك البلادِ النائية، طلباً للراحةِ والاطْمِئنان، ولم يكنْ لها صِلةٌ بأهلِ السلطان كأكثرِ هذه البلاد.

وقد حفظَ القرآنَ الكريمَ وتعلَّمَ أُصولَ الدين، وأخَذَ الفقهَ عن المذهبِ الشافعيّ، وإنْ كان له اجتهادٌ يخرجُه عن أنْ يكونَ مُقلِّداً، وذلك لأنّ مذهبَ الشافعيّ كانَ منتشراً في تلك الجهات ولم يكنْ يُغَالبُه في السيطرةِ والنفوذ سوى المذهبِ الحنفي، الذي كانَ مذهبَ الدولة، بيدَ أنَّ المذهبَ الشافعيّ كان يستمدُّ قُوّته من الشعبِ

(١) أي: يُعارضه في عمله، ويألفه ولا يفارقه كما في «القاموس».

وإيثارِه له، والمذهبُ الحنفيّ يستمدُّ قُوّتهُ من السلطان، ولكنّ المناظرةَ كانتْ تعقدُ حُرَّةً بينَ مذهبيْن سُنِّيّيْن يلتقِيانِ في زاويةٍ رأسُها الكتاب والسُّنة وعَمَلُ السَّلفِ الصَّالح، رضي اللهُ عنهم، ولم يكنِ انْفراجٌ كبيرٌ في خطّي الزاوية، بل إنّ خَطَّيْها مُتَقارِبان، لا يبتعِدان.

إلى الحديث:

بعد أن أعدَّ العُدّة، وأخذَ الأُهْبة، وصَار فتىً سَوِيّاً اتّجهَ إلى الحديث بكُلّيَّـتِه، والحديثُ فيه علمُ الإسلام، والتقى بكبارِ الـمُحَدِّثين في نيسابور حتى جمعَ الرِّوايةَ عنهم كاملةً غيرَ منقوصة، وقد أخذَ عنهم أَخْذَ مُتْقِنٍ ملازم، فلمّا استوفى وقوِيَ عُودُه، رَحَل إلى البلادِ الإسلامية، يطلبُ الحديثَ من مَواطِنِه، ويأخذُه عن رجالِه، فسافرَ إلى الأقطارِ الإسلامية في طلبِ الأئمة، فارتحَلَ إلى خُراسان، وذهبَ إلى الرَّيّ، وإلى العراق، وأخصُّ مَنِ التَقى فيه وأخذَ عنه: الإمامُ أحمد، وكانَ في أوْجِه، وقد تَسَامعَتْ به الرُّكبان، ثم رَحَل إلى الحجازِ يطلبُ الحديثَ فيه معَ الحجّ، ويروي عن كبارِ الـمُحدِّثين فيه. ولم تقفْ رحلتُهُ عندَ حدِّ العراق، بل رَحَلَ إلى الشامِ يأخذُ من مُـحَدِّثيها، وإلى مصر، ولعلَّهُ كان يأخذُ في مصرَ عِلمَيْن: علمَ الحديث عن الرواة، وفقهَ الشافعيِّ عن تلاميذِ الشافعيّ الذينَ كانت مِصْرُ لهم مُسْتقرّاً ومُقاماً.

وعندما زارَ البخاريُّ نيسابور، التقى به مسلم وأخذ عنه، أُعجِب به أشدَّ الإعجاب، ولازمه وأدامَ الاختلافَ إلى مجلِسِه، ولما استمعَ إليه أحبّه، وتعصَّب له، حتى لقد روى الرواة أنه بعد أنْ استمعَ إليه قبَّلَ ما بينَ عَيْنيْه، وقال له: «دعني [أُقَبِّل رجْليك] يا أستاذَ الأستاذين، وسيِّدَ المحدِّثين، وطبيبَ الحديثِ في عِلَلِه».

الصِّدقُ والاستِقامة:

بلغ مسلمُ بنُ الحَجّاجِ الشَّأوَ في الرِّواية بعدَ أن طوَّفَ في البلادِ مشرقاً ومغرباً، مختلفاً إلى مجالسِ الرجال، وهو يتلقَّى عنهم، وينقدُهم، وينقدُ ما ينقلون نقدَ الصَّيْرفيِّ للدراهم، يدفعُ زُيوفَها، ويقبلُ جِيادَها، وينقلُ إلى الأخْلاف ما يَراه مَحْضَ الصِّدقِ في النقل عن رسولِ الله ﷺ.

فهو لا يأخذُ إلّا عن الثِقاتِ الصَّادقين الأُمناءِ أهلِ الاستقامة، ويُوجبُ على طالبِ الحديثِ أنْ يبتعدَ عن أهلِ التُّهم، يتَّقِيهم، ويقولُ في ذلك رضي اللهُ عنه: «اعلمْ ـ وفَّقَكَ الله ـ أنّ الواجبَ على كلِّ أحدٍ عرفَ التَّمييزَ بينَ صحيحِ الروايات وسقيمِها، وثقاتِ الناقِلين لها من المتَّهمين، أنْ يتَّقيَ منها ما كانَ من أهلِ التُّهم، والعائِدين من أهلِ البِدَع، والدليلُ على أنّ الذي قلنا هو اللازم دونَ ما خالفَه، قولُ الله جلّ ذكرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ٢]، وما ذكرْنا من هذهِ الآي يدلّ على أنّ خبرَ الفاسِقِ ساقطٌ غيرُ مقبول، وأنّ شهادةَ غيرِ العدلِ مردودة»[1].

فهو يشترطُ فيمن يَروي عنهم من معاصِريه أن يكونوا معروفينَ بالصِّدقِ والعدالةِ والاستقامة، وألّا يكونَ غرامُهم كثرةَ التحديث من غيرِ أنْ يعرفوا السقيمَ من الصحيح، بل إنه يتَّخذُ من الإكثار دليلاً على عدمِ الإتقان، ويروي في ذلك قولَ

---

(١) مقدمة مسلم طبع إستانبول ص٧. (أبو زهرة).

النبيّ ﷺ: «كفى بالمرءِ كَذِباً أنْ يحدِّثَ بكلِّ ما سَمِع». ويروي عن عمرَ بنِ الخطابِ قولَه: «بحسبِ المرءِ من الكذب، أن يُحدِّثَ بكلِّ ما سَمِع».

وكان يأخذُ من كثرةِ التحديث، دليلاً على عدمِ التَّحرّي في صِدْقِ ما ينقلُ عن الرسولِ ﷺ، ويذكرُ عن نفسه أنه اختارَ كتابَهُ من بينِ ثلاثمئةِ ألف حديث، بعد أن اختبرَ صدقَ ما أخذه ورواه، فلم يكنْ همُّه ـ لا هو ولا غيرُه من المحدِّثين ـ الإكثارَ والجمْع، كما افْترى بعضُ المسْتَشْرِقين، بل كان همُّه التَّحرّيَ وتَعرُّفَ الصحيح، وردَّ السقيم.

وكان يُبعدُ من روايـتِه الأخبارَ الغريبة التي لم تَسْتَأْنِسْ بمثلِها، أو التي تكونُ في ذاتِها غريبةً على المعقول، ويُروى عن ذلك قولُ عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه: «ما أنتَ بمُحَدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغُه عُقولُهم إلّا كانَ لهم فتنة».

وكان رضي الله عنه لا يقبلُ حديثاً ممَّنْ كان يغتابُ الناس، وخاصَّةً العلماء. ذكر الخطيبُ البغدادي أنّ مسلمَ بنَ الحجّاج كان يدافعُ عن البخاري في قولِه بالنسبةِ للقرآن، وكان محمدُ بنُ يحيى الذُّهْلِي من شيوخِه ينالُ من البخاريّ لرأيِه، وقال يوماً لأهلِ مجلسِه، وفيهم مسلم: «مَنْ كان يقولُ بقولِ البخاريّ في مسألةِ اللفظِ بالقرآن، فَلْيعتزلْ مجلسَنا»، فنهضَ مسلمٌ من فورِه إلى منزلِه، وجمعَ ما كانَ سمِعَه من الذهليّ، وأرسلَه إليه، وتركَ الروايةَ عنه، واسْتحكمتِ الوحشةُ بينَهما.

وكانَ من الغريبِ أنّ البخاريّ، الذي قيلَ فيه ما قيل، لم يتركِ الأخذَ عن محمدِ ابنِ يحيى هذا، بل روى عنه في صحيحِه وعَذَرَه.

إنّ هذا الخبرَ يدلُّ على قوّةِ التَّحرِّي، والإخلاصِ للعلماءِ عندَ مسلم، ويدلُّ على السماحةِ عندَ البخاريّ، وأخْذِهِ بالعفوِ وترجيحِه على سواه.

اتِّصالُ السند:

يُشترطُ في الروايةِ أنْ يكونَ السندُ مُتَّصلاً، فيُعدُّ من الضعيف، الحديثُ الذي يرويه التابِعيّ، ولا يذكرُ الصحابيَّ الذي روى عنه، ويُسمَّى المرسَل، كما لا يروي الخبرَ الذي ينقطعُ في إحدى طبقاتِه. ويُروى في ذلك أن عبدَ الله بنَ المباركِ ردَّ الخبرَ المرويَّ عن الحجاجِ بنِ دينار، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «أنْ تُصَلِّيَ لأبويْك معَ صلاتِك، وأنْ تصومَ لهما معَ صومِك»، فقد قال ابنُ المبارك: إنّ بينَ الحجّاجِ بنِ دينار، وبينَ النبيِّ ﷺ، مَفَاوزَ [تنقطع] فيها أعناقُ المطِيّ.

وإنَّ مسلماً يُقسِّمُ المحدِّثين الذين التقى بهم وتتبَّع إسنادهم إلى ثلاثةِ أقسام، ويجعلُ كلَّ قسمٍ طبقةً تليها أُخرى، فأهلُ الطبقةِ الأولى: الذين عُرِفُوا بالاستِقامةِ والإتقان لما ينقُلون، ومَنْ ينقُلون عنهم، لم يوجدْ في رواياتِهم اختلافٌ ولا تخليط، ولا في إسنادِهم ضَعْف، بل صِدْق، وهؤلاء تُقدَّم رواياتُهم على غيرِهم.

والقسمُ الثاني: مَنْ لم يُعرفْ عنهم كَذِبٌ، ولا انحرافٌ عن الجادَّة، ولكنْ لم يُعرفوا بالإتقان في الروايةِ والسُّنَّة، وهم طبقةٌ دونَ الأولى، وتُقدَّمُ الأولى عليها إن كانَ تعارُض، فهم منزلةٌ دون منزلتِهم. ويَروي في ذلك حديث عائشةَ عن النبي ﷺ إذ قالت: «أمرَنا رسولُ الله ﷺ أنْ نُنزِلَ الناسَ منازلَهم».

والقسمُ الثالث: مَنْ لا يُقبلُ حديثُهم، وهم المتَّهمون عندَ أهلِ الحديث، أو

عندَ الأكثرِ منهم، وكذلك من يكونُ الغالبَ على حديثِه المنكرُ الذي يخالفُ المعروفَ عن الثِّقات، أو مَنْ يكثُرُ عندَه الغَلَط، فإنّ هؤلاءِ لا يَروي عنهم أيضاً.

كتبُه ومَرْويَّاتُه وقُوّتُها:

بهذه الدِّقّةِ في اختيارِ مَنْ ينقلُ عنهم، رَوَى الأحاديثَ التي اشتَمَلتْ عليها كُتُبُه، ولكنَّ أهلَ الخبرةِ كانوا يَرَوْنَ أنّ البخاريَّ قد اشترطَ فيمَنْ يأخذُ عنهم ما لم يَشْتَرِطْ مسلم، فالبخاريُّ اشترطَ الإتقانَ والصِّدقَ والعدالةَ والضَّبْطَ والحفظَ كما اشترطَ مسلم، بَيْدَ أنّ البخاريَّ اشترط الـمُلازَمةَ(١) لمنْ يروي عنه، لأنه بالـمُلازَمَةِ أمداً غيرَ قصيرٍ يتعرَّفُ حالَه بالعِيان(٢)، لا بالخبر، بينما اشترطَ مسلمٌ أنْ يلقاه، وأنْ يكونا في عصرٍ واحد(٣)، ولا شكّ أنّ مجرَّدَ اللقاء دون الملازمة.

وإذا كان البخاريُّ في روايتِه يمتازُ على مسلمٍ بهذه الميِّزةِ التي تُوثِّقُ الروايةَ أشدَّ توثيق، فمسلمٌ يمتازُ على البخاريّ بجودةِ التَّصنيف، وحُسْنِ الترتيب، وقد بدا ذلك في كلِّ مؤلفاتِه.

ومن كتبه: «الـمُسْنَدُ الكبيرُ على أسماءِ الرجال»، وكتابُ «الجامعُ الكبيرُ على الأبواب»، وكتاب «العلل»، وكتاب «أوهامُ المحدِّثين»، وكتاب «التمييز»، وكتاب «مَنْ ليسَ له إلّا راوٍ واحد»، وكتاب «طبقاتُ التابعين»، وكتاب «الـمُخَضْرَمين».

---

(١) لم يشترط البخاري الملازمة، وإنما اشترط ثبوت اللقاء ولو مرة واحدة. واللقاء دون ثبوت السماع هو مذهب أبي زرعة وأبي حاتم.

(٢) هذا التعليل لا لزوم له، لأنَّ البخاري يشترط ثبوت اللقاء ولو مرة واحدة كما تقدَّم.

(٣) شرط مسلم: المعاصرة وإمكان اللقاء.

ولكنّ كتابَه العظيمَ الذي خدمَ به الإسلام، وناظرَ البخاريَّ به في كتابه، هو «الصحيح»[١]، والأكثَرون من العلماءِ على أنَّ كتابَ البخاريّ أوثقُ رواية، وكتابُ مسلمٍ أحسنُ تبويباً وترتيباً، وقد بالغ علماءُ المغرب وبعضُ علماءِ المشرقِ في تقديرِ كتابِ مسلم، حتى قدّموه على البُخاريّ، ولكنّ الـجُمهورَ الأعظمَ من المحَدِّثين على غيرِ ذلك.

وإنه ممّا أُخِذَ على البخاريّ تكرارُه الحديثَ الواحدَ في عدَّةِ مواضِع، وأحياناً يذكُرُ بعضَ الحديثِ في مَوْضِع، وبعضَهُ في مَوْضعٍ آخر، وقد تحاشى ذلك مسلمٌ في صحيحِه، فلمْ يكنْ فيه تِكرار، إلّا ما تَضْطرُّ الضرورةُ إليه، وقد ذكر هو ذلكَ في مُقدِّمةِ صحيحِه، فقال رضيَ اللهُ عنه: «نُقسِّمُها على ثلاثةِ أقسام. وثلاثِ طبقات من الناس[٢] من غيرِ تكرار، إلا أنه يأتي مَوْضِعٌ لا يُستَغْنَى فيه عن تَردادِ حديثٍ فيه زيادةُ معنى، أو إسنادٌ يقعُ إلى جَنْبِ إسنادِه لِعلَّةٍ تكونُ هناك، فلا بُدَّ من إعادةِ الحديثِ الذي فيه ما وَصَفْنا من الزيادة، أو أن يُفْصَلَ ذلك المعنى من جُـملةِ الحديث على اختصارِه إذا أمكَن، ولكن تفصيلَه ربَّما عسُر من جملتِه، فإعادتُه إذا ضاقَ ذلك أَسلم».

ومؤدّى هذا الكلام أنّه لا يُعيدُ إلّا إذا كانتْ ثمَّةَ زيادةٌ لا تُفهم من غيرِ ذكرِ الحديثِ كلِّه، أو يكون هناكَ إسنادٌ يُـقوي الإسنادَ الذي يكونُ فيه علَّةٌ قد تُنزِلُه عن

---

(١) واسمه: «المسنَد الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ» كما حقَّقه أستاذنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في رسالته: «تحقيق اسمي الصحيحين واسم جامع الترمذي».

(٢) قد ذكرْنا الأقسام الثلاثة. (أبو زهرة).

درجتِه، فيذكرُ الإسنادَ الجديدَ ليعلوَ به أو تكونُ إحدى الروايتيْن فيها اختصار، والأخرى فيها تَفْصيل، فيذكرُ الـمُفصَّل، إذْ يَضِيقُ الـمُخْتَصَرُ عن أنْ يَشْمَلَ كلَّ المعاني.

استمرّ مسلـمٌ رضي الله عنه في طلبِ الحديث وتحريـرِه، وتخليصِ أحـاديثِ رسولِ الله ﷺ من كلِّ ما يَشُوبُها، وردِّ كلِّ ما يَتَوهَّمُ فيه كذباً على رسولِ الله ﷺ، بل ردَّ كلَّ ما لم يكنِ الراوي فيه يُطْمَأَنُّ إلى روايتِه، وكلَّ ما يكونُ غريباً لم يستأنِسْ بالمعروفِ من أحاديثِ رسولِ الله ﷺ.

يموتُ وهو يبحث:

وقد كانَ يُجاهِد، حتى حَضَرَتْه الوفاة، وهُوَ يبحثُ عن حديثٍ سُئِل عنه، فلَمْ يعرفْ مقدارَ قوتِه، فأشعل السِّراج ومنعَ أهلَه من أن يدخُلوا، حتى فاضَتْ روحُه إلى ربِّه، وهو يبحثُ عنه، وكان ذلك عشيّـةَ الأحد، ودُفِنَ يومَ الاثنينِ لخمسٍ بَقِينَ من رجبٍ سنةَ ٢٦١، لم يُعمَّر إلّا سبعاً وخمسين سنة، أتى فيها بذلك التُّراثِ العلميِّ العظيم.

* * *

أبو داود السِّجستاني[1]

(٢٠٢-٢٧٥هـ)

الأزدي السِّجستاني:

هو سليمان بنُ الأَشعثِ بنِ إسحاقِ بنِ بشير، أبو داود، ويُنسبُ إلى سجستان وإلى الأَزد، وهي إحدى القبائلِ اليمنيّة، فيُقالُ له: الأزديُّ السجستانيّ، ويظهرُ أنه مِنْ أصْلٍ غيرِ عربيّ، واتَّصلَ بالأَزْدِ بصلةِ الولاء، كالشأنِ في كثيرين مـمَّنْ أسلموا من الأعاجِم، فقد كانوا يعقِدونَ عقدَ ولاءٍ معَ أُسرةٍ عربيّة، فينتمونَ إليْها بهذا الوَلاء، وتكونُ أسرةً لهم كأسرةِ النَّسَب، وإنْ كانتْ دونَها قـوّة، ولعلّ ذلك اتِّباعٌ لسُنَّـةِ المؤاخاةِ التي سنَّها النبيُّ ﷺ عندما آخى بينَ المهاجِرين والأنصار، وآخى بينَ الأَوْسِ والخَـزْرَج، فكانتِ المؤاخاةُ تُلـحِقُ المؤمنَ بالمؤمنِ بالأُخـوّة، وإنْ لم تكنْ رحِمٌ جامِعة، ولا عَصَبةٌ دافِعة.

ويظهرُ أنهُ وُلِدَ بالبصرة، فقد كانتْ حياتُه كلُّها بها، وقد انتقلَ منها بالطوافِ في الأَقاليمِ الإسلاميّـة ليجمعَ الأحاديثَ مِن أفواهِ رواتِها، ويتلقّى كُـتُـبَها مـمَّنْ كَـتَـبَها، ويعودُ إليها كما يعودُ الغريبُ إلى موطنِه الأصليّ بعد طولِ التَّطوافِ وتنائي الديار التي طافَ بها. وقد ذهبَ إلى بغدادَ قصبةِ الدولةِ مِراراً، خصوصاً بعد أنِ استوى سوقُ علمِه، لينشرَ روايتَه التي صَحَّتْ عندَه.

---

(١) مجلة العربي: العدد ٨٦، عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م.

نشأته ودراسته واتجاهه إلى علم الرواية:

كانتْ نشأةُ أبي دواد بالبصرة، وهي إحدى مدائنِ العلم في القرنيْنِ الثاني والثالثِ من هجرةِ النبيِّ ﷺ، وبها نشأ علمُ الكلام، ونَمَتْ فيها آراءُ المعتزلة وانبثقتْ من ربوعِها، وكان بها اجتهادٌ فقهيّ في عهدِ أبي حنيفة ومَنْ جاءَ بعدَه، وناظرَ الشافعيُّ فُقَهاءَها في آراءٍ انحرفَ بعضُهم إليها.

ولقد كانَ يَسُودُ الجوَّ الإسلاميَّ العامَّ ثلاثةُ أنواعٍ من العلوم، تميّـزَ بعضُها عن بعض، أولُـها: علمُ الكلام، أو العلمُ الذي موضوعُـه فلسفـةُ العقيـدةِ الإسلاميّة، والثاني: علمُ الفقه، أو علمُ اسْتِنْباطِ الأحكامِ التكليفيّـةِ العلميّـةِ ومناهجِه، والثالث: علمُ الحديث، وقد تميَّـزَ بهذا علمُ الروايةِ عن علمِ الفِقْه، وإن كانَ الثاني يستمدُّ أحكامه من الأول، إذ هو ينبوعُه الذي يستقي منه كمصدرٍ ثانٍ بعدَ القرآنِ الكريم.

اتَّـجه أبو داودَ إلى علمِ الرواية، ومنها يستقي علمَه بالفروعِ، ولا يتجاوزُ في ذلك ما يُروى. وكذا ابتدأ باستحفاظِ القرآنِ الكريم، فاتَّجهَ إليه، إذ حفِظه، وهو قِوامُ العلمِ الإسلاميّ لـمَـنْ يريدُ أنْ يَتَخصَّصَ في ناحيةٍ من نواحيه، ثم علمِ العربيّة، إذ هي وِعاءُ العلمِ الإسلامي، وهي المصباحُ لمن يُريدُ أنْ يسيرَ في طرائقِه، ويَصِلُ إلى غايتِهِ، ومن بعدِ ذلك اتَّـجَهَ إلى الرواية.

طَوَافُه في الأقاليم:

ولم يكنْ بالبصرةِ من رُواةِ الأَحاديث والأخبارِ عن الرسولِ ﷺ مَـنْ يكتفي بالرواية عندَهم، ولذلكَ كانَ لا بُـدَّ له أنْ يَطُوفَ في الأقاليمِ ليسمعَ الكثيرينَ من الرواةِ في البلدانِ المختلفة، فرَحَل إلى الشامِ وإلى مصر، وإلى أرضِ الجزيرةِ، وخُراسان

وما وراءَها، وذلك فوقَ رحلتِه إلى مكةَ والمدينة، وسائرِ بلادِ الحجاز ليلتقِيَ بالرواةِ الذينَ يُروى عنهم، فقد اتَّفقَ رواةُ صحاحِ السنّةِ على أنّ الروايةَ لا تكونُ من الصُّحفِ المكتوبة، فإنها قد يعتريها التَّحريف، بل لا بُدَّ أنْ تُتَلقى من الأفواه، وما يكونُ مكتوباً لا بُدَّ أنْ يقرأ عَمَّنْ كَتَبَه، وقد يَتَساهلونَ في أنْ يَرْوِيَ راوٍ عن غيرِه، وكلاهما على قَيْدِ الحياة، ولكن لا يُسوِّغون أنْ يكونَ التلقِّي من الكُتُب، وإنْ كان البُخاريُّ قد شدَّدَ في أنه لا يُروى عن راوٍ حيٍّ إلّا منه[١]، فلا يتوسَّطُ غيرُه.

وكان عمادُ الروايةِ عندهم أمريْن: أوّلهما: ملازمةُ الراوي مَنْ يروي عنه ليعرفَ مقْدارَ الثقةِ فيه، وثانيهما: ضَبْطُه وإتقانُه وحِفْظُه، فإذا بلغتِ الروايةُ الأمريْن على وجهِ الكمال كانتْ كاملة، وإن كانَ نقصٌ في أَحدِهما قوّاهُ الكمالُ في الآخر.

وقد كانَ أبو داودَ يُشدِّدُ في ضرورةِ الملازَمة على وجهِ الكمال، ويكتفي من الضبطِ وإتقان الحفظِ بوجودِ الأصل، وألا يشترط بلوغَ حدِّ الكمال[٢].

وبعد أن امتلأتْ جُعْبتُه، أخذَ ينقلُ إلى غيرِه ما رواه، فاتَّخذَ البصرةَ مُسْتقرّاً ومقاماً له، يَفِدُ إليه طلابُ الروايةِ من البلادِ الإسلامية، يَتَلقَّوْنَ عنه ما تلقّى، وانتقلَ إلى بغدادَ من بعدِ ذلك يأخذونَ عنه ما نقلَ عن غيرِه بالتلقّي، ويأخذُ عن غيرِه من أصلِها ما لم يأخذْه مِنْ نقل، وقد عَرَضَ ما في حقيبتِه على الإمام أحمدَ بن حنبل، وتلقّى عليه، وهكذا صارَ يُؤْخَذُ عنه، وإن استمرَّ يأخذُ عن غيرِه كإمام دارِ السلامِ أحمدَ رضي اللهُ عنه.

---

(١) يريد ثبوت اللقاء حتى يستقيم الكلام.

(٢) راجع في ذلك الحازمي في شروط الرواة. (أبو زهرة).

سننُ أبي داود:

كانتِ الثمرةُ الواضِحةُ الطيبةُ لجهودِ ذلك الراوي الجليل، هي كتابَه «السنن»، وقد عرضَه ـ كما أشرنا ـ على الإمام أحمد، فاستَحْسَنَه واستَجادَه، وقد قال فيه بعضُ تلاميذِ الإمام، فيما رواهُ البغداديّ: «أُلِـينَ لأبي داودَ الحديث، كما أُلِـينَ لداودَ الحديد».

وقد عُنِـيَ أبو داودَ بدراسةِ الفقه، ولذلك اتَّجهَ في الروايةِ إلى دراسةِ الأحاديثِ التي يستدلُّ بها الفقهاءُ في الفروعِ الفقهية، وقد قالَ فيه بعضُ العلماءِ: إنه كانَ أفقهَ أصحابِ الصِّحاحِ والسُّنن، وكذلك لعنايتِـهِ بفقهِ الحديث، جمعَ الأحاديثَ الصحيحة أو التي يكونُ فيها ما يستدلُّ به الفقهاءُ من غير وَهْنٍ واضحٍ فيها، حتى لقد قال فيها الإمامُ الغزاليّ: «يكفي المجتهدَ معرفتُها من الأحاديثِ النبوية» فهي جامعةٌ لأبوابِ الفقهِ مُتقصيةٌ لأطرافِها، فعنايتُـهُ بجمعِ الأحاديث التي تدورُ فيها فقهاء الأمصار، جَعلَتْـهُ يتَّجِـهُ إلى جمعِ الأحاديثِ الصالحةِ للعمل. برفعِ النظرِ عن مرتبتِها في قوةِ الرواية، فجمعَ فيها الأحاديثَ المتوسِّطة، والأحاديثَ التي تبلغُ هذه المرتبة، ولكنّها ليستْ موضوعة، ولم يثبُتْ أنها مكذوبةٌ على النبيّ ﷺ، وإنَّ هذه الأخبارَ مشهورةٌ عندَ أهلِ الفقه، وإنْ لم تكنْ من حيثُ الروايةُ في قوةٍ واحدة، وقد قال أبو داود في ذلك: «الأحاديثُ التي وضعتُها في كتابِ السُنن أكثرُها مَشاهِير، وهي عندَ كلِّ مَـنْ كَتَبَ في الحديث، إلّا أنّ تمييزَها لا يقدرُ عليه كلُّ الناس».

رسالة أبي داود لأهل مكة:

وقد سألَه بعضُ أهلِ مكة عن الأحاديثِ التي اشْتَملَتْ عليها السُّنن، فأجابَهم برسالةٍ قيِّمـةٍ تُبيِّـنُ منهاجَه في الرواية، وجاء في صدرِ هذه الرسالة: «إنكمْ سألتمْ أنْ

أذكرَ لكم الأحاديثَ التي في كتابِ السُّنن، أهي أصحُّ ما عرفتُ في الباب، ووقفْتُ على جميعِ ما ذكرْتُم، فاعلموا أنه كذلكَ كلُّه...»، وقال فيها: «وليسَ في كتابِ السُّننِ الذي صنفتُه عن رجلٍ متروكِ الحديثِ شيء، وإذا كانَ فيه حديثٌ مُنكَـرٌ بيَّنْتُ أنه مُنكر، وليسَ على نحوِه في البابِ غيرُه»، وقال أيضاً في هذه الرسالة: «وما كانَ في كتابي من حديثٍ فيه وَهْـنٌ فقدْ بيَّـنتُه، وفيه ما لا يصحُّ سندُه، وما لم أذكُرْ فيه شيئاً من ذلك فهوَ صَالحٌ في سنَـدِهِ ومعناه، وإنْ كانَ بعضُه أقوى منْ بعض».

وإنه مهما يكنْ في الكتابِ من أحاديثَ فيها وهنٌ أو غرابة، فإنهُ من المتَّفقِ عليه أنّ له مقاماً في فقهِ السُّنّـة، ومن حيثُ الرتبةُ في الرواية، فقد قرَّرَ الأكثرون أنه ثالثُ الصِّحاح، لم يَسْبقْه إلّا البُخَاريُّ ومُسْلِم، وإن كانَ بعضُ الناسِ يُقـدِّمُه عليهما[1]، ولكنَّ الأولَ هو الصحيحُ المعتَبرُ عندَ أهلِ الرواية.

---

(١) يريد الإمام الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، وهذا التقديم يرجع إلى اختصاصه بأحاديث الأحكام، وجمع مسائل الفقهاء. قال الخطابي في «معالم السنن» ١: ٧: «كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يُصنَّف في علم الدين كتاب مثله... وقد رُزق القبول من الناس كافَّة.... وعليه مُعَوَّل أهل العراق، وأهل مصر، وبلاد المغرب.. فأما أهل خراسان: فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل ومسلم بن الحجاج ومن نحا نحوهما في جمع الصحيح على شرطهما في السَّبْك والانتقاد، إلا أن كتاب أبي داود أحسنُ رَصْفاً، وأكثر فقهاً...».

وممَّن قدَّمه على صحيح البخاري الحافظ أبو القاسم خلف بن قاسم الأزدي القرطبي المعروف بابن الدباغ (ت ٣٩٣هـ) فقد روى ابن عبد البر أنه قيل لابن الدباغ: أيُّما أحب إليك؟ كتاب أبي داود أو البخاري؟ قال: أحسنهما وأملحهما: أولهما في نظري واختياري. ذكره ابن خير في «فهرسته» ص١٠٧، والتجيبي في «برنامجه» ص٩٩. وقد نقده الحافظ أبو محمد عبد الله بن يربوع الإشبيلي (ت ٥٢٢هـ) كما نقله عنه ابن خير في «فهرسته» ص١٠٧.

الحديث الـمُرْسَل:

وقد يقولُ قائل: إنه يقولُ إنَّ بعضَ مروياتِه فيها وَهْن في السند، ولكنها صالحةٌ للعمل، والجوابُ عن ذلك: أن مسألةَ السندِ في عهدِ التابعين وتابعيهم لم تكنِ العنايةُ بها شديدةً، بل كانتِ العبرةُ بقوةِ الرّاوي، فإذا قال التابعيّ: قال النبيُّ ﷺ، ولم يذكرِ الصحابي الذي روى عنه، لم يُسأَلْ من الذي نقلَ لك هذا عنِ النبيِّ ﷺ من الصحابة، ما دامَ التابعيُّ مشهوراً بلقائِه بعددٍ كبيرٍ من الصحابة، ولعله سمِعَه من عددٍ كبيرٍ منهم، وهو في ذاتِه ثقةٌ أمينٌ، كسعيدِ بن المسيِّب والحسنِ البصريّ، ويُسمَّى هذا النوعُ من الحديث مرسلاً، وقد قَبِلَـهُ إمام الـمُحَدِّثين مالك، وشيخُ الفقهاءِ أبو حنيفة، ولكنْ لما تقادَمَ العهد، وجاء القرنُ الثالث، اشترطوا لقَبولِ الحديثِ اتِّصالُ السند، فسقطَ من الاعتِبار أخبارٌ لم يتَّصلْ سندُها، ولكنْ في عهدِ التابعين كانَ يُعملُ بها، فعلى هذا الأساس تكونُ صالحةً للعمل، وإن كانتْ حسبَ الاصطلاحِ غيرَ متَّصلةِ السند، فكانَ أبو داود، بعقلِه الفقهيِّ الناضج، وبإدراكِه لمغازي الرِّوايات يَـقْبَـلُها، لأنها كانَ معمولاً بها في عهدِ التابعين وتابعيهم فلا يُمكنُ أن يُسْقِطَها، وقد قرَّر أنها صَالحةٌ للعمل، ونقول: إنها واجبةُ العمل.

معاني الإسلام:

كان أبو داودَ مُدركاً لمغازي الإسلام، فاهِماً لمراميه، فبعدَ أن روى الأحاديثَ التي يدورُ عليها الفقهُ الإسلاميُّ والأخلاقُ الإسلامية، والفضائلَ التي جاءَتْ بها السنةُ النبويَّـة، قرَّرَ أنّ جِماعَ الأحاديثِ في أربعة، ولنتركْ له الكلمة، كما روى عنه الخطيبُ البغداديّ: «كتبْـتُ عن رسولِ الله ﷺ خمسَمئة ألفِ حديث، انْتَخَبْـتُ منها ما ضمّنتُه كتابي «السننِ»، جمعتُ فيه أربعةَ آلافِ حديث، وثمانمئة حديث، ذكرْتُ

الصَّحيحَ، وما يُشْبِـهُه، وما يُقارِبُه. ويكفي الإنسانَ لدينِه من ذلك أربعةُ أحاديث: قولُه عليهِ السلام: «إنَّما الأعمالُ بالنيّات»، وقولُه عليه السلام: «مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرء، تركُه ما لا يَعْنيه»، وقولُه عليه السلام: «لا يكونُ المؤمنُ مؤمناً، حتى يرضى لأخيه ما يَرْضاهُ لنفسِه»[1]، وقولُه عليه السلام: «الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّن، وبينَهما مُشتَبِهات».

وإنَّ هذه الأحاديثَ الأربعة تُبيِّنُ نواحيَ الإسلام الخُلُقيّة والاجتماعيّة، فالأولُ: يُبيِّنُ أنّ أساسَ الأعمال الإخلاص، والحديثُ الثاني: يُبيِّنُ أن أساسَ العلاقاتِ الإنسانية، احترامُ حقِّ الغيرِ وحُرِّيتِه وإحساسِه وشعورِه، والحديثُ الثالثُ: يبيِّنُ أنَّ أساسَ البناءِ الاجتماعي أنْ يفرضَ كلُّ امرئ أنَّ ما يفعلُه قانونٌ مبيح، فلا يرضى لنفسِه إلّا ما يرضاه من غيرِه بحيثُ يكونُ أمراً عاماً، ثم يعرفُ نتائجَ ذلك التعميم. والحديثُ الرابعُ: يُبيِّنُ أنّ أساسَ الحلالِ والحرام ما تَسْتطيبُه العقولُ المدركة، وما تَسْتقبِحُه، فما يكون طيِّباً في نظرِ العقلِ المستقيم فهو الطيِّبُ الذي جاءتِ النصوصُ ببيانِه، وما يكونُ خبيثاً في نظرِ العقولِ المدركةِ غيرِ الخاضعةِ للهوى، فهوَ الحرامُ الذي جاءتِ النُّصوصُ بتحريمِه.

وأبو داودَ معَ ذلك الجهدِ العلميّ العظيم، والإدراكِ المستقيم كان ورعاً زاهداً عفيفاً، حتى لقد قالوا: إنه كان أشبهَ الناسِ بالإمامِ أحمد بنِ حنبل في ورعِه وعفَّتِه، وكان لا يسيرُ إلّا مَعَه الكتب، ولكنّهُ يسترُها حتى لا يكونَ في ذلك رِياء، رحِمَهُ اللهُ ورضيَ عنه.

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ـ أو قال: لجاره ـ ما يحب لنفسه». ولم يرو في الصحيحين بلفظ: «يرضى».

التِّرمِذِيّ[١]

(٢١٠-٢٧٩هـ)

كان النَّبيُّ ﷺ فيما روي عنه يقول: «العلمُ يماني»[٢]، ويُشير إلى ما وراءَ بلادِ اليمنِ من أرض فارس وخراسان وسمرقند[٣]، وغيرها من البلاد التي عمر الإسلام قلوب أهلها، وملأها بالتقوى والمعرفة، وقد تحقَّقت نبوءة النبيِّ ﷺ، فظهر العلماءُ الأفذاذُ الذين حَـمَلوا مصابيحَ العلومِ الإسلامية في شتّى فروعِها من تفسيرٍ وفقهٍ ولغة. وافتحْ أيَّ كتابٍ زاخرٍ بعلم الإسلام، فإنك واجدٌ آثارَ علماءِ هذه الأرض الطيِّبة الفاضلة.

---

(١) مجلة العربي: العدد ٨٨، عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م.

(٢) روى البخاري (٣٣٠٢) من حديث عُقْبة بن عَمْرو قال: أشار رسول الله ﷺ بيده نحو اليمن، فقال: «الإيمانُ يَـمَان».

ورواه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ أفئدةً وألين قلوباً، الإيمان يَـمَان، والفقه يَـمَان، والحكمة يمانية..».

(٣) ليس ما وراء بلاد اليمن أرض فارس وخراسان، ولو أنَّ الأستاذ استدلَّ بحديث: «لو كان العلم بالثُّريا لتناوله ناس من أهل فارس» لصَحَّت دعواه.

والحديث رواه أحمد (٧٩٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث إسناده ضعيف لضعف شَهْر بن حَوْشب. والأصح في لفظ الحديث: «لو كان الدِّين» كما جاء في «المسند» برقم (٨٠٨١).

ولعلَّ أوضحَ ما كان من علمٍ لهم هو روايةُ الحديث، وحَسْبُكَ أنْ تعلمَ أنّ البخاريَّ ومسلمَ بنَ الحجّاج، وابن ماجَهْ وأبا داودَ [والترمذي] والنَّسائيّ(١)، وأكثرَ الـحُفّاظ بعد ذلكَ كانوا منهم، كما كانتْ لهم القَدَمُ الثابتةُ في التفسيرِ وفقهِ اللغةِ ونحوها، وكما كانتْ لهم البصيرةُ النافذةُ في الفلسفة الإسلاميةِ والتصوُّفِ وعلومِه.

ولعلّ السرّ في ذلك الاتّجاهُ العلميُّ القويّ، وخَوْض بحارِه الزخّارة، هو أنّ هؤلاءِ ـ عندما دخلوا في الإسلام، وذاقُوا بَشَاشتَه، وذاقوا حلاوةَ الإيمان وطيبِ العلم، ولم يكنْ لهم في الجهادِ والسلطانِ ما يشغلُهم ـ اتَّجهوا بكلِّ قُواهم إلى تعرُّفِ النُّور الذي أصبحوا يُبْصِرونَ به الطريقَ إلى الحقّ، فاتَّجهوا إلى معرفةِ أَصلِه، وموضعِ إشعاعِه، وما انبثقَ منه نورُه، اتَّـجهُوا إلى الكتابِ والسُّنّة.

---

(١) قال أستاذنا العلّامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في «تحقيق اسْمَي الصحيحين» ص٥٦: «ومن جليل تقدير الله تعالى أنَّ هؤلاء الأئمة الستة ـ على اختلاف في الإمام مسلم ـ ليسوا عرباً، وقد أقام الله تعالى ـ وله الحكمة البالغة سبحانه ـ هؤلاء الأئمة المحدِّثين الكبار الأعاجم من مشرق أطراف الدنيا: البخاري من بُخارى، ومسلماً من نيسابور، وأبا داود من سجِسْتان، والترمذي من ترمذ، والنسائيَّ من نَسَا، وابن ماجه من قَـزْوين ـ وأمثالهم من المحدِّثين أيضاً والمفسِّرين والفقهاء والأصوليين واللغويين والأدباء والمؤرخين وسواهم ـ حُفَّاظاً لسُنَّة نبيه محمد العربي المكي التِّهامي ﷺ، وحُراساً لدينه وشريعته المطهَّرة. إعلاماً للأجيال اللاحقة بأنَّ هذا الدين الحنيف، امتدَّ ظلُّه الوارف، وظلَّ حملته الأمناء إلى جَنَبَات الأرض الشاسعة شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، فيكون ذلك للأجيال المتلاحقة درساً متكرراً يقرع أسماعهم كلما نُقل عن هؤلاء الأئمة رواية حديث سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. فلله دَرُّهم ما أجلَّ برَّهم، وأجْزل أجرهم، وأكثر خيرهم. فهم خدموا هذا الدين وعلومه، وبذلوا غايةَ طاقاتهم ومواهبهم في ذلك، بدافع العقيدة والإيمان بالله ورسوله ﷺ وحُبِّ سُنَّته، لا بدافع عصبيَّـة أو تبعيَّـة أو عنصريَّـة أو قوميَّـة أو عرقيَّـة أو بلديَّـة، فرحماتُ الله عليهم ورضوانه العظيم».

اتجهوا إلى الكتابِ يتعرَّفونَ مراميَه وغاياتِه، واتَّجهوا إلى الحديثِ يتعرَّفون إسنادَه ورواياتِه، وبذلك كانَ منهم المفسِّرون كالزَّمَخْشَريّ وابنِ جرير، وفَخْرِ الدين الرازيّ، وكانَ منهم البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما.

عالـمٌ ضريرٌ عندَ نهرِ جَيْحُون:

وفي تِرمِذ، إحدى بلادِ ما وراءَ نهرِ جَيْحُون، التي كانتْ على سِيفِ ذلك النهر، كان عالمٌ مُحَدِّثٌ ضَرير، يروي أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبينَ يديْه تلاميذُه، ومَعَهم كُتُبُه، يُراجِعون فيها ما يقرأُهُ عليهم مِنْ غيرِ مراجَعَةِ كِتاب، ولا تَذْكِرةِ مُذَكِّرة، وهم يتابِعونَ ما كَتَب، وما ينطقُ به، لينقلُوا عنه ما رَواه، ولِيُجيزَهم في نَقْلِه، كما كان الشأنُ في روايةِ الحديث، فإنّ ما كانوا يأخُذونَه من الكُتُبِ المكتوبةِ منفصلةً عن راويها، وينقُلونَها إلى مَنْ وراءَهم بإجازةٍ منه.

ذلكم العالمُ المحدِّث الضَّرير، هو محمدُ بنُ عيسى بنِ سَوْرَة التِّرمِذِيّ، نسبةً إلى تِرمِذ التي وُلِدَ بها، والتي عاشَ حياتَه فيها، وكان مَثْواهُ الأخيرُ بها.

التِّرْمِذيُّ رأى النورَ قبلَ العَمى:

لقد ماتَ ذلك العالمُ الرَّاوِيةُ ضريراً، ويظهر أنه عاشَ شَطْراً من حياتِه في سِنيِّها الأَخيرةِ ضريراً، حتى ادُّعِيَ أنه وُلِدَ أكمهَ لا يُبصِر، ولم يرَ النورَ قطّ، ولكنّ الحقيقةَ أنه رأى النور، وكتبَ وألَّف، بعد أنْ طافَ في البلادِ لِيجمعَ الرواياتِ الصحيحةَ مِن أفواهِ رواتِها أهلِ التثَبُّتِ والصِّدقِ والأمانة.

رُوي أنه قال ـ كما جاءَ في كتابِ «التهذيب» ـ: «كنتُ في طريقِ مَكّة، وكنتُ قد كتبتُ جُزْءَيْنِ من أحاديثِ شيخ، فمرّ بنا ذلكَ الشيخ، فسألتُ عنه، فقالوا:

فلان، فرحْتُ إليه، وأنا أظنُّ أنّ الجزءينِ معي، وإنما حَـمَلْتُ معي جزءينِ آخرَيْنِ غيرهما شَبَـهَهما، فلمّا ظفِرْتُ به سألتُه السَّماعَ، وأخذَ يقرأ من حفظِه (أيْ منِ حفظِ الشيخ)، ثم لمَحَ فرأى البياض (أيْ ورقاً أبيضَ في يدي غيرَ صالح للمُراجَعة)، فقال: أما تستحي منِّي؟ فقَصَصْتُ عليه القصّة، وقلتُ له: إني أحفظُه كلَّه، فقال: اقرأْ، فقرأْتُـه عليه، على الولاء، فقال: هل اسْتظهرتَ قبلَ أنْ تجيء إليّ؟ قلت: لا. ثم قلت له: حدِّثني بغيره، فقرأ عليَّ أربعينَ حديثاً من غرائبِ الأَحاديث. ثم قال: هَاتِ، فقرأتُ عليه ما قرأ من أولِه إلى آخرِه»[1].

فهذه القصَّةُ تدلُّ على أنه لم يُولَدْ أكمه، بل وُلِـدَ مُبْصراً، ثم كُفَّ بَصَرُه، ونسُوق الخبرَ لإثباتِ ذلك، ثم هو أيضاً يثبتُ قوةَ حِفْظِه، ويظهرُ أنه كانَ قد أخذَ أحاديثَ عن ذلك الشيخ بطريقِ بعضِ تلاميذِه، الذينَ أجازَهم في النقلِ عنه حينَما رواه، فلمّا التقى به آثرَ أنْ يأخذَه منه بدل أنْ يقتصرَ على الروايةِ عن تلاميذِه، ولو كان قد أجازَهم.

ظلَّ التِّـرْمِـذِيُّ يجمعُ الحديث، مُطوِّفاً في البلاد، حتى إذا شبّ عن الطَّوْق، أَخَـذَ يُعطي ممّـا جمع:

وُلِدَ محمدَ بنُ عيسى بِتِـرْمِذ[2]، وتلقّى علومَه الأُولى. استحفظَ القرآن، ودرسَ فقهَ الإمامِ الشافعيّ وإنْ كانَ قد بلغَ مرتبةَ الاجتهاد، بعد أنْ صارَ حافِظاً من حَفَظَةِ الأَحاديث، ونقلها مَصُونةً في حِرْزٍ مَكينٍ بعيدٍ عن التغييرِ والتبديل، إلى الأخلافِ من بعدِه.

---

(١) «تهذيب التهذيب» ٩: ٣٨٨-٣٨٩.

(٢) في حدود سنة عشر ومئتين كما قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١٣: ٢٧٠.

ولقد كان كشأنِ طُـلّابِ الحديث، لا يأخذون الحديثَ إلّا مِـمّنْ روَوْه من أفواهِ الشيوخ الذينَ روَوْا، حتى لا تدخلَ عليهم الزُّيوفُ من الرِّواياتِ بالتحريفِ أو التصحيف. فكانَ يطوفُ في الآفاقِ الإسلامية لينقلَ الروايةَ عن الشيوخِ أو عن تلاميذِ الشيوخ الذينَ أُجيزَ لهم أنْ ينقلوا. ومن المحَدِّثين من كانَ لا يأخذُ عن التلاميذ إذا كان الشيوخُ أحياء، ولو كان التلاميذُ قد أُجيزوا من شيوخِهم، وكان ذلك للاستيثاق. والبخاريُّ رضيَ اللهُ عنه قد اختصَّ بفعلِ ذلك، وهو أشدُّ تَـثَـبُّـتَـاً(١).

كان أبو عيسى التِّرمِذيّ يُطوِّفُ في البلادِ راوياً ناقلاً عمَّنْ هو أكبرُ منه من الشيوخ، حتى إذا بلغَ من العلمِ مبلغاً، وشبَّ عن الطَّوْق في الرواية، أخذَ يُلقي على غيرِه، كما تلقَّى عَـمَّـنْ هو أوسعُ منه روايةً وأكثرُ نقلاً، وعلماءُ الحديثِ كانوا حريصين على ألّا يقطعوا الرواية وتلقِّي الأحاديثِ أنَّى وَجَدوها، فأحاديثُ رسولِ الله ﷺ لا يُحيطُ بها عِلمٌ واحد، ولكنْ يُحيطُ بها عِلمُ الأُمّة في مجموعِها، والحديثُ جوهرةٌ تُؤْخَذُ أنّى وُجِـدَتْ، وهو الحكمة، يَتَلقّاها الكبيرُ والصغيرُ على سواء. فتلقّاها أبو عيسى صغيراً واستمرَّ يتلقّاها كبيراً. وكانَ يلقي من الحكمةِ النبويةِ على غيرِه، فقد كانَ يروي الأحاديثَ عَـمَّـنْ يلقاه من الكبار، ويُلقيها على مَنْ هُوَ أصغرُ منه، بل على مَـنْ هُو أكبرُ منه، وله موضعُ التَّجِـلّـةِ عندُه، فقد كان يَروي عن البُخاريّ، وروى عنه البُخاريُّ حَديثَيْن، وبهذا يَشْرُف، وبه كان يفخَـرُ ويعتزّ.

وقد ثَـبَتَ أنَّ الناسَ كانوا يأخذون عنه في أرضِ الحجاز، وفي سمرقَـنْد، وفي بُخارى.

---

(١) في الأصل: تثبيتاً.

وقد كان يأخذُ بقولِ البُخاريّ: «لا يكون المحَدِّثُ مُـحَدِّثاً كاملاً، حتى يكتبَ عَـمَّـنْ فوقَه، وعمَّـنْ دونَه، وعمَّـنْ مثلُه».

عملُ التِّرمِذيِّ في الحديث:

لقد قالَ علماءُ الحديث: «لـمّـا ماتَ البُخاريُّ لم يَـخْـلُـفْه في خُراسان، مثلُ أبي عيسى التِّـرمِذيّ، في علمِ الروايةِ والوَرَعِ والتقوى، فاعتبروه خليفةَ البُخاريّ في خُراسان، وعزاءَ الناسِ فيه بعدَ موتِه».

وقد قامَ الترمذيّ بعَمَلَيْن جليليْنِ في التأليفِ في علمِ الحديث.

أولُّهما: كتابةُ الحديث، وجمعُه وترتيبُه وتدوينُه وكتابتُه واضحاً نَـيِّراً، لا يَعسُرُ على النفسِ فهمُه، في وَضْعِ طبقتِه في قوةِ الرِّواية، أو غرابـتِها. وقد وضعَ في ذلكَ كتابَه «الجامع»، وقد سُمِّي «سُنَناً»[1].

ثانيهما: دراستُه لرجالِ الحديث، ومراتِبِهم من حيثُ قوةُ الثقةِ فيهم، فكتبَ كتابَ «التواريخ»، وكتابَ «العلل»، وكتابَ «الأسماء والكُـنَى».

وقد هَدَتْه الدراسةُ للرواياتِ إلى الكلامِ في أنواعِ الأحاديث، ما يُـقْبَـلُ منها بإطلاق، وما يُقْبلُ على تحفُّظ.

فتكلَّمَ في قَبولِ الـمُرسَل، وهو الذي لم يَذكرْ فيه التابعيُّ مَنْ روى عنه من الصحابة، وتكلَّمَ في المنقطِعِ الذي انقطعتْ فيه السلسلةُ في أيِّ طبقةٍ من طبقاتِه،

---

(١) واسمه الصحيح: «الجامع المختصر من السُّنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل» كما حقَّقه أستاذنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في كتابه «تحقيق اسمي الصحيحين وجامع الترمذي».

وتكلَّمَ في مراتبِ الأحاديث من قُوّةِ الرّواةِ في الثقة، فتبيَّـنَ الحديثَ الصحيح، والحديثَ الحسن، والحديثَ الغريب، والشاذّ، وغيرَ ذلك مـمّا هو مُـدَّونٌ في كُـتُبِ علمِ الحديث دراسة أو علمِ مصطلحِ الحديث كما يُسمِّيه[1] العلماء.

وقد كانتِ الحاجةُ ماسّةً إلى ذلك، لأنه على رأسِ المئتيْنِ من الهجرة، كانتْ قد تعقَّدَتْ شئونُ الرواية، فكان لا بُدَّ من وَضْعِ ضوابطَ لها، لمعرفةِ الصحيحِ من السقيمِ منها، فكانَ ذلك علم مصطلح الحديث.

ولعلهُ كان يُذاكرُ شيخَـهُ الإمامَ البُخاريَّ في ذلك، حتى لقد روي أنّ البخاريَّ قال للترمذيِّ مُخاطباً له: «انتفعتُ بك أكثرَ مـمّا انتفعتَ بي»، ولا شكَّ أنّ في هذا تواضُعاً من الشيخ، ولكن لا بُـدَّ أنْ يكونَ بينَ التلميذِ الذكيّ، والشيخِ التقيّ، مذاكرةٌ في أمرِ غيرِ النقل، أثارَ إعجَابَ الشيخِ بتلميذِه.

كتابُه الجامعُ أو السُّنَن:

لقد سُمِّيَ مُدوَّنهُ في الحديثِ «الجامع» كما سمّاه هو، وكما هو في حقيقتِه، وسُمِّي بينَ الـمَحدِّثِينَ أيضاً «بالسُّنن». وقد أجمع الـمُحَـدِّثون على أنّه أحدُ الكتبِ الستةِ التي يرجعُ إليها أهلُ العلم بالحديث، وقد قال في ذلك الحافظُ ابنُ كثير: «كتابُ «الجامع» (للتِّرمذيّ) أحدُ الكتبِ الستّـةِ التي يرجعُ إليها العلماءُ في كلِّ الآفاق».

وهو جديرٌ بأنْ يُسمّى جامعاً، لأنهُ جمعَ كلَّ موضوعاتِ الأحاديثِ النبويَّـة، والسُّننُ تقتصرُ على أحاديثِ الأَحكام. «فالجامعُ» يجمعُ أحاديثَ العقائِد، وأحاديثَ

---

(١) في الأصل: يُسمي.

الأَحكام، وأحاديثَ الزُّهْد، وأحاديثَ الآداب في الأكلِ والشُّربِ والمعاملةِ في السفرِ والـحَـضَر، وأحاديثَ التفسير، وأحاديثَ الفِتَن.

وقد جَـمَعَ هذا كلَّـهُ كتابُ التِّـرمذي، وزاد فتاوى الصَّحابةِ وأَقْضِيتَـهُم، والتقى معَ السننِ في ذلك.

وقد عَرَضَ أبو عيسى التِّـرْمِذيُّ كتابَـه على علماءِ الأقطارِ الإسلامية، لِـتكونَ عندَه فرصةٌ للتثبُّـتِ مـمّا جاءَ فيه. وقد جاء في كتاب «التاريخ» للحافظِ ابنِ كثير أنّ الترمِذيَّ قال: «صَـنَّفْتُ ذلك الـمُسْنَـدَ الصَّحيح، وعَرَضْتُهُ على عُلماءِ الحجاز، فرضُوا به، وعَرَضْتُـهُ على علماءِ العراق، فَرَضُوا به، وعَرَضْتُه على عُلماءِ خُراسان، فرضُوا به، ومَنْ كانَ في بيـتِه هذا الكتاب، فكأنَّـما في بيتِه نبـيٌّ يَـتَـكلم».

ولقد زكَّى ذلك الكتابَ مَنْ تَلقّاه، ومَنْ جاءَ من بَعـدَه مِنْ أَهلِ العلمِ والروايةِ والإسناد، والأكثرونَ من العلماءِ على أنهُ من حيثُ قوةُ الثقةِ فيه خامسُ الكُـتُبِ الستة، وأوَّلُـها جامعُ البخاريّ، وثانيها صحيحُ مسلِم، وثالثُها سُنَنُ أبي داود، ثمَّ السننُ الصغرى للنسائيّ، ثم جامعُ التـرْمِذيّ.

ويعقدُ العلماءُ مُوازَنةً بينَـهَ وبينَ جامِعِ البخاريّ، فيُـجْمِعونَ بلا ريْـبٍ على أنَّ «جامعَ» البخاريّ أقوى ثقةً وأصحُّ جمعاً، لدقَّـتِـهِ في الرواية، وشروطِـهِ الشَّديدةِ فيمَنْ يأخذُ عنهم.

ولكن من حيثُ الوضوحُ والبيانُ وحُسْنُ الترتيب، يُفَضِّلُ بعضُ العلماء «جامعَ» الترمذي، لأنه لا يُـكرِّرُ الحديثَ إذا تعدَّدتْ طرقُ روايـتِه، بل يختارُ واحِدة، وهي التي يراها أوثقَ من غيرها، وقد يُشير إلى غيرِها من غير تكرارٍ لنصِّ الحديث، ولأنه

فوقَ ذلك أوضحُ ترتيباً يستفيدُ منه أهلُ البَصَرِ بالحديث، كما يستفيدُ منه من دونَهم. وقد روى بعضُ الحفّاظ أنه قال: «كتابُ الترمذيّ عندي أنورُ من كتابِ البُخاريّ، لأنه لا يصلُ إلى الفائدةِ منه إلا مَنْ هو من أهلِ المعرفةِ التامَّة بهذا الفنّ، وكتابُ الترمذي قد شرحَ أحاديثَه وبيَّنها، فيَصِلُ إليها الناسُ من الفقهاءِ والمحَدِّثين وغيرِهم».

ويُلاحظُ أنّه قال: إنه أنورُ أي أوْضَح، ولم يقلْ: إنه أصحّ وأوثق، وبذلك تحرّى الدقَّةَ في الثَّناء.

وبعد:

وبعد فإنه يتَّضِحُ من الكلام في الترمذيِّ وغيرِه مقدارُ عنايةِ العلماءِ بأحاديثِ رسولِ الله ﷺ، وقد نقلوه خَلَفاً عن سَلَف، فنقلَه الصَّحابةُ عن النَّبيِّ ﷺ، ثم نقلَهُ التابعون، ثم نقلَهُ تلاميذُهم، ومَنْ جاءَ بعدَهم، وكلّما تقادمَ الزمنُ ازدادَ التَّشدُّدُ في قَبولِ الرواية وتحرِّي صدقِها، حتى دُوِّنَتِ السُّنةُ في المجامِع وتناولَتْها العصورُ مُنقَّحةً مُوَضَّحة، وبقيتْ خالدةً حُجَّةً قائمة، ومَنْ كانت عندَهُ مجموعتُها، فعندَهُ بلاغُ النبيِّ ﷺ، القائمُ بجوارِ القرآن يُوضِّحُه ويُبَيِّنُه، واللهُ تعالى بكلِّ شيءٍ محُيط.

* * *

ابن ماجَهْ القَزويني[١]

(٢٠٩-٢٧٣هـ)

في بلادِ قَزْوين، وفي قَصَبتِها حيثُ كانتِ الأرضُ التي تُتاخِمُ أرضَ الروم، وتُتاخِمُ روسيا، وحيثُ البحرُ الذي تسمّى بها، كانَ الإسلامُ منتشراً، وكان ثمةَ علمُ الإسلامِ غزيراً، وكانَ حديثُ رسولِ الله ﷺ يُروى، وينقلُه الثِّقاتُ الأخيار إليها من سائرِ الديارِ الإسلامية.

مولدُ ابنِ ماجَهْ ونسبُه:

في مدينةِ قزوين من هذه البلاد التي كانتْ عامرةً طيِّبة، تُؤتي أُكُلَها من العلم والفضل، وُلِدَ إمامٌ من أئمةِ السُّنة، الذي اشتهرَ بكُنيتِه، وهو ابنُ ماجَهْ، وهو أبو عبدِ الله محمدُ بنُ يزيدَ بنِ ماجَهْ، وقد اتّفَقَ العلماءُ على أنّ ماجَهْ هذا ليسَ جدَّه أبا أبيه، ولكنّه لقبٌ لأبيه، وإمّا اسمٌ لأُمّه، فقد قال الزَّبيديّ في كتابه «تاج العروس شرح القاموس»: إنه اسمٌ لأمه، ولعلّ أمَّه كانَ لها شأنٌ في العلم، كما كانَ الأمرُ في كثيراتٍ من نساءِ العرب. ولكنَّ الأكثرين على أنّ ماجَهْ لقبٌ لأبيه.

ويُقالُ له: ابنُ ماجَهْ الرَّبَعيّ، نسبةً لربيعةِ الأزد، ولم يكن ابنُ ماجَهْ عربياً، بل كانَ مولىً أعجمياً، وذلك لأنه في صدرِ الإسلام كانَ الأعجميُّ الذي يُسْلِم يتَّخِذُ أحياناً أُخوّةً بينَهُ وبينَ أسرةٍ من العرب، فيكونُ كواحدٍ من هذه الأسرةِ بعَقدٍ يُسمّى

---

(١) مجلة العربي: العدد ٨٤، عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

عقدَ الـمُوالاة، وأساسُ هذا العقدِ أن يكونَ كواحدٍ من هذه الأسرة، بحيثُ تدفعُ الدِّيَةَ إذا ارتكبَ ما يُوجِبُ الدِّية، وإذا مات من غيرِ وارثٍ كانت تلك الأسرةُ ترثُه على بعضِ المذاهبِ الفقهيّـة، وكانَ هذا اقتداءً برسول الله ﷺ فيما عَقَدَ من إخاءٍ بينَ المهاجرين والأنصار في أوّلِ الهجرةِ الإسلامية، وبهذا يكونُ عَقْدُ الولاءِ أو الموالاة توثيقاً للعلاقاتِ الأخويّـةِ بينَ المسلمين، وإبعاداً للوحشةِ وإيجاداً للأُنس بالإسلام وأُخوّتِه بالنسبةِ للأعاجمِ الذين يدخُلون في الإسلام، وينقطِعون في كثيرٍ من الأحيان عن آلِهم وذويهم، فيلتقونَ بالمحبّـة والولاءِ القلبي والقانوني معَ إخوانِهم العَرَب، ولا يتعالى فريقٌ منهم على فريق.

(الموالي) آلَ العلمُ الإسلاميُّ إليهم، خلفاً عن سَلَف:

كان أولئك الأعاجمُ أو أولئكَ الموالي الذين عَقَدُوا معَ إخوانِهم قد آلَ العلمُ الإسلاميُّ إليهم خَلَفاً عن سَلَف، فكانَ أكثرُ التابعين الذين تَلَقَّوْا علمَ الصحابة: من الموالي، وكان أكثرُ تابعي التابعين كذلك، وعُوِّضُوا بذلك عن سُلطانِ القوّةِ والسيطرةِ سلطانَ الفكرِ والعلمِ الصحيح، فكان منهم أئمةٌ أعلام، في الفقهِ والحديثِ والتفسير، والعلمِ العربيِّ نفسِه من بعدِ ذلك، كسِيبَوَيْهِ والزَّمَـخْشَرِيِّ وغيرِهم من قادةِ الفكرِ الإسلاميِّ في علمِ العقيدة، وما دُوّن[1] من سائرِ علومِ الإسلام.

اتِّـجاهُه إلى علمِ القرآنِ والحديثِ والفقه:

كان ابنُ ماجَهْ من الموالي كالبخاريِّ وغيرِه. وقد اتَّجه إلى علمِ الدينِ يدرُسُه، وعلمُ الدين كان ذا ثلاثِ شُعَب: علمُ العقيدة، ولم يُعْرفْ أنه اتَّجَهَ إليه، وعلمُ القرآنِ

---

(١) في الأصل: دونه. والصواب ما أثبته.

والحديث، وعلمُ الفقه، وقد مزجَ بينَ هذه الشُّعَبِ الأخيرة التي تنتهي إلى شُعْبتَـيْن، وجعلَهما يصبّانِ في مَصَبٍّ واحد، وهو علمُ الأحكامِ الشرعيّـةِ التكليفية.

اتّجهَ منذُ نشأتِه إلى علمِ القرآن، فحَفِظَه[1]، وإلى علوم اللغةِ العربية فأتقنَها، إذْ إنه قد تصدّى من بعدِ ذلك لتفسيرِ القرآن، ولا يمكن أن يتصدّى لتفسيرِ القرآنِ إلّا مَنْ يكونُ له ذوقٌ في البيانِ العربيّ، لأنه أبلغُ كلامٍ في الوجود، وهو الذي أعجزَ العربَ عن أنْ يأتوا بمثلِه ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وإنه من المؤكَّد أنّ تفسيرَه ـ كما سنُبيِّن ـ كان نتيجةً لدراستِه العربيّة، ولروايـتِـهِ لأقوالِ الصَّحابةِ والتابعين، ولقد أخذَ من بعد الدراسةِ الأولى يتَّجهُ إلى الجهادِ في سبيلِ العلم كشأنِ الكثيرين من علماءِ الأثر، سواءٌ ما يتعلقُ منه بالفقه والتفسير، والروايةِ المجرَّدة.

رحلاته في سبيل العلم:

أخَذَ يجوبُ الآفاق حامِلاً مَعَه حقيبةَ علمِه، فرحلَ إلى فارس وخُراسانَ والرَّيّ، مُشرِّقاً، ثم رحلَ إلى العراقِ والحجاز، ثم إلى الشامات ومصر، مُغرِّباً. وقال فيه ابنُ حجرٍ العَسْقلانيّ في كتابه «التهذيب»: وسمع بخُراسان والعراق والحجاز ومصر والشام.

قرأ كتابَ «الموطَّأ» لمالك، على أصحابِ مالك، وقرأ الجوامعَ للحديثِ قبلَه مثلَ «مسندِ» الإمامِ أحمد، و«صحيح» البخاري ومسلم على تلاميذِهم.

---

(١) في الأصل: لحفظه.

ولم تنتهِ رحلتُه في طلبِ الأثَرِ إلّا بعدَ أنْ جمعَ ما يُمكنُ أنْ يكونَ ثروةً للخَلَف، وأخذَ من بعدِ ذلك يُرتِّبُها ويُنسِّقُها، ويَضَعُ كلَّ قسم منها في موضِعِه من أبوابِ العلمِ الإسلاميّ.

كان همُّه ـ في رحلاتِه وفي التقائِه بشيوخِ الأثر ـ أنْ يجمعَ كلَّ ما عندَهم من علم في الإسلام، فهو يجمعُ منهم أحاديثَ رسولِ الله ﷺ التي صَحَّتْ عندَهم، وفتاوى الصَّحابة وأقْضيتَهم، وكذلك فتاوى التابعين من بعدِهم، وقضاءَ المشهورين من القُضاة الذين التقَوْا بالصحابة ونالوا ثِقتَهم، وما أُثِرَ عن الرسولِ ﷺ من بيانِ القرآنِ الكريم، وما أُثر عن الصحابةِ والتابعين من فهمٍ للتنزيل، ولا يمكن لمحَدِّثٍ أنْ يستَوْثِقَ من صدقِ الحديثِ عن النبي ﷺ أو الخبرِ عنِ الصحابةِ إلّا إذا عرفَ رجالَه ليَميزَ الخَبيثَ من الطيِّب، والصَّادقَ الذي يُقبلُ قولُه، من المتَّهم الذي لا يُقبلُ قولُهُ عندَ الناس إلّا بعد أنْ يتبيَّن أمرُه. ومثلُ هذا لا يُقبل منه خبرٌ عن النبيِّ ﷺ أو صَحَابتِه فإنه ظَنينٌ غيرُ عدْل.

وقد نَثَرَ كِنانتَه من بعدِ ما جَمَع، وتفحَّصَ في عيدانِها عوداً عوداً، ليعرفَ نوعَ كلِّ واحدٍ منها. وقد قسَمَها مِنْ بعدِ ذلك إلى ثلاثةِ أقسام: قسمٌ في التفسير، وقسمٌ في التاريخ، وقسمٌ في السُّنن والأثر.

صنَّفَ في ثلاثةِ أبواب: في التفسيرِ والتاريخِ والسنن:

ولذلك كانتْ مُصنَّفاتُه في ثلاثةِ أبواب: في التفسيرِ والتاريخِ والسنن، فله كتابٌ في كلِّ واحدٍ منها.

وكانتْ هذه المصنَّفاتُ تَصْدرُ عن عالمٍ قويِّ العقلِ والإدراك، مُخْلصٍ نافِذِ البَصيرة، قد أشرقَ قلبُه بنورِ الحكمة، فكَثُرَ صَوَابُه، وقلَّ خطؤه، وهو مأجورٌ في الحالَيْن،

ففي صوابه طَلَبَ الحقَّ فأصابه، وفي خطئِه طَلَبَ الحقَّ فأخطأه، وله في ذلك أجرُ المجتهِدين الـمُخْلِصين.

ولنتكلمْ في كتابيْه: «التفسير» و«التاريخ»، ثم في السنن من بعد.

كتابُه في التفسير:

فأمّا كتابُه في التفسير، فقد قالَ فيه ابنُ كثير في تاريخِه: «هو تفسيرٌ حافِل» ولم يَكُنْ تفسيرُه هذا بالرأي، بل كانَ تفسيراً بالأثَر، كانَ يجمعُ أقوالَ الصحابةِ والتابعين في فَهمِهِم للقرآنِ الكريم، وقد جعلَه السيوطيّ في رُتبةٍ قريبةٍ من تفسيرِ ابنِ جريرٍ الطبريّ الذي جاءَ مِنْ بعدِه، ولعلَّ فرقَ الرتبةِ كان سببُه تأخُّرَ ابنِ جرير، فإنَّ المتأخرَ ينتفِعُ منْ علمِ مَنْ سبقَه وتجاربِهم، ولعلَّ ما امتاز به ابنُ جرير على ابنِ ماجَهْ ومَنْ في طبقتِه منَ المفسِّرين أنّ ابنَ جَرير يتعرَّضُ لتوجيهِ الأقوال المأثورة، ويُرجِّحُ بعضَها على بعض، ويَتَعرَّضُ للاستنْباطِ والإعرابِ والتخريج، وذلك لأنه ـ في عصرِ ابنِ جرير ـ قد أخذَ الرأيُ يدخلُ التفسير. أمّا ابنُ ماجَهْ ومَنْ مَعَه فقد دوَّنوا تفسيرَ القرآن على أنه بابٌ من أبوابِ الرواية، ولا يَتَجاوَزُون حدَّ الرِّوايةِ والأثَر، وقد تلقَّوْه مَعَ ما تلقَّوْا مِنْ فتاوى الصحابةِ وأقوالِهم.

كتابه في التاريخ:

وكتابُه «التاريخ»، وهو تاريخٌ كاملٌ من لدن عصرِ الصحابةِ إلى عصرِه، وواضحٌ أنه قد دوَّنَ فيه أخبارَ الرِّجال الذين روَوا السُّنة، وذُكِرُوا في أسانيدِ الأحاديث، ليُعرَفَ مقدارُ الثقةِ في رواياتِهم، وبذلك يَتَبيَّنُ أنه كان خادِماً للرواية، كما كانَ التفسيرُ للقرآنِ جزءاً من الرواية.

وفي الجملة كانتْ حياتُه كلُّها للرواية، بدأ بها، وسارَ فيها، وانتهى منها إلى هذيْن الكتابيْن، ثم إلى كتابِه الذي عُرِف به، وهو كتابُ «السُّنن».

كتاب السُّنن:

يُقَسِّم علماءُ الحديث كُتُبَ الحديثِ إلى أقسام، منها قسمانِ رئيسيّانِ هما: الجوامعُ والسُّنن. فالجوامعُ، ككتابِ البخاريّ ومُسلم. وهي تجمعُ كلَّ أقسامِ الأخبارِ المرويَّة عن النبيِّ ﷺ من أحاديثِ العقائد وأحاديثِ الأحكام، وأحاديثِ التربيةِ النفسيّة والأدبِ الدِّينيِّ في الحياةِ عامّة، وفي بعضِ أحوالِها كالسَّفرِ وغيرِه، وأحاديثِ التفسير، وأحاديثِ سِيرَةِ النبيّ ﷺ، وأحاديثِ الفتن[١] ممّا تنبَّأ به النبيُّ ﷺ فيها، وما يجبُ فيها، ومناقبِ الصحابةِ الذين ذَكَرَهم النبيُّ ﷺ بالخير كأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وبقيةِ العشرةِ المبشَّرين بالجنَّة كأبي عبيدةَ عامرِ بنِ الجرّاح أمين[٢] هذه الأمة.

وأمّا السُّنن، فإنَّ أكثرَها في الفقه، وهي مُرتَّبةٌ بترتيبِ أبوابِه، وقد تتبَّع رُواتُها أحاديثَ الأحكام وقضاءِ النَّبيِّ ﷺ وأعمالَه التي ستُنبئ عن أحكام فقهيّة، وما أقرّه من أقوالٍ وأعمالٍ تتعلَّق بالأحكام، ويروونَ معها أقوالَ الصحابةِ الفقهية. وإنه من أولِ كُتُبِ السنن كتابُ «الموطأ» للإمامِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، ففيه مَصَادرُ فقهِه من الآثار، [و] فيه أقوالُ الصحابة، وما يُستنبطُ منها. ولذلك قال في مُقدِّمتِه: إنه رأي، وليسَ برأيٍ من حيثُ إنَّ الاستنباطَ كان له مدخلٌ فيما ينتهي إليه، ولكنه استنباطٌ مُتَّصلٌ بصلةٍ وثيقةٍ بالسُّننِ والآثار.

ولقد نهجَ ذلك المنهاجَ كُتّاب السُّننِ الأربعة: ابنُ ماجَهْ، وأبو داود، والترمذيّ، والنّسائيّ، على اختلافِ بينَهم في مقدارِ التقيُّدِ بالفقه وأبوابِه.

---

(١) في الأصل: الفقه. (٢) في الأصل: أمير.

وسننُ ابن ماجَهْ، قال فيه أهلُ الخبرة: إنه كتابٌ دقيقٌ دالٌّ على إتقانِ صاحبِه، فقد قالَ فيه الحافظُ ابنُ كثير: «السُّننُ لابن ماجَهْ دالّةٌ على عملِه وعلمِه وتبحُّرِه واطِّلاعِه واتِّباعه للسُّنة في الأصولِ والفروع، ويشتملُ على اثنينِ وثلاثينَ كتاباً، وألفٍ وخمسِمئةِ باب، وعلى أربعةِ آلافِ حديث، كلُّها جِيادٌ سوى اليسيرة». وقاربَ ذلك الذهبيّ في كتابه «تذكرة الـحُفَّاظ»، فقد قالَ ما نصُّه: «سُنَنُ أبي عبدِ الله بنِ ماجَهْ كتابٌ حَسَن لولا ما كرَّره من أحاديثَ واهيةٍ ليستْ بالكثيرة».

وقد أجمعَ هؤلاءِ الخبراءُ على أمرين بشأنِ هذا الكتاب.

أولهُما: أنه حَسَنُ التبويب، قد وَضعَ كلَّ حديثٍ في مَوْضعِه من فقهِ الأحكام، بحيثُ يَسْهُلُ على طالبِ فقهِ السنَّة أن يرجعَ إليه من غيرِ عُسْر.

ثانيهما: إنّ فيه أحاديثَ واهيةَ السند، بل قال بعضُ العلماء: إنّ فيه أخباراً مكذوبةً على رسولِ الله ﷺ، ولا تصحُّ نسبتُها إليه عليه السلام.

وقد أحصى ابنُ الجوزيّ أربعةً وثلاثين خبراً في «السُّنن»، قال: إنها من الموضوعات[1].

وبالرجوعِ إليها نجدُ ابنَ الجوزيّ نظرَ إلى السند، فقرَّر أنّ كلَّ سندٍ فيه رجلٌ لم يُعرَفْ بالعدالةِ والصِّدق، يكونُ حديثُه عن النبيِّ ﷺ موضوعاً عليه، ولم ينظرْ إلى

(١) ينظر سياق أحاديث ابن ماجه التي أدرجها ابن الجوزي في «الموضوعات» في كتاب شيخنا العلامة محمد عبد الرشيد النعماني: «الإمام ابن ماجه وكتابه السنن» ص١٩٢-٢٢٣، ثم أورد ست أحاديث أُخَر حَكَم عليها بعض الحفاظ بالوضع أو البطلان، ثم قال ص٢٢٨: فهذا ما اطَّلعت عليه وقت جمع هذه العُجالة من الأحاديث التي قد حكم عليها بعضُ الحفاظ بالوضع، وفيها أحاديث كثيرة ضعيفة، وبعضها أشدُّ في الضعف من بعض، ولو جمعها أحدٌ من علماء هذا الشأن لجاء في مجلَّد لطيف. انتهى.

متنِ الخبرِ المرْويِّ عن النَّبيِّ عليه السلام، أهو ملائمٌ للمبادئِ الإسلامية أم غيرُ ملائم. وحكم على الخبرِ بالوضعِ من جهةِ السندِ الذي وصلَ إليه ابنُ ماجَهْ، ولم ينظرْ إليه من جهةِ مجموعِ الإسناد، فقد يكونُ بعضُ رجالِهِ ثِقات.

ولذلك كانتِ الأخبارُ التي قال عنها إنها موضوعة على أقسامٍ ثلاثة:

قسم ظاهِرِ الوضع، كأخبارِ فَضْلِ بعضِ البلاد، وفَضْلِ بعضِ الأطعمة، ونحو ذلك، وهذه اجتمعَ فيها ضعفُ السندِ وضعفُ المتن، وعدمُ توثيقِها بأسنادٍ أخرى.

وقسم معناهُ صحيحٌ في ذاتِه، ولكنْ في بعضِ رواتِه ضعف، مثلُ ما نُسِب إلى النبيِّ ﷺ أنه قال: «الإيمانُ معرفةٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعَمَلٌ بالأركان»[1] ففي رواته مَن ضَعُفتِ الثقةُ فيه، ولكن المعنى سليمٌ متَّفِقٌ معَ المبادئِ الإسلامية، وضعفُ الراوي لا يَسْتلزمُ الكَذِب، وقد يستلزمُ الاتِّهام والتَّحفُّظ، ولذا قال السيوطي[2] في هذا الخبر: «الحقُّ أنه ليسَ بموضوع»[3].

والقسمُ الثالثُ: معناهُ صحيح، ورُوِي بسَنَدٍ كلُّ رجالِه ثِقات، وإن كانَ السنَدُ الذي رواهُ ابنُ ماجَهْ فيه ضَعْف، وذلك مثلُ ما رُويَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا معشرَ التُّجّار» فاستجابوا ومدُّوا أعناقَهم، فقال: «إنَّ اللهَ باعِثُكُم يومَ القيامةِ فُجّاراً إلّا مَنْ

---

(١) أخرجه ابن ماجَهْ في الإيمان من «سننه» (٦٥). قال ابن الجوزي في «الموضوعات» ١: ١٢٨-١٢٩: موضوع. أبو الصَّلت عبد السلام بن صالح مُتَّهم، لا يجوز الاحتجاج به. انتهى. وقال الذهبي في «الميزان» ٢: ٦١٦: قال الدارقطني: رافضيٌّ خبيث، مُتَّهم بوضع حديث: «الإيمان إقرار بالقول». انتهى.

(٢) في «شرح ابن ماجه»، وينظر: «اللآلئ المصنوعة» ١: ٣٣-٣٦، و«التعقبات» ص٢-٣.

(٣) والقول فيه ما قاله الدارقطني، كما نقله الحافظ في «التهذيب» ٦: ٣٢١: «قال أبو الحسن (الدارقطني): روى حديث «الإيمان إقرار بالقول»، وهو متَّهم بوضعه، لم يحدث به إلا من سرقه منه، فهو الابتداء في هذا الحديث. انتهى.

صَدَق، وأدّى الأمانة»[١] فمعنى الحديثِ سليم، وفي روايةِ ابنِ ماجَهْ ضَعْف، ولكنْ رُوِي بسندٍ آخرَ غيرِ سندِه، وهوَ قَويّ.

وننتهي من هذا إلى أنَّ سننَ ابنِ ماجَهْ كتابٌ يُوثَقُ به، ويُعتمدُ عليه، وقد فَحَصَه العلماءُ بمخْبارٍ دقيقٍ سليم[٢]. وهو من صِحاحِ[٣] السُّنةِ السِّتّة: صحيحِ البخاريِّ، ومسلمٍ وأبي داود والترمذيّ والنسائيّ وابنِ ماجَهْ، وهو آخرُ السِّتّةِ في الرتبةِ من حيثُ كمالُ الثقة، لا من حيثُ أصْلُها، واللهُ سبحانَه وتعالى بكلِّ شيءٍ عليم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في باب التوقّي في التجارة (٢١٤٦) من «سننه»، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» ٢: ٢٣٧، وقال السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» ٢: ١٤١-١٤٢: الحديث صحيح، رُوِيَ من عدَّة طرق، أخرجه الدارمي والترمذي (١٢١٠)، وقال: حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، والطبراني، والضياء المقدسي في «المختارة» من طريق إسماعيل بن عُبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جدِّه، فذكر حديث رُفاعة المذكور.

(٢) قال أستاذنا العلامة محمد عبد الرشيد النعماني في كتابه «الإمام ابن ماجه» ص٢٢٨: «وبالجملة فقد تفرَّد ابن ماجه بأحاديث كثيرة، عن رجال متَّهمين بالكذب وسرقة الحديث، مما حكم عليها بالبطلان أو بالسقوط، ولذا صرَّح العلماء أن لا يُقْدِمَ المحتجُّ على الاحتجاج بحديث رواه ابن ماجه ما لم يكن منه على ثقة واطمئنان.

قال الحافظ السخاوي في «فتح المغيث»: وبالجملة فسبيل من أراد الاحتجاج بحديث من السنن ـ لا سيما ابن ماجه، ومصنف ابن أبي شيبة، وعبد الرزاق مما الأمر فيها أشد، أو بحديث من المسانيد ـ واحدٌ، إذ جميع ذلك لم يَشترط من جمعه الصِّحة ولا الحسن خاصة. وهذا المحتجُّ إن كان مُتأهِّلاً لمعرفة الصحيح من غيره، فليس له أن يحتج بحديث من السُّنن من غير أن ينظر في اتصال إسناده وحال رواته، كما أنه ليس له أن يحتج بحديث المسانيد حتى يحيط علماً بذلك. وإن كان غير متأهِّل لدَرْك ذلك، فسبيله أن ينظر في الحديث، فإن وجد أحداً من الأئمة صحَّحه، أو حسَّنه، فله أن يُقلِّده، وإن لم يكن ذلك فلا يُقْدم على الاحتجاج به، فيكون كحاطب ليل، فلعله يحتج بالباطل وهو لا يشعر. انتهى.

(٣) في هذه العبارة تجوُّز، والصواب أن يقال: من كتب السُّنة الستّة.

تراجم المفسِّرين

ابنُ جرير الطبريّ(١)

(٢٢٤-٣١٠هـ)

شيخ المفسِّرين وكبيرُ المؤرِّخين

ثلاثةٌ من أهلِ العلم جمعتْهم الرحلةُ إلى مصر(٢)، وأصابتْهم آلامُ الغُربة، فافتقَروا إلى القوتِ ولم يجدوا ما يمُونُهم، وأضرَّتْ بهمُ الحال، وألـحَّتْ بهم الـمَخْمَصَة، فاجتَمَعُوا في مكانس أوَوْا إليه، ولم يجدوا حيلةً إلا أنْ يسألوا الناس، أعطَوْهم أو منعُوهم. ولكنْ أيخرجُ ثلاثةُ علماءَ أعلامٌ يتكفَّفون الناس، ويَندَى ماء جبينهم جميعاً، أم يُغْني أحدُهم عن سائرِهم؟ فانتهوْا إلى ذلك، واسْتَهمُوا بالقُرعة فيمَنْ يكونُ ذلك الذي كُتِب عليه الذلُّ في هذه الـمَخْمَصة، فخرجت القرعةُ على أحدهم(٣). فعلم أنه مُقْدِمٌ على محنةِ النفسِ يتَّقي بها محنةَ الجوع، فقال: «أمهلوني حتّى أتوضَّأَ وأُصلّي». فاندفع يُصَلِّي ما شاء أنْ يُصلِّي، وكأنه يسْتطعِمُ الله بدلَ أنْ يسْتطعِمَ الناس، ويُقدِّمُ وجْهَه لله بدلَ أن يُقدِّمه للناس. وما أنْ همَّ بأنْ يُنهيَ صلاتَه، ويتوجَّه إلى

---

(١) مجلة العربي: العدد ٤٠، عام ١٣٨١هـ = ١٩٦٢م.

(٢) في حدود سنة ٢٥٦، وهم أربعة مُـحمَّدين: محمد بن إسحاق بن خُزَيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الرُّوْياني، ومحمد بن جرير الطبري.

(٣) وهو محمد بن إسحاق بن خُزيمة.

الناس، حتى جاءتْهم هَدايـا السلطان[1]، وبِـدَرُ الأمـوال، وكأنهـا المطرُ يجيءُ عنـدَ الـجَدْب، والغوثُ يجيءُ عندَ الاستغاثةِ بالرحمن[2]!

هؤلاء الثلاثةُ[3] الأتقياءُ الأعلام، كان بينَهم أبو جعفر محمدُ بنُ جريرٍ الطبريّ، شيخُ المؤرِّخين، وإمامُ المفسِّرين، والفقيهُ والأديبُ والكاتبُ وعالمُ اللغةِ المستَبْحِر.

مولدُه ونشأتُه:

وُلِدَ في آخرِ سنة أربعٍ وعشرين ومئتين ٢٢٤ من هجرةِ الرسول ﷺ، وقيل في أول سنة خمسٍ وعشرين ومئتين ٢٢٥، وقد سُئل شيخُ المؤرِّخين: كيف وقع الشكُّ في وقتِ ولادته؟ فقال: «لأنّ أهل بلدِنا يُؤرِّخون بالأحداث، ومرَّت السنون، فأُرِّخ مولدي بحَدَثٍ كان في البلد، فلمّا نشأتُ، سألتُ عن ذلك الحادث، فاختلفَ المخْبِرون لي، فقال بعضهم: كان في آخرِ سنةِ أربع، وقال آخرون: بل كان في أولِ سنةِ خَمْس».

وكانتْ وفاتُه سنةَ عشرٍ وثلاثمِئةٍ ٣١٠ لأربعٍ من شوّال، فقد مات في نحوِ السادسةِ والثمانين، وقـد كانت ولادتُـه في «آمُل» قصبـة إقليمِ طَبَرِسْتـان في ذلكَ الزمان.

---

(١) والي مصر أحمد بن طولون.

(٢) أورد هذه القصة الخطيب في «تاريخ بغداد» ٢: ١٦٤، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» ٢: ٧٥٣، والسبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» ٢: ٢٥٠ وغيرهم، وأوردها أستاذنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في كتابه العُجَاب: «صفحات من صبر العلماء» ص١٩١-١٩٣.

(٣) كانوا أربعة كما سبق.

وقد نشأَ نشأةً علميةً اتَّجهَ فيها إلى طلبِ العلم، وكان أبوه حريصاً على توجيهِهِ لطلبِ العلم، وذلك لرؤية رآها فيما يرى النائم، فقد روى أنّه رأى رسولَ الله ﷺ في منامِه، وبجوارِه ابنُه، ومَعَه مِخْلاةٌ مملوءةٌ حجارةً، يرمي بها بينَ يديْ الرسول ﷺ، فسأل عن تأويلِ هذه الرؤيا فقيل له: إن ابنَك هذا إنْ كَبِرَ نَصَحَ في دينِه، وذبَّ عن شريعتِه.

اسْتحفظَ القرآنَ الكريم وجوَّده في صدرِ حياتِه، ثم اتَّجه من القرآنِ إلى الحديثِ فطلبه ببلدِه، حتى إذا حصَّل خيرَ ما فيها اتَّجه إلى الريِّ عُشِّ علماءِ خُراسان، والتي خَرَّجت للإسلامِ جهابذةً منَ العلماء، وأخذ يطلبُ الحديثَ بالروايةِ عندَ علمائِها، وأخصُّهم محمدُ بن حُميد الرازيّ. وكان معَ هذا يرحلُ إلى قريةٍ بجوارِ الريّ، يسمع إلى أحمدَ بنِ حمّادٍ الدولابيّ. وكان لشغفه ـ هو وصَحْبٌ له ـ بطلبِ العلم يحضُرون درسَ ابنِ حميد وابنِ حمّاد في اليومِ الواحد، ولنتركْه يقصُّ علينا ذلك، فهو يقول: «كنا نكتبُ عندَ محمدِ بنِ حميد الرّازيّ، فيخرجُ إلينا في الليل مرات، ويسألُنا عمّا كتبناه، وكنا نَمضي إلى أحمدَ بنِ حمّاد الدولابيّ، وكان من قريةٍ من قرى الرِّي بينها وبينَ الريّ قِطْعَة، ثم نَعْدُو كالمجانين! حتى نصيرَ إلى ابنِ حُـمَيد فنلحقَ مجلِسَه».

وقد أخذَ وهو بالريِّ عن سلمةَ بنِ المفضَّل، عن محمد بنِ إسحاقَ «المغازي»، كما أخذَ عن أحمدَ بنِ حمّاد كتاب «المبتدأ»، وقد كان ما أخذهُ عن هذيْن العالميْنِ نواةَ تاريخِهِ الذي شرَّق به اسمُه وغرَّب.

إلى بغداد:

لقد ترامى إليه اسم أبي عبدِ الله أحمدَ بن حنبل الذي أدركه زمانُه، وكان أبو جعفرٍ في صِباه، وأبو عبدِ الله في شيخوختِه، ومعَ ذلك اتَّجهتْ نفسُه إليه معَ بعدِ

الشقّة وعِظَمِ المشقّة، فسار طالباً لقاءَه، والاستماعَ إليه، ولكنّ إمامَ دارِ السلام مات قبلَ أنْ يصلَ إليها إمامُ المؤرِّخين الشابّ.

واكتفى حينئذٍ بالسماع من المحدِّثين بها، وكتب عن شيوخِها وأكثرَ من الكتابة، ثم أخذ يشدُّ الرِّحالَ إلى البصرة التي كانتْ موطنَ علومِ اللسان، بجوارِ مَنْ بها من المحدِّثين والرُّواة للوقائع والمغازي. ثم ركبَ متنَ الفيافي فانتقلَ إلى الكوفة، ومرَّ بواسطَ في طريقه، وتلقّى عن شيوخِها. وفي إقامته بالكوفة أخذ عن كلِّ رواتِها، وكان من كبارِ شيوخِها عالِـمٌ اسمُه أبو كُرَيب[1] فيه شراسةٌ وعنفٌ وضيقُ عَطَن، معَ علمٍ غزير، فأخذ أبو جعفرٍ يستميلُه إليه بحفظِهِ وسماحةِ خُلُقِه، حتى نال اطمئنانه وثِقتَه فسمع منه الكثيرَ من الرواية.

في الشام ومصر:

وبعد أنْ جاب آفاقَ العراقِ راوياً مُنقِّباً غرَّبَ إلى الشام، ثم إلى مصر. وفي الشّام التقى بكثيرٍ ممَّن كانوا يقيمون بالسواحلِ والثُّغور، فأخذ ما عندهم مِنْ علمٍ بالوقائع، وأخبارِها، والأمراءِ وأحوالِهم، وقد أتمَّ رحلتَه، وألقى عصا التسيارِ في الفُسطاط مدينةِ العلمِ الثانيةِ بعدَ بغداد، والتي آوى إليها الشافعيّ واستقرَّ به المقامُ فيها. وقد وصل إليها سنةَ ثلاثٍ وخمسين ومئتين ٢٥٣، فكان قد زادَ على الثلاثين، وقد تمرَّس بالتجارب وبالرحلةِ المستمرّة، والالتقاءِ بالشيوخ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، وقد اختلفت مناهجهم وعلومهم. وعندما دخل مصرَ كان قد تزوَّد من علم الرواية والوقائع بأكبر زاد، كما تزوَّدَ بعلومِ اللغةِ وعلومِ القرآن.

---

(١) محمد بن العلاء الـهَمْداني.

وفي مصر كانتْ بقيَّـةٌ من تلاميذِ الشافعيّ، وتلاميذِ ابنِ وَهْب، وعبدِ الرحمنِ بنِ القاسم ومحمدِ بن عبدِ الحَكَم، وهؤلاء مِن تلاميذِ مالك، فأخذَ عن تلاميذِ الشافعيِّ وتلاميذِ مالكٍ فِقْهَ هذينِ الإمامَيْن، كما أخذ في الكوفةِ وبغداد فِقْهَ أبي حنيفة ومسائلَ أحمدَ بنِ حنبلٍ و«مُسنَدَه»، وكما أخذ في الشام فِقهَ الأوزاعيّ عن تلاميذِه، أو تلاميذِ تلاميذِه.

وبذلك التقى الفقهُ بكلِّ مناهجه معَ الروايةِ والأدبِ والعلومِ العربية.

وفي مصرَ ابتدأ يظهرُ مكنونُ ما جمع، ويذاكِرُ العلماء، فقد التقى فيها بأبي الحسنِ ابن عليّ بنِ سراجِ المصريّ، وكان فاضلاً في شخصِه، عالماً بالأدبِ وفنونِ الشِّعر، فلمّا لقيهُ أبو جعفرٍ تذاكرا العلم، فتفتَّحَتْ عيونُ العلوم في ابنِ جرير، فتكلمَ بكلامِ الـمُسْتمكِنِ المحقِّق في القرآنِ والفقهِ والحديثِ واللغةِ والشعر، وقد سأل أبا جعفرٍ عن شعرِ الطِّرِمّاح ولم يكن له روايةٌ في مصر، فتبيَّن أنه يحفظُه وأخذ يُمْليه حفظاً من ذاكرتِه على مَنْ أراد.

وفي أثناء رحلتِه التَقى بالـمُزَنيِّ صاحبِ الشافعيّ، وأحد حَاملي فقهِه إلى الأجيال، وقد روى عنه الفقهَ بروايةِ الكتبِ البغداديةِ التي دوَّنها الزعفرانيّ، كما روى الكتبَ المصريةَ التي دوَّنها الربيعُ بنُ سليمانَ المراديّ.

وبذلك اجتمعَ فيه العلمُ بالفقهِ كلِّه، اطَّلع على ما عند فقهاءِ العراقِ جميعاً، وما عندَ فقهاءِ الشام، وما عند فقهاءِ مصر من فقهِ الشافعيّ ومالكٍ رضي الله عنهما، وفوقَ ذلك ما عندَ الشيعةِ من علم، حتى إنه اتُّهم بالتشيُّع عندَ الحنابِلَة، ولكنَّه كان فوق العصبيةِ أياً كانت.

علمه:

آتى اللهُ أبا جعفرٍ علماً غزيراً شهد له به أهل عصرِه جميعاً، بل شهدتْ به آثارُه التي خلَّفها عبرَ القرون. وقد قالَ فيه بعضُ العلماء: «كان أبو جعفر قد نظرَ في العلومِ كلِّها، فقد نظرَ في المنطقِ والحسابِ وفي الطبِّ والجبرِ والمقابلة... وكان عازفاً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها، يرفع نفسَه عن التماسها. وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلّا القرآن، وكالفقيهِ الذي لا يعرفُ إلّا النحْو، وكالحاسبِ الذي لا يعرفُ إلّا الحساب. وإذا جمعت بينَ كتبِه وكتبِ غيرِه، وجدتَ لكُتُبِهِ فضلاً على غيرِها.

وقد كتبَ كتباً ليس لها نظيرٌ في بابِها، وهي أول ما بُدئ به في نوعِها، منها كتابُه «جامعُ البيانِ عن تأويلِ القرآن»، وهو كتابُ التفسيرِ المشهور، وكتابُ «تاريخِ الرسلِ والملوكِ وأخبارِهم»، وهوَ كتابُ التاريخ المشهور، وكتابُه في القراءاتِ المتواترةِ كلِّها، ومنها كتابُه «ذيلُ الذيل» وهو يشتملُ على تاريخِ مَنْ قُتِل أو ماتَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أو التابعين على ترتيبِ الأقربِ فالأقربِ من قريش، ومنها كتابُه المسمَّى «اختلافُ علماءِ الأمصار في أحكامِ شرائعِ الإسلام»، ومنها كتابُه «لطيفُ القولِ في شرائعِ الإسلام»، وفيه مجموعُ مذهبِه الذي يُعوَّلُ عليه. وله كتبٌ أخرى كثيرةٌ في فروعٍ من مسائلِ الفقه، وله في الفقهِ أيضاً كتابُ «الشروط»، وقد ضُمَّ إلى «اللطيف» فيما اشتمل عليه، وقد اختَصرَ كتابَ «اللطيف» في كتابٍ سمّاه «الخفيف». وله في الفقهِ وأصولِهِ أيضاً كتابٌ جليلٌ سمّاه «بسيطَ القولِ في أحكامِ شرائعِ الإسلام». وله كتاب «آدابِ القُضاة»، وله كتاب «التّهذيب»، وله في الآداب والأخلاق كتاب سمّاه «أدب النفوس».

وهكذا تنوَّعتْ كُتُبُه وكَثُرت، وله مُساجلاتٌ أدبيةٌ وفقهيةٌ بين العلماء.

وقد استمرَّ دائباً على التحصيلِ والتأليفِ لا يَني عن الرحلةِ والتلَقّي والكتابةِ حتى وافاه الأجلُ سنةَ ٣١٠ لأربعٍ بقينَ من شوّال كما ذكرْنا، ومات في حيويتِهِ وقوَّتِهِ لأنّه لم يغلبِ الشيبُ في رأسِهِ ولحيتِهِ، بل كان يغلبُ فيهما السواد، ولم يغيِّرْ من شيبِهِ قطّ، وما كان في حاجةٍ إلى التغيير أو التلوين، وكان موتُه ببلدِهِ بطبرستان، عاد إليه بعد أن طوَّف في الآفاقِ ما شاءَ أنْ يُطوِّف.

من العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج:

ويَظْهر من مَـجْرى حياتِه أنه كان حَصُوراً لم يتزوَّجْ[1]، وقد قال في وصفِ حالِه، عندما حلَّ مصر ونزلَ عندَ الربيعِ بنِ سليمان تلميذِ الشافعيّ: «لا ولدَ لي، وما حللتُ سراويلي على حرامٍ ولا حلالٍ قطّ».

ولذلك انصرف للعلم بكُليّته دائباً، لم يَشْغلْه مالٌ ولا ولد، فقد كان يعيشُ على بقيةٍ من المال يتَّجر فيها. ولما أرسل في مصرَ وأصابتْه الـخَصاصة، كان يكتفي بدرهمين وثلثيْ درهم، تُجرَى عليه كلَّ يوم، من أهلِ العلم، لا من سلطانٍ ولا من ذي جاه.

صفاته:

كان إمامَ المفسِّرين، وشيخَ المؤرِّخين، يتَّصفُ بصفاتٍ جَعَلته في الذِّروةِ من رجالات العلم في العالَـمِ كلِّه، فإذا كان (هيرودت) يُلقِّبه العلماء بأنه أبو التاريخ القديم، فأبو جعفرٍ الطبريُّ أبو التاريخِ الإسلاميّ، ويحقُّ لنا أنْ نلقِّبه أيضاً بأنه أبو التفسيرِ الأثريّ.

---

(١) وقد ترجم له ترجمة حافلة وارفة شيخنا العلّامة المحقِّق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، في كتابه النافع المعطار: «العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج» ص٥٦-٧٤.

وأولُ هذه الصفاتِ العاليةِ: **الجلدُ والدأبُ والاجتهاد**، وتحمُّلُ المشاقِّ في سبيلِ الحصول على علمِ الرجال من أفواهِهم. فهو كان رجلَ علمٍ في الروايةِ والدرايةِ معاً، وعالمُ الروايةِ تجبُ عليه الرحلة، ليستمعَ من أفواهِ من يَروي عنهم ما داموا أحياء، كما كان يفعلُ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل، وكما فعل في عصرِه البخاريُّ ومسلمٌ من أئمةِ الحديث.

ولهذا الـجَلَدِ والدأب، كان يركبُ مَتْنَ الأسفار، لينتقلَ من طَبَرِستانَ إلى العراق، وينتقلَ في أمصارِه دارساً فاحصاً راوياً، وينتقلَ من بعد ذلك إلى مواطن العلم في الشامات ومصر، يأخذُ ويفحصُ ويُدوِّن.

والصفةُ الثانيةُ التي اتَّصف بها ذلك العالِـمُ الجليلُ: **العزوفُ عن أغراضِ الدنيا، ومواطنِ الذلّ**. أصابته الـمَخْمَصَةُ في مصر، فانتظر حتّى فَرَّجَ اللهُ كربَه. ولما أتته بِدَرُ المال لم يأخذْ منها إلّا حاجتَه. وكان يرضَى أنْ يعيشَ في فقر، كريماً زاهداً، من أنْ يعيشَ في بُحبوحةٍ من العيشِ ذليلاً خانعاً طالباً مرضاةَ أمير، أو مستظلاً بظلِّ سلطانٍ كبير. وإذا كان المؤرِّخون من بعدهِ كانوا يعيشون في ظلالِ الملوك، ويُكلَّفونَ الكتابةَ عنهم بقلمِ المحاباة، فإنَّ شيخَ المؤرِّخين لم يكنْ في كتاباتِه شيءٌ مِنْ هذا، لأنه كان يكتب لله وللحقّ، ولنفسِه التي لم يملكْها حاكمٌ بعطاء. لم يكتب تاريخَ ملكٍ لينافق، كما كُلِّفَ بعض كُتَّاب بني بُوَيْهٍ أن يكتبَ تاريخَهم. فلمّا سُئِل، وهو يُحبِّر ويكتب: ماذا تصنع؟ قال: «أكاذيبَ أُنمِّقها، وأباطيلَ أُلفِّقها».

والصفةُ الثالثةُ من الصفاتِ التي رفعتْه إلى الذِّروة: **الذاكرةِ الواعية**، فقد كان يحفظُ ما يسمع، ثم يُدوِّن ويُرتِّب، ولا يُمكنُ لمثلِ مَنْ تحمَّلَ مثلَ ما حمَّل به نفسَه إلا

أنْ يكونَ ذكوراً واعياً، وإنّ التأليفَ الجيدَ يحتاجُ إلى ذاكرةٍ تحفظُ وتَعي، وتُقدِّم ثمراتِ حفظِ ووَعيِها.

والصفة الرابعة، التي اتَّصف بها ذلك العالِـمُ العظيم: حُضُورُ البَديهة، وقد بَدَتْ هذه البديهةُ الحاضرةُ في مناظراتِه، فهو يُسَاجِلُ الـمُزنيَّ صاحبَ الشافعي في أصول الفقهِ الشافعي، ويفلج عليه في المناقشة، ويجمع المعلوماتِ من رواياتِه. وهو يعلمُ موضعَ كلِّ روايةٍ ممّا دوَّن.

والصفةُ الخامسة: الإخلاصُ في طلبِ الحقيقة، لا يميلُ إلى هوىً فيما يَنقل، ولا يندفع إلى غرضٍ غيرِ خدمةِ الإسلام ورجالِه في تفسيرِه وتاريخِه وفقهِه، وإذا كان قد جاء في تفسيرِه بعضُ هَنَاتٍ، فمِنِ انخداعِه بالرواية لا من قصدِ تحريفِ الكَلِم عن مواضعِه.

والصفةُ السادسة: الشجاعةُ الأدبيةُ الرائِعة، وممّا يُذكر في ذلك أنه جاء إلى بغداد، ولأحمدَ بن حنبلٍ منزلةٌ عظيمةٌ له بعدَ مماتِه كما كانت له في حياتِه، وقد رأى بعدَ الدراسةِ العميقةِ أن أحمدَ ابنَ حنبلٍ مُحدِّثٌ وليسَ بفقيه، وأنه عند الإجماع لا تَمنع مخالفته انعقادَ الإجماع، وفوقَ ذلك يرى تأويل استواءِ الله على العرشِ في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، بأنّ ذلك معناهُ الاستيلاء[1]، وليس الجلوسَ من غيرِ كيف، إذ لا يليقُ بذاتِه العليَّة، وهذا خلافُ ما كانَ عليه الحنابِلة.

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» ١٨: ٢٧٠: وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ يقول تعالى ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا. وقد بيَّنا معنى الاستواء فيما مضى، وذكرنا اختلاف المختلفين فيه، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.
وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ..﴾ [البقرة: ٢٩]: «وأوْلى المعاني بقول الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: علا عليهنّ وارتفع، فدبَّرهن بقدرته، وخلقهن سبع سماوات». انتهى.

وقد ذهبَ إلى الجامع ليُصلِّيَ الجمعة، فأحاط به الحنابلةُ يسألونه عن رأيِه في الإمامِ أحمد، وعن رأيه في قولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فجابههم من غيرِ مُواراة، وقال رضيَ اللهُ عنه: «أمّا أحمدُ بنُ حنبلٍ فلا يُعدُّ خلافُه»، فقالوا له: «لقد ذكرَهُ العلماءُ في الاختلاف»، فقال: «ما رأيتُه رُوِيَ عنه (أي: مسائلُ فقهية) ولا رأيتُ له أصحاباً يُعوَّلُ عليهم، وأمّا حديثُ الجلوسِ على العرشِ فمُحال، ثم أنشد:

سُبْحانَ مَـنْ لَـيْسَ لَـهُ أَنـيسُ ... ولَيْسَ لَـهُ في عَرْشِـهِ جَلِـيسُ

فلما سمعَ الحنابلـةُ ذلك، وأصحابُ الحديـثِ معَهم، وثَبُـوا عليـه، ورمَـوْه بمحابرِهم، وكانوا ألوفاً، فقامَ ودخل دارَه، فرمَوْها بالحجارة، وصار على بابِه مثلُ التلِّ العظيمِ من الحجارة. ولا يتحمَّلُ مثلَ هذا إلّا مَنْ يكونُ مخلصاً شجاعَ القلب، مؤمناً بما يقول.

تفسيره:

اتَّجه ابنُ جرير إلى علمِ الروايةِ والأدب، وقد كانَ كلا العِلْمَـيْن واضحاً في تفسيرِه كلَّ الوضوح، فهو يَنقلُ الرواياتِ المختلفةَ ليصلَ سندَها إلى التابعين، وأحياناً يصلُها إلى الصحابة، ويختارُ بعد سَرْدِ الروايات ما يراهُ أقربَ إلى معنى الآية. من هذا يتَّجِه إلى لُبِّ النصّ بعد أنْ يزيلَ من حولِهِ كلَّ ما يحولُ بينَه وبينَ إدراكِه على وجهِه الصحيح، ولعلَّه في هذا قد بلغَ الذِّروة.

وقد أتمَّ كتابَ التفسيرِ سنةَ سبعينَ ومئتين ٢٧٠، أي وهوَ في الخامسةِ والأربعين مِنْ عُمُرِه أو السادسة والأربعين على اختلافِ الرواياتِ في مولدِه.

وقد تلقَّى علماءُ الأمصار تفسيرَه بالقَبول، وكان فيهم أئمةُ اللغة في هذا العَصْر، فكان في هذا العصر ثعلبٌ عالمُ اللغة، والمبرّدُ صاحبُ كتابِ «الكامل»، والزَّجّاجُ وغيرُهم من النحويين وفرسانِ هذا اللسان، وحُمِلَ هذا الكتابُ مشرقاً ومغرباً، وقرأه كلُّ مَنْ كان في وقتِه من العلماء، وكلٌّ قدمه وفضله.

والكتاب جَزْلُ العبارة بيِّن، وإنّ في بعضِ تعبيراته ما يصلُ إلى أعلى درجاتِ النثرِ الفنيّ من غيرِ تكلُّفٍ للصناعة.

وقد ابتدأ في كتابِه بمقدِّمةٍ تحوي الكثيرَ من العلومِ التي تتعلَّقُ بالقرآن، بيَّنَ إعجازَهُ في بلاغتِه وقراءاتِه ورواياتِه، وبيَّنَ أنه جاء بلسانٍ عربيٍّ مبين، وليس فيه غيرُ عربيّ، وتكلَّم في ناسخِه ومنسوخِه، وهكذا استرسلَ في مقدمةٍ كانت باباً للدخولِ في معانيه القُدُسية.

سَرَيَانُ بعض الإسرائيليات في تفسيره:

وجلَّ مَنْ لا يُخطئ، وكلُّ إنسانٍ يُخطئ ويُصيب إلّا صاحبَ الروضة. ولا شكَّ أنّه أُخِذَ على التفسير بعضُ الرواياتِ التي اشتملَ عليها. ذلك أن الإسرائيليات سَرَت إلى المسلمين في عصرِ الصحابة، حتى إنَّ ابنَ تيميةَ يقولُ في رسالةِ التفسير: «إن عبدَ الله بنَ عُمَر رضي اللهُ عنهما قد أصاب يومَ اليرموك ـ وهي المعركةُ الفاصلةُ بينَ المسلمين والرومان ـ أصاب زاملتَينِ من كُتُبِ أهلِ الكتاب، فَسَرَتْ معلوماتُهما إلى التابعين وبعضِ الصحابة، ولذلك شُحنت بعض الكتب بالإسرائيليات. وكان بعضُها في ذلك التفسير الكبير الذي كتبه ذلك العالِـمُ العظيم[1].

---

(١) ينظر كتاب: «الإسرائيليات في تفسير الطبري: دراسة في اللغة والمصادر العبرية» للدكتورة آمال عبد الرحمن ربيع، طبع في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر ـ سنة ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م.

قصَّة زواج النبيِّ ﷺ بزينب بنت جحش:

ولعلَّ من أبرزِ ما كان في التفسيرِ من إسرائيليات: قصةُ زواجِ النبيِّ ﷺ زينبَ بنتَ جَحْش، فقد ذُكِر أنّ النبي ﷺ رآها فوقعتْ في قلبِه، فأرادَ الزواجَ منها واستَحْيا مِنَ الإعلان في ذلك[1].

وهذا خطأٌ لا يتَّفق معَ صريحِ النصّ، فالله تعالى يقول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، واللهُ لم يُبْدِ عشقاً، بل الذي أبداه أمرُ الله له بأنْ يُطلِّقَ زَيْدٌ زوجتَه، وما كانَ ذلك لعِشْق، بل لِيُشَجِّعَ المسلمين على أنْ يتزوَّجوا مِنْ نساءِ مَنْ يتبنَّوْنهم تأكيداً لمنعِ التَّبنِّي، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ومن الغريبِ أنَّ أكثرَ المفسِّرين اتَّبعوا ابنَ جرير في هذا الخطأ[2]، حتى جاءَ الحافظُ ابنُ كثير، وقال: إنَّ ابنَ جريرٍ خَبَط في هذا خَبْطاً كثيراً، ولم تصح فيه روايةٌ قط، بل كلُّها إسرائيليّاتٌ من أعداء الإسلام[3].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٢٢: ١٠.

(٢) ومن هؤلاء: الزمخشري في «الكشاف» ٣: ٤٢٧، ٤٢٨، والنسفي ٣: ٦٧، وتفسير الجلالين ص٥٥٥.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» ٦: ٢٨١٨: «ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم ها هنا آثاراً عن بعض السَّلف، أحببنا أن نُعرض عنها صَفْحاً فلا نُوردها» وقال ابن حجر في «فتح الباري» ٨: ٣٨٤: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري، ونقلها كثير من المفسِّرين، لا ينبغي التشاغل بها». =

تاريخه:

قد نتركُ الكلام في فقهِ ابنِ جرير، فقد كان عالماً فقيهاً مجتهداً لا يقلُّ عن معاصِريه من الفقهاء، وكان له مذهب، ولذلك مَوْضعُ تفصيل.

ولكنّا لا نَتْركُ تاريخَه، فقد شرَّق وغرَّب، لقد أتمَّ تاريخَه في ما بعد سنة ثلاثمئة ٣٠١، وقد ابتدأ تاريخَه بذكر قصَّةِ الخليفة، فذكر خلقَ آدمَ وإبليس، وما كان من نزولِ آدمَ إلى هذه الأرض المتنازعةِ المتناحرة، وتتبَّع بعدَ ذلك أخبارَ النبيين نبياً نبياً مستعيناً بالقرآنِ الكريم، وقد يفصِّل ذلك ببعض الإسرائيليات من غيرِ خروجٍ على الجادّة واستمرَّ على ذلك مُـخْتصِراً القول، حتى جاء إلى نبيِّنا ﷺ، ففصَّلَ القولَ فيه، وذكرَ أخبارَ الراشِدين وأخبارَ بني أميّة وبني العبّاس واستمرَّ في تاريخِه إلى أنْ أتمَّه إلى حينِ موتِه، فجاء حُجَّةً في التاريخ الإسلامي، لا حُجّةَ فوقَه، وقد كتبه بعبارةٍ جزلةٍ قويةٍ واضحة، وكان يسند الرواية فيما يتعلق بالوقائع الكثيرة.

هذا هو ابنُ جريرٍ الطبريّ الفقيهُ والمفسِّر، والأديب والمؤرخ، وقد وصل إلى القمَّةِ في كلِّ ما كتب، فرحمه الله ورضي عنه.

* * *

= وتنظر الندوتان اللتان شارك فيهما الأستاذ أبو زهرة في ندوات مجلة «لواء الإسلام» حول موضوع زواج النبي ﷺ بأمِّ المؤمنين زينب، الأولى: في العدد العاشر من السنة السادسة (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م)، والثانية: في العدد الثاني عشر من السنة العاشرة: (١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م)، وستصدر «الندوات القرآنية» بتحقيقي في فترة قريبة بعون الله.

الزَّمَـخْشَريّ(١)

(٤٦٧-٥٣٨هـ)

العالم التَّقيُّ الحرُ

كان الداخل إلى البيتِ الحرامِ في الثُّلثِ الأولِ من القرنِ السادسِ الهجريّ يجد رجلاً قد التفَّ حولَه طلابُ الأدب ورُواةُ الأشعار، ونَقَلةُ المواعظِ وجوامعِ الكَلِم. وطُلّابُ التفسير وسائرِ علومِ القرآنِ والحديث، وقد كان ذلك الرجلُ القويُّ في إيمانِه، الغزيرُ في علمِه، النافذُ في بصيرته ضعيفاً في بدنِه، قد قُطعت إحدى رِجْلَيْه، فاستعاض عنها بخشبةٍ تشبهُ الرِّجْل، وإذا سار بها سترها بثوبِه الفَضْفاض، فيظنه الناسُ أعرج، ولا يظنّونه مقطوعاً، وكان يفعلُ ذلك ستراً للعاهة، واستعلاءً على الضعفِ البدنيّ، ودفعاً للريبة، وتجمُّلاً أمامَ الناس. ذلكم الرجلُ هو أبو القاسمِ محمودُ بنُ عمرَ الزمخشريّ.

جارُ الله:

قد اختار في شَطْرٍ كبيرٍ من حياتِه أنْ يكونَ مجاوراً بيتَ الله الحرام(٢)، ولذلك أطلقوا عليه اسم ـ جارُ الله ـ وكان طلابُ العلم يتقصَّفون حوله لعبقريةٍ رأوْها،

---

(١) مجلة العربي: العدد ٣٧، عام ١٣٨١هـ = ١٩٦١م.

(٢) رحل الزمخشري من خوارزم إلى مكة قبل العشرين والخمس مئة، لقراءة كتاب «سيبويه» على أبي بكر عبد الله بن طلحة اليابري الإشبيلي الأندلسي كما في «أزهار الرياض في أخبار عياض» للمقرّي ٣: ٧٧.

وثمارٍ ناضجةٍ في العلوم جَنَوْها، فهو يُجيبُ في الفقه، وهو البحرُ الزخّار الجامعُ لكلامِ العرب(١)، وهو الحكيم الذي ينشرُ الحِكمةَ والموعظةَ الحسنةَ في مجالسِه، وهو المتكلم الذي تجيء إليه الـحُججُ عندَ الجدل حولَ العقائدِ أرسالاً، وهو المفسِّرُ للقرآنِ الذي يلمحُ الإشاراتِ البيانيةَ فيه بذَوْقٍ مُرهَف، يذرُ فيه المعنى واللفظَ معاً، وبعقلٍ مُدركٍ ينفذُ إلى اللُّبّ، ولا يقفُ عندَ الغلاف، وبقلبٍ مؤمنٍ يخشعُ أمامَ الحقائقِ القرآنية، وتضيء في قلبِه التَّجلِّياتُ الربَّانية وهو يقرأ ويتفهَّم.

زَمَـخْشَر، قريةٌ عُرِفَتْ به:

وُلد ذلك الإمامُ في سنة ٤٦٣(٢) بقريةِ زمخشر. وهي من قرى خُوَارَزْم، ولعل هذه القريةَ ما كانت لتُذكرَ على لسانِ أحدٍ من غيرِ أهلِ القرى التي تُجاورُها، ولكنها الآنُ تُذكرُ في الشَّرقِ والغرب، وفي عدَّةِ لُغاتٍ غيرِ العربية، لأنها شَرُفت بنسبةِ أبي القاسمِ جارِ الله إليها، فبعد أنْ كانتْ نكرةً صارت معرفة، حتى إنها في الحقيقةِ لجديرةٌ بأن تُنسبَ إليه ولا ينسبَ هو إليها، إذْ هيَ عُرفتْ به، ولم يُعرفْ بها.

ولم يُعرفْ شيءٌ عن أبيه. ولكن عُرِفتْ أُمّه بالتقوى والرحمة، والعطفِ على صغارِ الطير، ولْنسُقْ لك كلامَه في سببِ قطعِ رجلِه، وقد سُئِلَ عن ذلك، فقال:

دعاءُ الأم:

«دعاءُ الوالدة، وذلك أني أمسكتُ عصفوراً، وأنا صبيٌّ صغير، وربطتُ برجلِه خيطاً فأفلت من يدي ودخلَ خرقاً فجذبتُه فانقطعتْ رجلُه، فتألَّـمتْ له والدتي. وقالت:

---

(١) في الأصل: العربي.

(٢) الصواب أنه ولد في ٢٧ من رجب سنة ٤٦٧.

قطع اللهُ رجْلَك، كما قطعتَ رجْلَه، فلمّا رحلْتُ إلى بُخارى في طلبِ العلمِ سَقَطْتُ عن الدابّة في أثناءِ الطريق، فانكسرتْ رجلي وأصابني من الألمِ ما أوجبَ قطعَها».

وإنَّ هذه القصةَ لتنبئ عن أمرين:

أولهما: رقّةُ قلبِ أمِه، ولطفُ شفقتِها وشدّةُ تأثرِها من رؤيةِ مواطنِ الألمِ أياً كان موضعَه، والرحمةُ من صفات المؤمنِ المخلص.

وثانيهما: أنّ الزمخشريّ مع أنه معتزليٌّ يردُّ الأمورَ إلى أسبابِها، كان لفَرْط إيمانه بقدَرِ الله تعالى، وبأنّ كلَّ شيءٍ بقَدرٍ مقدور، يعتقدُ أنَّ استجابةَ الله تعالى للدعاءِ لها شأنُها في سَيْرِ الأقدار، وفيما يكتبُه سبحانَه وتعالى لعبادِه من غيرِ تغييرٍ ولا تبديلٍ في علمِه أو إرادته أو مقدرتِه[1].

نشأته في بيئة العلم:

آوى العلمُ إلى تلك البلادِ النائيةِ من أرضِ الإسلام، وانتقلَ الأدبُ من ربوعِ الكوفة والبصرة وبغداد إلى همذانَ والرّيِّ وخُوارزم، وزَخِرَتِ اللغةُ العربيةُ في القرنيْنِ الخامسِ والسادس، بذخائرِ الفكرِ الإسلاميّ والفلسفي التي أنتجها العلماء الذين نشئوا وعاشوا في تلك البلاد، وأنتجوا، وأخرجوا النفائسَ والموسوعاتِ في الفقهِ والتفسيرِ واللغةِ والأدب.

فقد خرج منها أفذاذُ العلماءِ والأُدباءِ كبديعِ الزمانِ الهمذانيِّ والخوارزميِّ، وخَرَج منها الفقهاءُ والمفسِّرون أمثالُ الشِّيرازيِّ صاحبِ كتاب «الـمُهَذَّب» في الفقهِ

---

(١) في الأصل: مقدره.

المقارَن، والفخرِ الرازيِّ بحرِ العلم، والغزاليِّ صاحبِ الحكمة، وخرج منها علماءُ في شتى العلوم، كالشهرستانيِّ صاحبِ «الـمِلَلِ والنِّحَل»، وأبي[1] الريحانِ البيرونيِّ المؤرِّخِ والرياضيِّ والفيْلَسوف.

انتقل الزمخشريُّ من بلدةِ زَمَـخْشَر إلى بُخَارى، وهناك تلقّى الفقهَ الحنفيَّ من أئمتِهِ بها، وكان لفقهاءِ الحنفيةِ بتلك البلادِ النائيةِ مقامٌ في الفقهِ والجَدَلِ والأصول، وحسبي تعريفاً بمقامِهِم أنْ يكونَ من بينِهم شمسُ الأئمةِ الحلوانيُّ، وتلميذُه شمسُ الأئمةِ الرضى شارحِ كُتُبِ محمدِ بنِ الحسن الشيبانيِّ صاحبِ أبي حنيفة.

وتلقّى الحديثَ عن أئمةِ المحدِّثين في بُخارى، ثم تلقّى الأدبَ واستحفظَ الروايةَ على كبارِ الرواةِ بها، وهكذا أخذ من كلِّ دَوْحةٍ من دَوْحاتِ العلمِ أطيبَ ما تحملُ من ثِمار، وأينعَ ما فيها من زَهْر، حتّى إذا تغذّى أكملَ الغِذاء، وتمثَّل الغِذاءُ في نفسِه علماً ناجحاً مشرقاً، أخذَ يكتبُ في علومٍ مختلفة، فكتب في شرحِ السّنَّة وروايتِها كتابَه «الفائق»، وهو فائقٌ حقاً، وكتبَ في البلاغةِ كتابَ «أساس البلاغة» وهو مُعجمٌ لاستعمالاتِ العرب وليسَ للكلماتِ فقط، وكتاب «جواهر اللغة»، وكتابَ «مقدِّمة الأدب»، وقد أحصى ياقوت في «معجمِه» عدداً كبيراً من كُتُبِه، فليُرْجَعْ إليه، ولعل أكثَرها ذكراً وأبقاها أثراً كتابُه «الكشّاف»[2].

---

(١) في الأصل: وأبو.

(٢) هذا، وقد حذَّر الشيخ الإمام ابنُ أبي جَـمْرة الأندلسي، من قراءة كتب الزمخشري، للعارف بدسائس الاعتزال، لأنه لا يأمن الغفلة، فتسبق إليه تلك الدسائس، ولغير العارف أيضاً، لأنَّ تلك الدسائس تسبق إليه وهو لا يشعر، فيصير معتزلياً. نقل هذا عنه الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» في ترجمة الزمخشري.

الكشّاف في تفسيرِ القرآن:

يُعطي الزمخشريُّ كتابَه هذا من العنايةِ ما لم يُعطِه كتبَهُ الأخرى، ذلك لأنّ مقامَ التفسيرِ جليلٌ خطيرٌ، وهو مُرتقى صَعْبٌ لا يجْرؤ عليه إلّا مَنِ اجتمعتْ عندَه مَلَكاتٌ في علمِ البيانِ وذوقِه، ونالَ من علومِ القرآنِ والسنّة أوفى قَدْر، ومن حياةِ النبيِّ الأمينِ ﷺ وسيرتِه بأكبرِ حظّ، وله معَ ذلكَ عقلٌ يلمع، وقلبٌ منير، ونفسٌ تحسّ، ولعل من الخيرِ أنْ نتركَ الكلمةَ له ليعرفَنا أوصافَ المفسِّر، فقد قالَ رضيَ الله عنه:

«لا يُفوَّضُ على شيءٍ من تلك الحقائقِ (أي معاني القرآن) إلّا رجلٌ بَرَعَ في علميْن مختصَّيْن بالقرآن، وهما علمُ المعاني وعلمُ البيان.. وحرَصَ على استيضاحِ معجزةِ رسول الله ﷺ بعد أنْ تكوَّن آخذاً من سائرِ العلوم، جامعاً بينَ تحقيقٍ وحِفْظ، كثيرَ المطالعات، طويلَ المراجعات، وقد رجعَ زماناً ورجع إليه ورَدَّ ورُدَّ عليه.. وكان معَ ذلك مُسْتَرسَلَ الطبيعةِ مُنْقادَها، مشتعلَ القريحة وقّادَها، يقظانَ النفس، درَّاكاً للَّمحةِ وإنْ لطُفَ شأنُها، منبهاً على الرمزةِ وإن خفيَ مكانُها، لا كزّاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا درايةٍ بأساليبِ النظمِ والنثر.. قد علم كيف يُرتِّبُ الكلامَ ويُؤلِّف، وكيف يُنظِّم ويوصِّف».

هذه صفاتُ مَنْ يَتَصدّى لتفسيرِ القرآن ليتعرَّفَ مواضعَ إعجازِه، وأسرارِ بلاغتِه. ولقد كان يحسبُ أنه ليس من فرسانِ هذا الميدان، ولذلك لم يفكِّرْ في سلوكِ ذلك المسلكِ الذي قد تتقاصرُ عنه همّتُه.

ولكنه كان يُذاكِر المعتزلةَ من إخوانه في معاني القرآن، وهم مَنْ كانوا يجمعونَ بينَ علمِ العربيةِ والأصولِ الدينية، فطلبوا إليه أن يكتبَ لهم تفسيراً يكشفُ عن أسرارِ

التنزيل بعدَ أنْ تبيَّنَ لهم أنّه بهذا الأمرِ جدير، لما كان يُلقيهِ مِنْ تفسيرٍ لآياتٍ كان يثيرُ إعجابَهم.

فسَّر سورةَ البقرة، واستعفى من تفسيرِ سائرِ القرآن:

ولكنه يَسْتعفي لعظمِ الأمر، وبعدَ إلحاحٍ شديد، أملى عليهم تفسيرَ سورةِ البقرة، واكتفى بذلك ليكونَ تفسيرُه مثالاً يُحتذى ومنهاجاً، ينتهجونه. وقد أسهبَ في تفسيرِ سورةِ البقرةِ الذي أملاه. وقد اكتفى به وخصوصاً أن الشيخوخةَ قد سارعتْ إليه. وقد حَدَثَ ما حرَّك همّتَه، ليُتمَّ ما ابتدأ، ذلك أنه وهو يعاودُ الذهابَ إلى المجاورةِ لبيتِ الله الحرام، كلّما مرَّ على طائفةٍ من أهلِ العلمِ، وجدَ عندَها شوقاً لتقرأ ما أملاه. ولما حلَّ بمكة، حَرَمِ الله الآمِنِ، وجد الشريفَ الحسينيَّ أبا الحسن عليَّ بنَ حمزة، وله في قلبِه المكانة، فذكر له أنه كان يُحدِّثُ نفسَه في مدةِ غيبته عن الحجازِ بأنْ يقطعَ الفيافي ويفدَ عليه بخوارزم ليتوصَّل إلى ذلك الجزءِ في تفسيرِ القرآن الذي أملاه، ويخاطبَه في إتمامِ ما بدأ.

ثم يعود في العشر السابعة إلى إتمام ما بدأ:

لم يَجِدْ بُدّاً من أن يُتمِّمَ ما بدأ، ولكنْ أنّى له من قوّةِ البدنِ ما يتمِّمُ الباقيَ على منهاجِ ما ابتدأ، وقد دخل في العشرِ السابعةِ. ويقول فيها: «ناهزتُ العشرَ التي سمّتها العربُ: دقَّاقةَ الرقاب، فأخذتُ في طريقةٍ أخصرَ من الأولى، مع ضمانِ الكثيرِ من الفوائد، والفحصِ عن السرائر».

أتمَّ التفسيرَ في أقلَّ من سنتيْن، وهو يُجاورُ بيتَ الله، ويقرُبُ من صديقِه الشَّريف، ويقول في ذلك: «وما هي إلا آيةٌ من آياتِ هذا البيتِ المحرَّم، وبركةٌ أُفيضتْ عليَّ من بركاتِ هذا الحرمِ الـمُعَظَّم».

اتَّسَمَ تفسيرُ الزمخشريِّ بسماتٍ لم توجدْ في غيرِه، فهو يعرفُ أسرارَ البلاغةِ في القرآن وأوجهَ إعجازِه، ويسبقُ إلى مداركَ كانت بكراً لم يسبقْه أحدٌ إليها، ومن جاء بعده من الذين كتبوا في التفسيرِ البيانيِّ قبسُوا منه الكثير، ومنهم من اتَّبعه اتِّباعاً وإن لم يبلغْ شأوَه، إذ كان الفرقُ بينَ الفكرةِ الأصليةِ والمحاكِيَةِ واضحاً، وما بلغ أحدٌ في تفسيرِه، مبلغَ الزمخشريِّ من تعبيرِه(١).

وكان يذكرُ المعنى ابتداء، ثم يذكرُ المناقشةَ حولَه بقوله: «فإنْ قلتَ: ...»، ثم يجيبُ، فيقول: «قلتُ: ...» وإنّ ذلك هو المنهاج الذي ابتدأه في سورةِ البقرة، وهو التزامٌ للجدل الذي اتَّصف به المعتزلةُ وكانوا فيه بارِعين.

والكتابُ كان مفصَّل التفسيرِ في البقرة، وكان مُجملاً فيما وراءَها، وقد ذكرَ هوَ السبب، وهوَ أنّه كتبَ الأولَ في قوَّتِه، والثانيَ في شيخوختِه، ولأنه أراد أنْ ينتهيَ قبل أنْ يسبقَ إليهِ القَدَر. إذْ صار يحسب أن وجوبَ الإتمام لم يكنْ وجوباً متراخياً، بل كانَ الوجوبُ على الفور.

ومن الغريبِ أنَّ الذينَ حاكَوْهُ أو قَلَّدُوه، يُجمِلون فيما أجملَ ويُفصِّلون فيما فصَّل، وقد وُجد عندَه العُذر، ولا معذرةَ عندَهم إلّا أنْ يكون ضعفُ الهمَّة، وضيقُ الذراع، وقصورُ الباع.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» في ترجمة الزمخشري: «وأما «التفسير» فقد أولع الناسُ به، وبحثوا عليه، وبيَّنوا دسائسه، وأفردوها بالتصنيف، ومَنْ رسخت قدمه في السُّنّة وقرأ طرفاً من اختلاف المقالات انتفع بتفسيره، ولم يَضُرُّه ما يخشى من دسائسه، عفا الله عنه».

الزمخشريُّ الواعظ:

في هذا العصرِ الذي عاش فيه الزمخشريّ كثُرت كتاباتُ المقامات، فكانت فيه مقاماتُ بديعِ الزمانِ الهمذانيّ، ومقاماتُ الخوارزميّ، وغيرِهما، وكانت الكتاباتُ الأدبية في ذلك الإبّان ليستْ مُرسلة، ولكنّها كانتْ مسجوعة، فالنثرُ الفنيُّ السائدُ فيه السَّجْع، ولم يكنْ لمثلِ الزمخشريّ، الحُجَّةِ في اللغة، والكاتبِ الـمُبْدع، إلا أنْ يخوضَ معَ الخائِضين، ولكنّه في كتاباتِه الفنيةِ المسجوعة، لا يتَّجه إلى اللفظِ من غيرِ تجويدِ المعنى، فما كان كغيرِه لا عملَ له إلّا النثرَ والكتابة، بل كانَ العالِـمَ الأصوليّ، والفقيهَ والمتكلم، فعنده ثروةُ المعاني قبلَ ثروةِ الألفاظ، وتجاربُه التي اكتسبَها من رحلاتِه إلى طلبِ العلم، وإلى طلبِ جوارِ البيتِ المحرَّم، قد أكسبتْه آفاقاً في التفكيرِ قفزتْ منها معارفُه العلمية، فكان نثرُه حِكَماً جيِّدةً مُرسَلة. وله في ذلك رسائلُ مُحكَمَةُ المبْنى والنَّسج، وفيها المعاني البِكْر، والألفاظُ الـجَزْلة، فكانت كعروسٍ جميلةٍ في ثوبِ العُرس. ومن هذه الرسائل: «أطواق الذهب»، و«الكلمُ النوابعُ في المواعظ»، و«نصائحُ الكبارِ ونصائحُ الصغار»، و«مقاماتٌ في المواعظ»، و«نزهةُ المستأنِس»، و«الرسالةُ الناصِحة»، و«ربيع الأبرار»، وديوانُ خُطب، وديوانُ رسائل، وغيرُ ذلك من رسائلَ أخويةٍ تضمَّنتْ معانيَ حكيمة.

ولنقبضْ قبضةً من كتابِه «أطواق الذهب» تدلُّ على سائرِ كتابتِه، فقد جاء فيها في تغيُّر الناس والأزمان: «الدنيا أدوارٌ والناسُ أطوار، فالبسْ لكلِّ يومٍ بحسبِ ما فيه منَ الطوارِق، وجالِسْ كلَّ قومٍ بقدرِ ما لهم منَ الطرائِق، فلن تجريَ الأيامُ على أُمنيتك، ولنْ تنزلَ الأيامُ على قضيَّـتِك».

ويقول: «لا أُحدِّثُك عن بلدِ الشوم، ذلك بلدُ الوالي الغَشُوم، فإيَّاك وبلدَ الـجَوْرِ وإنْ كنتَ أعزَّ من بَيْضةِ البلد، وأحظى أهلِه بالمالِ المُثْمِرِ والولَد».

والزمخشريُّ لم يعشْ على مائدةِ الأمراءِ والحكام، ولذا لم يرضَ أنْ تكونَ آراءُ العلماءِ تابعةً لأهواءِ الأمراء. ويقولُ في ذلك: «ما لعلماءِ السُّوْء جمعُوا عزائِمَ الشرعِ ودوَّنوها، ثم رخَّصوا فيها لأمراءِ السُّوْءِ وهوَّنوها، إنما حفظُوا وعلّقُوا وصفقوا وحلَّقوا ليُقْمِروا (يجمعوا) المال، ويَيْسَرُوا».

ويقول في بثِّ روحِ الهمّة: «لا تقنعْ بالشرفِ التالد، فذلك الشرفُ للوالد، واضْمُمْ إلى التَّالدِ طريفاً، حتى تكونَ بهما شريفاً، ولا تُدْلِ بشرفِ أبيك، ما لم تدلَّ عليه بشَرَفٍ فيك».

وهكذا نجدُ المعانيَ الكريمةَ في الألفاظِ الـحُلوة والأساليبِ الرَّصينة.

حقيقتـان:

وقبل أنْ نغادرَ تلكَ الرياض من آثارِ الزَّمخشريّ، لا بُدَّ أنْ نسجِّل حقيقتَيْن:

إحداهما: أنَّ هذا العالِـمَ الجليلَ لم يعرَفْ أنه تملَّقَ أميراً، ولم يُؤْثَرْ عنه في كتاباتِه أنه مدَحَ حاكماً، أو سَخَّرَ قَلَمه لخدمةِ حاكم، وإنَّ الـمُتَـتبِّع لرسائِله إلى أصدقائِه لا يجدُ فيها إلا عبيرَ المودَّة، وعُرْفِ الإخاء، وروحانيَّـةِ الصَّداقة، ولا يجدُ فيها ازدلافاً لأميرٍ قط.

الحقيقةُ الثانية: أنّه كانَ شجاعاً، لا أمامَ الحاكمِ فقط، بل أمامَ العُلماء، ارتضى أنْ يكونَ معتزلياً في اعتقادِه وقتَ كان مذهبُ المعتزلةِ في ذلك الإبَّانِ مضطهداً من

الـحُكّام، مستنكراً منَ العلماء، مُزْدَرىً من العامّة، فما جَبُنَ من إعلانِه، والدفاعِ عنه والدعوةِ إليه. وقد اعتبر بعضُ العلماءِ من هناتِه في تفسيرِه حَشْرَهُ مذهبَ أهلِ الاعتزالِ فيه، ولكن معَ ذلك أجمعَ العلماءُ على أنّ ذلك لم يذهَبْ بسلامةِ جوهرِه، واشتمالِه على اللآلئ الفائِقة.

ولقد كان لفَرْطِ شجاعتِه إذا استأذنَ على أحد، قال للآذن: «قل: بالبابِ محمودٌ المعتزليّ».

ولفرطِ شجاعتِه كان يُعلنُ أنَّ القرآنَ مخلوق، وهو رأيُ المعتزلة، حتى لقد همَّ في افتتاحية كتابِه التفسير أن يقول: «الحمد لله الذي خلق القرآن...»، ولكنَّ أصحابَه نَـهَوْه عن ذلك. وقالوا له: «إن فعلت نفرَ الناسُ منه فلم ينتفعوا به». وعندئذ تطامنَ المعتزليُّ التقيُّ النافعُ الذي يرجو الخيرَ للناس، وقَبِلَ أنْ يكتبَ في الافتتاحية: «الحمدُ لله الذي أنزلَ القرآن».

والآن قد مضى الزمخشريّ إلى ربِّه[1]، وبعد أكثرَ من ثمانمئة سنةٍ من موتِه يتذاكرُ الناسُ فكرَه، كأنه حاضرٌ بينَهم. وهكذا كلُّ شيءٍ إنسانيٍّ يَـفْنى إلّا ما تُسجِّله المواهب، وما تُسجِّله النفسُ الحرّةُ الطيِّبة، والعقلُ الـمُشْرِقُ المستقيم. اللهمَّ اهدِنا إلى الطيِّبِ منَ القول، واهْدِنا إلى الصِّراطِ الحميد.

* * *

(١) توفي أبو القاسم الزمخشري ليلة عَرَفَة سنة ٥٣٨هـ عن ٧١ سنة رحمه الله تعالى.

الفخرُ الرَّازي[١]

(٥٤٤-٦٠٦هـ)

رجل دنيا ودين

رجلٌ جمع العلمَ والمال، واحتازَ من الدنيا كثيراً، ومن علمِ الدِّين أكثر، وترك لأولادِه وسائرِ أُسرتِه تركةً من المال، فنيتْ بفنائِهم، وذهبتْ معَهم، ولكنّه ترك معَها آثاراً علميةً باقيةً يُذكَرُ بها، وتُذكَرُ منسوبةً إليه، فما تركَهُ من حُطامِ الدنيا، لم يبقَ منه شيء، وما تركه من علم، لم يذهَبْ منه إلا ما أخفتْه الخزائنُ العلمية، ومآلُه الظهور، ولقد صدق رسولُ الله الصَّادق الأمين ﷺ إذ يقول: «إذا مات ابنُ آدم، انقطعَ عملُه إلّا من ثلاث: صدقةٍ جارية، وولدٍ صالحٍ يدعو له، وعلمٍ يُنتفعُ به»[٢]، وأخلدُها الثالثُ منها. لقد ترك ذلك الرجلُ مئتي ألفِ دينار، ومئتي كتابٍ ما بين وسيطٍ ومبسوط، وقد ذهبتِ الدنانيرُ وبقيتِ الكتب، وبذلك يتقرّرُ أنَّ كلَّ شيءٍ يفْنى في هذه الدنيا إلّا ما يتَّصلُ بالروحِ والعقل.

---

(١) مجلة العربي: العدد ٤٦، عام ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م.

(٢) رواه مسلم (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، ولفظه عند مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

ذلك الرجلُ هو محمدُ بنُ عمرَ بنِ الحسينِ القرشيِّ البكري، وقد اشتُهِرَ بلقبِهِ فخرِ الدينِ الرازيّ، ثم أُوجِزَ اللّقب، حتّى صارَ يُذكَرُ بـ«الفخرِ الرازيّ».

والرازيُّ نسبةٌ للرّيِّ حيثُ وُلِد، وحيثُ نشأَ وترعرعَ وشدا في العلوم، وكان أبوه خطيبَ الريّ، وواعظَها، وذا السَّمْتِ الحسنِ بينَ أهلِها، وبذلك الوسط الذي نشأَ فيه والنَّسبِ الذي ينتسبُ إليه، اجتمعَ له أمران: كلاهما أعلاهُ وسَما به.

أولهما: نَسَبٌ شريف، إذ ينتمي إلى صِدِّيقِ هذه الأُمةِ أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ الله ﷺ، وصفيِّه في الجاهليةِ والإسلام، ووزيرِه في تدبيرِ الدولة، وصاحبِهِ في الغارِ، وثاني الاثنين.

وثانيهما: البيئةُ العلمية، فإنَّ أباه كانَ عالماً، وكان خطيبَ الريّ، فنشأَ في بيتِ العلم، وفي وسطِه.

بيئة العلم في بلاد خوارزم:

وإنَّ المدارسَ الإسلامية قد أنبتَتْ في بلادِ خوارَزم وغربِها وما وراءَها، حتى نَبَغَ فيها العلماءُ الكبارُ أمثالُ أبي الريحان البيرونيّ، صاحبِ الفلسفةِ والتاريخ، والخُوارزميِّ صاحبِ الرياضيات، ثم الخُوارزميِّ صاحبِ المقامات، ثم بديعِ الزمانِ الهمذاني ومَنْ جاءَ بعدهم، ثم كان فيها الشيرازيُّ صاحبُ الفقه، وفيها طائفةٌ كبيرةٌ من علماءِ المذهبِ الشافعيِّ الذي كان يسودُ في تلك البلاد، وله القلبُ والسلطان، فمُنذُ أدخلَ محمدُ بنُ إسماعيلَ القفّالُ الكبيرُ الشاسيّ، المتوفّى سنة **٣٦٥**، ذلك المذهبَ الجليلَ في هذه البلاد، وهو يَنْمو ويزيد، حتى إذا جاءَ القرنُ السادسُ الهجريّ، كانت له السيادةُ في الشعب.

الرازيُّ نَشَأ في بيئة العلم:

وبهذا يتبيَّنُ أنّ فخرَ الدينِ الرازيّ قد نشأ في بيتِ الدين، وفي مَعْدِنِ العلم، وفي بيئتِهِ، فكان لا بُدَّ أنْ يتجهَ إلى العلم بكُليَّته، وقد اتَّجه إليه، فاسْتَحفظَ القرآن، وروى الحديثَ، وتعلَّم علومَ اللغةِ والفلسفةِ والكلام، وكان معَ كلِّ هذا طالباً للفقه، وكان مِنْ مُقْتضى حُكمِ البيئةِ أنْ يكونَ شافعياً، ولذلك كان من أعلمِ الفقهاءِ بفقهِ الإمامِ الشافعيِّ رضي اللهُ عنه، وكان من أشدِّ الناسِ تعصُّباً لذلكَ الـمَذْهَب.

عصرٌ امتاز بأربعة أمور:

ويجب أن نُقرِّرَ أنَّ هذا العصرَ قد امتازَ بأمورٍ أربعة كلُّها التقتْ في فخرِ الدينِ الرازي رضي الله عنه.

١ ـ تحصيل جميع العلوم:

أولُ هذه الأمور: هو تحصيلُ العلومِ كلِّها، فلم يكنِ التَّخصُّصُ واضحاً، فكان الفقيهُ يجمعُ إلى الفقه علمَ العقائدِ والفلسفةِ وعلمَ اللغةِ بشتّى فروعِه، وتمتزجُ هذه العلومُ كلُّها في آثارِه وفي تفكيرِه، ويظهرُ في كتاباته، كأنه متخصِّصٌ في كلِّ واحدٍ منها.

٢ ـ الموسوعات العلميَّة:

وثاني هذه الأمور هو الموسوعاتُ العلميةُ الجامعة، فقد اتَّجهَ العلماءُ إليها، فكان في المذهبِ الحنفيّ «المبسوط» للسرخسيّ، وهو موسوعةٌ فقهية، وكان في المذهبِ الشافعيِّ «المهذّبُ» للشّيرازيّ، وكان في المذهبِ الـحَنْبَليّ «المغني» لابنِ قدامة، وكان في المذهبِ المالكيِّ الموسوعاتُ الفقهيةُ المختلفة، وحسبُ الغربِ العربيِّ ديوانُ الفقهِ الكبير، وهو «المحلّى» لابنِ حَزْمٍ الأندلسيّ.

٣ـ الجدل في الفقه وعلم الكلام:

الأمرُ الثالث: الـجَدَل، فقد سادَ هذا العصرَ وما قبلَه الجدلُ الفقهيُّ والكلاميّ، حتى كان العالِـمُ لا يُوصَفُ بفضْلِ العلمِ فقطْ، بل كانَ يُوصَف، معَ ذلك بفضلِ القدرةِ على المناظرةِ والجدل، حتّى كانوا يقولون في مدحِ العالِـم: كان عالماً نظَّاراً، وإنه لفرطِ عنايةِ العلماءِ في ذلك الزمانِ بالـجَدَل كانوا يُقيمونَ مجالسَ العزاءِ بالمناظراتِ في مسجدِ الحيِّ الذي كانت فيه الوفاة.

٤ ـ التعصب المذهبي:

الأمرُ الرابعُ: هو التعصُّبُ المذهبيّ، وإن ذلك نتيجةَ الـجَدَل، فإنَّ الـجَدَلَ يجعلُ كلَّ صاحبِ فكرةٍ يستمسكُ بها، ويعتلُّ الأدلةَ لتقويتِها، ووراءَ ذلك التعصُّبُ الشديد، ولذلك كان الإمامُ مالكٌ رضي الله عنه ينهى عنِ الـجَدَل.

كتبُ الرازي وتصانيفُه:

ظهرتْ كلُّ هذه الأمورِ في الرازي، فكان عالماً بأصولِ الفقه، وله فيه كتابُ «المحصول»، وهو يُعدُّ في الرتبةِ الثانية من كُتُب هذا العلم، وقد اسْتَبْحَرَ فيه، وتَعمَّقَ في مسائِلِه وقواعدِه تعمُّقَ الغائصِ العارفِ بمواضعِ اللؤلؤِ منه، وكان عالماً بأُصولِ الدين، وهو ما يُسمّى علمَ الكلام، وقد كتب فيه مدافعاً عن منهاجِ الأشْعَريِّ في أكثرِ الأحيان، ومُناقشاً له في بعضِ الأحيان، وقد قال ابنُ كثير في كُتُبِه: «أَحَدُ الفقهاء الشافعية المشاهير بالتَّصانيف الكبار والصغار، وله نحوُ مئتي مصنفٍ، منها التفسيرُ الحافِل، و«المطالبُ العالية»، و«المباحث الشرقية»، وله في أصولِ الفقه «المحصول» وغيرُه، وصنَّف ترجمةَ الشافعيِّ في مجلدٍ مفيد، وفيه غرائبُ لا يُوافَقُ عليها، ويُنسبُ إليه أشياءُ عَجيبة». (البداية والنهاية، جـ١٣، ص٥٥).

وقفة عند كتاب الرازيّ في الشافعيّ:

ونقفُ هنا وِقفةً قصيرةً عندَ كتابه «مناقب الشافعيّ»، فقد كان مُظهراً لتعصُّبه المذهبي بادياً فيه، ما ترك منقبةً لم ينسبْها إليه، ومع ذلك كان يُعرِّض بغيرِه من الأئِمة، وحيثُ وجدَ روايةً ولو كاذبةً تُعليه، ساقَها من غيرِ تمْحيص، وكأنها خبرٌ صادقٌ لا شكَّ فيه. ومن ذلك مثلاً ما رواه عن محمدِ بنِ عبدِ الله البَلَوي، فإنه روى عنه أن الشافعيَّ عندما سِيق إلى الرشيد مُتَّهماً بالتشيُّع سنةَ ١٨٤هـ كان ذلك بدسٍّ خفيٍّ من أبي يوسفَ ومحمدٍ تلميذيْ أبي حنيفة رضي اللهُ عنهم. وادَّعى له علمَ الطبِّ وعلمَ اليونانية، معَ أنّ الروايةَ كاذِبة، لأن أبا يوسُفَ قد ماتَ سنة ١٨٢ قبلَ أنْ يدخلَ الشافعيُّ بغداد، ولأنّ محمدَ بنَ الحسنِ هو الذي تشفَّع له، وقد أقام مَعَهُ يطلبُ علمَ العراقِ منه بعدَ أنْ فُكَّتْ قيودُه. ولم يثبتْ أنّ الشافعيّ كانَ يعلمُ لغةَ اليونان، بل إنه لم يثبتْ أنه التقى بالسُّريانِ الذين كانوا يُـكَوِّنون مدرسةَ الترجمةِ في عهدِ المنصورِ والمأمون.

وقد ردَّ ابنُ القيِّمِ تلك الروايةَ واتَّهم البَلَويَّ راويَها بأنه كذّاب (راجع كتاب «مفتاح السعادةِ» لابن القيِّم ص٥٦٥)، وردَّها أيضاً ابنُ حَجَرٍ العسقلانيّ وقال: «أوضحُ ما فيها من الكذبِ قولُه فيها: «إنَّ أبا يوسفَ ومحمدَ بنَ الحسن حرَّضا الرشيدَ على قتلِ الشافعيّ»، وهذا باطلٌ من وجهيْن، أحدُهما: أنّ أبا يوسفَ قد مات، ولم يجتمعْ به الشافعيّ. والثاني: أنهما كانا أتقى من أن يَسْعَيا في قتلِ رجلٍ مسلم».

ولا شكَّ أنّ التعصُّبَ المذهبيَّ الذي سادَ عصرَ الفخرِ الرازيّ، هو الذي سهَّل له قبولَ تلك الروايةِ الكاذبةِ التي أجمعَ العلماءُ على كذبِها وكذبِ راويها.

علمٌ للرازي غزير، وإحاطةٌ شاملةٌ:

اتَّجهَ الفخرُ الرازي إلى الدرسِ والبحثِ والكتابة، وقد أُوتي كلَّ المؤهِّلات التي تُؤهِّله لذلك: علمٌ غزير، وإحاطةٌ شامِلَة، ودقَّةٌ في الفهم، واتجاهٌ إلى طلبِ الحقيقة من غيرِ عِوَج، إلّا إذا كان الأمرُ يمسُّ المذهبَ الشافعيّ، فإنه في هذه الحال يكونُ منه التعصُّب، والنظرُ الجانبيّ، والاتجاهُ من زاويةِ الانحِراف، فلا يكونُ مستقيماً، ومَهْما يَكنْ فقد تَرَكَ ثروةً فكريةً ينذُرُ بينَ العلماءِ من تَرَكَ مثلَها.

بُنيتْ له المدارسُ ليُدرِّسَ فيها:

وقد كانَ ذا حَظْوةٍ عندَ الملوك، ولذلك بَنَوْا له المدارسَ المختلفةَ في بلدانٍ شتّى ليُلقيَ فيها دروسَه، والناس يَفِدونَ إليه طالبين علمَه، يستمعون إليه في تحقيقاتِه العلميّة، وكان ذلك للخاصّة من أهلِ العلم الذين يستطيعون أن يُدركوا المعانيَ العميقة التي يدرسُها.

ومجالسُ للوعظِ والإرشاد:

وكانت له مجالسُ وعظٍ يتَّجهُ فيها إلى الإرشاد، والتوجيهِ والروايةِ والقصَص، وهذه المجالس كانت تتَّسم بأنها جامعةٌ لكلِّ الطبقات، فكان يحضرُها العلماءُ والملوكُ والأمراءُ والوزراء، ويُجمِّل ذلك المجلسَ الحافلَ حُضورُ العامةِ والفُقَراء، فإذا كانَ اللهُ تعالى قد جَعَلَ له حَظْوةً عندَ الملوك، فقد كانتْ لهُ حظوةٌ عندَ العامة، وجمعَ اللهُ في مجلسِه بينَ الفريقيْن، فكانَ مجلساً تُظلله الملائكة، لحضورِ الفقراءِ والعامة فيه.

تَصَدّى الرّازيُّ للمنحرفين وجادلَهم:

ولقد كانَ يتصدَّى لمجادلةِ المنحرفين ومناقشتِهم، وكانوا كثرةً في البلادِ النائية، فكان يردُّ على الشيعةِ في كتاباتِه وفي مناقشاتِه، وفي دروسِه، وكانتْ في عصرِه طائفةٌ اسمُها الكرامية نسبةً إلى محمدِ بنِ كرام السجستانيّ المتوفّى سنة ٢٥٥هـ. وقد كثُر أتباعُ هذه الطائفةِ في عهدِ الفخرِ الرّازيّ، وكان يعتنقُ مذهبَهم بعضُ الملوك، ثم خرجَ منه ولهم في الاعتقادِ ما يُخالفُ الأشعريَّ والمعتزلة وغيرَهم، وفي الفروع آراءٌ منحرفةٌ منها ما يُخالِفُ صريحَ القرآن، وهي أنّ صلاةَ الخوفِ تكبيرتانِ من غيرِ ركوعٍ أو سجودٍ أو إيماءٍ بهما، وذلك يخالفُ القرآن، ومنها: جوازُ الصلاةِ في ثوبٍ نَجِس، ومنها: أنّ العباداتِ تجوزُ بغيرِ نيّة، وغيرُ ذلك.

فكان لا بُدَّ أنْ يتصدّى لردِّ هذهِ الأقوالِ إمامُ العامَّةِ والخاصَّةِ الفخرُ الرازيّ، وقد اشتدَّ في الردِّ وأكثرَ من النيْلِ منهم في دروسِه ومواعظِه، وكان عظيمَ النكاية في هذه المواعظ، لأنّه يلتقي في مجالسِها الأمراء والملوكُ والوزراءُ مع العامّة، فلا يكونُ فريقٌ من الأمةِ إلا شاعَ قولُ السوءِ في مجالسِهم، بالنسبةِ للكرامية، وبذلكَ ضعُفَتْ شوكتُهم وضَؤُلَتْ كَثرتُهم، ولم يَعُدْ لهم نفوذٌ في العامة، ولا عندَ الكُبَراء.

خُصُومُ الرازيّ نالتْ منه في دينِه بالباطل:

وإذا كان هو قد رماهُم بحقٍ دفاعاً عن الدين، وإبطالاً للبدعة، فقد نالوا منه في دينِه بالباطل، ومَنْ عادى مَنْ لا دينَ له لا يأمنْ أن يُتّهمَ في دينِه لأنّه لا حريجةَ عندَ المنحرفِ تمنعُه من تحدّي الحقّ فيما يقول، فكانوا يرمونَ ذلك الإمامَ الجليلَ بالمعاصي، ويخصُّونه بأفحشِها، وهو منها براء، وإذا كان ما كان يُرمى به هو ضريبةُ

التُّقى يُقدِّمها عندَ محاربة الفاسقين المبتدعين في الدين ما ليسَ فيه، فإنه كانَ مطمئنّاً كلَّ الاطمئنان إلى ما يقولون، لأنّ المذمةَ من أهلِ النقصِ، شهادةٌ بالكمال.

ولعلَّ أشدَّ ما كانوا يرمونَه به ليسَ ما يتعلَّقُ بشخصِه، إنّما كان أشدَّ ما كان يُؤثِّر في نفسِه أنهم كانوا يكذبونَ عليه بالنسبةِ لمنزلةِ النبيِّ ﷺ في قلبِه، فقد ادَّعوْا عليه أنه كان يعبِّرُ عن النبيِّ ﷺ فيقولُ: محمدٌ البادِيّ، ويقول عن نفسِه: محمدٌ الرازيّ، ومعنى الباديّ من كان بدويّاً، وإنّ كتبَه ليسّ فيها شيءٌ من هذا التعبير، فهي رَميةٌ فاسقةٌ لا تكونُ إلّا من فُسّاق.

الرازي يذكر الرأيَ، آناً صريحاً، وآناً خفياً:

ولقد كانَ الرازيُّ في معتركِ الأفكار التي ينقلُها ويسُوقُ أدلّتها، أحياناً يذكرُ رأيَه صريحاً جهيراً، لا خَفَاء، وأحياناً يذكرُه خفيّاً لا يبدو إلا لأهلِ النظرِ والتفكير، وقد قال فيه مَنْ لم يصِلُوا إلى شأوه: «إنه كان يقرِّر الشبهةَ من جهةِ الخصومِ بعباراتٍ كثيرة، ويجيبُ عن ذلك بأدنى إشارة».

وفي الحقيقة أنّ ذلك كان منه في المسائلِ التي يرى الأكثرينَ عليها، ولا يريد أنْ يهاجمَهم صراحة، بل يُمَهِّدُ لفكرةِ الخصومِ المعارضين للكثرةِ الكاثِرة. ومن ذلك مثلاً تقريرُه لمذهبِ أبي مسلمٍ الأصفهانيِّ في نسخِ القرآن، فإنّ أبا مسلمٍ كان يرى أنّه ليسَ في القرآنِ منسوخ، بل كلُّ ما اشتملَ عليه القرآنُ من آياتٍ وأحكامٍ مُحكَمٌ لا نسخَ فيه، وقد ساق في سبيلِ الاستدلالِ لأبي مسلمٍ الآياتِ التي ادَّعى نسخَها، ووفَّق بينَها وبينَ الآياتِ التي ادَّعى أنها ناسخةٌ لها توفيقاً وتدقيقاً، واحتفلَ ببيانِ رأي أبي مسلم، ولم يحتفلْ ببيانِ الردِّ عليه، بل كان الردُّ يومئ بأنه ضعيفٌ بجوارِ ما أيِّد به رأيَ أبي مسلم.. وهكذا كثيرٌ من المسائلِ اشتملَ عليها «التفسير»، وغيرُه من الكتب.

الرازي رجلُ دنيا ودِين:

وإنّ الموقفَ الصَّريحَ بلا شكٍّ أسلَم، وأليقُ بالعالِـم الذي ينصرفُ إلى العلم، لا يهمُّه إلّا تقريرُ الحقائقِ وحدَها، ولكنّ الفخرَ الرازيَّ كانَ رجلَ علمٍ ودين، ورجلَ دنيا، فقد كانَ مُتَّصِلاً بالملوكِ والأمراء، وله منزلةٌ عندَ العامّة. ومَنْ كانَ كذلك لا يستطيعُ أنْ يُجابهَ العلماءَ بما لا يألفون، فإذا كان يشيرُ إلى رأيِه بعباراتٍ[1] تُومئ ولا تصرِّح، فهو بهذا يحاولُ أنْ يجمعَ بينَ النواحي الاجتماعيةِ التي ارتبطَ بها، والحقيقةُ العلميةُ التي يريدُ إعلانَها، ولو بطريقٍ مستور، فلا يعلنُها عارِية، بل مستورةً بثيابٍ قد تُوهِمُ غيرَها، وتُلبِسُ على بعضِ مَنْ لا يُدرِكون أمرَها.

وقد كانَ يصنعُ ذلك في بعضِ الآراءِ التي يختارُها من المعتزلةِ وغيرِهم، ويومئُ بها ولا يُصرِّح، وإذا كان في ذلك عيبٌ فأساسه هو اتصالُه بالحكامِ والأمراء، والعالمُ الحقُّ الذي وصلَ إليه الإمامُ الرازي كانَ يجبُ أنْ يعلوَ عنِ المواضعاتِ التي تقيِّده، ويكونَ للعلمِ خالِصاً لا يطلبُ سواه، ولكنْ لعله وجدَ في الاتِّصالِ ما مكَّنَ به للعلمِ والعلماء، وبه فُتِحَتِ المدارس، وحَضَرَ الملوكُ مجالسَ الوعظ.

تفسيرُ القرآنِ للرازيّ:

اشتهر الفخرُ الرازيُّ بالتفسير، وإن كان مقامُه في كلِّ علمٍ من علومِ الإسلام لا يقلُّ عن مقامِه في التفسير، بل إن التفسيرَ قد كان المظهرَ الأكبرَ لكلِّ علومِ الرازيّ، فقد أودَعَه علمَ الإسلام كلّه، فقد جمعَ فيه بينَ دقَّةِ التحقيقِ اللغويِّ لمعاني العباراتِ القرآنيةِ السامية، ونقلَ فيه ما قالَهُ علماءُ اللغةِ في آياتِهِ القُدُسيّة، وتعرَّض

---

(١) في الأصل: بعباراته.

بتفصيلٍ كاملٍ لآياتِ الأحكامِ الفقهيّة، وكلُّ آيةٍ يجري في ظلِّها اختلافُ المعتزلةِ معَ الأشعريين، أو الفلاسفةِ معَ الاعتقاديين، يُبيِّنُ أوجهَ النظرِ المختلفةِ تبيينَ العارفِ الـمُدْركِ الغوّاص، المتعرِّفِ لكلِّ أوجهِ الاستدلال.

وإنَّ هذا التفسيرَ بحقٍ من أكبرِ الموسوعاتِ الإسلامية، ولعلَّ بعضَ العلماءِ قد انتقدَ ذلك المنهاجَ من التفسير، واعتبرَهُ تشعيعاً لمعاني القرآنِ في وسطِ الخِضَمِّ من العلوم، حتى لقد قيل: إنَّ الأستاذَ الإمامَ الشيخَ محمد عبده سُئِلَ عن تفسيرِ الرازيّ فقال: «فيه كل شيء إلّا التفسير». ولا ندري مقدارَ صحَّةِ النسبةِ في هذا القولِ إلى أستاذِ الجيلِ وإمامِه الشيخِ محمد عبده، ولكنّا نقول: إنَّ الكلمةَ قد تكونُ صادقةً من حيثُ المظهر، فإنّ العلومَ الإسلاميةَ المختلفةَ هي الواضحةُ فيه.

ولكنْ مَنْ يُنْعمِ النظرَ يجِدِ الرازيَّ قد جَمَعَ في تفسيرِه أقوالَ أهلِ اللغةِ في الآيات، حتّى صار مرجعاً في ذلك، وجمعَ الروايات التي ساقَها الطبريُّ وغيرُه في التفسير، وجمعَ أقوالَ الـمُفسِّرين قبلَه كالزمخشريِّ وغيرِه، وكان ذلك معَ غيرِهِ من العلوم، وهو يختار ما يراه أقربَ إلى معنى القرآن.

ولا شكَّ أنّ هذه الطريقةَ مفيدةٌ لمنْ يريدُ أنْ يرجعَ لأقوالِ المتقدِّمين في الآية، ولكنّها لا تتَّضِحُ فيها شخصيَّـةُ المفسِّر، كما نرى في تفسيرِ الزمخشريِّ وفي تفسيرِ الطبريّ، وفي تفسيرِ مَنْ جاؤوا بعدَ هذه الطبقة، فإنّ شخصيَّةَ المفسِّرِ واضحة، ومعنى الآيةِ على منهاجِه واضحٌ بيِّنٌ لا غموضَ فيه ولا إبهام.

والتفسيرُ فيه تفريعاتٌ وتشقيقاتٌ كثيرة، فهو يفرِّع الكلامَ في الآيةِ إلى مسائِل، ويذكرُ في كلِّ مسألةٍ الخلافَ فيها، ويذكرُ الأدلَّة مُسَلسَلة، وأحياناً يُقسِّم الكلامَ في

الآيةِ إلى فُصول، ويُفرِّع ويُفصِّل فيها، وهو في كلِّ ذلك ينقلُ مُحكَمَ القول، ويحكي دقائقَ العلوم، ولطيفَ الأفكار. وافتحْ أيَّ صفحةٍ من هذا التفسير تجدْ ذلك كلَّه واضحاً لا لَبْسَ فيه. وقد فتحتُ صفحةً فوجدتُه يتكلمُ في معنى قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، فيقول: «المسألةُ الرابعةُ: في شرحِ كَوْنِ السماءِ بناءً، قال الجاحظُ: «إذا تأمّلتَ في هذا العالمِ وجدتَه كالبيتِ المعَدِّ فيه كلُّ ما يُحتاجُ إليه، فالسماءُ فوق، مرفوعةٌ كالسقْف، والأرضُ ممدودةٌ كالبِساط، والنجومُ منوَّرةٌ كالمصابيح، والإنسانُ كمالكِ البيتِ المتصرِّفِ فيه، وضروبُ النباتِ مُهيَّأةٌ لمنافعِه، وضروبُ الـحَيَوانِ مُصرَّفةٌ في مصالحِه، فهذه جملةٌ واضحةٌ تدلُّ على أنَّ العالَمَ مخلوقٌ بتدبيرٍ كامل، وحكمةٍ بالِغة، واللهُ أعلم».

وهكذا نجدُ في التفسيرِ أحياناً رياضاً مزهرةً وارفةَ الظلال، يستمتعُ فيها القارئُ بأظرفِ الأفكار، وأحياناً معانيَ كأنها الشَّامِخاتُ يُعجَبُ فيها بقوّةِ المعاني، وإحكام الاستدلال. ومهما يكُنْ أمرُ هذا التفسيرِ فهو ثروةٌ في العربيّةِ والإسلام، لا يَعرف قدرَها إلّا مَنْ مارسَ البحثَ في هذه العلوم، فحيثُما أردتَ فكرةً في بحثٍ إسلاميٍّ وجدتَها بالتفصيلِ في هذا الكتاب، أو وجدتَ لها أصلاً يهديك إلى فروعِه، أو إشارةً تومئُ إلى تفصيله.

الرازيُّ لم يُدخِلْه التاريخُ في زُمرةِ الزّاهِدين:

إذا أسقَطْنا من حسابِنا الحاقدين عليه الذين سقاهم أكؤُساً من النقدِ المرير، فإنّا نجدُ الرواياتِ تَتَضافرُ على أنّه كانَ عابداً وإنْ لم يكنْ زاهِداً، وإذا كانَ الزهدُ هو طلبُ الحلال، كما رُوِيَ عن الإمامِ أحمدَ بنِ حنبل، فقد نحشرُه في زمرةِ الزّاهِدين لأنا لا نحسَبُ إلّا أنه كان يطلبُ الحلال، وإنْ كان يستكثرُ منه، ولا يكتفي بالقليل، وعلى

أيِّ حال هو لم يَعُدَّ نفسه منهم، ولم يعدَّهُ التاريخُ منهم، ولكنْ من المؤكَّد أنه كانت له عباداتٌ يُكثرُ منها، وأورادٌ يكثرُ من قراءَتِها، وأدْعِيةٌ يَضْرعُ إلى الله تعالى بها.

الرازيُّ يؤمنُ بقصورِ العقل:

وإنّ ذلك العقلَ الذي مرسَ بالاستدلالِ والـمُحَاجّة، وأجادَ الفلسفة، أحسَّ بأنّه كليل، ورضي أنْ يكونَ المفوضَ في العقائِد، الذي يزهدُ في التعمُّقِ فيها، والاستدلالِ لها، وأُثِرَ عنه أنّه كان يقولُ في آخرِ حياتِه «مَنْ لزِمَ مذهبَ العجائز، كانَ هوَ الفائِز».

وقد أوصى وصيَّةً قُرِئت مِنْ بعدِه، وفيها أنّه رجعَ عن مذهبِ الكلامِ في العقائدِ إلى طريقةِ السَّلفِ الصالح، وطريقةُ السَّلف أنْ تُؤخذَ العقائدُ منَ القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريف، من غيرِ تَفَلْسُف، ولا تعمُّقٍ في البحثِ عن طريقةِ اليونان، التي تتيهُ فيها العقول، ولا يخرجُ فيها الباحثُ إلّا من مذهبٍ إلى مذهب، وليسَ فيها ما هُوَ أهدى سبيلاً.

«نِعْمَ المالُ الصَّالح في يدِ العبدِ الصَّالح»:

ومعَ هذه العباراتِ البارزة، وجدناهُ يطلبُ المالَ ويقتني جواهرَه، ولعل السببَ الذي دفَعَهُ إلى الحرصِ على طلبِه أنه وجدَ العلماءَ في جيلِه يعيشونَ على هوامشِ حياةِ الأغنياءِ والأُمراءِ والوزراء، وإنّ ذلك قد يُنقِصُ من قدرِهم ولا يُعطيهم أمامَ العامّة المكانةَ اللائقةَ بهم، وبلغهُ قولُ النبيِّ ﷺ: «نِعْمَ المالُ الطيِّب، في يَدِ العبدِ الصَّالح»[1]،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧٧٦٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٦٠٥٦)، وابن حبّان (٣٢١٠)، وغيرهم، وإسناده صحيح على شرط مسلم، من حديث عَمْرو بن العاص رضيَ الله عنه. ولفظه: «نِعِمَّا بالمال الصَّالح...»، وليس (الطيّب) كما هنا.

وقد بلغهُ قولُ أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي اللهُ عنها: «إنَّما بُنيتْ أحسابُ أهلِ الدنيا على المال»، وقولُها رضي اللهُ عنها: «رأيتُ ذا المالِ عندَ الناسِ مَهيباً، وذا الفَقْرِ عندَهم مَهيناً».

وجدَ كلَّ هذه الآثارِ تُقرِّرُ تلك الحقائقَ الواقعة، فلماذا لا يكونُ عبداً شكوراً؟ ولماذا لا يكونُ العبدُ الصَّالحُ الذي يكونُ في يدِهِ المالُ الطيِّب؟ ولماذا لا يبتعدُ عن مَوْضعِ الـمَهَانةِ والتبعيَّـةِ للأغنياء، وإنْ كانَ عندَ الله وجيهاً؟ لذلك طلبَ المال، فكان له منَ الذهب العَيْنِ ثمانونَ ألفَ دينار، وله الأمتعةُ الثمينةُ، والملابسُ والأثاثُ بما يتَّفقُ معَ ما يريدُه لنفسِه من مَظْهَر. وقيل: إنّه خلَّف من الذهبِ العَيْنِ مئتي ألف دينار لا ثمانين ألفاً فقط. وكان له خمسون مملوكاً تركيّاً، وعقاراتٌ كثيرة، ودوابٌّ وآلات.

وقد استمرَّ يعيشُ هذا العيشَ الرافِغ[1] إلى أنْ قَبضَه اللهُ تعالى محسوداً من أعدائِه وأوليائِه معاً، لأنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود، وأيُّ شيءٍ أعظمُ من أنْ يجمعَ الشخصُ بين الدنيا والدين، ويعطي كليهما حقَّه، من غيرِ ظلمٍ ولا اعتداء، ولذلك كان هذا الإمامُ موضعَ الحسد.

وفاته:

وقد تُوفي في ذي الحجة سنة ٦٠٦هـ، وقيل: إنّ الكرّامية دسُّوا له السُّمّ، كما أشاعُوا عنه ما يُدنِّسُه بعدَ وفاتِه، وإذا كان ذلك الخبرُ صحيحاً، فقد ذهب شهيدُ العلمِ والدين، وخَتَمَ اللهُ حياتَه بما تَخْتِمُ به حياةَ الصَّالحين، فكان وجيهاً في الدنيا والآخرة.

* * *

(١) الرفغ: ـ بالغين المعجمة ـ وجمعها رفاغ. والرفغ والرفاغة والرَّفاغية: سَعَة العيش والخِصْب. وعَيْش أرفغ ورافغ ورفيغ: خصيب واسع طيِّبٌ. انظر: «لسان العرب»، مادة (رفغ).

تراجم الوعّاظ والمتكلمين

الحسَنُ البصْريّ[١]

(٢١-١١٠هـ)

سيِّد أهل البصرة:

دخلَ أَعرابيٌّ البصرةَ، فسألَ صَفْوةً من الناسِ: مَنْ سيِّدُ هذا الـمِصْر؟

فقالوا: الحسنُ البصريّ.

فقال: بمَ سَادَ أهلَه؟

قالوا: استغنى عمّا في أيديهم من دنياهم، واحتاجوا إلى ما عندَهُ مِنْ أَمرِ دينِهم.

فقال الأعرابيّ: لله درُّه، هكذا فليكنِ السيِّـدُ حقاً.

الحسنُ وُلِد رقيقاً وأمُّه أَمَـة:

إنّ ذلك السيدَ حقاً، الذي حكمَ الناسُ بأنّه سيدُ البصرة، وكانَ فيها الحجّاجُ الثقفيّ؛ ومِن قبلُ كان زيادُ بنُ عُـبَيد الذي سُمِّيَ في التاريخِ بزيادِ بنِ أبيه، لم يكنْ قرشياً حتى تكونَ له سيادةُ قريش، ولم يكنْ عربياً، حتى يكونَ لهُ فخرُ العرب، ولم يولدْ على الحرية حتى يكونَ له شرفُ السيادةِ الطبيعية، بل وُلِـدَ على الرِّقِّ، فكان

---

(١) مجلة العربي: العدد ٦٢، عام ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م.

أبوهُ رقيقاً وأمُّه أَمَة، ووُلِدَ منهما، ولكنه نال السيادةَ بشرفِ العلم، وبشَرفِ الدين، وبشرفِ الـخُـلُق، وبعزَّةِ القناعة، وثروةِ الزهادة.

الحسن وُلِد في أحضان أمِّ المؤمنين:

كان والدُ الحسنِ من أسرى فارس، واسمُه يَسَار، وأمُّـه واسمُها خَيْرة، من السبايا، وقد آلت ملكيتُها إلى السيدةِ أمِّ المؤمنين أمِّ سَلَمة زوجِ النبيِّ ﷺ . وقد وُلِدَ الحسنُ في أحضان أمِّ سَلَمة، فتَربّى في بقيةٍ من أحضان النبوّة، وفاضتْ عليه أم المؤمنين بعطفِها وشِفقِها، حتى أَنه يُروى أَنها غذَّته بلبنها، فيَـرْوي ابنُ خَلّكانَ أنّ أمَّه كانتْ تَغيبُ عن البيتِ لحاجةٍ لأمِّ المؤمنين، فإذا بكى الطفل، أعطتْه أم سلمةَ ثديها تُعلِّله به إلى أَنْ تجيءَ أمُّه، وربما درَّ عليه بعضَ اللبن.

ولقد أعتقتْه أمُّ سَلَمة التي آلتْ إليها ملكيتُه تبعاً لأمِّـه، ولكنَّ العتقَ لم يقطعْه عنها، بل إنّها أمدَّتْه بغذاءٍ روحيٍّ ممّا علمتْه عنِ الرسول ﷺ، ومن فيضِ حكمتِها، فقد كانتْ معروفةً بينَ نساءِ النبيِّ ﷺ بالحكمةِ في القولِ والعمل، فهي التي أشارتْ على الرسول الكريم ﷺ في صلح الـحُـدَيبية بأنْ يبدأَ هو بالتحلُّلِ من إحرامِه بالنَّحر، عندما طَـلَبَ إلى الـمُـحْرِمين مَعَه أنْ يتحلَّلوا، فتلكَّئوا، فلمّا نحرَ النبيُّ ﷺ بإشارتِها اتبَّعه جميعُ المحرمين.

الحسن نشأَ في عهدِ الخلفاءِ والتابعين:

تلقَّى الحسنُ الحكمةَ من فمِ أمِّ سَلَمة وهو في المهد، وما زالَ الحسنُ البصريّ، أو الحسنُ بنُ يسار يشدو في الحكمةِ والمعرفةِ والدين، حتى بلغ مرتبةَ السيادةِ حقاً.

وُلِدَ الحسنُ في سنةِ ٢١، أي: في السنينَ الأخيرةِ من حكمِ أميرِ المؤمنين عمرَ ابنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه، والتقى بالصحابةِ في عهدِ عثمان، وتلقّى عليهم، وأخَذَ عنهم، واختصَّ في أخذه بمواعظِ الرسول ﷺ، وسِيَرِ السابقين، حتى إذا جاءَ عهدُ أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالب، كان قد بلغَ الرابعةَ عشرةَ من عُمُرِه. وكان بالمدينة، عُشِّ الصحابةِ وموطنِ العلم، يومَ مقتلِ ذي النُّورين عثمانَ رضي اللهُ عنه، وكان في حضرةِ سيفِ الإسلامِ عليّ عندما بلغهُ مقتلُ عثمان، فذكرَ الحسنُ أنَّ علياً رفعَ يده إلى السماء وقال: «اللهمَّ لـمْ أرضَ، ولم أُمالئ».

وقد استمرّ الحسنُ في طلب علم الصحابةِ عن النبيِّ ﷺ مُعتزّاً به، آخذاً ممَّن التقى بهم، وقد التقى بالكثيرين، وإنه ليقول: «لقيتُ ثلاثمئة من الصحابة منهم سبعون بدرياً».

تلقّى علمَه عن هؤلاءِ، وكان حَفِيّاً بمعرفةِ سِيَرِ السابقين من الرسُلِ وأخبارِهم، كما جاء على لسانِ النبيِّ ﷺ، وكما رُوِيَ عن الصحابة، وكما تلقّاه من أهل الدياناتِ الأخرى مُنتقياً ما يأخذُ من هؤلاء، فلا يأخذُ ما ينقلُه عنهم من غيرِ فحصٍ واختبار.

القُصَّاص في آخر عصر الخلفاء الراشدين وعصر بني أمية:

وقد شاعَ القصصُ في آخرِ عصرِ الخلفاءِ الراشدين وطول العصرِ الأمويّ، فكانَ لِكُلِّ مدينةٍ في ذلك العهد الأخير، قاصّ، كما كان لها فقيهٌ، وقاض.

ولقد كان القُصَّاص يخْلِطون الخُرافاتِ بالحقائق، والأوهامَ بالعقول، وقد وَجَدَتِ الإسرائيليَّاتُ طريقَها إلى المسلمين عنهم، ولذلك حاربَ الإمامُ عليٌّ رضي اللهُ عنه ذلك النوعَ من القَصص، وكانَ يدخلُ المسجدَ فيُخرجُ مَنْ يتكلَّمون بالقصصِ

المبنيِّ على الأوهام. ودخل مسجدَ الكوفةِ مرة، فوجدَ الحسنَ البصريَّ يقصُّ قَصصَه، فوقفَ قريباً منه فترة، استمعَ إلى ما يقولُ ثم تركه، وهذا يدلُّ على أنّ الإمامَ الأعظمَ لم يجدْ في قصصِه ما يُمنع، فأقرَّه، ويدلُّ على أن الحسنَ كان ينتقي الأخبار.

مصادرُ علمِ الحسن:

تضافرتْ أسبابٌ جعلتْ من الحسنِ عالماً مُخْلِصاً نقيَّ القلب، ونقيَّ الاعتقاد، وترجعُ هذه الأسبابُ إلى شيوخِه، وعصرِه، وصفاتِه.

أمّا شيوخُه، فقد كانوا الصحابةَ الذين نقلوا علم[1] النبوة، وشاهدُوا الرسول ﷺ، وعاينوا منازِلَ الوحي، ومداركَ النبوَّة. وقد التقى بصفوتِهم في المدينة، وفي الكوفةِ والبصرة، وقبسَ من علمِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ومن هَدْيِهِ ومِنْ حكمتِه، واهتدى ببلاغتِه، وبإشراقِ بيانِه، فكانَ من بعدِه أبلغَ مَنْ تكلَّـمَ بالحكمةِ وفصْلِ الخطاب.

وأمّا عصرُه، فقد التقى فيه نوعانِ من العلم، أحدُهما: علمُ النبوَّةِ الذي حملَه الذينَ التقى بهم من الصَّحابةِ، كعبدِ الله بنِ عُمَر، وعبدِ الله بنِ مسعود، وعبدِ الله بنِ عباس، وزيدِ بنِ ثابتٍ، ومعاذِ بن جبل، وثانيهما: علومٌ قد تورَّدت على العقلِ العربيِّ من الاختلاطِ بالأُممِ وتراثِ الحضارة القديمةِ والدياناتِ السالفة، وكانَ في هذا يتَّخذُ النوعَ الأولَ من العلمِ سبيلاً لانتقاءِ ما يُؤْخذُ مِنَ الثاني، فما كانَ يأخذُ منه إلّا ما يتّفقُ معَ الهدْيِ الإسلامي، والمأثورِ عن النبيِّ ﷺ، وما أخذَ به السلفُ الصالح رضوانُ الله تبارك وتعالى عليهم.

---

(١) في الأصل: على. والصواب ما أثبتُّه.

في عصرِ الحسن ظهرَ التشيُّع والتفرُّق، ومناهجُ الفقهِ أخذتْ تتميَّـز:

وفي عهدِهِ نبتتْ نابتةُ التفرُّق، وَوُجِدتْ نِـحَلٌ مختلفةٌ بينَ المسلمين، ففي عهدِه ظهرَ التشيُّـع لآلِ عليّ، معتدلاً ومنحرفاً، وفي عهدِه ظهرَ الخوارجُ بعُنفِهم ولَـجَاجتِهم وتشدُّدِهم، وأَخْذِهم بظواهرِ الألفاظ، واندفاعِهم فيما يحسبونَ أنه الاعتقادُ السليم. ثم في العصر الذي عاش فيه أخذتْ المناهجُ الفقهيةُ تتميَّز، فكان فقهُ العراق، وعلى رأسِه عبدُ الله بنُ مسعود، ثم علقمة، وإبراهيم النَخَعيّ، وحمادُ بنُ أبي سليمان، وعلى مائدةِ هؤلاءِ تربّى أبو حنيفةَ النعمان. وفي المدينةِ كان الفقهُ الحجازي، وعلى رأسِه عبدُ الله بنُ عُمر، وسعيدُ بنُ المسيِّب، ونافعٌ مولى عبدِ الله بن عمر، وابنُ شهابٍ الزهريّ، ومن مائدتِهم تغذّى مالك، وهكذا أخذتْ في عصر الحسنِ المدارسُ الفقهيةُ تتبيَّنُ مناهجَها، وكلُّها يلتمسُ ينبوعَه من علمِ الرسول ﷺ وما نقله صحابتُه. والاختلافُ إنَّـما هو في المنهجِ والتخريج.

وقد آتى اللهُ الحسنَ من الصفات، ما جعلته عَـلَماً في عصرِه معَ ما تهيَّأَ من أسبابٍ مكّنَته من أخْذِ العلم من مناهلِه.

أَنَسٌ يحيلُ إلى الـحَسَنِ بعضَ سائليه:

فقد كان ذا ذكاءٍ مُدْرِكٍ عميق، لا يكتفي بالنظرةِ الأولى، بل يُردِّدُها مرتين، ولقد بلغَ في هذا الذِّروة، حتى أنَّ بعضَ شيوخِه من الصحابةِ كان يُحيلُ عليه ما يجيئُه من أسئلةٍ في الدين. سُئل أَنَسٌ ـ مولى رسولِ الله ﷺ الذي عُمّر طويلاً ـ عن مسألة، فقال: سَلُوا مولانا الحسن، فقيلَ له: أتقولُ ذلك؟ فقال: سَلُوا مولانا الحسن، فإنه سمِعَ وسمعْنا، وحفِظَ ونسينا.

وكان مَعَ هذه الذاكرةِ الواعية، غيرَ جامدٍ على فكرِه، بل كان يجتهدُ فيما يعرضُ له من مسائل، وله فكرٌ مستقلّ، استطاعَ أنّ يحتفظَ باستقلالِه مع اتّباعِ علمِ السلف في وسطِ الفِتَنِ التي وقَعَتْ، والنِّحلِ التي ظَهرَت، والآراءِ التي انقسمت.

ما خشي الحسنُ الحجّاجَ طاغيةَ العراق:

وكان شجاعاً في إبداءِ رأيِه، من غيرِ أن يتعرَّضَ لإثارةِ الفتن، وكان ذلك في العصرِ الأمويّ، والحَجّاجُ الذي رضي لنفسِه أَنْ يأخذَ وصفَ قَطافِ الرؤوس، وفي الوقتِ الذي قال فيه حاكمُ المسلمين الذي سمَّى نفسَه خليفةَ الله: «مَنْ قالَ لي: اتَّقِ اللهَ، قطعْتُ عُـنُـقَه»، في هذا الوقت، نطقَ الحسنُ البصريُّ بالحقّ، من غير جَمْجَمةٍ ولا اضطراب. سَأَله الحجاجُ الطاغيةُ قائلاً: ما تقولُ في عليٍّ وعثمان، وهو يريدُ النَّيلَ من عليّ، فأجابه الحسن: أقولُ قولَ مَنْ هو خيرٌ مني عندَ مَنْ هو شرٌّ منك، قال فرعونُ لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [طه: ١٥-٥٢].

الحسنُ يأبى أن يزدلفَ لأمير المؤمنين:

ويُروى أنه في وقتِ خروجِ الخوارج على الخلفاءِ من بني أمية واشتدادِهم عليهم، سأله بعضُ أهل الشام يريدُ إحراجَه، فقال له: «معَ مَنْ نكون، أَمَعَ الخارِجين أمْ معَ أميرِ المؤمنين؟» فأجابه الحسن من غيرِ تردُّدٍ ولا تلكؤ: «لا تكنْ معَ هؤلاءِ ولا معَ هؤلاء»، فقال الرجلُ مُلحّاً في القول: «ولا معَ أميرِ المؤمنين يا أبا سعيد»، فغضِبَ الحسن وخبطَ بيدِهِ، ثم قال: «ولا معَ أميرِ المؤمنين يا أبا سعيد! نعمْ، ولا معَ أميرِ المؤمنين».

الحسنُ يُعرِّضُ بالحجّاج فيستدعيه:

أجاب الحسنُ تلك الإجابةَ في وقتٍ كان يزدلفُ بعضُ العلماء إلى الحكام بإباحةِ دماءِ الأبرياء.

وقد كان يُعرِّض بالحجّاج كثيراً في مواعظِه تعريضاً يَقْرُب من التصريح، ولا يخشى في الله لَوْمةَ لائم، فيقولُ والحجّاجُ يبني مدينةَ واسِط:

«يعمدُ أحدُهم إلى قصرٍ فيشيدُه، وإلى فرشٍ فيُنجِّـدُه، وإلى ملابسَ ومراكبَ فيُحسِّنُها، ثم يحفُّ به ذبابُ طمع، وفراشُ نار، وأصحابُ سَوْء، فيقول: «انظروا ماذا صنعت!!» فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسقَ الفاسقين؟ أمّا أهلُ السماواتِ فقد لعنوك، وأمّا أهلُ الأرضِ فقد مقتوك..».

يقولُ ذلك في موعظةٍ طويلةٍ كلُّها على هذا المنهاج، ويبلغُ ذلك الحجّاج، فيقولُ لحاشيتِه من أهلِ الشام: «أيشتمُني عُبيْدُ البصرةِ وأنتم حضورٌ فلا تُنكرون؟!». ثم يُحضِرُ الحسن، ويقولُ له: «أما لإمرتي عليك حقٌّ حينَ قلتَ ما قلت؟». فيقولُ له الحسن: «يرحمُك اللهُ أيُّها الأمير. إنّ مَنْ خوَّفك حتّى تبلغَ أَمْـنَـك؛ أرفَـقُ بك مِمَّنْ أمَّنك حتى تبلغَ خوْفَك. والأمرُ بيدِك، العفوُ والعقوبة، فافعلِ الأَوْلى بك، وعلى الله نتوكَّل، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل».

ونراه من هذا القول أنه يقْرِنُ الشجاعةَ بالقول الـمُهدِّئ، فهو حكيمٌ في شجاعتِه، كما هو حكيمٌ في قولِه، ولذلك يستحي الحجّاجُ الطاغيةُ من أنْ يُعاقبَه، حتى لا يُقالَ عنه إنه يُؤْثرُ العقابَ على العفو.

الحسن كان زاهداً، وأقبل على الحلال من طيّبات الحياة:

والحسن كان زاهداً في عَرَضِ الدنيا، طالباً للآخِرة، وكان ذا وِجدانٍ قويّ، يُغلِّبُ الخوفَ على الرجاء، يَسْتصغرُ ما يعملُ من حسنات، ويستكثرُ ما يكونُ من هَفَوات، يتعرّفُ عيوبَ نفسِه ولا يُغْضي عنها، ولا يُحصي حَسَناتِه، بل يستقلُّها.

ومعَ زهادتِه، وعفّتِه، لم يكنْ راغباً عن الحلال، لا يبتعدُ عن المباح من اللذائذ، فلا يُحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى، وكان لا يرضى عن عملِ المتقشِّفين الذين لا يتناولونَ الحلالَ تزهُّداً، حضرَ الحسنُ مرةً وليمةً فيها حلواء، فلمّا قُدِّمتْ امتنعَ بعضُ الحاضِرين عنها زهادةً، فقالَ له الحسن: «كُلْ يا لُكَع، فَلَنِعْمةُ الله عليك في الماءِ البارد أعظمُ من نعمتِه عليكَ في الـحَلْواء».

لأنه يرى أنّ الزهدَ ليس هو الامتناعَ عن طيِّباتِ الحياة، كان يرى الاعتدال في كلِّ شيء، فيرى الاعتدالَ في طلبِ الملاذّ، كما يرى الاعتدالَ في العبادة، فيؤدّي الفرائضَ والسُّننَ المكتوبة، وما يستطيعُ من نوافلِ الطاعات. وسأله بعضُ معاصريه عن رجليْن: أحدُهما تفرّغَ للعبادة، والآخرُ اشتغلَ بالسعي على عيالِه، أيُّهما أفضل، فقال الحسن: «ما اعتدلَ الرجلان».

الحسنُ كان يستحسنُ الغناء الذي لم يختلط بإثم:

ولم يكنِ الحسنُ معتزلاً للناس، بل كانَ مختلطاً بهم، يسألونه عن شؤونِهم، وعمّا يجري في جموعِهم، وهو يُجيبُهم، ولا يُحرِّم شيئاً إلّا إذا ثَبَتَ لديه بالدليلِ القاطعِ تحريمُه، ولذا قالوا: «إنه ما كان يُحرِّمُ الغناءَ الذي لمْ يختلطْ بإثم، بل كانَ يستحسنُه

إذا لم يُثِرْ فتنةً في النفس»، وقد قال بعضُ معاصِريه: «أدركتُ ثلاثةً يتساهلون في الغناء: الحسنَ البصريَّ والشعبيَّ والنَّخَعيّ».

وَوَاسى اليهودَ والنَّصارى:

وكان الحسنُ معَ هذه الصِّفاتِ التي رفعَتْه إلى مرتبة الصِّدِّيقين غيرَ مُتعصِّبٍ تعصُّباً يجعله يمْقتُ أهل الدياناتِ الأُخرى، فكانَ يفتحُ صَدْرَه لكلِّ شخص مهما تكنْ ديانتُه، واسْتَوْحَى من حقائقِ الإسلامِ الدعوةَ إلى السلامِ والمحبّـة، ولِذا كانَ يحضرُ دروسَه اليهودُ والنصارى، ويُواسيهم ويُعزّيهم إنْ كان ما يُوجبُ العزاء.

يُروى أنَّ نصرانياً من المتردِّدين على دروسِه قد مات، فذهب إلى أخيه يُعزّيه، وقال له: «أثابَكَ اللهُ على مُصيبتِك ثوابَ مَنْ أُصيبَ بمثلِها من أهلِ دينِك».

ونَراهُ في هذا العَزاءِ السَّمْحِ كانَ لَـبِقاً.

فصاحتُـهُ لفتَتِ السيدةَ عائشةَ أمَّ المؤمنين:

وكانَ الحسنُ فصيحاً في العربية، نشأَ نشأةً عربية، وإنْ كانَ من أصلٍ فارسيّ، قالوا: إنه تفصَّحَ ببوادي القُرى. وقد مارسَ المواعِظ، وعملَ على الدعوةِ إلى الحقّ، حتى آتاهُ اللهُ القولَ المبين، قال فيه الأعمشُ فقيهُ العِراقِ ومحدِّثُه: «ما زالَ الحسنُ يعتني بالحكمةِ حتى نطقَ بها». وقد قال بعضُ معاصريه إذ سمعَه: «لله درُّه، إنه لفصيح إذا لفظ، نصيحٌ إذا وعظ». ولقد كان الحجّاجُ يرى أنه أخطبُ أهلِ البصرة.

وهو في خُطَبِهِ ومواعِظِه، ذو لفظٍ سَهْلٍ مُتخيَّرٍ عَذْب، قد جمَّلتْه معاني الدينِ والوَرَعِ والتُّقى. وقد سمعتْه أمُّ المؤمنين عائشةُ يتكلَّم، فقالتْ: «ومَنْ هذا الذي يتكلَّم بكلامِ الصِّدِّيقين؟!».

قوَّةُ شخصيَّته:

بهذهِ الصفات يُعدُّ الحسنُ البصريّ من أقوى رجالِ الفكرِ الإسلاميّ شخصيةً، وأشدِّهم نفوذاً، أجلَّتْهُ العامّة، ورَفَعتْهُ الخاصّة، وَهَابَهُ الحُكّام، واستحْيا من سَمْتِه القُسَاةُ الطُّغاة.

وكان ذا سَمْتٍ حَسَن، في مظهرِهِ الجسميِّ قوةٌ وجمال، ومعَ ذلك كانَ سيداً في ذاتِ نفسِه، قد استولى على أهوائه فجعلها أَمَةً ذلولاً، فكانَ ذا خُلُقٍ قويّ، لا يطلبُ من الناسِ أمراً إلّا إذا كان هو أسبقَ إلى الأخذِ به.

قيل لبعضِ أصحابِه الملازِمين له: بأيِّ شيءٍ بلغَ الحسنُ فيكم ما بلغ، وكانَ فيكم علماءُ وفقهاء؟ فقال: «كان إذا أمرَ بشيءٍ أعملَ الناسِ له، وإذا نهى عن شيءٍ أَتْركَ الناسِ له، ولم أرَ أحداً قطّ سريرتُه أشبهُ بعلانيتِهِ منه».

ولهذه الشخصيةِ القويَّة، كان له أثرٌ في كلِّ الفرقِ الإسلامية التي ظهرتْ في عصرِه، وكلُّ فرقةٍ تدَّعِي أنه منها، فالمعتزلةُ يدَّعونَ أنه كبيرهم، وأهلُ السنَّةِ يدَّعون أنه منهم، وهو بينَ الفقهاءِ والمُحدِّثين الوعّاظ في الرعيلِ الأول.

علمُه وآراؤه:

كان الحسنُ من أعلمِ السلفِ بسيرةِ النبيِّ ﷺ، وسيرةِ الصحابة، وأخبارِ السابقين، وكانَ من المحدِّثين الذين نقلوا علمَ الرسولِ ﷺ عن طريقِ الصحابة، وكان من الفقهاء المدركين، وكانَ سيِّدَ الوعّاظ، وكانَ من الذين خاضُوا بعضَ الخوضِ في علمِ العقائد الذي كان يبتعدُ عن القولِ فيه الفقهاءُ والمحدِّثون، وهو بمجموعِ هذه

العلومِ كانَ فريداً. ولكنّه في الحديث، لم يبلغْ مبلغَ كِبارِهِ كسعيدِ بنِ الـمُسيَّب، وسعيدِ ابنِ جُبيْر، ونافعٍ مولى عبدِ الله بنِ عُمر، وعكرمةَ مولى عبدِ الله بنِ عبّاس، والأَعمش. ولم يبلغْ في الفقهِ مبلغَ إبراهيمَ النَخَعي، ولا عَلْقمة، ولا ابنِ شهابٍ الزهريّ، وبلغَ في الوعظِ والتأثيرِ في الناسِ ما لم يبلغْ أحدٌ منهم ذلك.

ولذلك لم تُؤثَـرْ عنه مجموعةٌ فقهيّةٌ كالتي أُثِرتْ عن غيرِه، كما لم تُؤْثَرْ مجموعاتُ رواياتٍ من الأحاديثِ كالتي أُثرتْ عن غيرِه من التابعين.

ولكنْ أُثرتْ عنه معَ مواعِظِه آراء في أُصولِ الدين، وهي إن لم تُجمعْ في مكانٍ واحد، تجدْها قائمةً في كلامِه، وإنْ كانتْ منثورةً فيه.

عندَ الحسن: إنّ الإيمان الصادق يدفع إلى العمل:

فهو يرى أنّ الإيمانَ الصادقَ يدفعُ إلى العمل، ويُشبهُ كلامُه في هذا كلامَ سُقراط في قولِـه: «إنَّ المعرفـةَ الصحيحـةَ تدفعُ إلى الأخلاقِ المستقيمة، حتى اعتبـرَ مقياسَ الأخلاقِ الفاضلةِ هو المعرفة، وإنّ ذلك الرأيَ مُنْبَثٌّ في كلامِ الحسن، ومن ذلك قولُه في إجابةِ مَنْ سأله عن الرجلِ يُذنِب، ثم يتوب، ثم يذنبُ ثم يتوب؟ فهو يقولُ: «ما أعرف هذا من أخلاق المؤمنين». ومن ذلك قولُه أيضاً: «إنَّ الرجلَ إذا طلبَ القرآنَ والعلمَ لم يلبثْ أنْ يُرى ذلك في خشوعِه، وزُهدِه، وحكمه، وتواضعِه».

وإذا كان الإيمانُ يستلزمُ العملَ حتماً، فإنّ مرتكبَ الكبيرةِ من الذنوبِ، المصرَّ عليها لا يمكنُ أنْ يكونَ عندَ الحسنِ مؤمناً، إلّا إذا تابَ توبةً نصوحاً، وأخلصَ من بعدِها في العملِ لله تعالى.

مسألة مرتكبِ الكبائر شَغَلتْ أهلَ عصرِ الحسنِ البصريّ:

ومسألةُ مرتكبِ الكبيرة، شغلتْ العصرَ الذي عاشَ فيه الحسن، فمِنْ وقتِ أنْ خرجَ الخوارجُ على الإمامِ عليٍّ بنِ أبي طالب، وكفَّروه، لأنه قَبِلَ التَّحكيمِ بينَه وبينَ مُعاوية، واعتبروا ذلك كبيرةً ـ في زعمِهم ـ تُوجبُ الكفر، تكلَّمتْ في مرتـكِبِ الكبيرةِ كلُّ الفرقِ الإسلامية.

فالخوارجُ ـ كما ترى ـ كفَّروه.

والمعتزلة قالوا: إنه ليسَ بمؤمنٍ ولا بكافر، بل هو في منزلةٍ بينَ الإيمانِ والكفر، ويصِحُّ أنْ يُقالَ عنه: إنه مُسلم، وهو مُـخلَّدٌ في النار إنْ لم يتُبْ توبةً نصوحاً.

والمرجئةُ قالوا: «إنه مؤمنٌ مُقَصِّر»، ولكنْ كان منهم أهلُ البدع الذين قالوا: «إنه لا يضرُّ معَ الكفرِ طاعة»، فهوَ وإنْ كانَ مُقصِّراً فهو غيرُ مُؤَاخَذ، ورحمةُ الله وسِعتْ كلَّ شيء.

ومِنْ أولئكَ المرجئةِ مَنْ لم يقعُوا في بدعة، فإنهم قالوا: «إنْ تابَ توبةً نصوحاً فإنّ اللهَ يقبلُ توبتَه، كما وَعَدَ سبحانَه بذلك، وإن لم يتُبْ فهو في أمرِ الله ومشيئتِه، إنْ شاءَ عذَّبه بما ارتكب، وإن شاءَ غفرَ له، وإنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً إن شاء»، ويُنسبُ ذلك القولُ إلى أبي حنيفةَ النعمان، بل إنه لا يوجدُ في المأثورِ من أقوالِ أئمةِ الفقهِ ما يُعارضُه.

وكان رأيُ الحسنِ غيرَ هذه الآراء جميعاً، فهو يرى أنَّ المذنبَ الذي لا يتوبُ توبةً نصوحاً لا يوجدُ عنده أصلُ الإيمان، بل يعدُّه منافقاً في إعلانِه الإيمان، وهو غيرُ

مؤمن[١]، وهو يقولُ في ذلك: «الناسُ ثلاثة: مؤمنٌ وكافرٌ ومنافق، فأمّا المؤمنُ فقد ألجمَه الخوف، وقوَّمه ذكرُ العَـرْض (أيْ يومَ القيامة)، وأمّا الكافرُ فقد قَمَعه السيف، وشرَّدهُ الخوف، وأمّا المنافق، ففي الـحُجُراتِ والطُّـرُقات، يُسرُّون غيرَ ما يُعلِنون، ويُضْمِرون غيرَ ما يُظْهِرون، فاعتبروا إنكارَهم ربَّهم بأعمالِهم الخبيثة».

ومسألةُ الجبْـرِ والاخْتيارِ شَغَلت عَصْرَ الحسن:

وهناك مسألةٌ أخرى شغلتْ عصرَ الحسن أيضاً، وهي مسألةُ الجبْـرِ والاختيار، فالجهْمُ بنُ صفوان ومَنْ مَعَه، ادَّعوْا أنّ الإنسانَ مُـجْبرٌ غيرُ مخيّر، ولا إرادةَ له فيما يفعل، بل يُنسب الفعلُ له، وهو من الله. والمعتزِلةُ قالوا: إن العبدَ يَخلقُ أفعالَ نفسِه، وهو محاسبٌ بها، وذلك بقوةٍ أودَعَها اللهُ تعالى إيَّاه، وبها كان الحسابُ والثوابُ والعقاب.

والحسنُ قال: «إنَّ الحسناتِ بتوفيقِ الله، والمعاصيَ بعملِ العبد»، وهو يقولُ في ذلك: «كلُّ شيءٍ بقضائِه وقدرِه إلّا المعاصي». ويريد من ذلك أنّ المعاصيَ لا يريدُها اللهُ تعالى[٢].

---

(١) الحسن من رؤوس التابعين، ومن خيار السلف الصالح، ومن رؤوس أهل السنة القائلين بأنَّ مرتكب الكبيرة هو مؤمن عاص، لا يخرج بمعصيته عن الإيمان. ولقد نقل النووي عنه وعن الطبري كما في «شرح مسلم» ١: ٤٣٩ أنهما يُؤَوِّلان حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...»: «معناه: ينزع منه اسم المدح الذي يُسمَّى به أولياء الله المؤمنين، ويستحق اسم الذم فيقال: سارق وزانٍ وفاجر وفاسق..».

فهو يرى أنه يرفع عنه الاسم ذماً له، ولا يرفع المسمَّى، فهو يقول بقوله مؤمناً عاصياً فاسقاً.

(٢) الحسن كغيره من التابعين، يؤمن بالقدر خيره وشره، ولئن نُقل عنه خلاف ذلك، فقد برَّأه العلماء من هذه التُّهمة، سيما وقد نقل عن بعضهم أنه رجع عن ذلك. وينظر: سير أعلام النبلاء ٤: ٥٧٩-٥٨٣، وميزان الاعتدال ١: ٥٢٧.

موقفه من الخروج على الحكام:

والحسنُ كانَ يرى أنّ الخلافةَ انتهتْ بالراشِدين، وأنَّ معاويةَ اغْتَصَبَها، وأنه ليسَ في بني أميَّـةَ عادلٌ إلّا عمرَ بنَ عبدِ العزيز، ومعَ ذلك كانَ لا يدعُو إلى الخروجِ عليهم، ويمنعُ معاونةَ الخارجين، لأنّه يرى أنَّ وجودَ حكومةٍ أوْلى بالاتِّباعِ من الفوضى، لأنّه كانَ يرى أنّ الفتنَ يقعُ فيها من المظالِمِ ما لا يقعُ من حاكمٍ مُسْتبدٍّ في سنين، وكان يرى في هذا أنّ الحكامَ لونٌ من ألوانِ الشعب، فإن استقامَ استقامُوا. وَوَجَدَ قوماً يَدْعون على الحجّاج، فقال: «أخشى إنْ عُزِل الحجاجُ أو مات، تُولَّ عليكم القردةُ والخنازير. «كما تكونون يُولَّـى عليكم».

موقفه من مقتل الحسين:

وكانتْ فيه محبّـةٌ لآلِ عليّ، فإنه عندما بلغَـهُ مَقْتَلُ الحسينِ رضي اللهُ عنه، بكى وانتحب، وقال: واحَسْرَتاه، ماذا لقيتْ هذهِ الأُمَّة، قَتَلَ ابنُ دَعِيِّها ابنَ نَبيِّها، اللهمّ كُنْ له بالمرصاد، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وأخيراً هذه صورةٌ غيرُ واضحةٍ عن الحسنِ البصريّ، سيدِ البصرةِ وواعظِها، وقد استمرَّ يعظُ ويُرشد، أكثرَ من سبعين سنة، إذْ عاشَ نحوَ التسعين، من سنة ٢١ إلى سنة ١١٠، فودَّعتْه البصرةُ كلُّها، وذكرهُ المسلمون أجمعون، فرضيَ اللهُ عنهُ في الصِّدِّيقين.

❊ ❊ ❊

وَاصِلُ بنُ عطاء[١]

(٨٠-١٣١هـ)

رأسُ المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين

كان الحسنُ البصريّ يعقدُ في جامعِ البصرةِ مجلساً للقصَص، ومجلِساً لدراسةِ المسائل التي تشغلُ العصرَ بالنسبةِ للعقيدةِ أوْ بالنسبةِ للأحكامِ العملية، وكانَ مرَّةً يتذاكرُ معَ تلاميذِهِ المقرَّبين إليه، في مسألةٍ شغلتِ العصر، أثارها الخارِجون على الإمام عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهه، وهي اعتبارُ مرتكبِ الكبيرةِ كافراً، وسَرَى الكلامُ فيها من عصرِ عليٍّ إلى العصرِ الأُمويّ، وشغلتِ المفكّرين فيه كما شغلَ الخوارجُ الدولةَ بخروجِهم. وبينَما الحسنُ يذاكِرُ تلاميذَه هذه المسألة، اندفعَ من بينِهم صوتٌ جريءٌ قويّ، وأخذَ يجادلهُ مُدَّعياً أنّ مرتكبَ الكبيرةِ في منزلةٍ بينَ الإيمانِ والكُفر، فلا هو بمؤمنٍ ولا هو بكافِر، إلّا أنْ يتوبَ توبةً نَصُوحاً، فإنه ينتقلُ من هُوّةِ الحيْرةِ المفرِّقةِ بينَ المنزلتيْن إلى منزلةِ أهلِ الإيمان، ذلك التلميذُ الجريءُ الذي علا صوتُه على سيِّدِ علماءِ البصرة هوَ واصلُ بنُ عَطاء.

وَاصِلٌ من أصلٍ غيرِ عربيّ:

وواصلٌ هذا ليسَ من أصلٍ عربيّ، ولكنّه من أصلٍ فارسيّ من جهةِ أبيه ومن جهةِ أمِّه، وقد عقدتْ أسرتُه عَقْدَ ولاءٍ لبني مَخْزُوم من قُريش، وعقدُ الولاءِ كانَ

(١) مجلة العربي: العدد ٦٦، عام ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م.

أمراً سائِغاً من كلِّ فارسيٍّ أو غيرِ عربيّ بشكلٍ عام، يعقدُه غيرُ العربيّ معَ أسرةٍ عربية، فيكونُ كأحدِهم يدفعونَ عنه الدِّيةَ إذا وَجَبَتْ عليهِ دِية، ويرثونه إذا لم يكنْ له وارثٌ من أقاربِه، وكذلك يُسمّىَ غيرُ العرب الموالي، لعقْدِ الكثيرينَ منهم ذلك العَقْد.

وكانتِ السيادةُ العلميّـةُ في هذا العصرِ للمَوالي، ذلك أنَّهم أُبعدوا عن السُّلطانِ والرياسةِ فاستبدلوا برياسةِ الحربِ والولاية، رياسةَ العلمِ والدراية، ذلك أنّهم عكفُوا على الدرسِ والبحث، إذْ رأَوْا فراغاً فأزْجُوه بالدراسةِ والتَّنقيبِ والاطِّلاع والتَّمْحيص، فسدّوا بذلك النقصَ بفقدِ السُّلطان، ونالوا شَرَفَ المعرفة، فالنقصُ قد يُؤدّي إلى الكمال، والحِرمَانُ قد يدفع إلى كُبرى الغايات.

في المدينة:

وقد وُلد واصلُ بنُ عطاءٍ بالمدينة، حيثُ كان يُقيمّ أبواه، وكانتْ ولادتُه سنةَ ٨٠ من الهجرة، حيث كان الحكمُ الإسلاميُّ قد آل إلى عبدِ الملك بن مروانَ وأولادِه وأحفادِه، وكانَ الحجَّاجُ بنُ يوسفَ الثقفيُّ حاكمَ العراق يحكُمُه حُكمَ الطغاة. ويظهرُ أنّ واصلاً استمرَّ بالمدينة، وتربّى تربيةَ أهلِها، فحفِظَ القرآن، وأخذَ من الحديثِ أشْطُرا، ولكنْ لم يتَّجهْ إلى دراسةِ الرواية، بل اتَّجه إلى الدراساتِ العقلية.

في العراق:

ولم تظهرْ عقليتُه مكتملةً إلّا في العراق، واختصَّ البصرةَ بإقامتِه، ولا ندري متى انتقلَ من المدينةِ إلى العراق، وربَّما كان انتقالُه إليه بعدَ أنْ زالتْ يدُ الطغيانِ بموتِ الحجّاج، وذلك تقديرٌ معقول، لأنَّ الحجّاج مات، وَوَاصلٌ لا يزالُ حواليْ سِنِّ

المراهَقَة[١]، وما كان له أنْ ينتقلَ قبلَ هذه السنّ إلا أنْ تكونَ أسرتُه قد انتقلتْ فانتقلَ مَعَها، ولم يُعرفْ ذلك، ولم يعرفْ مُسوِّغٌ ظاهرٌ لانتقالِها، إلّا أنْ يكونَ تثيقفَ ولدِها بثقافةِ أهلِ العراق.

انتقلَ وَاصِلٌ إلى العراق، فالتقى بكُبراءِ الخوارجِ في باديتِه، والتقى بزعماءِ الشيعةِ في ربوعِه، وأخذَ عن بعضِ ذُريّـةِ عليٍّ كرمَ اللهُ وجهَه، فأخذ عن أبي هاشم، عبدِ الله بن محمدِ بنِ الـحَنَفِـيّـةِ، وهو حفيدُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنه من غيرِ فاطمةَ الزهراء، ومحمدُ بنُ الـحَنَفيَّـةِ كانَ غوّاصاً عظيمَ المعرفةِ، أخذ قَبَساً كبيراً من علم أبيه مدينة العلم، فَنَـقَـلَه عنه ولدُه أبو هاشم. ثم أخذَ واصلٌ عنِ الحسنِ البصريّ، وكان يختصُّه الحسنُ بتقريبِه، ويختصُّ هو الحسنَ بتقديرِه، ولما اختلفَ مَـعَـهُ في مسألةِ مُرتكبِ الكبيرة، اعتزلَ مجلسَ الـحَسَن، ولم تنقطعْ مودَّتُه، ولم ينقصْ تقديرُه.

انتقلَ واصلٌ إلى العراق، فأخذَ عَنْ بعضِ قادةِ الفكر، ولكنهُ أَخَـذَ من الجوِّ العلميِّ بمقدارٍ لا يقلُّ عن الذي أخذهُ من الشيوخ، فقد كان العراقُ مُضْطَرَباً فسيحاً للفكرِ المختلفِ الأُكُل. كانَ فيه الفقه، وكانتْ فيه الفَلْسَفة، وكانتْ فيه الفرقُ المختلفة. وكانَ الخوارجُ في باديـتِه، والشيعةُ في داخلِه، وكان فيه العلمُ بكافَّةِ ضروبِه، ففيه علمُ النحو ينشأ وليداً، وروايةُ الشعرِ تنتقلُ على ألسنةِ الرُّواة. وإليه انتقلَ العلمُ اليونانيُّ والحكمةُ الفارسيّـة، كما نرى في كُـتُـبِ ابنِ المقَـفَّع، والتصوُّفِ الهنديّ. وهكذا كانَ العراقُ مُسْتَراداً لكلِّ مَذهَب، وبيئةً خِصْبةً نَـبَـتَتْ فيها كلُّ نِحْـلَة.

---

(١) توفي الحجَّاج بن يوسف الثقفي القائد الداهية السفّاك سنة ٩٥هـ عن ٥٥ سنة. وعمر واصل بن عطاء ١٥ سنة.

أخذ واصلٌ غذاءً عقلياً من كلِّ هذا، ولم يزدَرِدْهُ ازدراداً بل انتقى منه، وعَصَرَ مِـمّـا انتقى مزيجاً، له خاصّةٌ غيرُ خواصِّ أجزائِه، واسْتَساغَـهُ فكانَ هو علمَ واصلِ ابنِ عطاء، هَضَمَ كلَّ ما أَخذ، ودخلَ في كيانِه العقليِّ الذي لم يُفارقِ الإيمانَ والتديُّن.

قوَّة إرادته وسيطرته على نفسه:

ومعَ هذه الآفاقِ الواسعةِ التي عاشَ فيها، والعناصرِ المختلفة، كان يُراقِبُ نفسه، ويُهذِّبُها، ويُـجَنِّـبُها عُيوبَها، ويَدْرأ شرَّها بشِدّةِ المؤاخَذَة والمراقَبة، وكان في ذلك قويَّ الإرادة، مسيطراً على نفسِه، فكانَ لإرادتِه أثرٌ كبيرٌ في حياتِه، وقد ظهرتْ إرادتُه القويةُ في أمريْن:

أحدُهما: أنه كانَ أَلْـثَـغَ بالراء لثغاً فاحشاً، فأخذَ نفسَه بالابتعادِ عن الراءِ في كلامِه، فكانَ يُـجَادِلُ المجادَلاتِ الكثيرةِ، ويخطبُ الخطبَ الطويلة، ولا يسمحُ للراءِ أنْ تجيءَ على لسانِه[1]، وقد نقل الأدبُ العربيُّ عدةَ خُطَبٍ له تبلغُ المرتبةَ الأولى في البَلاغة، ولا تجدُ حَـرْفَ الراءِ فيها، وقد ساعدَه على ذلك بديهةٌ حاضِرة، ولغةٌ فيها المترادفُ الكثير، وعلمٌ بدقائِقِـها، وله في ذلكَ عجائِب. ويقولُ الجاحِظُ في ذلك: «لولا استفاضةُ هذا الخبر، وظهورُ هذه الحال، حتى صار لغَرابتِهِ مثلاً، لما اسْتَجَزْنا الإقرارَ به، والتأكُّدَ له. ولستُ أعني خُطبَه المخْطوطةَ ورسائِلَهُ المخَلَّدَة، لأنَّ ذلك يحتملُ الصَّنْعة، وإنّما عَنيْـتُ مُحاجَّةَ الخُصوم ومُناقَلةَ الأكْفاءِ ومُفاوَضة الإخوان».

---

(١) ومما قيل فيه:

ويجعـل البُـرَّ قمحـاً في تـصرُّفه ... وخالف الراء حتى احتال للشَّعَر
ولم يُطـق مطـراً والقـول يُعجلـه ... فَعَاذَ بالغيث إشـفاقاً مـن المطر

ثانيهما: امتناعُه التامُّ عن الغضبِ في جدلِـهِ الذي كانَ يُدافعُ عَنِ الإسلام. وقد كانَ يَتَواصَى معَ إخوانِه الذينَ يقومون بمثلِ رسالتِه أنْ يمتَنِعُوا عن الغَضَب. رأى صاحبَه عمرَو بنَ عُبَيْدٍ يجادِلُه إنسانٌ فيغْضَب، فقال له: «يا أبا عُثمان، إيَّاكَ وأجوبةَ الغَضَبِ فإنّها مَنْدَمة، والشَّيطانُ يكونُ مَعَها، وله في بضاعتِها هَمْزة، وقد أوجبَ اللهُ تعالى على نبيِّه أنْ يستعيذَ مِنْ هَمزاتِ الشياطين.. بقولِـهِ: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، وقلّما شاهدتُ أحداً تَثَبَّتَ في جوابِه وما ينطقُ بِهِ لسانُه، فيلحقُه لَوْم».

كانَ الـمُجادلَ القويّ:

أعطى اللهُ واصلاً قوةً جَدَليّة لم يكنْ في أهلِ عصرِه مَنْ يزيدُ عليه فيها، وقد كان قديراً في جدلِه إلى درجةٍ تُرْهِبُ خصومَه، ويتحفَّظون في لقائِه، وما كانَ جدلُه إلّا للدفاعِ عنِ الإسلام.

وقد اعتصمَ في جدلِه بثلاثةِ جوانبَ تحمي الحقّ:

أولُ هذهِ الجوانب: أنه كانَ يُحسِنُ الصَّمتَ في موضعِه، والقولَ في موضعِه، فقد كانَ يُطيلُ الصَّمْت. ومَنْ لا يُحسنِ الصَّمتَ لا يُحسنِ الكلام. ولقدْ كانَ في مجلسِ أستاذِه الحسنِ صامتاً، حتى إذا تكلّم كان كلامُه فَصْلاً ونُطْقُه حُكْماً. وكان وهوَ صامِتٌ يتعرَّفُ مَدَى ما عندَ الآخرين من حقٍّ وباطل، فيُحسِنُ الاستماع، كما يُحْسِنُ القول.

والجانب الثاني: مَقْدرةٌ واضِحةٌ على تصريفِ القول، وحِيَلِهِ وضُروبِهِ واتِّجاهاتِه، فلا تعتريه حُبْسةٌ فِكْريَّة، إذا ادْلهمَّ الأمر. التقى مرةً بالخوارج، وقد كانوا يتمسَّكون بآيات ويتعصَّبون في فَهْمِ معانيها ومراميها وغاياتِها، وأحاطوا به وبرفقةٍ مَعَه، فإنْ قالوا لهم: إنّا

مسلمون. لا نذهبُ مذهبَكم قتلوهم، لأنّهم في زعمِهم كافِرون، وإنْ قالُوا لهم: نَحنُ منكُمْ طلبُوا الإثبات. فلمّا رأى واصِلٌ أنّهم قد أُحيطَ بهم قال لرُفقته: «اترُكوني مَعَهم». فلما سألوه مَنْ هُم؟ قال: مشرِكون مِـمَّنْ قال اللهُ فيهم: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، فأجيرونا حتى نسمعَ ما عندَكم، ثم أبلغونا مَأمَنَنـا. وبذلكَ نجَوْا جميعاً، وسارُوا في حراسةِ الخوارجِ حتّى بلغُوا مكانَ الأمْن.

الجانبُ الثالث: بديهةٌ حاضرة، تأتيه أرْسَالُ المعاني في وقتِ الحاجةِ إليْها، فيُحكِمُ المعنى ويُجمِلُ اللفظ في أقلِّ قدرٍ من الزمان، ويقوي ذلك علمٌ غزير، واطِّلاعٌ واسع، وحفظٌ كامل، معَ إدراكٍ سليمٍ لمعاني العقيدة.

ومعَ هذه الجوانبِ التي اعتصمَ بها في جَدَلِه، كانتْ له فِراسةٌ قويَّـةٌ يُدركُ بها أغْوارَ نفْسِ مُجادِلِه، ويدخلُ بها إلى قلبِه، ويستولي على فكرِه.

الزَّهَادةُ وقولُ الحق وقوَّةُ الإيمان:

كانَ واصلٌ مُعرِضاً عن مطامعِ الدنيا، لا يتدلّى لطلبِ عطاء، ولا يَطْمعُ في جاهٍ أو مَنْصبٍ أو ازْدلافٍ للحُكّام. كانتْ له مواردُ تأتيه من تجارةِ الغَزْل، ولذا سُمِّيَ واصلاً الغزّال[1]، ولم ينقطعْ لهذه التجارة، بل أناب عنه مَنْ يقومُ في السُّوق مقامَه، وشأنُه في ذلكَ شأنُ أبي حنيفة، لولا أنَّ أبا حنيفةَ لم ينقَطِع عن السُّوقِ انقطاعاً تامّاً، لأنه يُفيدُه في فقْهِه.

---

(١) وقيل: عُرِف بالغزَّال لتردّاده إلى سُوق الغزل ليتصدَّق على النِّسوة الفقيرات.

وفي الجملة لم يمسَّ واصلٌ مالاً لسلطانٍ أو بغيرِ حِلّ، ولقد قالَ فيه الجاحِظ: «لم يشكَّ أصحابُنا في أنّ واصلاً لم يقبض ديناراً ولا درهماً»، وفي ذلك قال بعضُهم في مرثيَّته:

ولا مسَّ ديناراً ولا مَسَّ دِرْهَماً ... ولا عَرَفَ الثَّوْبَ الذي هوَ قاطِعُهْ

وكان واصلٌ يقولُ في وصفِ المؤمِن: «إذا جاعَ صَبَر، وإذا شَبِع شَكَر». وقد أخَذَ نفسَه بذلك.

ولقد كانَ شديداً في جَنْبِ الله، لا يُمالِئ صَديقاً في دينِ الله، ولا يَتَمَلَّقُ حاكماً في غيرِ مَرْضَاةِ الله. كان صديقاً لبشارِ بنِ بُرد، فلما عرفَ فيه الإلحادَ، قاطعَهُ ونافَرَه، وقال فيه: «إنّ مِنْ أخدَعِ حبائلِ الشيطان، لكلمات لهذا الأعمى الملْحِد».

وكان بَشّارٌ يمدحُه، ويقولُ فيه:

تَكَلَّفَ القَوْلَ والأقْوامُ قد ... حَبَّروا خُطَباً ناهِيكَ مِنْ خُطَبِ
وقالَ مُرْتَجِلاً تَغْلي بَديهتُهُ ... كَمِرْجَلِ القَيْنِ لما حُفَّ باللهبِ
وَجَانبَ الراءَ لم يَشْعُرْ بهِ أَحَدٌ ... قبلَ التَّصفُّحِ والإغراقِ في الطلبِ

فلمّا قاطَعَه واصلٌ في سبيلِ الله انقلبَ إلى هجائِه.

أجوبته المُسَدَّدة القويَّة:

كان واصلٌ ـ كما أسْلَفْنا من القول ـ ذا قوَّةٍ جَدَليَّة، جامعاً لكلِّ الصفاتِ التي تجعلُ منه خَصْماً قوياً إذا جادل. وكان ذا أجوبةٍ مُسَدَّدة قويّة، وقد جعل ذلكَ في أمرَيْن:

أحدُهما: في الدفاعِ عن الإسلام، وثانيهما: في الدفاعِ عن آرائِه.

أمّا دفاعُه عن الإسلام. فقد بدا في مناظرتِه لأهلِ النِّحَل المختلفةِ والزنادقةِ وغيرِهم ممَّنْ يُهاجِمونَ الحقائِقَ الإسلاميّـة، وكان علياً بمذاهبِ أولئكَ المنحرِفين، وله تفكيرٌ يسُدُّ عليهم الـمَسَالكَ التي يعرفُ أنهم سالِكوها، ويُرسلُ إليهم في مواطِنِهم ويَمُدُّ رُسُلَهُ بالـحُجَجِ إنْ أعْوَزَتْهم، ويَتَتَبَّعُ أخبارَهم، ويَتَّصِلُ بهم اتِّصالاً فكرياً مُستمراً، ولقد أسلمَ أو تاب على يدِه وأيديهم كثيرون.

وقد كان يُـقَيِّدُ مُناظراتِه ورُدُودَهُ ويرسِلُها ليسْتَأْنِسوا بها في مناظراتِهم.

وأمّا دفاعُه عن آرائِه، فقد كان يُفكِّر دائماً ما ينازلُه به مُخالفُه، وما يقطعُ به السبيلَ على حُجَجِه. وكان يتلمَّسُ حُجَجَه من القرآن دائماً، لأنه لا يعتمدُ في العقائدِ إلّا على القرآنِ الكريم، وكان لا يعتمدُ على السُّنةِ في الاستدلالِ للعقائد، لأن كلَّها أو جُلَّها ليستْ أخباراً متواترة، والأخبارُ غيرُ المتواتِرة لا تَثْبُتُ بها العقائِد، وكان يُفكِّر في حُجَجِه من القرآن، وهو يُصلّي. ولقد قالتِ امرأتُهُ في بعضِ حالِه: «كانَ واصلٌ إذا جنَّه الليل، صفَّ قدمَيْه يُصلّي، ولوحٌ ودواةٌ موضوعان، فإذا مرَّتْ به آيةٌ فيها حُجّة على مخالفٍ جَلَسَ فكتبَها، ثم عاد في صَلَواتِه».

مدرسةُ واصل:

كان لواصلٍ مدرسةٌ في العقائد، اخْتُصَّتْ بآراءٍ حولَ العقيدة، وناظَرَتْ مدافِعةً عنها، وتُسمّى هذه المدرسةُ «المعتزلة»، وتُسمّي نَفْسَها أهلَ العدل[١].

---

(١) قال الحافظ الذهبي في «السير» ٥: ٤٦٤: «وهو وعمرو بن عُبيد رأسا الاعتزال، طرده الحسنُ عن مجلسه لما قال: الفاسق لا مؤمن ولا كافر، فانضمَّ إليه عمرو، واعتزلا حلقة الحسن، فسُمُّوا المعتزلة».

وأشهرُ الآراءِ التي كان يُدافِعُ عنها واصل، واعتنقَتْها مدرستُه هي:

أ ـ أنّه يرى أنّ مرتكبَ الكبيرةِ ليسَ مؤمناً ولا كافراً، ويصحُّ أنْ يُسمّى مُسلماً، وهو مُخَلَّدٌ في النارِ إذا ماتَ مِنْ غيرِ أنْ يتوبَ ويُقْلِعَ عن ذنبِه، وذلك لأنّه رأى أن عباراتِ القرآنِ في وَصْفِ المؤمنين لا تنطبقُ على الفاسِقين الـمُصِرِّين على فسقِهِمْ، وأنّ أوصافَ الكافرين التي ذُكِرَتْ في القرآنِ وأحكامَهم لا تنطبقُ على هؤلاءِ الفاسِقين، وإذنْ لا يمكنُ ـ بحكمِ القرآنِ ـ أنْ يكونَ أحدُهم مؤمناً، إذْ لا تنطبقُ عليه أوْصَافُه، ولا كافراً إذْ لا تنطبقُ أوْصَافُه، ومُعَامَلتُه، فلم يَبْـقَ إلّا أنْ يكونَ بينهما، وأنَّ الجنةَ لا يستحقُّها، فلا يمكنُ إلّا أنْ يكونَ في النار.

ب ـ وأنه يرى أنّ الصفاتِ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ مقرونةٌ بالذاتِ العليّةِ، كالسميعِ والبصيرِ والقادرِ والمريدِ والعليم، ليستْ أشياءَ مُغايرةً للذات، بحيثُ تُتصوّرُ غيرَ مُـتَّصلةٍ بالذاتِ العليَّـة، أو تُـتَصوّرُ الذاتُ العليَّـةُ من غيرِها، بل هي والذاتُ شيءٌ واحد، وهي أسماءٌ لله تعالى، وله سبحانَه الأسماءُ الـحُسْنى.

جـ ـ وكان يرى أنّ أفعالَ الإنسانِ التي يُثابُ عليها بقُوَّةٍ أودعَها اللهُ تعالى فيها، وأنه مختارٌ فيما يفعل، وفعلَه مَنْسُوبٌ إليه لا إلى الله تعالى، فلا جَبْر، بل اختيارٌ كامل.

د ـ ويرى أنّ الأمرَ مُلازِمٌ للإرادة، فلا يُريدُ اللهُ سبحانَه وتعالى أمراً ينهى عنه، ولا ينهى عن أمرٍ أراده. فالمعاصي لا تكونُ بإرادةِ الله تعالى، لأنَّه نَهى عنها، ولا تكونُ الطاعاتُ إلا موافِقةً لإرادةِ الله.

هذه آراءُ واصلٍ التي دافعَ عنها، وسواءٌ أكانتْ حقاً أم كانتْ باطِلة، فهي تدلُّ على عقلٍ مُدْرِكٍ[١] مُسْتقل، لا يتَّبعُ غيرَه، ولا يُقلِّدُ أحداً، فهو شخصيَّـةٌ مستقلةٌ تتلقّى المعلوماتِ من نواحيها المختلفة، وتُخرجُها بعدَ تمثيلِها في نفسِه غذاءً فكرياً جديداً، يتبعُه الناسُ فيه، وهيَ في جملتِها آراءٌ لا تُخرجُ صاحبَها عن الإسلام، بل في بعضِها تَنْزيهٌ واضحٌ للذاتِ العليّـة.

وبهذه الشخصيَّـةِ المستقلةِ وُضِعَ في صَرْحِ العلماءِ الممتازين، وكان من رُوَّادِ الفكرِ الإسلاميّ، فرضي اللهُ عنه وعفا عنه.

* * *

(١) في الأصل: يدرك.

أبو الحسن الأشعري[١]

(٢٦٠-٣٢٤هـ)

اتَّسعتْ فُرْجةُ الخلافِ في الفكرِ الإسلاميِّ بينَ الفقهاءِ والمحدِّثين وبينَ المعتزلة، الذينَ كوَّن واصلُ بنُ عطاءٍ مدرستَهم، وكانوا يُفكِّرون في فهمِ العقيدةِ تفكيراً فلسفياً، ولا يعتمدونَ في أصولِ الاعتقادِ إلّا على القرآنِ لا يَعْدُونه، ويُؤوِّلون بعضَ ألفاظِهِ على مُقْتضى العقل، ويُجادِلون في الإسلامِ بحُكمِ المنطق، ويدفعونَ انحرافَ المنحَرِفين بالبُرهان العقليّ ولا يعتمدونَ على شيءٍ سواه، واستمكَنَ سُلطانُهم في عهد المأمونِ والمعتصم والواثق، وكانَ منهم كبارُ القائمين بأعمالِ الدولة، وشاعَتْ عنهمْ فكرةُ القولِ بخلقِ القرآن، وتكفيرِ مَنْ لم يقُلْها، وعُزلِ القُضاة والـمُفْتون الذين لا يقولونها، واضْطُهِدَ الفقهاء والـمُحدِّثون الذين لا يُردِّدونها، ويستجيبون لدعاتِها، ونزلَ الأَذى بإمامِ السنّة أحمدَ بنِ حنبل رضي اللهُ عنه.

دولةُ المعتزلةِ أدالَها المتوكِّل، ولكنْ بقيَ الاعتزالُ في الناسِ جدلاً:

وجاءَ المتوكِّلُ بعدَ الواثِق، فأدالَ من دولةِ الاعتزالِ، وأنزلَهم من عَليائِهم، وأَدنىْ إليه الفقهاءَ والمحدِّثين، وكان هؤلاءِ يُفكِّرون في العقيدةِ بغيرِ منهاجِ المعتزلة، فيعتمدون في تعرُّفِها على كتابِ الله تعالى، يأخذونَ بظواهِرِه من غيرِ تأويل، ويعتمدون على السُّنَّـةِ،

---

(١) مجلة العربي: العدد ٦٤، عام ١٣٨٢هـ = ١٩٦٤م.

فما صحَّ منها من أخبارٍ في العقائِد، سواءٌ أكان متواتراً أو كانَ آحاداً، فهم يقولون: إنّ اللهَ يرى يومَ القيامة، ولا يُؤوِّلون آياتِ الرؤية، ومنهم مَنْ يقول: إنَّ لله يداً، لأنّ النصَّ القرآنيَّ يقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠]. وهكذا يأخذونُ بالنصّ، ولا يُحكِمون فيه العقل، ولكنَّهم يقرِّرُون التَّنزيهَ لله عن مُشابهةِ الحوادثِ والمخلوقات. ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ولا يستطيعونَ مجادلةَ الخصومِ إلّا بنصوصِ القرآن، ولا يسلُكون مسلكَ العقلِ في الاستدلال، لأنَّ المنطقَ نَـزْعةٌ فلسفيةٌ لا يريدونَها، ولا يرتضونَها، وبذلك لا يستطيعونَ الدفاعَ عن الإسلام ضدَّ المنحرِفين والمخالِفين لأن عُدَّتهم النُّصوص، وهي لا تَروجُ إلّا عندَ مَنْ يؤمِنُ بها ابتِداء، ولا بُـدَّ قبلَ الإيمان من حُكمِ العقل.

وإذا كان المعتزلةُ قد خلتْ منهم دُورُ الـحُكْم بعدَ الواثق فلم يَـخْلُ دُورُ العقل، فإذا عَدِموا نُصرةَ السلطان، فإنّهم لم يعدموا نُصرةَ البُرهان، ولم يَـكُنِ الفقهاءُ والمحدِّثون بقادِرين عليهم ما داموا ينهجون من النُّصوصِ منهاجَ العقل.

أبو الحسنِ الأشعَريّ، وأبو منصور الماتُريديّ، توسَّطا بين أهلِ السنة وأهلِ الاعتزال:

كان لا بُدَّ بحكم المنطقِ من وجودِ ناسٍ يَتَوسَّطون بينَ الفريقَيْن، ويخرجون بمنهاجٍ بينَ المنهاجَيْن، وقد وُجِدَ أولئك، ولكنْ في نطاقٍ ضيِّق، حتى كان الإمامان أبو الحسَنِ الأشْعَريّ وأبو منصُورِ الماتريديّ. فقد ظهرَ الأولُ في العراق، وكانَ شافعيّـاً، وظهرَ الثاني في سمرقَنْد، وكان حنفيّـاً.

نَشْأةُ أبي الحسَنِ الأشعَريّ:

وُلِدَ أبو الحسنِ [علي بن إسماعيل بن إسحاق] الأشعريّ، من أسرةٍ عربيةٍ تنتمي إلى الأشاعِـرَةِ الكرامِ الذينَ مَدَحَهم النَّبيُّ ﷺ لفضْلِ مُعاونتِهم في يُسْرِهم وعُسرِهم(١).

وتربّى بالبصرة في حضانةِ أسرةٍ عربيةٍ توارثَ عنها العَزْمَةَ القويّة، والإرادةَ الماضية، وكانتِ البصرةُ موطنَ الاعتزال، وموطنَ فرقِ الشيعة، والمكانَ الذي التقى فيه العقلُ العربيّ، بالعلمِ الهنديِّ واليونانيّ. وهي كما تطلُّ على الباديةِ العريقةِ بصفائِها، وتحتضنُها الحضارةُ بروائِها، قد التقى فيها أيضاً العلمُ العميق، والصَّفاءُ الذهنيّ، فالتقى علمُ الإسلام النَّقيُّ الصَّافي، بالفلسفاتِ المختَلِفة، والآراءِ المتباينة، والأهواءِ والانحرافات.

درس في نشأتِه علومَ الإسلام الأُولى. حفِظَ القرآنَ وطائفةً من الأَحاديث، ومقداراً من الأَحكامِ الفقهيَّة يتعرَّفُ منها أَوامرَ دينِه، وكانَ من الممكنِ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ الفقهاء والمحدِّثين، ولكنْ كان علمُ هؤلاءِ علمَ روايةٍ وتفريعِ الأَحكام، وتخريجِها على أصولِها من الكتابِ أو السنةِ أو القياسِ الفقهيّ، بإلحاقِ أَمرٍ غيرِ منصوصٍ على حكمِه بأمرٍ آخرَ منصوصٍ، لاشتراكِهما في الوصفِ الذي يُـعَدُّ عِلَّـةً للحكم.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (٤٥٥٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحد بالسويَّة، فهم منّي وأنا منهم».

أبو الحسن يَـتَـتَلْمَذُ للجُبّـائيّ شيخِ المعتزلة:

وكان في نفسِه نُزوعٌ إلى الدراساتِ العقليَّـةِ في ظلِّ المبادئ الإسلامية، ولم يجدْ هذا إلّا عندَ المعتزِلة، فقد كانوا يدرسون العقائدَ الإسلاميّة، ويؤيِّدونها بالبرهانِ العقليّ، ويؤوِّلون كلَّ ما جاء في القرآنِ على مقتضى حكمِ العقلِ القطعيّ، إنْ خالفَه ظاهرُ القرآنِ في بعضِ آياتِه.

تتلمذَ إذنْ أبو الحسنِ لشيخٍ من شيوخِ المعتزلة، وكانَ إمامَهم بالبصرة في عصرِه، هو أبو عليٍّ الـجُبَّائي، فلازمَ درسَه، ولكنّه لم يكنْ تلميذاً كبقيةِ التلاميذ يتَّبِعونَ شيخَهم فيما ينتهي إليْه، أو على الأقلِّ يُرجِّحون بالنسبةِ لأساتذتِهم الاتِّباع، دونَ الابتِداع، بل كانَ ذلك التلميذُ النابه، يناقِشُ شيخَه في كلِّ ما يعرِضُ من مسائِل. وأحياناً تنتهي مناقشةُ التلميذِ للشيخِ بإسكاتِه وحيرتِه في الجواب.

التلميذُ أبو الحسن يُنَاقِشُ شيخَه:

ولنقُصَّ بعضَ القَصَصِ عن مُذاكرةِ التلميذِ لشيخِه. كان الجبَّائيُّ ككُلِّ المعتزلةِ يَـرَوْن أنّ اللهَ تعالى لا يُمكنُ أنْ يكونَ منه إلّا الأصلح الذي تُدركُه عقولُنا، فهم يحكمونَ بعقولِهِم على الأشياءِ بالـحُسْنِ أو القُبح، ثم يوجبون أنْ يفعلَ اللهُ ما يرونه هم أصلح. ولكنّ التلميذَ لم يهضمْ هذا، كيف نقرر نحن الأمر؟ ثم نقرر أنه يلزمُ أنْ يقع. فثارتْ بينَهما المناقشةُ الآتية:

قال التلميذ: «ما قولُك في ثلاثة: مؤمنٍ وكافرٍ وصبيّ. فما اللهُ تعالى صانعٌ بِهم؟ ويكونُ فيه الأصلحُ لهم؟».

قال الشيخ: «المؤمنُ أهلُ الدرجات، والكافرُ من أهلِ الدَّرَكات، والصبيُّ من أهلِ النَّجاة».

قال التلميذ: «فإن أرادَ الصبيّ، بعدَ موتِه صبيّـاً، أن يكونَ من أهلِ الدرجات هل يمكن؟».

قال الشيخ: «لا، بل يُقالُ له: إنَّ المؤمنَ إنّما نالَ هذه الدرجة بالطاعة وليسَ لك مثلُها».

قال التلميذ: «فإن قالَ الصبيّ: التقصيرُ ليسَ منّي، فلو أحييْتني كنتَ عملتَ الطاعاتِ كعملِ الـمُؤمِن».

قال الشيخ: يقولُ اللهُ تعالى: كنتُ أعلمُ أنّك لو بقيتَ لعصيتَ وعُوقبْت، فراعَيْتُ مَصْلَحتَك وأمَتُّك قبلَ أَنْ تنتهيَ إلى سنِّ التكليف.

قال التلميذ: «فلو قال الكافر: علمتَ حالي كما علمتَ حالَـه، فهلّا راعيْتَ مصلحتي مثلَه»، فَسَكتَ الشيخ.

وإنَّ هذه المناقشةَ تنتهي بلا ريبٍ إلى أنّ المصلحةَ التي تلزمُ مراعاتُها في جانبِ الله تعالى ليستْ هي المصلحةُ التي نُقدِّرُها بعقولنا، وإنما تكونُ هذه المصلحة بتقديرِ الله العزيزِ العليمِ الذي لا يخفى عليه شيْءٌ في السماءِ ولا في الأرض.

الأشعَريُّ لم يستغرقْ الاعتزالُ عقلَه:

وإنَّ الذي يمكنُ أَنْ يُـقدَّرَ في حياةِ الأشعَريّ، وهو يعيشُ في ظلِّ المعتزلة، ويرضعُ من أفاويقِهم، أنه كان لا يستغرقُ الاعتزالُ عقلَه، بل إنه يُـفكِّرُ التفكيرَ المستَـقِلّ، والتفكيرُ الحرُّ يجعلُه ينقّب عن الآراءِ أنى تكون، وعن الأفكار حيثُما تكون. وكذلك لم تقطعْه دراسةُ الاعتزال عن دراسةِ آراءِ الفقهاءِ والمحدِّثين في العقائد، وقد كان يدرسُها بعينِ عاطفةٍ مُقرِّبة، لا بعينِ ساخطةٍ مُبعِّدة.

وكان كلَّما تقدَّمتْ به السنّ، أو كلَّما نضجَ فكرُه يستنكرُ من آراءِ المعتزلةِ شيئاً، حتى إذا وصل إلى الأربعين وبلغَ أشُدَّه، وهي السنُّ التي يكتملُ فيها العقلُ والجسم، وجدَ نفسَه بعيداً عن الاعتزالِ بقلبِه وعقلِه.

وقد أخذَ من بعدِ ذلك يُراجحُ بينَ ما يعتنقُه المعتزلة، وبينَ ما يعتنقُه الفقهاءُ والمحدِّثون، معتمدين فيه على حكم المنقولِ من القرآنِ وعن الرسول ﷺ، وعكفَ زمناً يوازنُ بين ما في كلٍّ منهما من حقّ، وانقدحَ بعدَ الموازنةِ رأيٌ قرَّرَ فيه أنّ الاحتياطَ في الاعتقادِ ما يدعو إليه الفقهاءُ والمحدِّثون، ولكنْ ينقصُهم الاعتمادُ على العقلِ في تقريرِ ما يُقَرِّرون، فإنه لا بُدَّ لبيانِ الحقِّ من نصٍّ يُثَبِّتُه، وبرهانٍ عقليٍّ يُقَرِّبُه ويُؤيِّدُه، ولا بُدَّ للدفاع عنه من مَنْطقٍ عقليٍّ يُسَدِّدُ السِّهامَ إلى الخصوم[1].

وعلى أيِّ حال قد فارقَ الاعتزال، وإن لم يَنْضَوِ تماماً تحتَ سلطانِ الفقهاءِ والمحدِّثين.

«مَنْ عَرَفَني فقد عَرَفَني»:

بعد أن انتهى إلى هجرِ آراءِ المعتزلة، وإنْ لم يهجرْ منهاجَهم في الاستدلال، ذهب إلى المسجدِ الجامعِ في البصرة، ورَقِيَ المنبر، ثم قال:

«أيُّها الناس، مَنْ عرفَني فقد عرفَني، ومنْ لم يعرفني أنا أُعرِّفُه بنفسي. أنا فلانُ بنُ فلان. كنتُ أقولُ بخلق القرآن، وإنّ اللهَ تعالى لا يُرى بالأبصار، وإنّ أفعالَ الشرّ أنا أَفعلُها، وأنا تائبٌ مُقْلِعٌ، مُتَصَدٍّ للردِّ على المعتزلة، مُخْرِجٌ لفضائِحِهم.

---

(١) في الأصل: الخصوص.

«معاشرَ الناس:

إنّما تَغَيَّبْتُ عنكم هذه المدّةَ لأَني نظرتُ فتكافأتْ عندي الأدلّة، ولم يترجَّحْ عندي شيْءٌ على شيْء، فاستهديْتُ اللهَ تعالى، فهداني إلى اعتقاد ما أوْدعته كتبي هذه، وانخلعْـتُ من جميعِ ما كنتُ أعتقد، كما انخلعتُ من ثوبي هذا».

وانخلعَ من ثوبٍ كانَ عليه، ودفعَ إلى الناسِ كتبَه.

ولا شك أنّ هذا التَّحوُّلَ قد أضافَ إلى الفقهاءِ والمحدِّثين ناصراً قوياً، ورجلاً مَـهَـرَ في الكلام، وفي الاستدلال. وإنَّ ما كتبهُ ابتداءً من بعدِ ذلك يدلُّ على أنّه كان مُتأثراً بالإمام أحمدَ بنِ حنبل، وموقفِه من المعتزِلة، وقد كانتْ حياتُه وأصْداءُ مواقفِ الإمامِ أحمد لا تزالُ تُردَّد في التاريخ، حيثُ لقي الأشعريُّ مَنْ لقوه، فقد كانت وفاةُ الإمامِ أحمدَ سنةَ ٢٤١هـ، وحياةُ الأشعَرِي كانتْ ما بينَ ٢٦٠-٣٢٤هـ، فهو يقول في مقدمةِ كتابِه «الإبانة»:

«ديانتُنا التي ندينُ بها: التمسُّكُ بكتابِ الله وسنةِ نبيّه ﷺ، وما رُوي عن الصحابةِ والتابعين، وبِما كان عليه أحمدُ بنُ حنبل، نَـضَّـرَ اللهُ وجهَه، ورفعَ درجتَه، وأجْزلَ مثوبتَه، ونحنُ عمَّنْ خَالَفَ قولَـه مُجانِبون، لأنه الإمامُ الفاضل، والرئيسُ الكاملُ الذي أبانَ اللهُ به الحقَّ عندَ ظهورِ الضَّلال، وأوْضَحَ به المنهاج، وقمعَ به المبتدِعين وزَيْغَ الزائِغين، وشَكَّ الشاكّين، فرحِمَه اللهُ تعالى من إمامٍ مُقدَّم، وكبيرٍ مُـفَهَّـم، ورحمتُه على جميعِ أئمةِ المسلمين».

آراؤه:

وقـد شرحَ خلاصةَ آرائِـه عنـدَ انتقالِـه ابتـداءً شرحاً مُحكَماً في مقدِّمة كتابه «الإبانة». وخلاصةُ آرائِه في هذا الكتاب:

أ ـ أنه يرى أنّ بعضَ الصَّالحين تكونُ له آية، أي علامةٌ تدلُّ على مكانتِه عندَ الله، وهو ما يُسمّى كرامةَ الأولياء، وقد أنكرَ المعتزلةُ ذلك، وخصَّها الشيعةُ بأئمّتِهم، فقد قالوا: إنّ المعجزاتِ تجري على أيديهم كما تجري على الأنبياء، بَيْدَ أنهم لا يُـنزَّلُ عليهم الوحي.

وإنَّ الصوفيةَ يروْنَ إثباتَ الكرامةِ للصَّالحين، بَيْدَ أنّ المخلصينَ المحقِّقين منهم يطلُبون الاستقامة، بأنْ يسيروا على ما أَمر به الشارعُ سَيْراً مستقيماً، ولا يطلبونَ الكرامة، ويقولُ قائلُـهُم في دعائِه: اللهمَّ هَبْنا الاستقامةَ بدلَ الكرامة، لأنَّ الكرامةَ تستحقُّ من العبدِ الشُّكر، والاستقامةَ يرجو بها العبدُ الأجر.

ب ـ ويرى أنَّ كلَّ ما جاءتْ به السنة ـ سواءٌ أكانتْ أحاديثَ متواترة أم كانتْ غيرَ متواتِرة ـ حُجَّةٌ تثبتُ به العقائِد، فعذابُ القبرِ يجبُ اعتقادُه، وغيرُ ذلك من الأمورِ التي جاءتْ بها السُّنَّة، لأنّه ما دامت صحَّةُ الحديثِ قد ثبتتْ بالطرقِ التي يلتزمُها المحدِّثون في الروايةِ فهو حُجّةٌ في العملِ والاعتقاد، إذ لا فرقَ بينَهما في الإثبات. ولا معنى لأنْ نعملَ بالحديث، وننكرَ الأخذَ بمثلِه في الاعتقاد.

ولكن هل يكفرُ مَنْ لا يأخذُ بأحاديثِ الآحاد؟

جـ ـ يظهرُ أنّ الأَشْعَرِيّ، وهو شافعيُّ المذهبِ لا يُـكَفِّرُه، لأنَّ الإمامَ الشافعيَّ يُـقَرِّرُ في الرسالةِ أنّ العلمَ قسمان: علمٌ يثبتُ في الظاهرِ والباطن، وهو العلمُ الذي يكونُ طريقُه قطعيـاً، فهو يلزمُ في الاعتقادِ والعمل، وعلمٌ يثبتُ في الظاهرِ دونَ الباطنِ، وهو ما يكونُ دليلُه ظنيـاً، فهو يلزمُ في العملِ الظاهر، دونَ الاعتقاد، ويُعدُّ من هذا القسم ما يكونُ طريقُه خبرَ الآحاد.

فإذا كان الأشْعَريُّ أوْجَبَ الاعتقادَ بحديثِ الآحاد، فهو لا يُكفِّرُ مَـنْ لا يعتقدُ بما جاءَ فيه.

د ـ والأشعريُّ يأخذُ بظواهرِ النصوص، فيعتقدُ رؤيةَ الله يومَ القيامة، وكان يرى أولاً أنّ لله وجهاً ليسَ مثلَ وجوهِنا، ويداً ليستْ كأيدينا، وأنّ هذا هو منهاجُ أحمدَ بنِ حنبل الذي اختارَه في هذا الباب إماماً له أولاً.

هـ ـ وأبو الحسنِ الأشْعَرِيّ يرى أنَّ الأَشياء ليسَ لها قبحٌ ذاتيّ، ولا حُسْنٌ ذاتيّ، إنّما التَّحسينُ والتَّقبيحُ من عملِ الشَّارعِ وحدَه.

وسنجد أَن كثيرين من السُّنِّين يخالِفونه في الأَمريْن الأَخيريْن، وقد رجعَ عن أوَّلِهما.

و ـ وهو يرى أنّ مرتكبَ الكبيرةِ ليس مُـخَلَّداً في النار، ولكنْ يُعاقَبُ بمقدارِ ما أذنب، إلّا أنْ يتغمَّدُه اللهُ برحمتِه فيغفِرُ له أو يعفو، لحسَناتٍ قامَ بها، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وإنْ عاقبَ فبالعدل، وإن عفا فبالرحمة.

الأشعَريّ أخذَ من المعتزلةِ مناهجَهم في الـجَـدَل:

والأشعريُّ معَ أنه يأخذُ بالنَّقل، متواترِه وغيرِ متواترِه، قد أخذ من المعتزلةِ منهاجَهم في الجدلِ ومدافعةِ المهاجمين للإسلام، يأخذُهم بالمنطقِ والبُرهان، وهو بهذا يتَّخِذُ العقل خادماً للنصوص، ولا يجعلُ النصوصَ محكومةً بالعقل، فهي فوقَ العقل، والعقلُ أداةُ تقريبِها والدفاعِ عنها.

وقد تصدّى للمُجَادلةِ في ميدانيْن، أحدُهما: داخليّ، وهو الردُّ على المعتزلة، وكانَ يلحَنُ بمثلِ حُجَّتِهم، ويتّبعُ طريقَهم في الاستدلال، فيُحاربُهم بمثلِ أسلحتِهم، ولا يقفُ عندَ النُّصوص في الدفاع، بل يُقلِّبُ القولَ ويُصرِّفه دفاعاً عن النصوص.

أمّا الميدانُ الثاني ـ الخارِجيّ: فقد تصدّى، للردِّ على الفلاسِفة والباطِنيّة من الشيعةِ الذين كانوا يثيرونَ ما يُوهِّنُ العقائدَ الإسلامية، والقرامطةِ الذين قَوِيَ أمرُهم، وسال سَيْلُهم في آخِرِ القرنِ الثالث، وأوَّلِ القرنِ الرابعِ الهجريّ، وغيرِهِم ممَّنْ لا يُفحمُه إلّا الأقيسةُ المنطقيّة، ولا يقطعُه إلا دليلُ العقل.

وفي الحقّ، إنه قد ضَعُفَ شأنُ المعتزلةِ في النصفِ الثاني من القرنِ الثالث، وما وَلِيَهُ، وقد كانَ لهم بلاءٌ حَسَنٌ في الدفاعِ عن الإسلامِ ضدَّ الذين يهاجمونه، ويُشكِّكونَ الناسَ في حقائقِه، ولكنّ الميدانَ لم يَخْلُ، فقد حمَلَ الأشعريُّ في العراق ومَنْ جاءَ بعدَه لواءَ الدفاعِ عن الإسلام. وحقُّ القول: إنه كلّما أَفَلَ للإسلامِ نجمٌ بزغَ له نجمٌ آخر.

كتبُ أبي الحسنِ الأشعَريّ:

والأشعريُّ قد أُوتيَ صفاتٍ جَعَلتْه في الذِّروةِ من المدافعين، فهوَ مُخْلِصٌ ذو همّة، وهو قويُّ البيانِ بالقلمِ واللسان، فكُتُبُه التي كَتبَها بعدَ تركِ الاعتزالِ وقبلَه تَتَّسمُ بالعبارةِ والأسلوبِ البليغِ المُحْكَم، وتفيضُ بقوَّةِ الإيمان بِما يقول.

وله كُتبٌ أَلَّفها في الاعتزال، وأُخرى بعدَهُ، وكلا النَّوعَيْن يدلُّ على الإحاطةِ الكاملةِ والعُمْقِ في التفكير. ومن كتبِ التي كتبهَا قبلَ أنْ يتركَ المعتزلة كتابُه «مقالات الإسلاميين»، وعباراتُه بيِّنةٌ واضِحة، وأحسبُ أنه أجمعُ كتابٍ للفرقِ الإسلامية التي ظهرتْ إلى القرنِ الثالثِ الهِجْريّ.

وله كتبٌ بعدَ تركِ الاعتزالِ منها كتاب «الإبانة»، ولعلّه أول كتاب كتبه بعد الانتقال إلى معسكر الفقهاء والمحدِّثين، فإنَّ التأثُّر بهم واضح، الشأن فيمَنْ ينتقلُ من مَيْدانٍ إلى مَيْدان، متأثِّراً بالمنهاجِ الذي انتقلَ إليه، فإنّ دَفْعةَ الانتقالِ تكون قويةً.

ولكنْ بعدَ أنْ يستقرَّ في الميدانِ يُفكِّرُ في الجوِّ الذي انتقل إليه تفكيرُه المستقلّ الذي تَغَذَّى بمادةٍ لا يجدُها في المكانِ الذي أوى إليه.

ولذا جاءَ كتابُه «اللمع» من بعدِ ذلك مُعَدِّلاً بعضَ آرائِه التي قالَها في الإبانة، فهوَ في «الإبانة» كان يمنعُ تأويلَ اليدِ بالقدرة، والوجْهِ بالذات، ويلزمُ الأَخذَ بظواهرِ النُّصوص، ولكنْ في «اللمع» يقرِّرُ ذلك التأويل، وهو في الحقيقةِ ليسَ بتأويل، ولكنَّه أخذَ بمجازٍ مشهور، والمجازُ المشهورُ لا يُعدُّ تأويلاً، ومن ذلكَ المجاز، قولُ العربيّ: وَضَعَ الأميرُ يدَهُ على المدينة، فلا تُرادُ الحقيقة، بل يُرادُ السُّلطان، وكذلك الأمر ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

منزلةُ الأشعَريّ في أهلِ زمانِه، ومَنْ بَعْدَهم:

نالَ الأشعريُّ منزلةً كبيرةً عندَ الحُكّامِ في زمانِه، ومَنْ بعدَه، حتى إنّ صلاحَ الدينِ الأيوبيَّ كانَ حريصاً على أنْ يُحفِّظَ أولادَه منظومةً تتضمَّنُ آراءَ الأشْعَريّ.

ولم يقتصرْ تقديرُه على الحكَّام، بل صارتْ آراؤُهُ عقيدةَ المسلمين أو أكثرِهم، بل كانَ العلماءُ لِفَرْطِ تقديرِهم لا يتَّبعونه فيما وَصَلَ إليه من نتائجَ فقطْ، بل إنّ من كبارِهم مَنْ أوجبَ اتّباعه في الأدلةِ التي ساقها. ومن كان يخالفُ الأشعريّ، يُعرَّض للنقدِ الشديد، فتعرَّضَ الغزاليُّ إلى اللومِ عندَ نقدِه، وتعرَّضَ ابنُ تيميةَ للحبسِ عندَ مخالفتِه، وتعرَّضَ ابنُ حزمٍ الأندلسيُّ للأَذى عندما هاجمه.

وفي الجملة، تَـرَكَ الأشعريُّ أثراً واضحاً في علمِ العقائِد، كما تركَ أَئمةُ الفقهِ آثاراً بيِّنةً في علمِ الفُروعِ.

والله هو الموفِّق، وهوَ الهادي إلى سواءِ السبيل.

أبو منصور الماتُريدي[1]

(٠٠٠-٣٣٣هـ)

المعركة بين المعتزلة وأهل الحديث:

كانت المعركةُ على أَشُدِّها في بغدادَ وما حولَها، بينَ المعتزلةِ وأهلِ الحديثِ والفقه، والسُّلطانُ يؤيِّد المعتزِلين الذين يُفسِّرون النُّصوصَ التي تتعلَّقُ بالعقيدةِ على مُقتضى العقلِ المجرَّد، وقد يحسَبون منطقاً عقلياً ما ليسَ مِنْ هذا المنطقِ في شيء، ويطرحونَ في سبيلِ ذلك الأَحاديثَ النبويةَ الثابتةَ النسبةِ لرسولِ الله ﷺ، ويحسَبونَ أنَّ العقيدةَ لا تثبتُ إلّا بدليلٍ قطعيٍّ لا شُبهَـةَ فيه ولا احتمال. وقد تحكَّموا في السلطان في عهدِ المأمونِ والمعتصمِ والواثقِ من خُلفاءِ بني العباس، حتى إذا أدالَ اللهُ منهم، انبعثَ المدافعون عنْ أهلِ الفقهِ والحديثِ من أوساطِ المعتزلةِ أنفسِهم كما رأيْنا في ثورةِ أبي الحسنِ الأشعريِّ عليهم في مقالٍ سابق.

أبو منصورٍ الماتُريدي كان حُجّةً على المعتزلةِ فيما وراءَ النهر:

ولم يكنْ لهم مثلُ هذه الصَّولةِ في سمرقند وخُراسان، والبلادِ التي تُسمَّى في العُرْفِ الإسلامي ببلادِ ما وراءَ النهر، وذلك لأنّ هذه البلادَ كانتْ بعيدةً عن سلطانِ بغدادَ الروحيّ، وكان لها استقلالٌ ذاتيّ، ولملوكِها نـَزْعةٌ دينيةٌ تتورَّع، ولا تتهجَّم،

(١) مجلة العربي: العدد ٧٩، عام ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

تحترمُ المنقول[1]، ولا تغضُّ من المعقول، وكانَ الفقهُ والحديثُ يسودُ أهلَها، حتى لقد وجدْنا لأحمدَ بنِ حنبلٍ تلاميذَ من أهلِها أكثرَ عدداً من تلاميذِه في بغداد، وكانوا يرحَلون إليه مَعَ بُعْدِ الشُّقّة وعِظَمِ المشقّة.

ولكنْ معَ بُعْدِ سُلطانِ المعتزلة ومَنْ يُؤيِّدونَهم عنهم، كانتْ آراؤهم تَسْري إلى هنالِك، لأنَّ الأفكار تَسْري في مسارِ الريح، فلا تُحبسُ في مكان، ولا تَحولُ دونَها حُجُبٌ وأستار.

وكانَ لا بُدَّ أنْ ينبعثَ لها مَنْ يُقاومُها ويردُّها، ويُصحِّحُ التفسيرَ والتأويل، فهيَّأ اللهُ لذلكَ محمدَ بنَ محمدِ بنِ محمودٍ المعروفَ بأبي منصورٍ الماتُريدي.

مولدُ أبي منصور:

لم يُعرفْ تاريخُ ميلادِه على سبيلِ القطْع، ولكنْ يُتظَنَّنُ في تعرُّفِه، والذي يغلبُ على الظنِّ أنه وُلِدَ في العشرةِ الأخيرة من النصفِ الأولِ للقرنِ الثالثِ الهِجْريّ، في أولِها أو في آخرِها، وذلك الظنُّ مبنيٌّ على تاريخِ وفاةِ أساتِذتِه، ومن طريقِ معرفةِ ذلك كانَ هذا التَّرجيح، ولا سبيلَ غيرُ ذلك، ومن المؤكَّدِ أنّه تُوفِّـيَ سنةَ ٣٣٣، وأنّ معرفةَ الوفاةِ على وَجْهِ التَّحقيق أمرٌ معقول، لأنّ العالِـمَ الكبيرَ يموتُ مشهوراً، حيثُ عُرف وتخرَّجَ عليه الكثيرون، ولكنّه يُولدُ مغْموراً غيرَ معروف.

نَسَبُ أبي منصور:

وينسبُه الأكثرون إلى أبي أيّوبَ الأنصاري، ولا عَجَبَ في أنْ تنتقلَ ذريَّةُ الأنصارِ إلى تلك الأراضي النائية، لأنهم جاءوا معَ الغزاةِ مجاهِدين، وهمُ الذينَ قالَ فيهمُ

(١) في الأصل: المنعزل. والصواب ما أثبتُّه.

النبيُّ ﷺ: «كثيرونَ عند الفزع قليلون عند الطمع»[١].

ويَتَشَكَّكُ ـ من غيرِ دليلٍ ـ بعضُ العلماءِ في صحَّةِ نسبتِه إلى الأَنصار، ولكنَّ علماءَ الأنسابِ يُؤكِّدون النسبةَ ويُوثِّقونها. وسواءٌ أَصَحَّتْ هذه النِّسبةُ أمْ لم تَصِحّ، فأبو منصورٍ في مَوْضعِ التَّجِلَّة في تاريخِ الفكرِ الإسلاميّ، ما عَلا بِنَسَب، ولكنْ علا بالفكرِ والعلم، فَشَرَفُهُ ذاتِيٌّ مُنْبعثٌ من نفسِه، وليس شرفاً إضافياً مُسْتَمداً من حَسَبٍ أو نَسَب.

سمرقند كانتْ محراباً من محاريبِ العلم:

ولقد نشأ أبو منصورٍ في بلادِ سمرقند، وكانت محراباً من محاريبِ العلمِ في عصرِه، وما جاءَ بعدَهُ من عُصور، وكانتِ الدولةُ التي تُسَيطرُ عليها تُشَجِّعُ العلمَ وتنشرُه في ورعٍ وإيمان، لا في انحرافٍ أوْ تشكيكٍ كما أشرْنا من قبل، وكانَ أهلُ هذه البلادِ يُؤْثِرونَ التلقِّيَ على الشيوخ، وحريةَ الدرس، ولا يُؤْثِرون قيودَ النظام لأنّ كلَّ قيدٍ للفحصِ والدرس، يمنعُ العقلَ والفكرَ من الانطلاقِ في آفاقِ الشرع، وأخذِ العلم من كلِّ موائدِه، ولذلك روى التاريخُ أنه عندما أُقيمتِ المدارسُ النظاميةُ ـ للفقهِ والحديثِ والمعقول ـ أقاموا مأتماً للعلم، لأنهم علمُوا أنه سيطلبُه مَنْ يُريدُ ما عندَ الناس، ومَنْ يُريدُ ما عندَ الله، ومن قبلُ كانَ لا يطلبُه إلّا مَنْ يُريدُ وجهَ الله.

---

(١) رواه العسكري في «الأمثال» من حديث أنس: قدم على رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فتسامعت به المهاجرون والأنصار، فغدوا إلى رسول الله ﷺ وذكر حديثاً طويلاً فيه، وقال للأنصار: «إنكم ما علمت تكثرون عند الفزع، وتقلُّون عند الطمع».

أبو منصور نشأَ على المذهبِ الحنفيّ، من منقولٍ ومعقول:

تلقّى أبو منصورٍ عن الشيوخ، وقد نشأ بينَ الفقهاء، وتخرَّجَ عليهم، ودرس أصولَ الفقه وأتقنَه، وكانت دراستُه على المذهبِ الحنفيّ، فهو حنفيٌّ جَادَلَ عن الفقهِ الحنفيّ وتحمَّسَ له.

ومنَ الوسطِ الفقهيّ استمدَّ علمَ المعقولِ والمنقول، ودرَسَ العقائد، ذلك أنّه كانَ حنفيّاً حريصاً على اتِّباع مذهبِ الإمامِ أبي حنيفة في المعقولِ والمنقول، في الفروعِ والأُصول، وقد كان أبو حنيفةَ من بينِ الأئمةِ الأَربعة، وقد أُثِرَ عنهم كلامٌ في العقائدِ وتفصيلٌ للقولِ فيها، وكان قد درسَها في صَدْرِ حياتِه العلميَّة، وبلغَ فيها مبلغاً يُشارُ إليه فيها بالأصابع كما عبَّر هو نفسه في ذلك، وقد أُثرتْ عنه رسائلُ كتبَها في ذلك، ومنها: رسالةُ الفقهِ الأكبر، ورسالةُ العالمِ والمتعلِّم، ورسالتُه إلى عثمانَ البَتِّيّ. وقد شكَّ بعضُ العلماءِ في نسبةِ هذه الرسائلِ إلى أبي حنيفة، ولكنّه شكٌّ لا يَنْبني على دليلٍ يُعارضُ اشتهارَ نسبتها إليه، ونحنُ في تحقيقاتِنا العلمية نقبلُ ما يتلقّاه العلماءُ بالقَبولِ ولا نُثيرُ الشكَّ حَوْلَه إلّا إذا قام الدليلُ على بُطلانِ النِّسْبة.

وقد تلقّى العلماءُ في بلادِ سمرقند تلك الرسائلَ بالشَّرحِ والتَّوضيح، وبيانِ أدلَّتِها من العقلِ والنقل. كما تلقَّوْا فقهَه بالدراسةِ والتَّفْريعِ والتَّخريج.

مذهبُ أبي حنيفةَ اختصَّ بدراساتٍ عقليَّةٍ في التَّخريجاتِ الفقهية:

ويُعَدُّ أبو منصورٍ من الطبقةِ الرابعة، التي تَلقَّتْ آراءَ أبي حنيفةِ في العقائد، كما تلقَّت فقهَه. والمذهبُ الحَنَفيُّ في الفقه، يَسُودُه معَ اتِّباعِ الأثر، إعمالُ العقلِ في القياسِ الفقهيّ، وتَفْريعِ الأحكام، ووَضْعِ القواعدِ وضَبْطِها، فهو بينَ المذاهبِ قد اختصَّ

بدراساتٍ عقليَّةٍ في التخريجاتِ الفقهيَّـة، ذلك أنَّه أوَّلُ مذهبٍ اتَّجه إلى الفقهِ التقديريّ، وهو فَرْضُ أمورٍ لم تقَعْ، وإعطاءُ حكمٍ لها بتطبيقِ العِلَلِ والأَقْيِسَة، فلم يكنْ غريباً أنْ يَخرجَ من بينِ فقهائِه مَنْ يُدرِّسُ العقائد، ويخُوضُ فيها مُؤيِّداً أهلَ الفقهِ والحديث، إذْ إنه مارس الدراساتِ العقليةَ في الفقه.

الفارقُ بينَ الماتُريديِّ وأبي الحسنِ الأشعَريّ:

ويجبُ أَنْ نقرِّرَ هنا فارقاً في النشأةِ بينَ أبي منصورٍ الماتُريدي، وأبي الحسنِ الأشْعَريّ، فأبو الحسنِ نشأَ بينَ أهلِ الاعتزال وتخرَّجَ عليهم، ونَـهَجَ مناهجَهم، حتى ألْـهَمَهُ اللهُ فخَرَجَ من الاعتزالِ إلى مَسْلكِ الفقهاءِ والمحدِّثين.

أمّا الماتُريديّ، فإنهُ نشأَ بينَ الفقهاء، وتخرَّجَ عليهم في الفقهِ والعقائدِ معاً، ولذلك كانَ للماتُريديّ مَقامٌ في الفقه، كما لهُ مَقامٌ في علمِ العقائِد، وله في أصولِ الفقهِ كتابُ «مآخذ الشرائع»، وكتابُ «الجدل»، وله في التفسيرِ كتابُ «تأويلات القرآن».

كتُـبُ أبي منصورٍ الماتُريديّ:

أما كُـتُـبُه في العقائدِ فهيَ كثيرة، فقد تصدّى للردِّ على المعتزِلةِ الذينَ سَرَتْ مقالاتُهم إلى بلادِه وانتشرتْ في رُبوعِها، ولهُ في ذلك ثلاثةُ كُـتُب، وقد كان الشيعةُ يكثُرون في بلادِ سمرقَـنْـدَ وما يحيطُ بها، ويُصَاقِبُها من بلاد، ولذلك تَصَدّى للردِّ عليهم ومُصَاولـتِـهم، وله في ذلك الردّ على كتابِ «الإمامة» لبعضِ الروافض، وكتابُ «الرد على القَرامِطَة».

وهذه كلُّها مواقفُ دفاعٍ عن آراءِ أهلِ الفقهِ والحديث، وله دراساتٌ في العقائدِ إيجابيةٌ تقريريَّة. وتُنسبُ إليه رسالةٌ صغيرةٌ تُسمّى: «عقيدة أبي منصور» تولّاها العلماءُ

من بعدِه بالشرحِ والتوضيح، ويُنسبُ إليه «شرحُ كتابِ الفقهِ الأكبر» لأبي حنيفة، ولكنْ يشكُّ العلماءُ في نسبةِ هذينِ الكتابيْنِ إلى أَبي منصور، ولهم في ذلك حُجَجٌ وأَدِلّة، ولذلك نَضْربُ عنهما صَفْحاً.

ولكنْ هناكَ كتبٌ صحيحـةُ النِّسبـة، لا شـكَّ في نسبتِهـا إليـه، منهـا كتابُـه «أصولُ الدين»، وكتابُه «المقالات»، وكتابُه «التوحيد»، وهذه كتبٌ وضَّحَ بها العقيدةَ الصحيحة، ولم تكنْ جَـدَليَّـة، بل كانتْ تقريريّـة.

منهجُ أبي منصور:

اتَّجه المحدِّثون في فهمِ العقيدةِ اتِّجاهَ النقل، فما جاءَ به النقلُ اتَّبعوه من غيرِ تأويل، إلّا أنْ يكونَ المجازُ مشهوراً لا يُعَدُّ تفسيرُ الكلامِ على أساسِه تأويلاً. واتَّجهَ المعتزلةُ إلى العقلِ، وفسَّروا النُّصوصَ على مُـقْتضى العقل، حتى جَعَلوا له سُلطاناً يُؤوِّلونَ به النُّصوص، ويُـفسِّرونَ القرآنَ على مُـقْتضاه، ولا يعتَبِرونَ الأحاديثَ حُجَّةً في الاعتقاد، إلّا إذا كانتْ متواتِرة. وسلكَ الأشعريُّون مَسْلَكَ المحدِّثين معَ الدفاعِ عن آرائِهم بالمنطقِ والعقل، وقد انتَهَوا أولاً إلى الأخْذِ في الاعتقادِ بالنقلِ من غيرِ تأويل، ثم أخذوا ببعضِ التأويل.

أما الماتُريديّ، فإنّه لم يُهمِلِ العَقْلَ، وجَعَل لهُ سُلطاناً، ولكن تحتَ ظلِّ النَّقْل، فالعقلُ له مَـجَالُه، ولكنْ من غيرِ أنْ يَتَعدّى حُدودَهُ إلى النَّقْل، فهو سَلَكَ مَسْلَكاً بينَ المعتزلةِ، وبينَ الأَشاعِرة.

ولْنَضْرِبْ لذلكَ مَثَلَيْن ـ أحدُهما ـ يُوضِّحُ الفرقَ بينَ الماتُريديّ والمعتزلة.

مثَـلٌ يُـفـرِّقُ بينَ المعتزلةِ والماتُريديّ:

المثلُ الأولُ: أنهم يقولونَ في رؤيةِ الله يومَ القيامةِ إنّها مستَحيلة، لأن الرؤيةَ تقتضي مرئياً محسوساً في مكانٍ محدود، واللهُ سبحانَه وتعالى ليسَ بجسمٍ محسوسٍ يُرى، وفسَّروا الآياتِ التي جاءتْ في ذلك مثلَ قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، بأنَّ المرادَ إدراكُ القلبِ إدراكاً قوياً يقاربُ الرؤيةَ بالبَصَر. أمّا الماتُريديّ فيأخذُ بالنصِّ كما هو، ويقول: «إنّ اللهَ تعالى يُرَى مِن غيرِ كيف ولا حدٍّ ولا تشبيه، بل هي رؤيةٌ تليقُ بذاتِ الله تعالى، وبصفاتِه، وتنزُّهِه عن مُشابهةِ الأشياء، وهي في يومِ القيامة، واللهُ عليمٌ بها».

مثَـلٌ يُـفـرِّقُ بينَ المعتزلةِ والأشاعِـرَةِ والماتُريديّ:

والمثلُ الثاني يوضِّحُ الفَـرْقَ بينَ المناهجِ الثلاثة، المعتزلةِ والأشاعِـرةِ والماتُريدي. وهو: مسألةُ حُكْمِ العقل على الأشياء بالـحُسْنِ والقُبْح.

فالمعتزلةُ يرَوْنَ أنَّ للأشياءِ حُسْناً ذاتيّـاً، وقُـبْحاً ذاتياً، فما يحكمُ العقلُ بأنه حَسَنٌ لذاتِه لا بُدَّ أنْ يكونَ مأموراً به، وما يحكمُ العقلُ بقبحِه لذاتِه لا بُدَّ أنْ يكونَ منهياً عنه، وعلى ذلك يجبُ على المكلَّفِ أنْ يعلمَ أنه مَطْلوبٌ منه أنْ يفعلَ الحسنَ ولو لم يجئْ شَرْعٌ بطلبه، وأنه مَـجْزيٌّ عن المخالفةِ يومَ القيامةِ إنْ خالفَ العقل. وعلى ذلك يكونُ الناسُ مُـكَلَّفين أنْ يفعلوا الخير، ولو لم يجئْ رسولٌ يُعلِّمُهم ويُبشِّرُهم ويُنْذِرُهم. وإنَّهم سَيُجَازَوْن من الله تعالى على ما فَعلوا من خيرٍ وشر.

والأشاعِرةُ قالوا: ليسَ للأشياءِ حُسْنٌ ذاتيّ، ولا قُبحٌ ذاتيّ، إنما الـحُسْنُ والقُبْحُ يجيءُ، مِن أمرِ الله ونهيِه، فما أمرَ به فهو حَسَنٌ، وما نهى عنه فهوَ قبيحٌ، وليسَ للعقلِ في هذا سلطان.

والماتُريديّـةُ قالوا: للأَشياءِ حُسْنٌ ذاتيٌّ وقُـبْحٌ ذاتي، واللهُ لا يأمرُ إلّا بما هو حَسَن، ولا ينهى إلّا عمّا هو قبيح، ولكنْ لا تكليفَ إلّا بعدَ الرِّسالة لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فإذا لم يجئْ رسولٌ، فليسَ ثمّةَ عقابٌ على فعلٍ سيئ، فالرسولُ ينقلُ أمرَ الله في الـحُسْنِ ونهيَـهُ في القبيح، والمكلَّـفُ يُطيعُ أمرَ الله ونهيَه، ولا يُجازى على مجرَّدِ إدراكِ العقلِ من غيرِ نبيٍّ مبعوث، فلا ثوابَ يومَ القيامةِ ولا عقاب، إلّا إذا كان نبيٌّ قد جاءَ بشيراً أو نذيراً.

الماتُريديّ يَسْتَمِدُّ تأويلَه من النُّصوصِ نفسِها:

وقد كانَ ذلك المنهاجُ الذي احترمَ النقل، ولم يُهملِ العقلَ سبباً في أنْ خرجَ الماتُريديّ بآراءَ لا يراها المحدِّثون، ولم يقبلْها الأَشعريُّ في الدفعةِ الأولى من ثورتِه. ومن هذه الآراء: أنّ كلَّ الجوارِحِ التي تُضافُ إلى الذاتِ العليَّة يُؤَوِّلُها بما يتَّفقُ مَعَ معناها. مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، يُؤَوِّلُها بقدرتِه. ومثلُ قولِهِ تعالى: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، يؤوِّلُها بنِعَمِه، وهكذا غيرُ ذلك من الألفاظ، يُؤَوِّلُها على مُقْتضى العقل. ولكنْ يكون مستمداً تأويلُه من النصوصِ نفسِها. فاليدُ فسَّرَها بالقُدرةِ أو النِّعْمَة لأنّها جاءتْ في القرآنِ دَالّـةً على غيرِ الجارحة، في مثلِ قولِه تعالى في شأنِ القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصِّلت: ٤٢].

وقد قرّرَ الماتُريديّ ـ بما التزمَ من هذا المنهاج ـ أنّ أفعالَ الله تعالى لا تكونُ إلّا موافِقةً للحكمة، وأنه مُنزّهٌ عن كُلِّ النقائص، وأنه لا يجوزُ أنْ يُـخْلِفَ اللهُ وعدَه، لأنّه قال في كتابِهِ الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] فمُحالٌ أنْ يُخلفَ اللهُ ما وَعَدَ من ثواب، وما أنذرَ من عقاب إلّا أنْ يكونَ العفوُ والغَفْر، فهو عَفُوٌّ غَفُور.

وبعضُ الأَشاعرةِ قال: «إنه يجوزُ عقلاً أنْ يُخلِفَ اللهُ تعالى الميعاد، لأنه لا يُلزمُ بشيْء، ولا يُسأل عمّا يَفْعل، وهُم يُسْأَلون».

وهكذا كثيرٌ من المسائل، نجدُ الماتُريديَّ أكثر من الأشعريِّ أخْذاً بحُكم العقل، مع التزام النقل.

الماتُريديُّون وسط بين الأشاعِرة والمعتزلة:

وأخيراً نقرِّرُ أنَّ الماتُريديَّ لم يكنْ كالأشعَريِّ من حيثُ المنهاج، وإن كانَ يُقاربُه فيما انتهى إليهِ من نتائِج، فلا يكادانِ يختلفانِ إلا قليلاً. ولو أننا أردنا، أنْ نعقدَ موازنةً بينَ هذهِ المناهجِ الثلاثة: منهجِ المعتزلة، ومنهجِ الأشاعِرَة والماتُريديّة، لعلمْنا أنَّ المعتزلةَ يجعلون السُّلطانَ للعقل، والأشاعرةَ للنقلِ مُقرِّبين له بالعقل، والماتُريديّة يجعلونَ السُّلطانَ للعقلِ والنقلِ معاً.

وإذا كانَ الأشاعِرَةُ في تفكيرِهم وَسَطاً بينَ المعتزلةِ والمحدِّثين، فالماتُريدية وسطٌ بينَ الأشاعِرَةِ والمعتزِلة، ولذلك قرَّر بعضُ العلماءِ أنهم أقْربُ إلى المعتزلةِ منهم إلى الفقهاءِ والمحدِّثين، وجزى اللهُ الجميعَ عن الإسلامِ خيرَ الجزاء، فكلٌّ قامَ بواجبِه في ناحيةٍ من نواحيه.

* * *

أبو بكر الباقِلّاني[١]

(٠٠٠-٤٠٣هـ)

اشتَدَّتْ الـحَمْلاتُ على المعتزلةِ في بغدادَ وسائرِ بلادِ العراق، وضاقُوا ذَرْعاً بكثرتِها وتأييدِ الـحُكّام والشّعبِ لها، فلم يجدوا مُتَنفَّساً لهم إلا في فارس، ولم يذهبوا إلى بلادِ ما وراءَ النهر، لأنّ أبا منصورٍ الماتُريديّ ومَنْ بعدَه من التلاميذِ وأتباعِهم، قد جعلوا هذه الأرضَ لَيْستْ لهم، ولَيْستْ مقاماً طيِّباً يتَّسعُ لآرائِهم.

وفي منتصفِ القرنِ الرابعِ الهجريّ، كبُرَ أمرهُم نسبياً حتى صارَ منهم قاضي القُضاة في عهدِ عَضُدِ الدولة سلطانِ هذا الإقليم، وكانَ هذا القاضي كثيراً ما يناقِشُ السُّنيين، ويَـفْلُجُ بالحُجّةِ عليهم[٢]، وينالُ منهم في حضرةِ عَضُدِ الدولة الذي كان يميلُ بقلبِه للسُّنيين من غيرِ أنْ يكرهَ المعتزِلين، ولذا أرادَ أنْ يستوفِدَ من علماءِ العراقِ من يَـرُدُّ على قاضي القضاةِ وينصرُ السنة.

مناظرة قاضي القضاة المعتزلي:

وقد أُشيرَ عليه بشيخٍ وتلميذِه بالبصرة، فلمّا وَرَدَ الكتابُ إليهما امتنعَ الشيخُ[٣] لكيلا يحضرَ مجلسَ المعتزلةِ كراهيةً له، أمّا الشابُّ فإنّه استعدَّ للذهابِ ليردَّ الـحُجَّةَ

(١) مجلة العربي: العدد ٧٠، عام ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

(٢) أي: يعلوهم ويفوقهم. من الفُلْج.

(٣) وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي البصري. تنظر ترجمته في «تاريخ بغداد» ١ : ٣٤٣، و«ترتيب المدارك» ٦ : ١٩٦.

ويقيمَ الدليل، وقال لشيخِه: «إنّ أهلَ السُّنَّة في عهدِ الإمام أحمد، بامتناعِهم عن المناظرةِ والدفاعِ عن مذهبِهم، وبيانِ الـحُجَّة أمامَ المأمونِ والمعتصِمِ والواثق، نزلَ بهم من المحنِ ما نَزَل».

لم يرضَ التلميذُ الشابّ بالموقفِ السَّلبيّ، وذهب إلى شيراز، حيثُ التقى بقاضي القضاةِ المعتزليِّ ومَنْ مَعَه، وناظرَهُ وأقامَ عليه الـحُجَّةَ أمامَ عَضُدِ الدولة، فأُعجِبَ به، وأقامَه بفارسَ أمداً لينشرَ مذهبَ أهلِ السُّنة، ويدافعَ عنه، ثم دفَعَ إليه ولدَه ليُنهجَهم منهاجَ السُّنيِّين، ويُنشِئهم على تفكيرِهم.

مقدرة الباقلاني على الاستنْباط والاستدلال:

ذلكم الشابُّ هو محمدُ بنُ الطيِّبِ بنِ محمَّدٍ الشهيرِ بأبي بكرٍ الباقِلّانيّ، قد آتاهُ اللهُ قُدْرةً على الاستنْباطِ والاستدلال، وقد قالَ فيه أحدُ مُعاصِريه: «مَنْ سمِعَ مناظرةَ القاضي أبي بكر، لم يَسْتلذَّ بعدَها بسماعِ أحدٍ من المتكلِّمين والفقهاءِ والمترسِّلين، ولا الأغاني أيضاً، من طيبِ كلامِه وفَصَاحتِه، وحُسْنِ نظامِه وإشارتِه».

ولادته وطلبه العلم:

وقد وُلِدَ أبو بكرٍ بالبصرة، ولا يُعلَمُ تاريخُ ميلادِه على وَجْهِ اليقين، وذلك لأنّ العلماءَ يُولَدون كما يُولدُ سائرُ الناس فلا يهتمُّ الناسُ بهم حينَ يُولدون، ولا يُذكرون إلا بعدَ أنْ يشتهِروا، وتستفيضَ أخبارُهم، ولذلك يُعلمُ تاريخُ وفاتِهم، ولا يُعلمُ باليقين تاريخُ ميلادِهم، ويَظْهَرُ من تَتَبُّعِ شيوخِه وأخبارِهم، أنهُ وُلِدَ في نهايةِ الربعِ الأولِ من القرنِ الرابعِ أو بعدَها بقليل، أو قبلَها بقليل.

وقد طلب العلمَ بالبصرة، إذ نشأَ نشأتَه الأُولى بها، وتلقّى العلمَ في ابتداء شبابِه من علمائِها، واسترعى نظرَهُ فقيهٌ مالكيٌّ جعلَ لهذا الفقهِ بالعراقِ مكاناً، وإن كان ذا مساحةٍ محدودة، ذلك الفقيهُ هو أبو بكر الأبهريّ المتوفّى سنة ٣٧٥ فدَرَسَ عليه.

نبوغ الباقلاني في الفقه المالكي:

درس الفقهَ المالكيَّ، ونبغَ فيه، ودرسَ أصولَه ومناهجَه، وبلغَ فيه درجةً وَصَلتْ به إلى أن يُعتبرَ فقيهاً من الفقهاءِ معَ كونِه إماماً من أئمةِ المتكلِّمين، ومَعَ أنَّ المذهبَ المالكيّ في العراق كانَ بعيداً عن مواطنِ نُموِّه وازدهارِه، فقد بلغَ فيه الباقلانيُّ تلكَ الدرجةَ العالية، وقد قال بعضُ فقهاءِ المغرب الذي ازدهرَ فيه المذهبُ وأيْنع، وآتى أُكله: «رَحَلْتُ إلى بغداد، وكنتُ قدْ تفقَّهتُ بالمغربِ والأندلس، فلمّا حَضَرتُ مجلسَ القاضي أبي بَكْر، ورأيتُ كلامَه في الأُصولِ والفقهِ معَ المؤالفِ والـمُخَالِف، حَقَرْتُ نفسي، وقلت: «لا أعلمُ من العلمِ شيئاً»، ورجعتُ عندَه كالمبتدئ».

وما زالَ يعلُو في مَيْدانِ العلم الإسلامي درجةً بعدَ درجة، حتى صارَ يُذكرُ في الأقاليمِ الإسلاميةِ كلِّها للمُناظَرة. وقد ذكَرْنا رحلتَه إلى عَضُد الدولة، وقد عادَ بعدَها إلى البصرة، وَوَلِيَ قضاءَها، ولذلك كان يُسمّى القاضي أبا بكرٍ الباقِلّانيّ، ويظهرُ أنّه كان يَقْضي بينَ المالكيين فيها، فإليه انتهتْ رياسةُ المالكيينَ في عَصْرِه.

شُهْرَتُـهُ في علمِ الكلام وشيوخه فيه:

وليستْ شهرةُ القاضي بالفقهِ وأصولِه، ولكنْ شهرتُه التي طبقت الآفاق، هي في علم الكلام، ودفاعُه عن مذهبِ الأشعَريّ، وتلقّى ذلكَ عن كبارِ أئمةِ المذهبِ الأشعَرِيِّ في عهدِه، ومنهم: ابنُ مجاهِد، الذي كانَ من أصحابِ أبي الحسنِ الأشعريّ،

وتلقّى عنه ما انتهى إليه من كلامٍ في العقائد. وهو الذي دعاهُ عَضُدُ الدولةِ معَ تلميذِه الباقِلّانيّ، فامتنعَ وتأبّى عن أنْ يجلسَ معَ المعتزلة، في مجلس، وحمل التلميذُ العِبْءَ وحدَه، وذَهَبَ وناظَرَ، وقامَ بالـحُجّة.

وأخذ عَنْ أبي الحسنِ الباهليِّ الذي كان تلميذاً للأشعريّ أيضاً، وكان رجلاً تقياً صوفياً، يختفي عن الناس، ولا يخفى علمُه عنهم، وقد قال فيه الباقِلّاني: «كان الشيخُ الباهليُّ يُدَرِّسُ لنا في كلِّ جُمُعةٍ مرَّةً واحدة، وكان منّا في حجابٍ يُرْخي السَّترَ بيننا وبينَه كَيْلا نراه».

ولما تلقّى مذهبَ الأشعري عن تلاميذِه حمَلَ العِبْءَ في الدفاعِ عن المذهب، ومناقشةِ المخالِفين، بل إنَّ مناقشتَه لم تَقْتصِرْ على المعتزلةِ والشيعةِ وغيرِهم من الذين يخالِفون السُّنيين ولا يوافِقونهم، بل إنَّ مناظراتِه تجاوَزَتْ حُدودَ الديارِ الإسلامية، وكان يذهبُ إلى بلادِ النَّصارى يُجادِلُهم في حَضْرةِ مَلِكِهِمْ بإيفادٍ من بعضِ وُلاةِ الأمر من المسلمين، ليدافعَ عن الإسلامِ لا عن مذهب.

صفاتٌ جَعَلَتْـه في الذِّرْوة:

والباقِلّاني قد اتّصفَ بصفاتٍ، جَعَلَتْه في الذِّروة بينَ العلماء.

أ ـ من هذه الصفاتِ: أنّه كانَ ذا ذاكرةٍ واعِيَة، لكلِّ ما يَقْرأُ ويسمع، وقد قال فيه الخطيبُ البغداديّ: «كان كلُّ مُصَنِّفي بغداد، إذا صَنَّفوا نَقَلُوا من تصانيفِ الناسِ إلى كُتبِهم، إلّا الباقِلانيّ. ثم كانت مناظراتُه حاضرةً دائماً لا تغيبُ عَنْ عَقْلِه، حتى كان إذا صنَّفَ في الخِلاف لا يحتاجُ إلى مُطالعة كُتُبِ المخالِفين، وحتى كان تصنيفُه لكلِّ ما اختلفَ فيه الناسُ مُسْتمدّاً من حفظِه». وكلُّ هذا يدلُّ على حافظةٍ واعيةٍ ذاكِرة.

ب ـ وكانَ معَ هذهِ الحافظةِ الواعية، عميقَ النظر، لا يكتفي من العلوم باستحفاظِ ما اشتملتْ عليه، بل كانَ يَسْتنبِط، ويُفكِّر، ويَبْني على ما استنْبطَه، ولقد قال ابنُ خَلِّكان في وَصْفِهِ: «إنَّه كانَ مشهوراً بجودةِ الاستنْباط، وسُرعةِ الجواب».

جـ ـ وكانَ ذا بديهةٍ حاضرة، تأْتيه أَرسالُ المعاني في وقتِ الحاجةِ إليها من غيرِ معاناةٍ ولا تكلُّف، ولذلك امتازَ بمناظراتِه التي يقحِم بها الخصومَ بأيسرِ كُلْفة، يردُّ على التَّعريضِ بتعريضٍ مثلِه، وعلى التَّصريحِ بالـحُجَّةِ القارِعة، والكلامِ الـمُفْحِم.

د ـ وكان معَ هذه القدرةِ العقليةِ والبيانية، ذا صلاحٍ وتقوى وإخلاصٍ في دينِ الله تعالى، وطلبِ الحقِّ فيه. ولقد قالَ ابنُ عساكر في كتابِه عن الأشعَريِّ والأشاعِرَة: «إن ما كانَ يُضمِرُه القاضي الإمامُ أبو بكرٍ الأشعريّ رضيَ اللهُ عنه من الوَرَعِ والديانةِ والزُّهدِ والصِّيانة، أضعافُ ما كانَ يُظهِرُه، فقيل له في ذلك، فقال: «إنما أُظهِرُ ما أُظهرُه غيظاً لليهود والنصارى والمعتزلةِ والرافضةِ والمخالِفين، لئلا يَسْتحْقِروا علماءَ الحقِّ والدين».

وكانَ معَ كلِّ هذهِ الصفات، ذا هَيْبةٍ واضحةٍ جليّـة. وهبَها اللهُ تعالى له، وزادَها بما مارسَه من مواقفَ بيانيةٍ رائِعة.

وكانَ فصيحاً مالكاً عنانَ البيان، يأتيه اللفظُ الجميلُ من غيرِ تكلُّف، كما تجيئُه المعاني الكثيرة من غيرِ مُعَانَاة.

دروسُه ومناظراتُه:

نشأ ـ كما قُلْنـا ـ بالبصرة، وظهرتْ مواهبُه فيها، وتزوَّد بخيرِ زادٍ من العلمِ والتُّقى، مع عَقْلٍ أَلْـمعِيّ، ولسانٍ قَوْميّ، واتَّجهَ إلى الدرسِ معَ أنه وليَ قضاءَ البصرة، فكانَ معَ قيامِه بواجبِ القضاء، يقومُ بحقِّ الدرسِ والإلقاء، وكان يَنْزعُ من درسِه

للمناظراتِ في البلادِ الإسلاميّة يدافعُ عن الأشاعِرة، وإلى غيرِ البلادِ الإسلاميةِ في بلادِ الرومان يدافعُ عن الإسلام، وحيثُ تَحقَّقَ الغرضُ الذي تركَ الدرسَ من أجلِه عاد يُذاكِرُ تلاميذَه ويُدارِسُهم، حتّى إذا ضَاقَتْ البصرةُ بعلمِه، ذهبَ إلى بغداد، وأقامَ بها، واتَّخذَ في جامعِ المنصُورِ حَلْقةً عِلميَّةً عظيمة، كان يجيءُ إليها العُلماءُ من كلِّ بلادِ الإسلام. وقد كان في هذهِ الـحَلْقَة يُقرِّرُ المذهبَ الأشعريّ، ويدافعُ عنه ويشرحُ العقيدةَ الإسلامية، كما جاء بها القرآنُ الكريم، وكما ذكرتْها السنّة، غير مُتزيِّدٍ عليهما إلّا بما يُؤيِّدُهما من دلائِل العقل، وبمُقدِّماتٍ منطقيةٍ قويّةٍ ومؤيِّدةٍ وموضِّحة.

وكانت دروسُه تمتازُ بالعُمْقِ معَ الوُضوح. ويظهرُ أنه كان يُدرِّسُ المذهبَ المالِكي في الفقه، كما يُدرِّسُ المذهبَ الأشعَرِيَّ في العقيدة، وإنْ كانَ التلاميذُ يتغيَّرون، فدَرْسُه في العقيدة عامّ، يشملُ المالكيين وغيرَهم، ودرسُه للفقهِ خاصٌّ بالمالكيين، ولذلك قالَ عنه المالِكية: «إنه كانَ إمامَ المذهبِ في وقتِه».

وكان يُدْعَى للمناظراتِ ـ كما قرَّرنا ـ في هذا العصرِ الذي كانَ مملوءاً بالمناظراتِ في شتّى العلوم، فمناظراتٌ في العلومِ الفلسفيّة، ومناظراتٌ بينَ المسلمين وغيرِهم، ومناظراتٌ في الفقهِ بينَ الشافعيةِ والحنفية، ولم يدخلْ فيها المالكية، وكانَ هذا الفصيحُ الأريبُ العليمُ بمداخلِ الاستدلالِ ومخارجِه، بطلاً في هذا الميدان عُرِفَ له مقامُه.

رؤية الله يومَ القيامة:

وكانت طريقتُه في المناظرةِ أنْ يطلُبَ ممَّنْ يناظرُه بيانَ رأيِهِ ابتِداء، وهو يعلمُ أنهُ يُخالِف، فإنْ أبدى رأيه وحُجَّتَه أخذَ يُلاحِقُه بنقدِ الدليلِ مُقدِّمةً مُقدِّمة، وكانت هذه الطريقةُ أنْجَعَ طريقٍ في إفحامِ خصومِه من المعتزلةِ والشيعة، لأنهم يخالِفون ظاهرَ النُّصوص، فإذا أبْطل سببَ المخالفة قامتْ حُجَّتُه في الأخْذِ بظاهرِ النصِّ من غيرِ داعٍ

إلى تأويل. ولنضربْ مَثَلاً برؤيةِ الله يومَ القيامة، فقد جاءتْ بها ظواهرُ النصوصِ القرآنيّةِ والنبويّة، وأوّلَ المعتزلةُ هذه النُّصوص. ولننقلِ المناقشةَ فيها في حَضْرةِ عَضُدِ الدولةِ الملك، كما جاءتْ:

ثمَّ التفتَ الملكُ فقال: «سَلُوا أبا إسحاقَ النَّصيبيّ عن مسألةِ الرؤية»، فأنكرَ رُؤيةَ الله تعالى في الآخرة، وسُئِل من قبل الباقلّاني: «ما حُجَّتُك؟» فقال: «كلُّ شيءٍ يُرى بالعين، فيجبُ أنْ يكونَ في مقابلِهِ عينُ الرائي». فالتفتَ الملكُ إلى القاضي أبي بكر، فقال القاضي أبو بكر: «لا يُرى بالعين»، فقال القاضي المعتزليّ: «فإذا لم يُرَ بالعينِ فبماذا يُرى؟» فقال القاضي: «يُرى بالإدراكِ الذي يُـحْدثُه اللهُ تعالى في العين، وهو البَصَر، ولو كان يُرى المرئيّ بالعين، لكانَ يجبُ أنْ يُرى بكلِّ عينٍ قائمة، معَ أنَّ بعضَ الأعينِ لا يُـرَى بها».

وإنَّ هذا الكلامُ يُستفادُ منه أنَّ الرؤيةَ تكونُ بالإدراك، الذي يكونُ طريقَه العَيْنُ في الدنيا، وقد يخلقُ اللهُ تعالى ذلك الإدراكَ من غيرِ العينِ التي تَرى، والتي تكونُ رؤيتُها مُقْتضيَةً المكان، واللهُ مُنَـزَّهٌ عنه.

انشقاقُ القمر:

وفي مُناظرتِه لملكِ الروم نجدُه يُجابهُ الملكَ بما لم يحتسِبْ، فيتركُه يحتجّ، ولم يَـرُدَّ حجّتَه. ولْننقُلْ مناقشتَه في انشقاقِ القمر الذي يعتقدُ أهلُ السنةِ أنّهُ انشقَّ فِعْلاً[١] وإليك المناقشة:

---

(١) أهلُ السنةِ يقولون: القمرُ انشقّ فعلاً مصداقاً لقولِه تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، وبعضُ العلماءِ يروْن أنّ الآيةَ للمستقبل، وأنّ الانشقاقَ عندَ قيامِ القيامة، فمعنى انشقَّ: أنه يَنشَقّ، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أي: سيأتي أمر الله. (أبو زهرة).

قال ملكُ الروم: «هذا الذي تدَّعونه في معجزاتِ نبيِّكم من انشقاقِ القَمَر كيفَ هوَ عندَكم؟».

قالَ الباقلّانيّ: «هو صحيحٌ عندنا انشقَّ القمر على عهدِ رسولِ الله، حتى رأى الناسُ ذلك، وإنما رآه الحضورُ ومَنِ اتَّفقَ نظرُه في تلك الحال».

قال الملك: «وكيف لم يرَهُ جميعُ الناس؟ وهلْ هذا بينَكم وبينَه نسبةٌ وقرابة؟ ولأيِّ شيءٍ لم تعرفْه الرومُ وغيرُها من الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصّة؟!».

قال الباقِلّاني: «لأنّ الناسَ لم يكونوا على أُهبةٍ ووَعْدٍ لِشُقوقِه وحُضورِه، وهذه المائدة (أي التي نزلتْ من السماء) بينَكُمْ وبينَها نسبة؟ وأنتم رأيتموها دونَ اليهودِ والمجوسِ والبراهمةِ وأهلِ الإلحاد، وخاصَّةً اليونانَ جيرانَكم، فإنهم كلُّهم منكِرونَ لهذا الشأن، وأنتمْ رأيتُموها دونَ غيرِكم».

وهكذا نجدُه يناظر، فيبيِّنُ أنّ عَدَمَ رؤيةِ الانشقاقِ في الروم، سببُه عدمُ التطلُّعِ والمراقبة، ولم يكنْ في هذا العهدِ أرْصَادٌ تُسجِّل، ثمّ لا يكتفي بذلك، بل يهاجمُ اعتقادَ النَّصارى أنَّ مائدةً نزلتْ من السماء، وكان ينبغي أنْ يراها الناسُ جميعاً على مقتضى نظرِ ملكِ الرومان.

في إعجازِ القرآن:

وقد كتب الباقِلّانيّ كتباً كثيرةً في الفقهِ المالكيّ، وأصولِ الفقهِ والعقائدِ والكلام، وأقواها في نظرِنا كتابُ «إعجاز القرآن». ذلكَ الكتابُ الذي بيّن فيه إعجازَ القرآنِ بالدراسةِ المقارنةِ لا بمُجرَّدِ البيانِ النظريِّ لأسرارِ البلاغةِ فيه، كما فعل من بعدِه

الـجُرْجاني، والزَّمخْـشَريّ، ذلكَ أنّه في عهدِه أشاعَ بعضُ الكُتّابِ من الزنادِقة أنّ القرآنَ لم يكنْ معجزاً بذاتِه، إذ كانَ الناسُ يستطيعونَ أنْ يأتوا بمثلِه، ولكنَّ اللهَ صَرَفَهم عن ذلك. وأخذوا هذا عن الهنودِ الذين قالوا في أشعار الفيدا عندَهم: إنَّ الناسَ صُرِفوا عَنْ أنْ يأتوا بمثلِها. فتَصَدّى الباقِلّانيُّ للردّ، فأتى بأبلغِ ما وصلَ إليـه العربُ من بلاغـةٍ في القـول، وذكرَ الكلامَ البليغَ الذي أجمعَ العلماءُ على أنـه أعلى الطاقة العربيةِ في البلاغة، ووَازنَ بينَه وبينَ القرآن، وأثبـتَ أنّ الذوقَ البيـانيَّ يُوجِـبُ الحكـمَ بأنّ القرآنَ أعلى بكثيـرٍ مـمّا أجمـعَ العَرَبُ على أنَّـه بلـغ الذِّروةَ في البلاغة.

وقد شغلَ الباقلانيُّ عصرَه بعلمِه وكُتُبِه ومُنَاظراتِه، وذاعَ اسمُه في أقْصى بلادِ الإسلام وأدناها، على أنّه العالمُ الأوّل، حتى لقد قالَ بعضُ الفقهاء: «إنه لو أوصى شخصٌ بثُلُثِ مالِه لأعلمِ الناس، لاسْتَحقَّ الوصيَّةَ الباقِلّانيُّ وحدَه من غيرِ تردُّدٍ بينَه وبينَ غيرِه».

تحمُّسه للمذهب الأشعري:

وإنَّ الباقِلانيّ كانَ في العقيدةِ أشعريَّ المذهب، مُتَحمِّساً له، دافعَ ونافح، وقد دفعهُ تحمُّسُه لأنْ يحملَ الناسَ على المقدِّماتِ العقليَّـةِ التي ساقَ الأشعريُّ بها أدلَّتَه، لإثبات مذهبِه، ولم يُرِدْ أنْ يخالِفوها، فهو لم يَتَحمَّسْ قطُّ للنتائج، بل تحمَّسَ أيضاً لسياقِ الأدلة ومُقدِّماتِها، وإنّ ذلك بلا ريْبَ إفراطٌ في التعصُّبِ المذهبيّ، فإنه قد يكونُ الناسُ مُقيَّدين بالنتيجة، ولكن لا يصحُّ التقيُّدُ بنوعٍ معيَّنٍ من أدلَّتِها.

وإنه معَ هذا قد خالفَ الأشعريَّ في أمور، ولكنْ قرَّر العلماءُ أنّ الخلافَ فيها لفظيّ[١].

ومهما يكنْ من أمرِ تَقيُّدِ الباقِلّانيِّ بمذهبِ الأشعَري، فقد كانَ عالماً جليلاً ملأَ طِباقَ الأرضِ علماً ونظراً، فرحمةُ الله عليه ورِضاه[٢].

* * *

(١) قال الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١٧: ١٩٠: «وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه في مضائق، فإنه من نظرائه». وحسبك بهذا الثناء في الدلالة على منزلة الإمام الباقلاني.
وقال الشيخ ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ٥: ٦٥ في حقِّ الباقلاني: «وهو أفضل المتكلِّمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثلُه ولا قبلَهُ ولا بعدَهُ».

(٢) توفي الإمام الباقلاني في يوم السبت الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربع مئة، ودفن في داره بنهر طابق، ثم نقل إلى دار حرب، ودفن في تربةٍ بقرب قبر الإمام أحمد، وقد رثاه بعض الشعراء فقال:

انظر إلى جبل تمشي الرجال به ... وانظر إلى القبر ما يحوي من الصَّلف
انظر إلى صارم الإسلام منغمداً ... وانظر إلى درة الإسلام في الصَّدَف

أبو الحسن الماوَرْديّ(١)

(٣٦٤-٤٥٠هـ)

في القرنِ الرابعِ والخامسِ الهجري، اضْطَرَبتْ موازينُ الدولةِ الكبرى إلى دُوَيْلاتٍ وحَوْزاتِ مُلوك، ذلك أنه منذُ استعانَ المعتصمُ في أولِ القرنِ الثالثِ الهجريِّ بالأتراكِ الذينَ جَلَبَهم من التُّرْكستان وغيرِها من البلادِ الإسلامية، انتزعَ أولئك السُّلطانَ الفِعليّ، وأخذُوا يتحكَّمون في الخلفاء، ومَنْ خالفَهُم منهم قَتَلوه، وأولُ مَنْ قتلوه كانَ المتوكِّل، وكانَ عِبرةً لمن جاءَ بعدَه فاستَسْلَموا، وصارَ سلطانُهم رمزياً، وكأنهمْ رجالُ كهنوتٍ يُمنحونَ البركات.

انحلالُ الدولةِ الإسلاميَّةِ الكُبرى:

وبانحلالِ الدولةِ الإسلاميةِ الكُبرى، أخذتْ اللغةُ العربيةُ تختفي من الأقاليمِ الشرقيّة، واستيْقظَتْ من سُباتِها اللغاتُ الإقليميّة، وما بقيَ في الألسنةِ من اللغةِ العربيةِ دخلتْهُ العُجْميةَ، حتى صار ذلكَ اللسانُ غريباً في ديار الإسلام.

واحتدَّ الخلافُ بينَ الشيعةِ والسُّنَّة، وأخذَ صُورةً من الفِتَنِ والانتفاضات، حتى جاءَ التتارُ مِنْ بَعْد، ودخلُوا بغدادَ مِنَ الثُّلمةِ التي فَتحَها الخِلاف.

(١) مجلة العربي: العدد ٧٦، عام ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م.

مع فسادِ الحكم، رَاجَتْ سوقُ العلم!

وفي الوقتِ الذي فَسَدَ فيه الحكمُ ذلكَ الفساد، وتفرَّقتِ الأُمَّةُ ذلكَ التَّفرُّق كانت سوقُ العلمِ رائجة، وقد اتَّجهَ العلماءُ من العربِ والفرسِ إلى الدراسةِ والإنتاج، وكانت اللغةُ العربيةُ وعاءَ ذلك العلم، كما هي وعاءُ الإسلام، ففي الوقتِ الذي سَادتِ العُجْمةُ، كانتِ العربيةُ سائدةً في التأليفِ والدراسة.

وكان الـحُكّام يُشَجِّعون العلم، ويُقرِّبونَ العلماءَ إليهم، ويُدِرُّونَ عليهم الدَّرَّ الوفير، فانصرفُوا إلى العلم، وأنتجوا وأثمروا. وكان أمر غريب. فبمقدارِ اضْطرابِ ميزانِ الحكم، كانتِ استقامةُ ميزانِ العلم، وبمقدارِ العُقْمِ الذي أصابَ الدولة، كانت زيادةُ الإنتاجِ العلميّ، فاتَّسعتْ آفاقُ الدراساتِ كلِّها، وخصوصاً الدراساتِ التي تتعلقُ بالفقهِ والتفسيرِ والحديث.

وإنه لمن الغَرابةِ أنْ نجدَ في ذلك العصرِ الـمُضْطَرِب، دراسةً واسعةً لنظامِ الحكمِ الإسلاميِّ السَّليم، وكأنَّ العلماءَ رَأَوْا خطوطاً مُعْوَجّة، فاستطاعُوا أنْ يأخذوا من اعوجاجِها الرسمَ الصحيحَ للخطِّ المستقيم، فإدراكُ الاعوجاجِ يَسُدُّ طريقَ الاستقامة، وكأنهم رأَوْا أنَّ أسْلكَ طريقٍ للتوجيه، هو بيانُ الحكمِ المستقيم، فمنْ أرادَ أنْ يَسْلكَه فقد اهتدَى.

الفقيه الـمُدْرك والحكيم الـمُلْهَم:

عاش في هذا العصر فقيهٌ مُدْرِك، وحكيمٌ مُلْهَم، قد آتاه اللهُ قلباً مستقيماً وتجربةً مكَّنتْه من إدراك العصر، فقد ركِبَ لُـجّتَه، وعلا فوقَ قِمَّتِه، فبيَّنَ الطريقَ للإصلاح من غيرِ أنْ يُصرِّح بالدعوةِ إليه، لأنّ بيانَ الحقِّ في ذاتِه تحريضٌ عليه.

ذلكم الفقيه هو عليُّ بنُ محمدِ بنِ حبيبٍ الـمَكْنِيُّ بأبي الـحَسَن، والملقَّبِ بالماوَرْديّ، قال فيه ابنُ السبكيِّ في «طبقاتِه»:

«الإمامُ الجليلُ القدرِ، الرفيعُ المقدارِ والشأن، صاحبُ الحاوي والإقناع في الفقه، وأَدَبِ الدنيا والدينِ، والتفسيرِ، ودلائلِ النبوةِ، والأحكامِ السلطانيةِ، وقانونِ الوَزارةِ وسياسَةِ الملْك. وجُعِلَ إليه القضاءُ ببُلْدانٍ كثيرة، وكان رجلاً عظيمَ القدرِ مُقَدَّماً عندَ السُّلطان».

وهكذا نجدُ ذلك الفيلسوفَ الفقيه، قد خاضَ في عُباب العلمِ الإسلاميّ، خاضَ في علمِ الفقه وأُصولِه خَوْضَ العالمِ الفطريّ العميقِ في تفكيرِه، وخاضَ في الأحكامِ العمليةِ والنظام، خَوْضَ المسيطرِ المدْركِ الفاهم، فقد عاشَ قريباً من الحكّام، فعلمَ الأدواء. وعلمَ علاجَها فوصَفَه في كتبِهِ من غيرِ أنْ يذكرَ أنها دواء، بل دوَّنها على أنها غذاء، يستفيدُ منه المرضى والأصحّاء.

نشأتُه وحياتُه:

وُلدَ أبو الحسنِ بالبصرة، وتلقّى علومَه الأُولى بها، وكانتِ البصرةُ مَوْئلَ العربيَّة، وبها علومُ النَّحوِ والأدب، وبها الطوائفُ والفرقُ الإسلامية، ويجري فيها الجدلُ بينَ هذه الطوائف. وهي فوقَ ذلك مُلتقى الأجناس الإسلامية، وتجيء إليها المتاجرُ من الشَّرق، وتجيءُ معها علومُ الهندِ وإيران، ثم هي فوقَ ذلك تُطلُّ على الصحراءِ العربية، حيثُ الصفاءُ والأخلاق التي لا انحرافَ فيها.

تَلقّى العلـومَ المختلفـةَ على مشايـخِهـا؛ تلقَّى علمَ الكلامِ على المعتزلـةِ وعلى الأشَاعِرَة، وتلقَّى الفقهَ الشافعيَّ وأُصولَه، وروى الحديثَ من حُفّاظِه، وعُنِيَ بالقُرآنِ فهماً وحفظاً وفقهاً وتفسيراً.

ثم انتقل من بعدِ ذلكَ إلى بغداد، وفيها المادةُ أغْزر، والبيئةُ أخْصَب، والشيوخُ أكثر، فأخَذَ عنهم وَدَارَسَهم، واستمرَّ يُذاكرُ العلماء، ويُحصِّلُ العلم، حتى بلغَ فيه شأناً يُقْصَدُ فيه إليه، ويجلسُ التلاميذُ بين يديه.

وفي هذه الأثناء اتَّصلَ بالـحُكّام من دولةِ بني بُوَيْه الذين كان لهم السلطانُ الفعلي، وللخليفةِ العباسيّ الحكمُ الاسميُّ، وقد بلغَ بهم الشأنُ أنْ صارَ يُخطَبُ باسمهم، ويُذكرونَ معَ الخليفةِ على المنابر. اتَّصلَ بالسلطان، فكان المقدَّمَ عنده، وكان المقرَّبَ إليه، المسموعَ الكلمةِ لديه.

دراسته لنظام الحكم في الإسلام:

وهو بهذا الاتِّصال كانَ يَدْرسُ نظامَ الحكم، ويقَارِنُ بينَه وبينَ ما يدعُو إليه الإسلام، وما يمكن أن يستخلصَ من الدراساتِ الفقهيَّـة، وما تُرشد إليه القواعدُ الإسلامية، فكان هذا الاتِّصال ـ معَ مَن عَلَوْا المكان ـ مُرشِداً له ومُوجّهاً للدراسة الإسلاميةِ التي تتعلَّق بنظامِ الحكمِ في الإسلام. وكان كتابُه «**الأحكام السلطانية**» ثمرةً لهذه الدراسة كما كان كتاباه: «**قانون الوزارة**»، و«**سياسة الملك**» ثمرةً لهذه الدراسةِ أيضاً، وإنْ كان هذانِ الكتابان فيهما خضوعٌ إلى حدٍّ ما للواقع، بمقدارِ ما كان الأولُ مصباحاً لإصلاح الواقع، ولا خضوعَ فيه.

تَولِّيه القضاء:

تولَّى القضاءَ في بلادٍ إسلاميةٍ من بُلدانِ المشرق، وهي مختلفةُ البيئاتِ مختلفةُ الأعراف. والقضاءُ يفيدُ الفقيهَ خِبْرةً بالناس، وخِبْرةً عمليةً في تطبيقِ الفقه، فإذا كانَ في القضيَّـةِ التي بينَ يديه آراءٌ مختلفة، كلُّ رأيٍ يمكنُ تطبيقُه، فإنه يختارُ منه ما

يُقرِّبُ إلى مألوف الناس، وتحقيقِ العدالة بينَهم. وإذا لم يكنْ في المسألةِ رأيٌ فقهيٌّ يُحقِّقُ العدالة اتَّجهَ إلى الكتابِ والسنَّةِ والقواعدِ الفقهيَّةِ العامة، يَسْتَنْبِطُ منها ما يكونُ أقربَ إلى تحقيقِ العدالة، وتحقيقِ المصلحةِ الشرعية.

وقد كانَ القضاةُ يُختارونَ من الذينَ لهم اجتهادٌ في مذاهبِهم، ولم يكنِ التقليدُ قد قطعَ ذلك النَّوعَ من الاجتهاد، ولذلك كان لأبي الحسن الماوردي اجتهادٌ في فروعٍ فقهيةٍ طبَّقها، لم يكنْ فيها مخالفةٌ للمذهبِ الشافعي، بل فيها تطبيقٌ لأصولِه، وقد دوَّنها المؤرِّخون لذلك الإمام الجليل.

وإنَّ القضاءَ في بلدانٍ كثيرة، قد أعطى ذلك الفقيهَ العظيمَ معرفةً بأخلاقِ الناس، فدرسَ الآفاتِ التي تفسدُ الجماعاتِ الإسلامية، وتنحرفُ بالنفوسِ عن المقصدِ الأسمى، الذي دعاهم إليه الإسلام.

وكان أبو الحسن عميقاً في دراسةِ النفوس، مُتعرِّفاً أدواءَها، ودواءَها، ولم يكنْ مَعَه من علاجٍ إلّا الشَّرعُ الشريف، ومَصَادرُه من قرآنٍ وسنة، وقد جاءَ كتابُه «**أدب الدنيا والدين**» مشتملاً على بيانِ ما يعتري النفوسَ من أدواء، وما يمكنُ أنْ يطبَّ به من دواء.

صفاته:

اتّصفَ أبو الحسن بصفاتٍ جعلتْه في الذِّروةِ بينَ رجالِ العلم عبرَ التاريخِ الإسلاميّ:

وأُولى هذه الصفاتِ: ذاكرةٌ واعية، وبديهةٌ حاضرة، وعقلٌ مستقيمٌ يأخذُ من الجزئياتِ قواعدَ كليّة، ويربطُها برباطٍ من المنطقِ واحد. وقد عالجَ في هذا مسائلَ لم

يسبَقْ بها، كعلاجِهِ لمسائلِ الشَّرعِ في كُتُبِه التي تعرَّضتْ لنظامِ الدولة، فما كان يعتمدُ في ذلك على قواعدَ مقرَّرةٍ ثابتةٍ جمعَها ودوَّنها، بل كانَ يعتمدُ في ذلك على أحاديثَ وأحكامٍ للصحابة، وفروعٍ جزئيةٍ في المذاهب، فجمعَها جَـمْعاً متناسقاً، وربطَ بينها رَبْطاً مُحكماً، وجَعَلها في قواعدَ مضبوطة.

والثانية: اتِّزانٌ في القولِ والعمل، وهذه الصِّفةُ تكونُ كامنةً في النفس، وإنْ وَجدَتْ ما يُنمِّيها نَمَتْ وازْدَهرَتْ، وقد نمّاها اتِّصالُه بالـحُكّام، ورَغْبتُه في إرشادِهم من غيرِ أنْ يدفعَهم إلى جُنوحٍ أو جُموح.

والثالثة: الحِلْمُ وضَبْطُ النَّفس، فكان لا يَـثُورُ ولا يغضب، ويَتَطامنُ لطلابِ العلمِ بينَ يديْه.

والرابعة: التواضعُ وإبعادُ النفس عن الغرور، وكان حَيِّياً شديدَ الحياء، وفيه وَقارٌ وهَيْبةٌ تجعلُ الذين يعاشِرونه يجمعونَ معَ المحبةِ له الهيبةَ من أنْ يقولوا في حَضْرتِه قولاً لا يُرضيه، وما يُرضيه إلّا الحقّ.

والصفةُ الخامسة: الإخلاص. أخلصَ لله تعالى، فكانَ لا يقولُ إلّا حقّاً، ولا يُفْتي بغيرِ الحقّ، لا تأخذُهُ في الحقِّ لَوْمةُ لائم، ولا عَتْبُ صديق، ولا رغبةٌ في إرضاءِ رئيس، وله في ذلك الأخبارُ العَطِرةُ بطيبِ الإخلاص.

حكم التلَقُّب بملك الملوك:

ولنذكرْ واحداً منها: كان أبو الحسن الماوَرْدي صَفِيّـاً لجلالِ الدولة، أحدِ سلاطينِ بني بُوَيْه، وقد أعطاهُ الخليفةُ لقبَ مَلِكِ الملوك، فثارتْ فكرةُ جوازِ هذا اللقبِ من الناحيةِ الشرعيةِ الدينية، فاختلفَ الفقهاءُ في ذلك على ثلاثةِ آراء:

أولُها: الجوازُ على اعتبارِ أنه ملك الملوكِ في الأرض، وليسَ في هذا ما يَمسُّ الذاتَ العليَّة.

والرأيُ الثاني: هذا على حسبِ النيَّـة، فإنْ نوى الناسُ الأرضَ فلا بأس، وإلا فإنه لا يجوز.

والرأيُ الثالث: المنعُ لأنّ هذه الصفةَ لا تليقُ إلّا بذاتِ الله تعالى، وللأحاديثِ الواردةِ بالمنع. واعتنقَ العامَّةُ هذا، وحَصَبوا الـخُطباءَ الذينَ خطبوا، وذكَرُوا هذا في الخطبة.

ولكنْ لا بدَّ أنْ يُبديَ الماورديُّ رأيَه وهو فقيهُ العصر، فوجدَ النبيَّ ﷺ يقول: «اشْتدَّ غَضَبُ الله على مَنْ قتلَ نفسَه، واشتدَّ غضبُ الله على رجلٍ تَسمَّى بملكِ الملوك، لا مَلِكَ إلّا اللهُ تعالى»[1]. ووَجَدَ النبيَّ عليه السلامُ يقولُ في حديثٍ آخر: «أخنعُ اسمٍ عندَ الله تعالى يومَ القيامةِ رجلٌ يُسَمَّى مَلِكَ الأملاك»[2].

ولذلك أفتى الماورديُّ صديقُ جلالِ الدولةِ[3] وصفيُّه بالمنع.

ولكنّ الماوردِيّ رجلٌ فيه حَيَاءٌ وفيه مودّة، وفيه قوةُ دين، ولذلكَ انقطعَ عنِ السلطانِ جلالِ الدولةِ بعدَ هذه الفتوى، فطلبَهُ السلطان، فمضى إليه وهوَ يتوقَّعُ العِقاب، ولكنْ قالَ جلالُ الدولة: «أنا أتحقَّقُ أنكَ لو حَابيْتَ أحداً، لحابَـيْتني، لما بيني وبينَك، وما حَمَلَك إلّا الدين، فزادَ بذلكَ محلُّكَ عندي».

---

(١) رواه مسلم (٢١٤٣) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ولفظه: «أغيظ رجلٍ على الله يوم القيامة وأخبثه وأغلظه عليه، رجلٍ كان يُسمّى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله».

(٢) رواه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢٩٤٣) من حديث أبي هريرة.

(٣) في الأصل: جلال الملك.

كتبه:

ترك أبو الحسنِ الماورديُّ آثاراً علميةً خالدة، منها كتاب «الحاوي» في الفقه الشافعيّ، وقد تعرَّضَ فيه لدراسةٍ فقهيَّة مقارنة، وهو مخطوطٌ يعملُ المجلسُ الأعلى لرعايةِ الفنونِ والآدابِ والعلومِ الاجتماعيةِ بالقاهرة، على تحقيقِه وإخراجِه. وله كتبٌ في الأُصول والفروعِ وغيرِه، وله كتابُ «التفسير»، وله في كلِّ فروعِ العلمِ الإسلاميّ كتبٌ قيمةٌ تمتازُ بجودةِ التعبير، وسلامةِ التفكير.

ولكنّ كتابيْن أخرجَتْهما المطابعُ المصرية قد انفردا من بينِ الكتبِ الإسلامية بخواصَّ ليستْ في غيرِهما، وهما كتابُ «**الأحكام السلطانية**»، وكتابُ «**أدب الدنيا والدين**».

كتابُ «الأحكام السلطانية»:

أمّا الأولُ منهما فقدْ تكلّمَ فيه عن نظامِ الدولةِ في الإسلام، مُعتمداً فيما يقولُ على الكتابِ والسنَّةِ وعملِ الصحابة. تكلّمَ في الولايةِ العُظْمى، وهي الخلافةُ وشرطُ الإمام وسلطانُه، وتكلَّمَ على الولاياتِ التي تَـتَشعَّبُ من الولايةِ العُظمى، كولايةِ القضاء وولايةِ الجهاد، وولايةِ الشرطة، وولايةِ الصَّدقة، وولايةِ الـخَرَاج، وولايةِ المظالم، وقد أتى في هذا بكلامٍ سبق به من تكلَّموا في نظام مجلسِ الدولة، وأحكم القول في ذلك أيَّما إحكام، وتكلم في ولايةِ الـحُسْبة وأحكامِ الـمُحْتَسِب، وتكلَّمَ في أحكامِ الأراضي والأقطاع، وهو في كلِّ هذا مُسيطرٌ على كلِّ ما يكتبُ يستمدُّ من المصادر الإسلامية الأصيلة. وتكلَّمَ عن أقطاعِ النَّبيِّ ﷺ، وأقطاعِ الـخُلفاءِ من بعدِه. وقد تعرَّضَ في هذا الكتابِ لكثيرٍ ممّا يُعدُّ أصلاً في بابِ التكافلِ الاجتماعيّ في الإسلام.

كتاب «أدب الدنيا والدين»:

وأمّا الكتابُ الثاني، وهو كتابُ «أدب الدنيا والدين»، فقد عالجَ فيه آفاتِ المجتمعِ علاجاً قد اتَّخذَ عناصرَ دَوائِه من الكتابِ والسُّنَّـة، وحِكَمِ الفُرْس، وأشعارِ العرب. وقد ابتدأَ كتابَه ببيانِ سببِ الانحرافِ في النفوس ـ وهو الهوى ـ وأخذَ يعالجُه، وما يترتَّبُ عليه، ويتكلَّم في الفضائل الإسلامية، والرذائل التي يَنْبُو عنها الـخُلُقُ الإسلاميّ. وهو في كلِّ موضوعٍ من موضوعاتِ الكتاب، يستشهدُ بالكتابِ والسُّنَّـة، والتَّحليلِ النفسيّ والأشعارِ العربيَّـة، حتى إنه ليجدُ فيه كلُّ باحثٍ في موضوعٍ من الموضوعاتِ الـخُلُقية ما يَسْتَشْهِدُ به من مصادرِ الإسلام، والأدبِ العربي.

وإنه ليصلُ إلى القمَّةِ أحياناً في التَّحليلِ الـخُلُقيّ، فيذكرُ مثلاً علاجَ النفس، أيكونُ بالإرهابِ والتخويف، أم يكونُ بالتأليفِ والترغيب، ويذكرُ أثرَ كلٍّ منهما في النفس، ويشرحُ الاتِّـجاهَيْن، وينتهي إلى أنه لا بدَّ من عُنْصري التَّرغيبِ في حُسْنى عاقبةِ الخير، والترهيبِ من سوءِ العاقبة.

وهكذا نجدُ الماوَرْدي منْ أَقوى الرجال أثراً في الفكرِ الحاضر، وقد أخرجتْ وزارةُ المعارفِ بمصر كتابَ «أدب الدنيا والدين»، وكان يطالعُه طلبةُ المدارسِ الثانوية، ولا ندري لماذا لا يُعادُ طبعُه، وهوَ من أغْزرِ الآثارِ العربية، واللهُ وليُّ التوفيق.

* * *

ابنُ حَزْم[1]

(٣٨٤-٤٥٦هـ)

بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاته

في مزرعةٍ خِصْبةٍ من مزارعِ الأندلُس، غُصْن الإسلامِ الرَّطيب، كان يُقيمُ عالمٌ شيخٌ قد تجاوزَ السبعين من عُمُرِه، أقْصَاه الملوكُ عن قُربِهم إلى أن انتهَوْا به إلى هذهِ المزرعة، وهو لا يني عن نقدِهم. حرَقُوا الكثيرَ من كُتُبه، وقطعُوه عن الناس، فلم يَنْثَنِ عن لوْمِهم، وكلما زادوه إعناتاً زادهم عُنْفاً في القولِ والقَلَم. والشبابُ من طلاب العلم ينتقِلون إلى مُستقرِّه، لا يخافون عقاباً، ولا يرجُونَ من أُولي الأمرِ ثواباً، لينتهِلوا من ذلك المنهَل، والشيخُ يُحدِّثهم ويُعلِّمُهم الفقهَ والأدبَ والتاريخ، ولا يدعُ المثابرةَ على العلم، والمواظبةَ على التأليف، حتى ينتهيَ أجلُه في شعبانَ من سنة ٤٥٦هـ فتكونُ تلك المزرعةُ الخصبةُ مثواه الأخير.

ذلك العالمُ العنيدُ القويّ، هوَ عليُّ بنُ سعيدِ بنِ حَزْم، وكان يُسمّي نفسَه أبا محمد.

مولدُه ونشأته:

لا يكادُ الباحثُ الدارسُ لتاريخِ العلماءِ المسلمين يجدُ عالماً قد عُرِف تاريخُ مولدِهِ على وجهِ التَّعيين، لكنَّ ابنَ حزمٍ عُرِفَ وقتُ مولدِه بالساعةِ واليومِ والشهرِ

(١) مجلة العربي: العدد ٥٧، عام ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م.

والسنة، فقد ذكر هو أنّه وُلِد في آخرِ يومٍ من أيامِ رمضان سنةَ ٣٨٤هـ، وكانت ولادتُه بعدَ الفجر، وقبلَ طلوعِ الشمسِ من تلك الليلة.

وقد كانت أُسرتُه من أقْدمِها في الإسلام إلى أنْ تصلَ السِّلسلةُ إليه، تعيشُ في كَنفِ البيتِ الأموي في دمشق، ولما انتقلَ البيتُ الأُمويُّ إلى الأندلسِ انتقلتْ مَعَه، واستمرَّتْ في ولاءٍ ومعاونةٍ له. وكان أبوه وزيراً في إحدى ولاياتِ الأندلُسِ في الحكمِ الأُمويّ، وتولّى هو ذلك المنْصبَ في وقتٍ قصيرٍ لبعضِ أُمرائِهم.

وقد نشأ هو في بُحبوحةٍ من العيش، وعزٍّ من السُّلطان، وكان يعيشُ عيشَ أهلِ الثَّراء، وإنْ ضُيِّقَ عليه في أُخْرياتِ أيَّامِه. وكان يَعْتزُّ بأنّه طلبَ العلمَ لذاتِ العلم، يرجُو به ما عندَ الله فلا يطلبُ به جاهاً ولا عزّاً. وقد قال له الباجيّ ـ من كبار فقهاء الأندلس ـ: «إنَّك نِلْتَ العلم، وأنتَ تَسْهرُ بمِشْكاةٍ من الذهب، وأنا أسهرُ بقنديلٍ بائتاً بالسوق»، فقال ابنُ حزم: «إنك طلبتَ العلم، وأنت في هذه الحال رجاءَ تبديلِها بمثلِ حالي، وأنا طلبتُه.. لم أرجُ به إلّا عُلوَّ القدرِ العلميِّ في الدنيا والآخرة».

يتعلَّمُ من الجواري:

نشأ ربيبَ النعمةِ هذا فاكهاً فيها، فاسْتُحفظ القرآنَ في بيتِه، حَفَّظه إياه النساءُ من الجواري. ولنتركْه يروي ذلك، فهو يقول: «لقد شاهدتُ النِّساء، وعلمْتُ من أسرارِهنَّ ما لا يكادُ يعلمُه غيري، لأني رُبِّيتُ في حُجورِهنّ، ونشأتُ بينَ أيديهنّ، ولم أعرفْ غيرَهُنّ، ولا جالستُ الرجالَ إلّا وأنا في حدِّ الشباب.. وهُنَّ علَّمْنَني القرآن، وروَّيْنني كثيراً من الأشعار، ودرَّبْنني في الخط».

وإنّ هذا السياقَ يدلُّ على أنّ أولئك الجواري كُنَّ مثقَّفاتٍ ثقافةً واسعة، فهو يقول: إنهُنَّ علَّمْنَه القرآن، ولم يقلْ إنهنَّ حَفَّظْنَه، لأنَّ تعليمَ القرآنِ أكبرُ من تحفيظِه، إذْ تعليمُه بيانُ بعضِ معانيه، وفيه تعرُّضٌ لبعضِ أسبابِ النزول، فهوَ لم يحفظِ القرآنَ غيرَ فاهم، بل حفِظَه ابتداءً فاهِماً له، مُدْرِكاً لمعانيه في الجملة، وعلى قَدْرِ طاقتِه في سنِّه.

ولم يكنْ بعيداً عن أبيه، بل كان أبوه ملاحظاً له، مَعنيّاً به، يُراقبُ ميولَه واتِّجاهاتِه، ويحرصُ على أنْ ينشأ عفيفاً قويَّ النفس معَ تلك النشأةِ الناعمة، حتى لا تعتريَ نفسَه طراوةُ مَنْ ينشأ بين النساء.

إلى الشيوخ بعد الجواري:

بعد أن أخذتْ نيرانُ الصِّبا وغرارةُ الفتوَّة، وشِرَّةُ الحداثة، تتَّجه إلى نفسه وتتأجَّجُ فيها، أخذه أبوه وأسْلَمَه إلى بعضِ الشيوخ، واخْتَصَّه بعالِمٍ اتَّسمَ بالتقوى، قد قال ابنُ حزمٍ في وصفِه: «كان عاقِلاً عالِماً عامِلاً مِـمَّن تقدَّمَ في الصَّلاحِ والنُّسُكِ الصحيح، والزهدِ في الدنيا، والاجتهادِ للآخرة، وأحسبُه كان حَصوراً، لأنَّه لم تكنْ له امرأةٌ قطّ، وما رأيتُ مثلَه جملةً علماً وعملاً وديناً وورعاً، فنفعني اللهُ به كثيراً، وعلمتُ موضعَ الإساءةِ وقبحَ المعاصي».

استمرَّ ابنُ حزمٍ يعيشُ تلك الحياةَ الناعمةَ الهادئة، ويَتَعلَّمُ العلمَ في رفْقٍ وهُدوءِ بال، لا يُرنِّق حياتَه مُكدِّر، بل في اطمئنانٍ واستقرار، وفي ذلك الوسط، تربّى كما يتربَّى أبناءُ الأُمراء، وتَثَـقَّف كما يَتـثَـقَّفون، حَفِظَ القرآن، وتعلَّمَ علومَه ومعانيَه، وحفظِ قدراً منَ الشعر، واتَّجه إلى أفاضلِ الشيوخِ يأخذُ من مناهِلهم النديَّة.

من الحياةِ الناعمةِ إلى الشدَّة:

ولكنَّ ذلك العيشَ الناعمَ الهادئَ تبدَّل، إذْ تبدَّلتْ حالُ أبيه، فقد كانَ أبوه وزيراً، وقديماً قال الحكماء: «مَنْ أكلَ من مالِ السلطان، فقد سَعى بقدمِه على دمِه». وكانتْ وزارةُ أبيه في آخرِ عهدِ الأُمويين بالأندلس، أيْ وقتَ أنْ ضَعُفَتْ أيديهم عن الاسْتمساكِ بصَوْلجانِ الـحُكْم، ووقوعه في قَبْضةِ أحدِ وزرائِهم أبي منصورٍ العامري، واسْتبدادِهِ بالأمرِ دُونَهم، فأنزلَ أبوه من مَنْصبِ الوزير، وامْتُحنَ بالاعتقالِ والتَّغريب، حتى مات وهو في هذه الشدَّة، ولْنتركِ الفتى الناعمَ يقصُّ علينا النِّقْمَةَ بعدَ النِّعْمة: «شُغِلْنا بعدَ قيامِ أميرِ المؤمنين هِشامٍ المؤيَّدِ بالنكبات، وباعتداءِ أربابِ دَوْلتِه، وامتُحنّا بالاعتقالِ والتَّغريب، والإغْرامِ الفادحِ والاستتار، وأرْزَمَتِ الفِتنة، وألقتْ باعَها، وعمَّتِ الناسَ وخَصَّتْنا، إلى أنْ تُوفِيَ أبي الوزيرُ رحِمه اللهُ ـ ونحنُ في هذه الأحوال ـ بعد العصر لليلتين بقيتا من ذي القَعدة عامَ اثنتيْن وأربعمئة».

اسْتمرَّتِ الشدَّةُ بعدَ وفاةِ أبيه، ولم تنقطعْ، وأخذ يحملُها وحدَه، بعد أنْ كان في احتمالِها تابعاً لأبيه، وتتابعَتِ الشدائِد، حتى أُخرِجوا من قُرطُبَةَ مكانِ عزِّهم، ويقولُ في ذلك: «وضَربَ الدهرُ ضرباتِه، وأُجلينا عن منازلِنا، وتغلَّب علينا جندُ البربر، فخرجتُ عن قُرْطُبَةَ أولَ المحرَّمِ عامَ أربعٍ وأربعمئة».

نزلتْ هذه الشدائدُ والغلامُ لم يتجاوزِ الثامنةَ عشرةَ من عُمُره، وقد صَقَلَتْه، وكانت ابتداء حياة جديدةٍ له، فقد انتقلَ من غلامٍ ناعم، إلى رجلٍ مكافحٍ مناضل، يخاصِمُ في الفقه، فيصبُّ على خَصْمِه الـجَنْدَل، ويَسيطُه ماءَ الـخَرْدَل، كما وصفه معاصِروه.

إلى العلمِ وحدَه:

انصرفَ إلى العلم بكليَّتِه، واختارَهُ مِنْ بَعْدُ بإرادتِه، لِيُعوَّضَ عن مَنْصبِ الوَزارةِ عرشُ العلم، فأخذَ يدرسُ الحديثَ ويرويه، يأخذُه من الشيوخ، ويأخذُه من الكتب، حتّى حصلَ على أكبرِ مجموعةٍ من علمِ الرسول ﷺ، ومن فقهِ الصحابة، ثم أخذَ يدرسُ الفقه، ووصل فيه إلى القِمة، وكان يحب منه ما يكون ضاحياً واضحاً، ولذلك اكتفى بأخذِ الأحكامِ من النصوص، من غيرِ بحث عن عِلَّةٍ لها، ولا تَعرُّفٍ لغاياتِها، فاختارَ المذهب الظاهريَّ له مَذْهباً، وهو المذهبُ الذي يرفضُ الأخْذَ بالرأي في الأحكامِ الشرعيَّـة، ولا يُحاولُ تعليلَ النُّصوص، بل يرفضُ ذلك رَفْضاً باتاً.

والإمامُ الأولُ لهذا المذهبِ هو داودُ الظاهريُّ الأصفهانيّ، وإمامه الثاني ابنُ حزم.

ولُقِّبَ بالظاهريّ لاخْتيارِه ذلك المذهب، وقد تَشَدَّد فيه أكثرَ من إمامِه الأول، وساعدَهُ على التَّشدُّدِ إحاطَـتُه الواسعةُ بأحاديثِ رسول الله ﷺ، ثم معَ ما عَرَضَ له من حِدّة، لازمتْه نحواً من ثلاثين سنة.

ولم يَشْغَلْه عن العلمِ بعدَ أنْ نُكِبت أسرتُه، وحَمَلَ العبءَ الكاملَ مِنَ الآلام، إلّا وقتاً قصيراً اشتغلَ فيه وزيراً لأحدِ الذين ظهرُوا من بني أُمية، فدفَعَه ولاؤه لهم إلى معاونتِه، ولكنْ سرعانَ ما زالَ ملكُ ذلك الذي ظهر، وتتابعتِ النكباتُ على ابنِ حزم، ثم عادَتْ إليه هَدْأة العالِـمِ الذي يعكفُ على الدرس.

ولكنه معَ ذلك كانت في نفسِه قوّةٌ دافعةٌ إلى الحركة، لا يمكنُه أنْ يستقرَّ في صَوْمَعة، ولذلك اندفعَ إلى الرحَلاتِ، ووجد في هذهِ الحركةِ ما يُنمِّي به علمَه، وما يُشْبعُ به نفسَه، فانتقلَ من قُرطبةَ إلى الـمَرِيّـة طلباً للاطمئنان، وانتقلَ من بعدُ إلى

مدينةٍ يُقالُ لها الحِصْن، ثم انتقلَ إلى بلنسية، ثم عاد إلى قُرْطُبة حَنيناً إلى المغاني التي تربّى فيها وترَعْرَع، ثم انتقلَ إلى الشاطبةِ وأقامَ في منازلَ كانتْ لأسرتِه بها، وانتقلَ إلى قَيْروان.

وفي كلِّ مكانٍ يلتقي فيه بعلمائِهِ، يناقشُهم ويُناقشونه، ويَسْتأنسُ بأهلِ الودِّ منهم، ويَـخْتَلِبُ الشباب بآرائِه الجديدة، وبحُلوِ عباراتِه، واتّساع آفاقِه في غيرِ الفقه، وهو يكتبُ ويُدوِّن حتى أخرجَ مجموعةً علميةً رائعة.

إحراقُ كتبه:

لقد كان ابنُ حَزْمٍ العالم، أُمويَّ النَّـزْعةِ في وقتٍ زال فيه سلطانُ الأُمويين، ولم تكنْ محاولاتُه في الفقه فقطْ بل كانت مُحاولاتُه في التاريخِ واسعة، فكان يُدوِّنُ حوادثَ عصرِه بما يراه، لا بما يرون، لا يهمُّه رضَا أحد أو سَخَطُ أحد، وفي أولئك الذين يذكرُ في شأنِهم ما يراه، أمراء يحكمون، فلم يجدُوا سبيلاً لمنْعِ اسْترسالِه إلّا أنْ يأمرُوا بإحراقِ كتبه فحرَّقوها، ولكنّه يقبلُ التحدّي بالتحدّي، فيقولُ في قوَّةٍ وعنف:

وإنْ تَحرِقــوا القِرْطــاسَ لا تَحرِقــوا ... تضمَّنَه القِرطاسُ، بل هُوَ في صَدْري
يسيرُ معي حَيــثُ اسـتقلَّتْ رَكـائِبي ... ويَنْـزِلُ إذ أنـزل ويُـدْفَنُ في قَـبْري

ولم تكنِ النقمةُ عليه من الأمراء، بل كانت النقمةُ أيضاً من العلماء، فقد كانَ أكثرُ علماءِ الأندلسِ يعتبرُ مذهبَ الإمام مالكٍ ديناً، ويعتبرون مالكاً فوقَ قدرِ الرِّجال، حتى إنّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنه بلغَهُ أنّهم كانوا يَسْتَسْقُون بقَلَنْسُوَةٍ للإمام مالك[١].

---

(١) يستسقونَ: أيْ يطلبون من الله تعالى أنْ يُمطِرَهمْ بدعاءٍ وضَراعة، وكان الناسُ في عهدِ النبي ﷺ يستسقون بدعائِه، وفي عهدِ عمرَ استسقَوْا بدعاءِ العباسِ عمِّ النبيِّ ﷺ. (أبو زهرة).

فهاجم ابنُ حزمٍ مذهبَ مالك، ولم يَسْلَمْ مالكٌ من قلمِه. وكلّما ازداد استنكارُهم ازدادَ عنفاً وحِدّةً على المذهبِ المالكيِّ وصاحبِه، فَكَثُرَ الأعداء، وقلَّ النُّصراء، ولم ينهجْ في نشرِ علمِهِ منهجَ المودّة، بل المعاندة، حتى لقد قال فيه بعضُ معاصِريه: «علِمَ العلمَ ولم يعلمْ سياسةَ العلم».

سَجَاياه ومزاياه العلميَّة وحدّته الشديدة:

آتى اللهُ ابنَ حزم حافظةً واعية، وجَلَداً في طلبِ العلمِ، جعلهُ يَسْتوعبُ أكبرَ قَدْرٍ من علمِ السنَّة، والآثار، واختلافِ الفقهاء، وأكبرَ قَدْرٍ من روايةِ الشعر، وأخبارِ التاريخ، وكان مَعَ هذا الاستيعابِ حاضرَ البديهة، تجيء إليهِ المعاني البعيدةُ في أوقاتِ الحاجةِ إليها. ثم كانَ عميقَ النظرِ في الدراسة، مَعَ أنَّه لم يأخذْ في الفقهِ بالرأي. وعمقُه قد بدا في دراستِه للنفوس فكان يُحلِّل ويَتَعمَّقُ في التَّحليل، وقد بدا ذلك واضحاً كلَّ الوضوح في رسالتِه «طوق الحمامة» التي درسَ فيها العشقَ وأسبابَهُ وظواهرَه، وبدا أيضاً في رسالتِه «مداواة النفوس»، ثم بدا في تحقيقاتِه التاريخية.

وقد آتاهُ اللهُ معَ هذه المزايا العلمية، إيماناً قوياً بالله، وإخلاصاً واضحاً في طلبِ الحقيقة لا يهمُّه في بيانِ ما يصلُ إليه رضا أحدٍ أو غضبُ أحد، وكانَ عاليَ الهِمّة، لا ينماعُ في غيرِه، تزيدُه قوَّةُ خصمِه عُلوّاً، لا يَسْتخذي[1] ولا يَضْعُف، ولا يتَّبعُ إلا مَصَادرَ الشرع، يعلو على الشديد، ولا يستسلِم، ويعلو في المقاومة، ولا يهِنُ ولا يَضعُف.

وكانَ معَ كلِّ ذلك فيه حدّةٌ شديدةٌ في القول، فكان إذا ردَّ قولاً رماهُ بالشناعة، ورمى صاحبَه بالخروجِ على الدين. ولكنْ لماذا كانت هذه الحدَّة، وهل لازمتْه في كلِّ

(١) أي: يخضع.

أدوارِ حياتِه؟ والجوابُ عن ذلك أنّه يبدو من كتابيْه «طَوْق الحمامة» و«مداواة النفوس» أنه لم تنشأ معَه الحِدَّة كطبعٍ فيه منذُ طفولتِه، فقد كانَ هادئَ النفس، مُشْرقَ القلب، حتّى بعدَ أنْ نزلتِ النَّـكباتُ في أُسرتِه. ولكنِ اعْتَرَتْهُ الحِدَّةُ لمرضٍ أصابه، ويقول هو فيه، في تبدُّل حالِهِ بسبب المرض: «لقد أصابتني عِلّةٌ شديدةٌ، ولَّدتْ فيَّ ربواً في الطِّحالِ شديداً، فولَّد ذلك عليَّ منَ الضَّجر، وضيقِ الحال، وقلّةِ الصبرِ والنَّـزَق، أمراً جاشَتْ نفسي فيه. إذا فكَّرْتُ تبدَّلَ خُلقي، واشْتدَّ عَجَبي من مفارقتي لطبعي، وصحَّ عندي أنّ الطِّحالَ مَوْضعُ الفَرَح، وإذا فَسدَ تولَّدَ ضدُّه».

هذا تحليلٌ عميقٌ لنفسِه، ولو أنه بيّنَ لنا التاريخَ الذي أُصيبَ فيه بهذه العلة، لعلمنا من أيِّ وقتٍ ابتدأتْ حدّتُه، ولكنّا نعلمُ أنّه قضى أكثرَ شبابِه وهو لم يُصَبْ بهذه العلة، لأنّ رسالتَه «طوق الحمامة» تدلُّ على نفسٍ مُشْرقةٍ هادئةٍ راضيةٍ مُحبةٍ للحياة، وإنه يثبتُ من ثنايا هذه الرسالةِ أنه كتبها بعدَ أنْ تجاوزَ الثالثةَ والثلاثين، بل ربما كانت كتابتُها وهو في حدودِ الأربعين، فالحِدّة جاءتْ وهو في حدودِ الأربعين، وفي هذه المدةِ الأخيرة أنتجَ أكثرَ كتبِه الإسلاميةِ والتاريخية، مثلُ كتابِ «الفصل في الملل والنِّحل»، ومثلُ كتابِ «الإحكام في أصول الأحكام»، والمدوَّنةِ الإسلاميَّـةِ الكبرى، وهي «المحلَّى» الذي يُعْتَبرُ أعظمَ كتابٍ جامعٍ لفقهِ السنَّـةِ والآثار. والعنفُ في القولِ بادٍ فيها جميعاً، ولو أُبعدتْ منها حدّةُ القول، بل الشتائم، لكانت نُوراً مُشْرقاً.

رسالتُه في «مداواةِ النفوس»:

هذه الرسالة كتبها في الأخلاق، واعتمد فيها على ما كانَ مشهوراً عندَ العربِ من فلسفةِ أرسطو، وعلى تجاربِهِ الخاصَّة، وملاحظاتِه لشؤون الناس، ولذلك كانت

الرسالةُ شاملةٌ للنظرةِ الفلسفيَّـة، والناحيةِ العمليَّـة، وقد اشتملتْ على وَصَايا رائعة، ابتدأها بالكلامِ في مقياسِ الخيرِ والشرّ، وقد مزج فيها بينَ نظريةِ أرسطو في أنّ الفضيلة وَسَطٌ بينَ رذيلتيْن، كما يقول: «إنَّ الفضائل ترجع إلى أربعةِ أصول، هي: العدلُ، والعقلُ، والشَّجاعةُ، والسَّخاء» ويقاربُ بذلك أفلاطون. ثم يتَّجهُ إلى القُرآنِ والسنّةِ يَسْتقي منهما. ثم يتَّجهُ إلى تجاربه، فيقول: «إني جمعتُ في كتابي هذا معانيَ كثيرةً، أفاد فيها واهبُ التمييز تعالى بمرور الأيام وتَعَاقُب الأحوال».

وإنَّ تجاربَهُ لَعظيمة، لِتقلُّبِ الأحوالِ عليه، ولرحلاتِه الكثيرة، ولابتلائِه بمعاداةِ الناس، معَ ذكاءٍ نافذٍ وقلبٍ مستيقظ، ولسنا بمقامِ الاقتباسِ من هذه الرِّسالة، فإنّ فيها مواضعَ كثيرةً صالحةً للأخذِ والاقتبـاس، وتعدُّ في ذاتِها جواهرَ فريدة، ونكتفي منها بكلمةٍ واحدةٍ جاءتْ في الرسالة، وهي الثقةُ بِمَنْ له دينٌ ولوْ كانَ مخالفاً، وعدمُ الثقةِ بمَنْ لم يستمسكْ بدينِه ولو كانَ موافِقاً، فيقول: «ثِقْ بالمتديِّن، وإنْ كانَ على غيرِ دينِك، ولا تَثِقْ بالـمُسْتَخفّ، وإن أظهرَ أنّه على دينِك. مَنِ اسْتَخَفَّ بحُرُماتِ الله تعالى، فلا تأمنه على شيءٍ تُشْفِقُ عليه».

طَوْقُ الحمامة:

هذه الرسالةُ تصدّى فيها ابنُ حزمٍ لدراسةِ النفسِ الإنسانية فيما تُحبُّ وتأْلَف، ولذلك ذكَرَ أنّ موضوعَها الألفُ والأُلّاف وقد كتبها إجابة لطلبِ صديقٍ له، وقد ذكر لصديقِهِ أنّه كتبها ليتَسلّى بها مَعَه، وإن كانَ ما فيها حقاً، فيبرِّرُ كتابتَها بما رُوِيَ في الآثارِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أريحوا النفوسَ فإنها تَصْدأُ، كما يَصْدأُ الحديد»[1].

---

(١) لم يصح ذلك عن النبيِّ ﷺ. نعم وَرَدَ من حديث ابن عمر في «شُعب الإيمان» بسند ضعيف: «إنَّ هذه القلوب تَصْدأ كما يَصْدأ الحديد. قيل: وما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن وذكر الموت». =

وقد ابتدأ الرسالةَ بتحاليلَ تَصِفُ الـحُبَّ وسببَه، فذكر أنّ سببَ الحبّ تجانُسٌ نفسيّ، يجعل الـمُحبَّ يَأْنسُ بحبيبِه ويسكنُ إليه، ويسندُ ذلك إلى المناسبةِ بينَ النفسَيْنِ في مَقرِّ عالَمِهما العُلويّ، ويَتْلو في ذلك قولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ويقولُ في ذلك: «صحَّ بذلك أنّ الحبَّ اسْتحسانٌ روحانيّ، وامتزاجٌ نفساني»، ثم يقول: «ومن الدليلِ على ذلك أنّك لا تجدُ اثنينِ يَتَحابّانِ إلّا وبينَهما مُشَاكَلةٌ واتِّفاقٌ في الصفاتِ الطبيعيَّة، لا بُدَّ من هذا وإنْ قلّ، وكلَّما كثرتْ الأشباه، زادتِ الـمُجَانَسَة، وتأكَّدتِ المودّة».

ويسترسلُ بعدُ في أخبارِ الـمُحبِّين، ويُحلِّـلُ الوقائعَ تحليلاً دقيقاً، ولا يتمنَّع حتى عن ذِكْرِ واقعاتِ فسْقٍ ويُحلِّلها، ثم يُبيِّنُ مراتبَ الحب، ويُثبتُ أنّ أعلاها ما بُنِـيَ على الارتباطِ الرُّوحيّ، دونَ الجسديّ، ويُفرِّق في تحليلِه بينَ الحبِّ والاشتِهاء، ويُبيِّنُ أنَّ الحبَّ لا يكونُ إلّا لواحد، أمّا الاشتهاءُ فيكونُ لغيرِ واحد، وبعدَ أنْ يخوضَ هذا الخوْض، يُحلِّل نفسيَّـةَ المرأة، وأنّهـا مهما تكنْ من الصَّلاح متى أحسّتْ أنّ رجـلاً يسمعُها أحدَثَتْ ما يُوجِّه النظرَ إليها، ولخشيةِ أنْ يُتَّهمَ بعدَ ذلك في دينه يقول: «إني أُقسِمُ بالله أني ما حَلَلْتُ مِئزَري على حرامٍ قطّ».

والرسالةُ مكتوبةٌ في أسلوبٍ من النثرِ الفنيِّ الرائع، السهلِ الممتنع، رحِمَ اللهُ ابنَ حزم لقد كان واسعَ الآفاق، فأفادَ بعلمه، وعفا اللهُ عنه.

= ولعل الأستاذ أبا زهرة يريد الاستدلال بحديث علي: «أَجِـمُّوا هذه القلوب، فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان».

وورد من حديث أنس رفعه: «روِّحوا القلوب ساعة وساعة» رواه الديلمي وأبو نُعيم والقضاعي. ويشهد له ما في صحيح مسلم (٢٧٥٠): «يا حَنْظلة ساعةً وساعة».

ابن خَلْدون والفقه والقضاء[١]

مقامه في التاريخ والاجتماع والفقه والقضاء:

إذا ذُكر ابنُ خلدون تَسَارع إلى الأفهام مقامه في التاريخ والاجتماع، وسَبْقه إلى وضع قوانين في فهم المجتمع، وفي سَيْر التاريخ، وفي تنقُّل الأمم من حال قوة إلى حال ضعف، والعصبيَّـة ومقامها في الملك والسلطان، بل في الخلافة الدينيَّـة. ولا يكاد أحدٌ يتصوَّر أنَّ ذلك المؤرِّخ العظيم له مقام في الفقه والقضاء، وأنه قضى نحو أربعة وعشرين عاماً من سنيِّ نُضْجه الكامل يتردَّد بين تدريس الفقه وتولِّي القضاء، وأن له سياسة في القضاء اخْتُصَّ بها من بين قضاة المسلمين، وأنَّ له آراء في الفقه، وإن لم تكن كثيرةً أو ترفعه إلى مرتبة الفقيه المتقن.

دراسته الحديث النبوي الشريف:

بل إنه يستولي العجب على من يعرف ابن خلدون من تاريخه ومقدِّمته فقط أنه كان يدرس الحديث، ويذكر روايات «الموطأ»، ويوازن بينها، ثم يذكر سند روايته حتى يصل إلى راويه الأول عن مالك، وإن كان في كل ذلك لم يبلغ شأو المحدِّث المتقن الحافظ.

---

(١) أعمال مهرجان ابن خلدون المنعقد في القاهرة من ٢ إلى ٦ يناير ١٩٦٢م ـ منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ص٦١١-٦٣٨.

بين ابن خلدون وابن رُشْد:

ولعله يتقارب في ذلك مع ابن رُشْد الفيلسوف، فإنه كان فقيهاً مع أنه كان فيلسوفاً، بَيْد أن ابن رُشْد ترك آثاراً فقهيَّـة في المقارنة بين المذاهب وإن كان النقل فيها عن المذاهب الأخرى يحتاج إلى تحرير، وابن خلدون لا نعرف له أثراً في الفقه، وإن أُثرت عنه بعض الفتاوى.

وفي الحق إنَّ شهرة ابن خلدون في التاريخ والاجتماع الذي أتى فيه ببحوثٍ بديئة لم يُسبق بها هو الذي جَعَل الناس يَنسَوْن اشتغاله بالفقه والحديث والقضاء، وينسون أنَّ نشأته الأولى كانت في الفقه والحديث.

نشأتـه:

نشأ ابن خلدون نشأة دينية كَكُلِّ أبناء العصر الذين ينتمون إلى أُسر لها شأن ومكانة، وقد حفظ القرآن العظيم، وقرأه بالقراءات السبع المشهورة. ويقول في ذلك: قرأتها إفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة ثم جمعتها في ختمة واحدة.

وقد نُشِّئ على العلم بالحديث، فقد قرأ كتاب «التَّقَصِّي لأحاديث الموطأ» لابن عبد البر، وهو كتاب اقتصر فيه صاحبه على أحاديث الموطأ، دون الفتاوى المأثورة عن الصحابة والتابعين، ذلك أنَّ الموطأ يجمع بين الأحاديث والفتاوى والآراء، ولذا قال في مقدِّمته عن الإمام مالك واصفاً فقهه: «أما أكثر ما في الكتاب، فرأي لَعَمْري ما هو برأي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل، والأئمة المقْتَـدَى بهم الذين أخذتُ عنهم، وهم الذين كانوا يتَّقون الله وكَثُر عليَّ، وكان رأيهم مثل رأيي، مثل رأي الصحابة الذين أدركوهم عليه، وأدركتهم أنا على ذلك، فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا، فهو رأيُ جماعة مـمَّن تقدَّم من الأئمة».

وقد دَرَس في الفقه وهو صغير مختصرَ ابن الحاجب في الفقه المالكي، ولكنه لم يكمله حفظاً كما ذكر ذلك عن نفسه.

شيوخه في تونس والوافدين إليها:

ولقد عاش مع ذلك في بيئة فقهية قد صوَّرها، فقال:

«أخذتُ الفقه بتونس عن جماعة، منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجيَّاني، وأبو القاسم محمد القيصر، فقرأتُ عليه كتاب «التهذيب» لأبي سعيد البَـرَاذِعي، ومختصر المدوَّنة، وكتاب[1] المالكية، وتفقَّهت عليه، وكنت خلال ذلك أنتاب مجلسَ شيخنا الإمام، قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، مع أخي محمد رحمة الله عليهما، وأفدتُ منه، وسمعتُ عليه في أثناء ذلك كتاب «الموطأ» للإمام مالك، وكانت له فيه طرق عالية... إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلهم سمعت عليه، وكتب لي وأجازني». ...ويذكر البيئة الفقهية التي عاش فيها: «كان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك إفريقية سنة ٧٤٨ جماعة من أهل العلم، كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمَّـل بمكانهم فيه». وقد ذكر هؤلاء العلماء وفقههم، ومقدار إفادته منهم.

سُئل الإمام أبو حنيفة: من أين جاءك هذا العلم؟ فقال: كنت في معدن العلم، ولزمتُ شيخاً من شيوخه، وقد تحقَّق ذلك في حياة الإمام حقاً فقد لزم حمَّاد ابن أبي سُليمان، وكان يعيش في الكوفة معدن العلم العراقي، وكان هو يطوف في الأقاليم يلتقط زهور العلم أنى وجدها.

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلها: كتب.

أهمية التزام الشيخ الفقيه الموجِّه:

فهل توافر هذا الشرطان في دراسة ابن خلدون، ولقد وجدناه يعيش في معدن العلم، وبيئة الفقه، ولكن لا نلمح أنه لزم شيخاً من شيوخه كما قال أبو حنيفة، فهل كان لذلك أثر في فقهه، فإن التزام شيخ من الشيوخ ينضج تفكيره، ويُوجِّهه شيخه إلى الطريق المستقيم، وقد عاب هو على ابن حزم أنه لم يتلق العلم من توجيه العلماء، فكان فقهه فجّاً، يحتاج إلى إنضاج، إذ قد عدم الموجِّه الذي يُوجهه.

على أيِّ حال هو لا ينطبق عليه ما قاله عن ابن حزم، لأنه تلقَّى العلم من أفواه الرجال، وإن لم يلتزم شيخاً من شيوخه.

انصرافه عن الفقه والحديث:

من المقرَّرات العلميَّـة أنَّ اتِّـجاه العالم هو الذي يُنمِّي علمه في الناحية التي اتَّـجه، وحياة ابن خلدون منذ بلوغه العشرين من عمره إلى أن بلغ الثامنة والخمسين لم يكن للفقه حظٌّ فيها، فقد اتَّصل بالرؤساء مُعيناً لهم في السياسة، مُتَّجهاً معهم إلى شؤون الملك وتدبيره، وعاش في جوٍّ مُضْطَرب، وقد خاضَ فيه خوضاً عظيماً، وخبَّ وَوَضع في الفتن، ولم يعش على الهامش، فانصرف عن الفقه انصرافاً كاملاً، ولم يفكر في العودة إليه إلا عندما جاء إلى مصر سنة ٧٨٤.

عودته إلى الفقه:

عاد إلى الفقه عندما جاء إلى مصر، وقد يسأل سائل: لماذا لم يكن في مصر مع حكامها من المماليكِ كشأنه مع غيرهم من الأفراد الذين خاض معهم في السياسة والفتن؟ والجواب عن ذلك: أنَّ ابن خلدون كان رجلاً يُـحبُّ العُلوَّ، ولا يرضى بأقل معيشة في الحياة، ولقد قال المقَّري في «نفح الطيب» عن أخلاقه:

«عالي الهمَّة، عَزُوفٌ عن الضَّيْم، صَعْبُ المقادة، قويُّ الجأش، طامحٌ لِقِنَنِ الرياسة، خاطبٌ للحظِّ، متقدِّم في فنون عقليَّـة ونقليَّـة».

رياسة أهل الفقه عند المماليك:

وقد جاء مصر فوجد الرياسة عند العامة لأهل الفقه، وهم الذين ينظر إليهم نظرة الاحترام، فقد كان المماليك ينزلون الفقهاء المنزلة الأولى، فالظاهر بيبرس، كان لا يبتُّ في أمر يعترض عليه عزُّ الدين بن عبد السلام، حتى لقد قال السيوطي في «حُسْن الـمُحَاضَرَة»: «كان الظاهـر منقمعاً في عزِّ الدين بن عبد السلام». ولما مات عز الدين قال الظاهر: الآن أحسَسْتُ بسلطاني. ولكن قام مقام العز محيي الدين النووي، وهكذا نجد الفقهاء كانت لهم المكانة الأولى، والأخبار في ذلك متضافرة.

فلما جاء ابن خلدون العالم وجد أنَّ الرياسة في الفقه والحديث والقضاء فاتَّـجه إليها، وكان قد ملَّ السياسة وعوجاءَها، وأراد أن يعود إلى محراب العلم.

تدريسه بالجامع الأزهر:

ولما جاء إلى مصر لم يتَّصل فَوْر مجيئه بالسلطان، بل اتَّصل بالعلم والعلماء، وكانت شهرته قد سبقته، واتَّـجه إليه طلاب العلم يستمعون إليه، ويقول في ذلك: «لما دخلتها أقمتُ أياماً، وانثال عليَّ طلاب العلم بها يلتمسون الإفادة، مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عُذيراً، فجلستُ للتدريس بالجامع الأزهر».

ولم يذكر ما الذي كان يُلقيه في الأزهر في أول مَقْدمه، إن كان من العلوم العقليَّـة أم من النقليَّـة.

طريقته في التدريس:

ومهما يكن فقد كان درسه في الأزهر سبباً في أن اتَّصلتْ حباله بحبال السلطان، فأبرَّه، ونظر إليه نظرةَ تقدير. ذلك أنه قد جاء الأزهر بمنهاج في الدرس لم يكن فيه إلا قليلاً، وهو منهاج المحاضرة التي كانت تجمع بين استقامة التفكير، وسلامة التعبير، وكمال التوضيح، حتى لقد قال فيه الذين رأوه وعاصروه من علماء الأزهر: «عريٌّ عن العلوم الشرعيَّـة، له معرفة بالعلوم العقليَّـة من غير تقدُّم، ولكنّ محاضرته إليها المنتهى».

وطريقته في التـدريس يتَّجه بها إلى أنه يسلـك مَسْلـك الأقدميـن كالغزالي وفخر الدين الرازي، وهو الاتِّـجاه إلى المعاني مع التوضيح من غير أن يضنَّ على القرطاس بالكلام، وقال في ذلك بعض معاصريه:

«وكان يسلك في إقرائه مَسْلَكَ الـمُتقدِّمين كالغزاليِّ والفَخْر، مع إنكار طريقة طَلَبة العجم، ويقول: إنَّ اختصار الكتب في كلِّ فن والتعبير بالألفاظ.. من مُـحْدَثات المتأخِّرين، والعلمُ وراء ذلك كله».

كان جديداً في تدريسه، وكان جديداً في محاضرته، ولا بدَّ أن ينال بذلك تقديراً من الذين يطلبون العلم حقَّ الطلب، كما كان محسوداً مـمَّن لا يستطيعون منافسته، ولا يمكنهم أن يبلغوا شأوه.

تدريسه بالمدرسة القمحيّـة والظاهريّـة:

هذه مدرسة أنشأها صلاح الدين الأيوبي، وجَعَل لها وَقْفاً هو أرضٌ بالفيوم كانت تغلُّ قمحاً، ويتقاسمه المدرِّسون، وقد عهد إليه بتدريس الفقه المالكي فيها، ولم

يذكر لنا شيئاً عن دروسه في هذه المدرسة، ويظهر أن عنايته بالدرس لم تكن كاملة، لأنه شُغِلَ بعد ذلك مع درس الفقه بالقضاء، والقضاء كان له جانبٌ كبير من عنايته، وقد ضَرَبَ فيه أحسن الأمثال، وقد ذكر هو أنه عُهِـدَ إليه أمر القضاء في الوقت الذي عهد إليه تدريس المذهب المالكي، أو في زمنٍ قريب منه، وهو يقول في ذلك:

«ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحيَّـة بمصر من وقف صلاح الدين ابن أيوب، فولَّاني (أي السلطان) تدريسها مكانه، وبينما أنا كذلك، إذ سَخِطَ السلطان قاضي المالكية في دولته لبعض النِّزاعات فعزله، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب يُدعى كلٌّ منهم قاضي القضاة تمييزاً عن الحكّام بالنيابة عنهم، لاتِّساع خِطَّة هذا المعمور وكثرة عوالمه، وما يرتفع من الخصومات في جوانبه، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة، وخصوصاً في الأوقاف التي جَاوَزَت حدود النهاية في هذا العهد بكثرة عوالمه».

لم نعرف كيف كانت دروسه في المذهب المالكي أكانت تفريعات فيها بيان أحكام الجزئيات، أم كانت كليّات كما يتَّفق ذلك مع منطق ابن خلدون صاحب المقدمة؟

وقد عُهد إليه مع تدريس الفقه المالكي بالقمحيَّـة التي كانت مُخَصَّصة لفقهاء المالكية كما قرَّر منشئها صلاح الدين بتدريس الفقه المالكي؛ أيضاً بالمدرسة الظاهرية التي كانت تحوي تدريس المذاهب الأربعة.

وكلُّ ما أُثِـرَ من أقوال له عند تولِّي التدريس خطبتان افتتح بهما دروسه، سمعهما كبار القوم، وكلاهما مدحٌ في السلطان على سُنَّة الذين كانوا يزدلفون من الملوك في ذلك العصر، ولعلَّ الذي يُبرِّر ذلك من ابن خلدون هو اتِّصاله من قبل بالحكّام والأمراء، وإكرام وفادته في مصر من الظاهر برقوق سلطانها.

تدريسُه الحديث في مدرسة صرغتمش:

تولَّى بعد ذلك تدريس الحديث مع تدريس الفقه المالكي، ومع ولايته القضاء وقتاً بعد آخر، وقد استطعنا أن نظفر بشيءٍ من دراسته للحديث، ذلك أنه ابتدأ دروسه في هذه المدرسة بمحاضرة، كانت مقدِّمتها خطبة كلها مدح وإطراء على منهاج الخطبتين السابقتين عَفَا الله عنه، وقد جاء في هذه المحاضرة:

«قد رأيتُ أن أُقرِّر للقُرَّاء، في هذا الدرس، كتاب «الموطأ» للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، فإنه من أصول السنن وأمهات الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه».

وقد ابتدأ بتعريف موجز للإمام مالك رضي الله عنه، ثم أخذ يُبيِّـن الباعث لمالك على تأليف «الموطأ»، ويختار بإشارة اللفظ بأنَّ الباعث هو حضُّ أبي جعفر المنصور، ويقول في ذلك وفي منزلة الموطأ:

«وحجَّ أبو جعفر المنصور، وَلَقِيَـهُ مالكٌ بالمدينة، فأكرمه وفاوضه، وكان فيما فاوضه قوله: يا أبا عبد الله لم يَـبْـقَ على وَجْهِ الأرض أعلم مني ومنك، فَضَعْ أنتَ للناس كتاباً ينتفعون به، تجنَّب رُخَصَ ابن عباس، وشدائد ابن عمر، ووطِّئه للناس تَوْطئةً، قال مالك: فلقد علَّمني التأليف، فكانت هذه وأمثالها من البواعث لمالك على تصنيف هذا الكتاب، فصنَّفه وَسَمَّاه الموطأ...

ولما شغل بتصنيفه أخذ الناس بالمدينة يومئذ في تصنيف موطآت، فقال لمالك أصحابه: نراك شغلت نفسك بأمر قد شركك فيه غيرك، وأتى ببعضها فَـنَظر فيه، ثم طرحه من يده، وقال: لتعلمنَّ أنّ هذا لا يرتفع منه إلا ما أريد به وجْه الله، فكأنما

أُلقيت تلك الكتب في الآبار، وما سُمع بشيءٍ منها بعد ذلك، وأقبل مالكٌ على تهذيب كتابه وتوطئته، فيقال: إنه أكمله في أربعين سنة!! وتلقَّت الأمة هذا الكتاب بالقَبول في مشارق الأرض ومغاربها، وطَالَ ثناءُ العلماء في كل عصر عليه، ولم يختلف في ذلك اثنان. قال الشافعي وعبد الرحمن بن مهدي: ما في الأرض كتابٌ بعد كتاب الله أنفع منه...»[1].

روايات الموطأ:

ويذكر بعد ذلك طُرقَ نقل هذا الكتاب القيِّم أبيِّ الأخلاف، فرواه عن مالك عدّة، نُسب إلى كلِّ راوي الموطأ بروايته، فقيل موطأ فلان نسبةً إلى راويه، فمنها موطأ الإمام الشافعي محمد بن إدريس، ومنها موطأ عبد الله بن وَهْب، ومنها موطأ مُطرِّف بن عبد الله اليساري، ومنها موطأ عبد الرحمن بن القاسم، رواه عنه سُحنون ابن سعيد.

ومنها موطأ يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي، رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس، وأخذ عنه الفقه والحديث، ورَجَع بعلم كثير، وحديث جمّ، وكان فيما أخذ عنه الموطأ، وأدخله إلى الأندلس والمغرب، فأكبَّ الناس عليه، واقْتَصَر على روايته دون سواها، وعوَّلوا على نسقها وترتيبها في شرحهم لكتاب الموطأ، وتفاسيرهم ويشرحون إلى الروايات الأخرى إذا عرضت في أمكنتها، فهُجرت الروايات الأخرى، وسائر تلك الطرق، ودرست تلك الموطآت إلا موطأ يحيى بن يحيى»[2].

---

(١) «التعريف» ص٣٠١ وما يليها، طبع دار الترجمة والنشر والتأليف، إخراج الطنجي. (أبو زهرة).

(٢) المصدر المذكور ص٣٠٥. (أبو زهرة).

ثم يذكر سنده في الرواية عن يحيى بن يحيى، ويُفَصِّل القول في طرائق سنده، وبانتهاء ذكر سنده تنتهي تلك المحاضرة التي ألقاها في أول مقدِّمته في مجلس تدريسه للحديث.

كلمةٌ موجزة في هذه المحاضرة:

نلاحظ مع هذه المحاضرة أنَّ ابن خلدون كانت تنقصه الدقَّة في بعضها، والوفاء في بعضها، أما الدقَّة فقد لاحظنا أنها تخلَّفت عنه في موضعين:

أولها: أنه ذكر أنه مكث في تهذيبه نحو أربعين سنـة، وقد صَدَّر ذلك بصيغـة ـ يقال ـ وليس هذا من شأن المحاضر المجيد، ولو أردنا التحقيق التاريخي، لوجدنا أنَّ مدة تأليف الموطأ دون هذه المدة يقيناً[1]، لأنه إذا كان ذلك بطلبِ أبي جعفر المنصور كما رجَّح في محاضرته، فإن أبا جعفر خاطب مالكاً في ذلك سنةَ ١٤٨ بعد المحنة التي نزلت به، وكانت عَقِبَ انتصاره على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، والفترة ما بين وفاة الإمام مالك سنة ١٧٩ وهذا التكليف دون ذلك بتسع سنين، ومن اليقين أنه أتمه تنقيحاً قبل موته بعدَّة سنين، والتحقيقُ العلميُّ يُثبت أنَّ مالكاً أخرجه كتاباً للناس سنة ١٥٩، وإن كان تنقيحه قد استمرَّ بعد ذلك.

وثانيها: أنه لم يذكر رواية الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وهي من الروايات المشهورة، وقد لازم الإمامَ مالكاً ثلاث سنين تلقَّاه عنه فيها، ويُعَدُّ من تلاميذه.

---

(١) راجع في هذا «الانتقاء» لابن عبد البر وهامشه ص٤٠. (أبو زهرة).

وإنه ليدَّعي بعد ذلك أنَّ كل الروايات دَرَست ما عدا رواية يحيى، والواقع يخطئه، فإنَّ رواية محمد بن الحسن قائمة تُدرَّس ويُرجع إليها، وهي الآن مطبوعة في الهند، وكان حقاً على كبير المؤرِّخين ابن خلدون ألا يُعمِّم في قوله، ولو قال أكثر الروايات دَرَس لكان كلامه حقاً، لا إسراف فيه، ولكنّا نجد كليَّات ابن خلدون كثيرة، والتَّعميم في القضايا إذا لم تكن عقليّـةً يُوقعُ صاحبَها في الخطأ.

جوانب القصور في محاضرته:

هذا ما لاحظناه من حيث الدقّةُ التي كانت في هذه المحاضرة، أما القصور، فكان في ثلاث نواح:

الناحية الأولى: أنه لم يتعرَّض للزمن الذي كان يعيش فيه الإمام مالك، نعم إنه أشار إلى عدَّة عوامل أخرى غير حضِّ أبي جعفر، فقال: «هذه وأمثالها»، ولكنه لم يُشر بإيجاز إلى بعض هذه العوامل، أو هذه الأمثال كما عبَّر هو، وهي أشد تأثيراً في مثل إمام دار الهجرة من طلب أبي جعفر، وهو لها أشدُّ استجابة.

تدوين الحديث وفقه الصحابة:

والحقيقة هو أنَّ الاتِّجاه إلى تدوين الحديث(١) وفقه الصحابة كان قد وُجِدَ في صَدْر حياة الإمام مالك، ولقد دَعَا إلى تدوين فقه الصحابة وأقوال النبيِّ الإمام عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه، فقد جاء في مقدِّمة شرح الزرقاني للموطأ: «لم يكن

---

(١) يلاحظ قول الأستاذ أبي زهرة: تدوين الحديث. فهذا هو تاريخ تدوينه، أما مجرد كتابته دون تصنيف وترتيب فقد حصلت في عهد النبيِّ ﷺ فمن بعده، فكان أحدهم يكتب لنفسه مسموعاته ليُتْقِن حفظها، ويرجع إليها عند الحاجة، ولا تتعدَّى كتابته خاصَّة مرويَّـاته.

الصحابة والتابعون يكتبون الأحاديث، إنما كانوا يؤدُّونها لفظاً، ويأخذونها حفظاً، إلا كتاب الصَّدَقات، والشيء القليل الذي يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء، حتى إذا خيفَ عليها الدروس، وأسرعَ في العلماء الموت أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمي: «أن انظر فيما كان من سُنَّةٍ أو حديثٍ فاكتبه».

وقال مالك في «الموطأ» رواية محمد بن الحسن: أخبرنا يحيى بن سعيد: أنَّ عمر بن العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته أو نحو هذا فاكتبه، فإني خِفْتُ دُروسَ العلم ـ أي: اندراسه ـ وذهابَ العلماء»(١).

ولقد كان تدوين الرواية أخذ يشقُّ طريقَهُ في آخر عصر التابعين، فكان كلُّ راوٍ من تلاميذهم يسمعُ منهم، ويُدوِّن ما يسمع، فأبو حنيفة يُدوِّن ما يسمع من إبراهيم النَّخعي وحمّاد، ومالك يُدوِّن ما يسمع من الزُّهري، ومن نافع، ومن غيرهما، والزُّهري يُدوِّن ما يسمع من ابن المسيِّب، ومن زين العابدين، وغيرهما. فكان طلاب الحديث يذهبون إلى شيوخهم، ومعهم الألواح أو الأوراق يُدوِّنون فيها ما يسمعون، ويُحفِّظون غيرهم ما ينقلون.

ولقد وُجد من ابتدأ بالكتابة في عصر مالك رضيَ الله عنه كما أشرنا من قبل، ولقد نقل السيوطي في ذلك عن ابن عبد البر ما نصُّه: «أول من عمل كتاباً بالمدينة على معنى الموطأ مع ذكر ما اجتمع عليه أهل المدينة: عبد العزيز بن الماجشون، وعمل

---

(١) مقدمة شرح الموطأ للزرقاني ص١٠. (أبو زهرة). وكتاب عمر إلى أبي بكر بن حزم رواه البخاري في «صحيحه» ١: ٢٠٤. وتنظر مقدمة: «مسند عمر بن عبد العزيز» للباغندي ص١٩-٢٣ للأستاذ المحقق الشيخ محمد عوامة.

ذلك كلاماً بغير حديث، فأُتي به مالك فنظر فيه، فقال: ما أحسَنَ ما عمل، ولو كنت الذي عملت لبدأت بالآثار، ثم سَدَدْتُ ذلك بالكلام»[١].

وبهذا تبيَّن أنه قد وُجدت الدوافع، فكان عليه أن يكتب، إذْ وَجَدَ غيره قد جمع ولم يَسْلك الطريق الأمثل في جمعه وترتيبه، ولهذا تقدَّم وأتى بما رآه أمثل، وبهذا كان لكتابه الخلود، ولغيره الدروس.

أسباب اختلاف روايات الموطأ:

والناحية الثانية من القصور: أنه لم يُبيِّن أسباب اختلاف الروايات للموطأ، فإنه قد ذكر أنَّ كلَّ راوٍ من رواته اخْتُصَّ بمجموعة رواها تُنسب إليه، وتزيد هذه الروايات، وتنقص، ولم يذكر الأسباب، والإشارةُ إلى الاختلاف من غير الإشارة إلى الأسباب يُومئ بالشك، أو يجرُّ إليه، ولذا كان من القصور إلقاء الاختلاف من غير ذكر السبب.

وإنا نشير إلى السبب من غير تفصيل، ذلك أنَّ مالكاً رضي الله عنه كان لِفَرْط رغبته الشديدة في أن لا يثبت إلا ما هو ثابت يطمئنُّ إليه، كان كثيراً ما يسقط أحاديث رواها، حتى لقد حَسِبوا أنه كان في الأصل نحو عشرة آلاف حديث، فكان يُراجعه من وقتٍ لآخر، وكلُّ راو من رواته كان يروي ما انتهى إليه عند روايته، وينتشر ما يرويه عن مالك في الإقليم الذي نقله إليه، ولا شك أنَّ آخر هذه الروايات هو أصحُّها الذي انتهى إليه مالك رضي الله عنه، وهو الذي وقف عنده[٢]. ومن آخر هذه الروايات: رواية محمد بن الحسن، ورواية يحيى.

---

(١) تزيين الممالك في مناقب الإمام مالك ص٤٤، وقد ذكر التاريخ ثلاثة موطآت غير موطأ الإمام مالك. (أبو زهرة).

(٢) ولقد قال القاضي عياض في «المدارك»: وكان علم الناس في زيادة، وعلم مالك في نقصان. (أبو زهرة).

وليس من الحق أن نقول: إنَّ ما كان يرويه مالك رضي الله عنه كان ضعيفاً في سنده، لأنَّ رواياته كلها كانت من أعلى الدرجات في قوَّة السند، حتى إنه قيل: إن أصدق الروايات رواية مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر.

ولكنه كان ينقد ما يرويه من ناحية المتن والموازنة بين الروايات، فقد يروي الحديث، ثم يوازنه بالقرآن، فيرويه كما روى حديث: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فَلْيَغْسله سبعاً إحداهُنَّ بالتراب»[1]، ثم ردَّه ولم يأخذ به، لأنه وَجَد أنَّ القرآن الكريم أباح أكْلَ صَيْده، وكما روى حديثَ مَنْ سألت النَّبيَّ عن الحج عن أمها؟ فقال لها النبيُّ ﷺ: «ألو كان على أُمِّك دَيْنٌ أفكنت تُؤدِّينه؟» قالت: نعم. قال: «فَدَيْنُ الله أحقُّ بالوفاء»[2]، ولم يأخذ به، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩].

ولقد أخذَ الشافعيُّ بما رواه مالك وردَّه إليه، واحْتجَّ به عليه في تركه.

ومهما يكن فإنّ ما كان ينقصه لا يَقْدح في سَنَده، وإن كان لا يقرُّ مالك معناه ولا يأخذ به، وله في ذلك الكثير.

ما اشتمل عليه الموطأ، وشرطه فيه:

والناحية الثالثة من القصور الذي لاحظناه في محاضرة العلامة ابن خلدون عن «الموطأ»: أنه لم يشر إلى ما اشتمل [عليه] الموطأ: أكله أحاديث؟ أم هو بيانٌ لنواحٍ كثيرةٍ من فقه أهل المدينة الذي كان يأخذ به مالك؟ ولم يشر إلى اتِّصال السند فيه، ثم أهو كان يشترط اتِّصال السند أم لا يشترط؟

---

(١) رواه مسلم (٢٧٩)، وأبو داود (٧٣)، والنسائي (٦٤)، وابن ماجه (٣٦٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (١٨٥٢) من حديث ابن عباس بلفظ مقارب.

ونقول في ذلك: إنَّ مالكاً لم يلتزم في حديثه الإسنادَ المتَّصل، فهو لم يَصِل كلَّ الأحاديث التي رواها بِسَنَد متَّصل إلى النبيِّ ﷺ، بل فيها المرسَل الذي لم يذكر فيه الصحابيّ الذي رواه، وفيها المنقطع الذي لم يذكر فيه راوٍ بعد طبقة الصحابي، ومنه البلاغات التي لم يُذكر فيها سند.

ويظهر أن التقيُّد بالسند لم يَسُد في عصر مالك رضي الله عنه، بل تقيَّد به المحدِّثون من بعد لما كَثُر الكذبُ على رسول الله ﷺ.

لقد كانت عناية مالك بمن ينقل إليه الخبر، فإن كان ثقةً لا يهمُّه بعد ذلك مَنْ فوقه، لأنَّ الثقة لا ينقل إلا عن ثقات.

ولقد عُنِـيَ العلماء من بعد ذلك ببيان الإسناد لِـمَا لم يكن له سَنَـدٌ من الموطأ، وقد قال بعض المالكية: إنه تبيَّن أن كلَّ ما لا سَنَد له أربعة من الأحاديث، وما من حديث لم يتَّصل سنده عند مالك في موطئه إلا كان له عاضد أو عواضد(١).

وإنه لم يُبيِّن أيضاً ما اشتمل عليه الكتاب أهو أحاديث أم فتاوى وآراء؟ والحقيقة أنَّ هذا الكتاب مجموعة فقهيّـة ومجموعة من السنة والأحاديث، وما أجمع عليه أهل المدينة من عمل، وقد قال ذلك الإمام مالك في موطئه:

«ما كان فيه الأمر المجتمع عليه فهو ما اجتمع عليه قولُ أهل الفقه والعلم لم يختلفوا، وما قلت: الأمر عندي فهو ما عمل الناس به عندنا، وجَرَت به الأحكام، وعَرَفه العامّ والخاص، وكذلك ما قلت ببلدنا فيه، وما قلت فيه بعض أهل العلم فهو شيءٌ اسْتَحْسَنْـتُه من قول العلماء، وأما ما لم أسمعه منهم، فاجْتهدتُ فيه ونظرتُ على مذهب مَنْ لَقِيتُه حتى وقع ذلك مَوْقعَ الحق أو قريباً منه، حتى لا نخرج عن

(١) شرح الزرقاني ص٩. (أبو زهرة).

مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه، فنسبتُ الرأي بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه أهل العلم الـمُقْتَدى بهم، والأمر المعمول به عندنا من لدن رسول الله ﷺ والأئمة الراشدين، فذلك رأيهم، ما خرجتُ منه إلى غيرهم».

هذه مُلاحظاتٌ بيَّناها بالنسبة للمحاضرة التي ابتدأ بها دروسه للحديث، وصَدَّر بها كلامه عن موطأ الإمام مالك. وقد يقول قائل: إنها خطبة افتتاحية، وليست محاضرةً علميَّةً من كلِّ الوجوه، ولعلَّ الذين حَضَروا لم يكونوا جميعاً من أهل النظر والعلم، فألقى من القول ما يناسبهم، ولكن نقول في ذلك: إننا ما كنَّا نطلب الاستقصاء، وكان يمكن الإشارات من غير تَقَصٍّ وتَتَبُّع، فالتفصيل قد يُمل، والإشارات الموجزة لا تُخل.

فقهه في المقدِّمة:

لم نعثر له على دراسات فقهيَّة ألقاها في دروسه عن المذهب المالكي، كما أشرنا، ولكن وجدناه في المقدِّمة يتكلَّم عن الفقه وأحكامه، ويَتَصدَّى لنظريات في الأصول عن استقصاء، كما يتصدَّى لبيان مقام المذاهب الفقهيَّة في حَواضِرِ العالم الإسلامي وبواديه.

ولقد وجدناه في تاريخ أصول الفقه، قد وضَّح معناه وأدواره والتأليف فيه توضيحاً جيداً في أوجز تعبير وأسلم بيان، وعباراته فيه مُـحْكَمَـةٌ مُتْقَنَـةٌ، لا نعلم أنَّ أحداً سَبَـقه في بيان أدواره على هذا النَّحو في ذلك الإيجاز.

عمل أهل المدينة:

ولقد اتَّـجه من بعد ذلك إلى ضروب الفقه ومذاهبه، ومقدار أخْذ كلِّ مذهب من الأصول الـمُقرَّرة الثابتة، ولقد جاء إلى بيانِ الأُصول التي بُني عليها المذهب المالكي،

وتعرَّضَ لعمل أهل المدينة، أو لإجماع أهل المدينة كما يُعبِّر بعض الأصوليين أو أكثرهم، فقال:

«واخْتصَّ (أي الإمام مالك) بزيادة مَدْرَك[1] للأحكام غير المدارك المُعتَبَرة عند غيره، وهو عملُ أهل المدينة؛ لأنه رأى أنهم فيما يتَّفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قَبلهم ضرورةً لدينهم واقتداءً بهم.. وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعيَّة، وظنَّ كثيرون أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره، لأنَّ دليل الإجماع لا يخصُّ أهل المدينة من دون سواهم بل هو شاملٌ للأمة.. ومالك لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى، وإنما اعتبره من حيث اتِّباع الجيل بالـمُشَاهَدَة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صَلَوات الله وسلامه عليه.. نعم إن المسألة ذكرت في باب الإجماع إلا أنه أليق الأبواب بها».

ثم يقول: «ولو ذكرت المسألة في باب فعل النَّبيِّ ﷺ وتقريره أو مع الأدلة المخْتَلَف فيها، مثل مذهب الصحابي، وشرع ما قبلنا، والاستصحاب لكان أليق»[2].

هذه عباراته. ونلاحظ أنه انتقد من اعتبر أخذ مالك بعمل أهل المدينة من قبيل الأخذ بإجماع أهل المدينة واعتباره حُجَّة، وأنه يرى أنَّ الأليق ألا يُعدَّ في باب الإجماع وألا يُكتب فيه، وإنما يُكتب في باب الأدلة.

موقف الفقهاء من الاسْتصحاب:

ونبادر فَنُقرِّر: أنَّ الفقهاء جميعاً قرَّروا الأخذ بالاستصحاب[3]، واعتبروه آخر

---

(١) أي أنه زاد على الكتاب والسنة والإجماع والقياس أصلاً آخر وهو عمل أهل المدينة. (أبو زهرة).

(٢) إخراج الأستاذ الدكتور [علي] عبد الواحد [وافي] ص١١٥. (أبو زهرة).

(٣) ويسمَّى دليل العقل. وهو جَعْل الحكم الذي كان ثابتاً في الماضي باقياً على حاله، حتى يقومَ دليلٌ على انتقاله عن تلك الحال. أو بعبارة أخرى: بقاء ما كان على ما كان عليه حتى يثبت ما يُغيِّره.

مدار الاستدلال، فهو دليلٌ حيث لا يكون في الموضوع دليل، وإذا كان ثمّة اختلاف فهو في مَدَاه في الاستدلال، والموضوعات التي يدخلها، فنجد المالكيَّة يُضيِّقون نِطاقَهُ، لأنّهم فتحوا باب الاستدلال الـمُرْسَل الذي يُسمَّى المصالح المرسلة[1]، إذْ هو شامل، والحنفيَّة يُوسِّعونه قليلاً عن المالكيَّة وإن كان في ذاته ضيِّقاً عندهم، لأنهم يفتحون بابَ الاستحسان، وقد بُهروا في الأقيسة، والحنابلة يوسِّعون قليلاً أيضاً، والشافعية يأخذون به كثيراً، والظاهريَّة والشيعة يفتحون بابه فتحاً كاملاً.

مناقشة نفي ابن خلدون اعتبار عمل أهل المدينة من قبيل الإجماع عند مالك:

وأما عن الأخذ بما عليه أهل المدينة من قبيل الإجماع، وأخذ مالك به على هذا الأساس، ونفي ابن خلدون لذلك، فإنه يحتاج إلى نظر نتعرَّض له بإيجاز:

لقد عبَّر الإمام مالك عن عمل أهل المدينة في كثيرٍ من الأحيان بالأمر المجْتَمع عليه عندنا «أي بالمدينة»، وننقل لك من «الموطأ» مسألتين:

أولها: مسألة شهادة الصِّبيان، فهذا نصُّ ما جاء بالموطأ: «قال مالك: الأمرُ المجتمع عليه: أنَّ شهادة الصبيان تجوزُ فيما بينهم من الجراح، ولا تجوزُ على غيرهم إذا كان ذلك قبل أن يفترقوا أو يُخبَّبوا أو يُعلَّموا»[2].

والثانية: مسألة ميراث الإخوة الأشقّاء، فقد جاء في «الموطأ»: «الأمر المجتمع عليه عندنا: أنَّ الإخوة للأب والأم لا يرثون مع الولد الذكر، ولا مع ولد الابن الذكر

---

(١) وهي التي سكت عنها الشَّرْعُ فلم يتعرَّض لها باعتبارٍ ولا إلغاءٍ، وليس لها نظير ورد به النصُّ لتقاس عليه.

(٢) يُـخبَّبـوا معناها: يخدعـون، أو يُضلَّلـون، والمسألـة بالموطـأ الجـزء الثالث مـن الشّرح ص١٨٥. (أبو زهرة). رواه مالك في كتاب الأقضية من «الموطأ».

شيئاً، ولا مع الأب دِنْياً (أي الأب القريب لا الجد) شيئاً، وهم يرثون مع البنات وبنات الأبناء»[١].

مناقشة الشافعي شيخه مالكاً في اعتباره إجماع أهل المدينة:

وإذا كان هو يُسمِّي ما عليه أهل المدينة (مجتمعاً عليه)، فكيف لا يسمَّى من بعدُ إجماعاً؟! والشافعيُّ رضي الله عنه عندما خالف شيخه الإمام مالكاً رضي الله عنهما، خالفه في اعتباره إجماع أهل المدينة إجماعاً، وقد ناقش تلك الفكرة على أساس أنَّ الآخذين يأخذون على أساس أنها من الإجماع، واقرأ كلامه في «الرسالة» عن ذلك تجده يُعبِّر عن فكرة المالكيين بأنها إجماع أهل المدينة، وكذلك تجده في «الأم» في كتاب جماع العلم، ولننقل لك بعض مناقشاته فقد جاء فيه: «قلت للشافعي: إنما ذهبنا إلى أن نثبت ما اجتمع عليه أهل المدينة، دون البلدان كلها. فقال الشافعي: هذه طريق الذين أبطلوا الأحاديثَ كلَّها، وقالوا: نأخذ بالإجماع، إلا أنهم ادَّعوا إجماع الناس، وادَّعيتم أنتم إجماع بلد، وهم يختلفون على لسانكم، والذي يدخل عليهم يدخل عليكم، لَلصَّمْتُ أوْلى بكم من هذا القول»[٢].

إجماع أهل المدينة: نقل أو اجتهاد:

وقد عبَّر القاضي عياض في كتابه «المدارك» عن عمل أهل المدينة بإجماع أهل المدينة، فقال: «إن إجماع أهل المدينة على ضَرْبين: ضَرْبٌ طريقة النقل[٣]، والضَّرْب الثاني: هو ما كان طريقة الاجتهاد بين علماء المدينة».

---

(١) الكتاب المذكور. (أبو زهرة). في كتاب الفرائض، باب ميراث الإخوة للأب والأم.

(٢) الأم ص٧، ص٢٤٢. (أبو زهرة).

(٣) المدارك مخطوط بدار الكتب ورقة رقم ٤١. (أبو زهرة).

ونراه يُعبِّر بإجماع أهل المدينة، وكذلك أئمة علم الأصول، كالغزالي والرازي والآمدي والبيضاوي وغيرهم، يعبِّرون هذا التعبير.

ولذا نجد أنَّ ابن خلدون أسرَفَ في قوله عندما خطَّأ الذين يُعبِّـرون عن عمل أهل المدينة بإجماع أهل المدينة. وفي الحق أنَّ العلماء ـ كما أشار القاضي عياض ـ يقسمون عمل أهل المدينة إلى قسمين: ما يكون طريقة النقل جيلاً عن جيل بينهم، وهذا هو الذي ينطبق عليه كلام ابن خلدون، والآخر ما يكون سبيلها الاجتهاد، وهذا لا ينطبق عليه كلامُ ابن خلدون، وفيه خلافٌ، ومذهبُ الكثيرين من المالكيَّـة أنه حُجَّة، وينسبونه إلى مالك، وعباراته رضي الله عنه لا تُـفرِّق بين ما يكون طريقه النقل وما طريقه الاجتهاد.

وإنَّ كلا النوعين عند مَنْ يأخذون بهما يُسمَّى إجماعاً، وتواتر الأجيال به لا يمنع أنه إجماع، بل لقد يقرِّر الشافعي أنه لا يسلِّم بإجماع إلا فيما تتواتر به الأجيال كَكَوْن الصَّلوات خمساً.

وعلى ذلك لو كان نظر ابن خلدون أنه لا يعتبر عمل أهل المدينة حُجّة إلا إذا تواتر نقله جيلاً بعد جيل بينهم ما كان ذلك مُسوِّغاً لأن ينكر أنه إجماع أهل المدينة، لأن تواتر العمل لا يمنع التَّسمية بالإجماع.

كلامه العام في فقه المالكية:

استطرد العلامة ابن خلدون عند سَرْدِهِ الموجَز الجامع لبعض التفصيل في المذهب المالكي، أو بعبارة أدق في قصوره على حسب رأيه هو، فقال:

«وأما مالكٌ رحمه الله فاخْتَصَّ بمذهبه أهلُ المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يُـقلِّدوا غيره إلا في القليل، لما أنَّ رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سَفرهم، والمدينةُ يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة، وشيخهم وإمامهم مالك وشيوخه من قبله، وتلميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس، وقلَّدوه دون غيره مِـمَّن لم تَصِل إليهم طريقته. وأيضاً فالبداوة كانت غالبةً على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يُعَانُون الحضارة التي لأهل العراق، ولهذا لم يزل المذهب غضّاً عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب»(١).

وإننا نجده في هذه العبارات يُقرِّر أموراً ثلاثة اعتقَدَها حقائق:

أولها: أنّ البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ويدلُّ على ذلك صريح عباراته..

وثانيها: أن المذهب المالكي كان غضّاً عندهم، وقد دلَّ على ذلك صريح قوله..

وثالثها: أنه لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب، وهذا أيضاً صريحُ كلامه.

وإنَّ هذه الأمور تنتهي لا محالة إلى أنّ المذهب المالكي لم تنقِّحه الحضارة، ومعنى لم تنقِّحه الحضارة أنه مذهبُ أهل البداوة، وأنه غضٌّ لم تفتَّح مسائله كمذهب العراقين مثلاً، ولسنا في هذا ندَّعي ما لا يحتمله كلامه، بل نأخذ الدَّعوى من صريح قوله، ولذا نناقش قوله كله أو نُـمَحِّصُهُ.

---

(١) المقدمة ص٢٤٥ طبع الخيرية، والجزء الثالث ص١٠٢، إخراج صديقنا الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد. (أبو زهرة).

أسباب انتشار المذهب المالكي ومكانته بمصر:

وإنا نُـقَـرِّر أنه لا مَـجَال للريب في أنَّ من أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب والأندلس التقاءهم بالإمام مالك وبشيوخهم من قبله وتلميذه من بعده، وإنَّ ذلك ينطبق على مصر، كما انطبق على الأندلس والمغرب وسائر شمال إفريقية، ولذلك كان لهذا المذهب مكانة كبيرة في مصر، ولم يَقْضِ عليه أو يَغْلبه المذهب الشافعي مع إقامة الشافعي في مصر وموته فيها، بل لم يَـقْض عليه وقت أنْ ناصَرت الدولة الأيوبيَّـة المذهبَ الشافعي بسُلطانها، بل اعترفت بالمذهب المالكي، وجَعَلت من المالكية قُضاة، لمكانة ذلك المذهب الجليل بين الشَّعب المصري.

مناصرة الدولة للمذهب المالكي:

وإذا كنا نقرِّر أنّ من أسباب انتشار المذهب المالكي الحج والرحلة إلى المدينة، فإنه يجب أن نُـقرِّر أنه ليس هو السبب وحده، بل مناصرة الدولة لهذا المذهب الجليل، ولذا قال ابن حزم: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفيُّ بالمشرق، والمالكيُّ بالأندلس.

دخول المذهب المالكي بلاد العراق وخراسان:

ولا يصحُّ أن ننفي نفياً مُطْلقاً عدم دخول المذهب المالكي في بلاد العراق، وخراسان، فقد ذكر القاضي عياض في «المدارك» دخول المذهب في هذه البلاد، فقد جاء في «ترتيب المدارك» ما نصُّه:

«غَلَبَ مذهبُ مالك على الحجاز والبصرة ومصر وما والاها من بلاد إفريقيّـة والأندلس وصقليَّـة والمغرب الأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا،

وظهر ببغداد ظهوراً كبيراً، وضَعُـف بها بعد أربعمائة سنة، وغَلَب من بلاد خراسان على قزوين وأبهر، وظهر بنيسابور، وكان بها وبغيرها أئمة ومُدرِّسون»[١].

ولعلَّ السبب في انتشاره في هذه البلاد هو الحج أيضاً، لأنَّ هذه البلاد كان منها حجيج كسائر البلاد الإسلامية، وكانوا يذهبون إلى مسجد رسول الله، وهو ثالث المساجد التي تُشَدُّ إليها الرحال، وهنالك في المسجد النبوي يلتقون بالإمام مالك، وبتلاميذه من بعده.

مناقشة ابن خلدون في أن مذهب مالك مذهب أهل البداوة:

وإنَّ الذي يجب علينا أن نناقش ابن خلدون فيه مخالفين كل المخالفة له هو قوله: إنَّ المذهب المالكي مذهب أهل البداوة، وأنه لم تُـنَقِّحه الحضارة؛ لأنه أخذ عن أهل الحجاز، وانتقل إلى مَنْ يُماثلهم في البداوة من أهل المغرب والأندلس.

ونقول: إننا نُخالفه في الأصْل والقياس والنتيجة، فإنَّ أهل الحجاز في عصر الاجتهاد والفقه ما كان سُكَّانها بَدْواً، فإنها كانت تـمُوجُ بما يفيضُ بها عليهم مُلك بني أُميّـة، ولذلك ظهر فيهم التَّرف والنعيم، وظهر فيهم الغناء الحضري بكل طرائفه، وأمدُّوا به العراق.

وإنْ سلَّمنا بأنّ مُدن الحجاز كان يسكنها بدوٌ فلن نُسَلِّم ذلك قط في الأندلس، فأهل الأندلس كانوا ذوي حضارة، وما كان لمثل ابن خلدون أن يجعل حكم البداوة يَسْري إليهم في المقَايَسة بينهم وبين أهلِ الحجاز.

---

(١) القسم الأول ترتيب المدارك المخطوط ٥٧. (أبو زهرة).

وإنه لا يذكر أنَّ المذهب المالكي غَلَب على أهل مصر كلِّها في أوَّل أمرها حتى نافسه المذهب الشافعي، ولم يتغلَّب عليه، ولا يمكن أن يقال: إنّ أهل مصر بدو! بل إنَّ أهل مصر لهم حضارة تمتدُّ جذورها في أعماق التاريخ، وقد ظهرت غصُونها في عصر الإسلام.

وإنّ النتيجةَ التي تنتهي إليها تلك المقدِّمات، وهو أنَّ مذهب مالك مذهب أهل بدو، تَطْوي في ثناياها الحكم بأنَّ أهل الحضارة لا يَرْتَضُونه، مع أنَّ السياق التاريخي يُناقضه، وأنه فوق ذلك لا يتَّفق مع قواعد هذا المذهب وأصوله، فإنها من الاتِّساع والمرونة والقوَّة والنَّفاذ إلى إصلاح الجماعات، وتنظيم شؤونها ما يجعلها صالحةً لتنظيم الحضارات المختلفة، مهما تتَّسع آفاقها، وتتنوَّع وسائل العمران فيها، وتختلف طرائق الحياة. وإنَّ في نظريات المصالح المرسلة[1]، وسدِّ الذرائع، ومُراعاةِ العُرف، وقوَّة الأخذ بها، حتى إنه ليخصِّص أحياناً بعض النصوص ـ التي ليست دلالتها قطعيَّة بها ـ ما يجعل فيها الغَنَاء لكلِّ حضارة، ويجعل منها المعين الصَّالح لاستنباط أدقِّ القوانين في تحقيق العدالة، ومذهبٌ فيه هذه المرونة لا يمكن أن يكون مذهباً بدوياً.

دعوى ابن خلدون أن المذهب المالكي لم تُـنَـقِّحْهُ الحضارة:

ولقد ادَّعى ابن خلدون أنَّ المذهب المالكيَّ غضٌّ واستمرَّ غضّاً، وأنه لم يدخله التنقيح كما دخل مذهب أهل العراق؛ لأنَّ الذين اعتنقوه بَدْوٌ أو يَـجْرُون مَـجْراهُم.

---

(١) المصالح المرسلة هي المصالح التي لا يشهد لها دليل خاصٌّ من القرآن والسنة بالإثبات أو الإلغاء، وتُسمَّى الاستدلال المرسل، ومقتضاه: أنَّ كل مصلحة تكون متَّفقة مع مَقَاصد الشرع تُعتبر ما دامت لا تعارض نصّاً. والذرائع معناها: أن يحكم على الأفعال والأقوال من حيث دلالتها. (أبو زهرة).

وإنَّ تلك المقدِّمة باطلة قد بيَّنا بطلانها، وإنَّ النتيجة باطلة أيضاً، فإنَّ ذلك المذهب الجليل نُقِّح وخُرِّج عليه الكثير، واسْتُنْبطت أصوله، وفرَّعوا عليها، واتَّسعت آفاق التخريج فيه اتِّساعاً عظيماً منذ عهده الأول، واستمرَّ في تنقيح، وحُسْن تخريج، واستنباط أصولٍ، إلى أن تكامل واتَّسع، وتَنَافس في ذلك علماء مصر، وعلماء الأندلس.

وقد رأينا الأصول التي اسْتَنْبَطها المالكية مُنَقَّحةً سليمةً مستساغةً في العقل ومُتَّفقة مع الحاجات القانونيّة للبيئات المختلفة، وَوَجدنا من فقهاء الأندلس والمغرب ومصر من دَعَموا المذهب بالأدلة والتخريج وتوجيه المسائل وتنقيح الروايات، حتى وجدناه يُعالج كل مسائل الحضارة والعمران علاجاً سليماً خالياً من التكلُّف ومُتَّفقاً مع أوثق الأصول الدينية وغيرها، ولذا لما ضاق الناس ببعض آراء أبي حنيفة في الأسرة لم نجد المتنفَّس إلا في مذهب مالك، فمنه أُخذ القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠، وأكثر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩.

سبب إسراف ابن خلدون في نقد مذهبه المالكي:

وقد يقول قائل: لماذا يُسرف العلامة ابن خلدون على مذهبه الذي صَار يُلقي دروساً فيه ذلك الإسراف؟

ونقول في الإجابة التي يمكن أن نتصوَّرها في ذلك: أنَّ ابن خلدون كان مُعْجَباً بحضارة العراق، ولم يكن مُعْجَباً بِحال المغْرب والأندلس، ولذا جَعَل الحضارة هنالك، والبداوة عنده، وقوَّى لحكمه ما كان يجري من خلافٍ مستمر على الولايات والإمارات مـمَّا هو من شأن أهل البداوة، وإن كانوا يسكنون المدر ولا يسكنون الوبر.

وهو فوق ذلك كان مُعْجَباً أشدَّ الإعجاب بأبي حنيفة رضي الله عنه، ولذا صدَّر الكلام في تاريخ المذاهب بقوله عن أبي حنيفة رضي الله عنه: «فأما أهل العراق،

فإمامهم الذي اسْتَقرَّت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومقامه في الفقه لا يُلْحَق، شَهِدَ بذلك أبناء جلدته، وخصوصاً مالكاً والشافعي».

ومهما يكن فإننا نُقرِّر أنَّ فيلسوف المؤرِّخين قد تجنَّى على قومه، وأسْرَفَ في الحكم على مذهب إمام دار الهجرة مالك، فَعَفا الله عن ابن خلدون، وجَزَاه عن العلم خيراً.

كتب المذهب المالكي في نظر ابن خلدون:

تَعـرَّض ابنُ خلدون لبيان الكتب في المذهب المالكي وتَسَلْسُلها، فقال:

«رَحَل من الأندلس عبد الملك بن حبيب الفهري[1]، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبثَّ مذهب مالك في الأندلس، ودوَّن فيها كتاب «الواضحة»، ثم دوّن العُتْبي[2] من تلاميذه كتاب «العُتْبِيَّة».

ورحل من إفريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً، ثم انتقل إلى مذهب مالك، وارتحل إلى المشرق، ولقيَ ابنَ القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل، وكتب عن ابن القاسم في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان بكتابه، وسُمّي «الأسديّة» نسبةً إلى الأسد، وكَتَب سحنون مسائلها، ودوَّنها، [وحملها إلى ابن القاسم بمصر، فعرضها عليه، وكاشفه عنها مكاشفة فقيه، فغيَّر فيها ابن القاسم أشياء كثيرة لأنه كان أملاها على أسد من حفظه، وهذبها مع سحنون]، وأثبت ما رَجَع عنه، وكتب لأسدٍ أن يأخذ بكتاب سحنون، فَـأَنِفَ من ذلك، فترك الناس كتابه، واتَّبعوا مُدوَّنة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب،

---

(١) أبو مروان السلمي القرطبي، له مؤلفات كثيرة، أشهرها: «الواضحة» توفي بقرطبة سنة ٢٣٨.

(٢) محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عُتْبة القرطبي الفقيه، توفي سنة ٢٥٥، وقيل: سنة ٢٥٤. تنظر ترجمته في «جمهرة تراجم الفقهاء المالكية» ٢: ٩٩٧-٩٩٨.

فكانت تُسمَّى المدوَّنة والـمُخْتَلِطَة، وعكف أهل القيروان على هذه «المدوَّنة»، وأهل الأندلس على «الواضحة» و«العتبيّـة»، ثم اختصر ابن أبي زيد «المدوَّنة» في كتابه الـمُسمَّى بالمختصر، ولـخَّصه أيضاً أبو سعيد البراذعي من فقهاء القيروان في كتابه الـمُسمَّى بـ«التهذيب»، واعتمدته المشيخة من أهل إفريقيَّـة، وأخذوا به، وتركوا ما سواه، وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب «العتبيَّـة»، وهجروا «الواضحة» وما سواها، ولم يزل علماء المذاهب يَتَعهَّدون هذه الأُمَّهات بالشَّرح والإيضاح والجمْع، فكتب أهل القيروان على «المدوَّنة» ما شاء الله أن يكتبوا... وكتب أهل الأندلس على «العتبيَّـة» ما شاء الله أن يكتبوا، مثل ابن رُشْد وأمثاله، وجَـمَع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف في الأقوال في كتاب «النوادر»، فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه «المدونة»، وزَخَرت بحار المذهب المالكي في الأُفقين إلى انقراض دَوْلة قُرطبة، والقيروان، ثم تمسَّك بها أهل المغرب بعد ذلك، إلى أن جاء كتاب أبي عمرو ابن الحاجب، لـخَّص فيه طرق أهل المذهب في كل باب».

ملاحظات على كلام ابن خلدون في كتب المذهب المالكي:

هذا تلخيصٌ جيِّد لتسلسل الكتب في المذاهب، ولنا ملاحظات على ما اشتملت عليه كتاباته من تعميم، كان يجب فيها التَّخصيص.

وأُولى هذه الملاحظات: أنه يُـقرِّر أنَّ أهل الأندلس هم الذين أخذوا بالعتبيَّـة، ويشيرُ بذلك إلى أنَّ غيرهم لم يأخذوا بها، وهذا يخالف ما ذكر ابن حزم الذي يسبقه بأكثر من ثلاثة قرون، إذ هو يُقرِّر أن «العتبيَّـة» لها عند أهل العلم بأفريقية الطيران الحثيث.

والثانية: أنه يُقرِّر أنّ كتّاب الأندلس إنما كتبوا على «العتبيَّـة»، ويذكر من بينهم ابن رشد (أي الجد)، وابن رشد هذا يذكر في كتابه «المقدِّمات الممهِّدات» أنَّ المدوَّنة هي أصل العلم المالكي، ويقول في ذلك:

«رَحَل سَحنون إلى ابن القاسم، فكان مـمَّا قرأ عليه «المدوَّنة» أو الـمُخْتلطة، ودوَّنها، فحَصَلت أصل علم المالكين، وهي مُقَدَّمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك، ويروى أنه ما بعد كتاب الله كتاب أصحُّ من موطأ مالك رحمه الله، ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من «المدوَّنة»، والمدونة عند أهل الفقه، ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب إقليدس عند أهل الحساب، وموضعها من الفقه موضع القرآن من الصلاة تجزئ من غيرها، ولا يجزئ غيرها منها»[١].

وإذا كان هذا رأيَ ابن رشْد في «المدوَّنة»، وهو أندلسيٌّ فإنه لا يمكن أن يقال: إنَّ المعْتَبَر عند أهل الأندلس هو «العتبيَّـة»، كما لا يمكن أنّ تأليفه في الفقه كان على أساس اعتبار «العتبية» هي الأصل يوضِّحه هو ويُبيِّنه ويختصره.

والثالثة من هذه الملاحظات: أنه يجعل «العتبيَّـة» في مرتبة المدوَّنة من حيث الثقةُ بها، والاطمئنانُ إلى أنَّ ما اشتملت عليه هو من مذهب مالك، والحقيقة أنه بينما يتلقى العلماء في المذهب المالكيّ ما جاء في «المدوَّنة» بالقَبول ـ يثير كثيرون منهم الظنون حول ما جاء في «العتبية»، وقد ظهر التكذيب لبعض مسائلها عقب كتابتها، فقد جاء في «ترتيب المدارك»: «قال محمد بن عبد الحكم: أُتيتُ بكُتب حَسَنة الخط تُدعى «المستخرجة» (وهو اسم العتبية) من وضع العُتْبي، فرأيتُ جلَّها كذباً، ومسائلَ لا أصول لها، ومما قد أسقط وطرح، وشواذ من مسائل المجالس لم يوقف عليها أصحابها»[٢].

---

(١) الـمُقدِّمات الـمُمَهِّدات ص١ وص٢٧ طبع الفاسي المغربي. (أبو زهرة).
(٢) المدارك القسم الثاني ورقة رقم ٣٢٨. (أبو زهرة).

ويقول ابن لبابة في تأليف العُتْبي للمُستخرجة أو العتبية: «كان يُـؤْتى بالمسائل الغريبة، فإذا أعجبته أدخلها في المستخرجة».

فليست إذن الـمُسْتَخْرجَة أو العتبيَّـة ـ بشهادة الثقات من علماء المذهب المالكي الأوَّلين ـ محل الثقة والاطمئنان، بينما تحلُّ «المدوَّنة» ذلك المحل عند الجميع.

والرابعة من هذه الملاحظات: أنَّ ابن خلدون يذكُر أنها سُمِّيت (المخْتلطة) لاختلاط أبوابها، والحقيقة أنّ سُحنون رتَّبها، أو على التحقيق رتّبَ أكثرها، وخلط بأقوالِ مالكٍ أقوالَ أصحابه التي هي آراء لهم، وخبر ذلك قد جاء في «ترتيب المدارك»، فقد جاء فيه:

«نَظَر سحنون فيها نظراً آخر، فهذَّبها وبوَّبها، ودوَّنها، وألحقَ فيها من خلاف أصحاب مالك ما اختار، وذيَّل أبوابها بالحديث والآثار، إلا كتباً متفرِّقة منها، بقيت على أصل اختلاطها بالسماع»[١].

والخامسة من الملاحظات: أنَّ العلامة ابن خلدون لم يتعرَّض لذكر (الموّازية)، وهي من أُمَّهـات الكتب في المذهب المالكي، وهي لمحمـد بن إبراهيـم بن زيـاد الإسكندري المعروف بابن الموَّاز المتوفَّى [بدمشق] سنة ٢٦٩ بعد الهجرة[٢]، وهذا كتاب له مكانته في الفقه المالكي، قال القاضي عياض فيه:

«وهو أجُلُّ كتاب ألَّفه المالكيُّون، وأوْضَحه مسائل، وأبسطه كلاماً وأوْعَبه، وذكره أبو الحسن القابسي، ورجَّحه على سائر الأمهات، وقال: إنَّ صاحبه قَصَد إلى

---

(١) المدارك القسم الأول ورقة رقم ٦٧٥. (أبو زهرة).

(٢) وقيل: ٢٨١، وكانت ولادته سنة ١٨٠.

بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم في تصنيفه، وغيره إنَّما قَصَد لجمْع الروايات، ونقل نصوص السَّماعات، ومنهم من ينقل عنه الاختيارات في شروح أفردها، وجوابات لمسائل سُئِلَ عنها، ومنهم من كان قَصْدُه الذبَّ عن المذهب فيما فيه الخلاف، إلا ابن حبيب، فإنه قصد إلى بناء المذهب على مَـعَانٍ تأدَّت إليه، ورَبَّـما قنع ببعض الروايات على ما فيها، وفي هذا الكتاب جُزْءٌ تكلَّم فيه على الشافعي وعلى أهل العراق بمسائل من أحسن كلامٍ وأنبله»[١].

وإنه بلا رَيْب يعدُّ من القصور في كلام العلامة ابن خلدون ألا يتكلَّم عن هذا الكتاب، وأنه إذا أردنا أن نُرتِّب كتب المذهب من حيث الثقةُ والاطمئنانُ لكانت هكذا: المدوَّنة، ثم الموّازية، ثم الواضحة التي كتبها ابن حبيب، وتجيء العتبية في المرتبة الرابعة.

ابن خلدون القاضي:

هذا مقام ابن خلدون في الفقه، تُشير إليه الآثار الواردة عنه إلى أنه ابتدأ دارساً للفقه ولم يصل في دراسته الأولى إلى درجة الفقيه، ثم شُغل عن الفقه بالسياسة والأدب والتاريخ، وتعمَّق وأوْغَلَ في كل ما اتَّجه إليه، ومكث كذلك حتى تـَجَاوز الخمسين من عمره، ثم عاد إلى الفقه، وقد بَعُدَت عنه مَلَكاته، ولذا لم نجده فقيهاً بين الفقهاء كمقامه في الأدب وفلسفة التاريخ.

ولكن إذا كان لم يثبت أنه فقيه، فإنَّ القدْر الذي كان عنده من الفقه يسمح له بأن يكون قاضيـاً مطبِّـقاً وإن لم يكن قاضيـاً مخرِّجاً للفقه، وإنّ دراساتـه الاجتماعية المتنوِّعة تكون له في هذا نِعْمَ المعين.

---

(١) المدارك ص٢٢٦ من القسم الثاني، والديباج المذهب ص٢٣٣. (أبو زهرة).

تعيينه قاضياً بمصر:

لقد عُـيِّن ابن خلدون قاضياً بمصر في وقتٍ قريب من وقت تعيينه مُدرِّساً للفقه، وقد كان تعيينه في هذا المنْصب الخطير موْضعَ غرابة عند أهل المغرب، وانتقاد ولَوْم من فقهائهم، حتى لقد قال ابن عرفة من فقهاء المالكيَّة: «كنا نعُدُّ خطَّة القضاء أعظم المناصب، فلمَّـا وَليها هذا عَدَدْناها بالضدِّ من ذلك».

عُزِلَ القاضي المالكي سنة ٧٨٦، فولَّى السُّلطانُ ابنَ خلدون خطَّة القضاء المالكي[١]، ولقد أراد أن يُعطى المنصبُ حقَّه من الهيْبة، وإعلانِ العدالة، واتَّخذ من ذلك المنْصَب سبيلاً لإعلان الحق وإعلان الفضيلة، وإذا كان القضاء لم يُظهِر له آراء فقهيَّـة، فقد أظهر له حَزْماً وعَزْمـاً، ومجابهةً لكلِّ ذي جَـاه، وأوَّل ما اتَّجه إليـه هو الإصلاح.

مزايا ابن خلدون في القضاء:

وقد اتَّسـم ابن خلدون في منصبه بأمور أربعة، جعلته في الذِّروة بين القُضاة، وجعلت الناس لا يطيقونه:

أولاً: القيام بحقِّ المساواة المطلقة في الخصومة، فسوَّى بين الصغير والكبير، والأمير والسُّوقَة، وقد وَصَفه المؤرِّخون بذلك، ووَصَفَ هو نفسه، فقال:

«وقمتُ بما رُفع إلـيَّ من ذلك المقام المحمود، ووَفَّيت جهدي بما آمنني عليه من أحكام الله تعالى، لا تأخذني في الحقِّ لائمة، ولا يَزعني عنه جَاهٌ ولا سَطْوة، قوياً

(١) كان في مصر أربعة قضاة: قاض شافعي، وآخر مالكي، والثالث حنفي، والرابع حنبلي، يتقاضى أهل كل مذهب على مذهبهم، وكان الرئاسة في كثير من الأحيان للمالكي. (أبو زهرة).

في ذلك بين الخَصْمَيْن، آخذاً بحقِّ الضعيف من الحكَمين، مُعْرِضاً عن الشَّفاعات والوسائل من الجانِـبَيْن».

ولا شك أنَّ هذه التَّسوية الـمُطْلَقة سَتُؤَلِّب عليه الناس في كلِّ مكان، إذ العصر لم يكن عَصْرَ الحق الـمُطْـلَق، أو المساواة الـمُطْلَقة في الخصومة في مجلس القضاء.

الأمر الثاني: أنه اتَّجه إلى وسائل الإثبات فَنقَّاها، وأبْعَدَ عنها الذين يفسدون الأحكام مـمَّن اتَّخذوا الإثباتَ سبيلاً للعيش، وتزكيةَ الشهود طريقاً، وإذا كانت البيِّنات هي الوسائل الأولى للإثبات ففسادها يؤدِّي إلى إفساد القضاء.

جاء إلى أولئك الذين اتَّخذوا الإثبات مُرتزقاً أو حرفةً فأخذ على أيديهم، وعلى أيدي كُتَّاب الدواوين الذين كانوا يكتبون العقود، ويُزوِّرون فيها، وفي الجملة طَهَّر القضاء من وسائل الإثبات والتَّزوير، ولنترك له الكلمة لينقل إلينا عمله بقلمه البارع المصوِّر، فقد قال في وصف حاله عند سماع البيِّنات:

«.. جانحاً إلى التثبُّت في سماع البيِّنات، والنظر في عدالة الـمُنْتَصِبينَ لتحمُّل الشَّهادات، فقد كان البَـرُّ منهم مختلطاً بالفاجر، والطيِّب مُتلبِّساً بالخبيث، والحكَّام مُـمْسكون عن انتقادهم مُتَجاوزون مـمَّا يظهرون عليه من هيئاتهم، لما يُنوِّهون من الاعتصام بأهل الشَّوكة، فإنَّ غالبهم مختلطون بالأمراء مُعلِّمون للقرآن وأئمة في الصلاة، يُلبِّسون عليهم بالعدالة، فيظنُّون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظَّ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة والتوسُّل لهم، فأعضل داؤهم، وفَشَت المفاسد بالتَّزوير والتَّدليس بين الناس منهم، ووقفت على بعضها فعاقبتُ بموجب العقاب، ومُؤْلم النَّكال، وتأدَّى إلى العلم بالجرح في طائفة منهم، فمنعتهم من تحمُّل الشهادة، وكان منهم كتَّاب لدواوين القُضاة،

والتوقيع في مجالسهم، قد تَدَرَّبوا على إملاء الدعاوى وتسجيل الحكومات، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود بأحكام كتابتها، وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شفوف[1] على أهل طبقتهم، وتمويهٌ على القضاة بجاههم، يدَّرعون به مما يتوقَّعونه من عَتْبهم لتعرُّضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يُسلّط بعضٌ منهم قلمه على العقود الـمُحْكَمة فيوجد السبيل إلى حلِّها بوجهٍ فقهيٍّ أو كتابي، ويُبَـادرون إلى ذلك مَتَى دَعَا إليه داعي جاهٍ أو منحة، وخصوصاً في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر، بكثرة عوالمه، فأصبحت خافية الشُّهرة، مجهولةَ الأعيان، عُرْضَةً للبطلان باختلاف المذاهب المنصوبة للحُكّام بالبلد، فمن اختار فيها بيعاً أو تمليكاً شارطوه وأجابوه، مُـفْتَاتين فيه على الحكّام الذين ضَرَبوا دونه سداً للحَظْر والمنع حمايةً من التلاعب».

نقلنا هذا الكلام مع طوله، لأنَّه يُصوِّر لنا تلك العَزْمة التي اعتزمها ذلك القاضي العظيم، وتُصوِّر لنا العَـقَبات التي تقف في طريقه، وتُصوِّر حال العصر، وتحكّم المتَّصلين بالحكام في مصاير الأحكام.

الأمر الثالث: أنه اتَّـجه إلى العناية بتنفيذ أحكامه، وذلك لأنه كان بين المفتين من يُضْعفون شأن الأحكام واضطراب الأمر بين قضاة أربعة، هم المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي، بفتح ثغرة لإضعاف قوَّة الأحكام، فجاء إلى المفتين وكَبَح جماح الذين يبعثون بالأحكام منهم. وإنه لطيِّب لنا أن نقرأ كلامه في ذلك فإنه يُرطِّب الأسماع، وهو يقول: «ثم التفتُّ إلى الفتيا بالمذهب، وكان الحكّام منهم على جانبٍ من الخبرة لكثرة مُعَارضتِهِم وتَلقينهم الخصوم، وفُتياهم بعد نفوذ الحكم، وإذا فيهم أصاغر، بَيْنا هم يَتَشبَّثون بأذيال الطلب والعدالة ولا يكادون. إذا بهم ظهروا إلى

---

(١) شفوف: فضل. (أبو زهرة).

مراتب الفتيا والتَّدريس، فاقتعدوها، وتناولوها بالجزاف، فاحْتازوها من غير مَتْرب ولا منتقد للأهليّـة... وقلم الفتيا في ذلك العصر طَلْق، وعنانها مُرسل، يَتَجاذب كلُّ الخصوم منه رسناً... فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاه... مُـتَـتَـبِّعاً إيَّاه في شِعَاب الخلاف، فـتَـتَعارض الفتاوى، وتَـتَـنَاقض، ويعظم الشَّغَب إن وقعت بعد نفوذ الأحكام، والخلاف في المذاهب كثير، والإنصاف مُتَعذِّر، وأهليّـة المفتي أو شهرة الفتيا ليس تمييزُها للعاميّ، فلا يكاد هذا المدد ينحسر، ولا الشَّغَب ينقطع»[1].

وقد طَهَّر الإفتاء من هذا الصِّنف من المفتين، وبذلك ضمن للحكم العادل طريقة إلى النفاذ من غير تشغيب عليه.

الأمر الرابع: الذي سَنَّه ابن خلدون أنه سَلَك من أبواب التَّعزير باباً لم يكن بيد الجلاد، وهو إثارة السخرية على مرتكب الذنب إذا كان من ذوي السلطان، فكان يُعزِّر بالصَّفْع على القَفَا إذا كان المتَّهم من ذوي الجاه أو المتَّصلين بذوي الجاه، فكان يديمُ الصَّفْع حتى يُدمي القفا من كثرة ما ناله من مسٍّ عنيف.

هذه صفحةٌ ناصعة البياض في تاريخ ابن خلدون، وهي مُشَرِّفَةٌ تُبيِّن للقضاة أنَّهم يملكون الإصلاحَ وردَّ الأمور إلى نصابها، ولكن لا يستطيع ذلك إلا أُولو العَزْم من القضاة.

لم يُطق الناسُ ابنَ خلدون، ولكنه أرضى الله تعالى. فأخذ الذين نالهم بصفعاته وغيرهم يدسُّون له عند السلطان، وقد أعرض عنهم السلطان أولاً، وابن خلدون ماضٍ في سبيل الصَّرامة.

---

(١) التعريف ص٢٥٥، ٢٥٦ طبعة الطنجي. (أبو زهرة).

وطريقهُ بلا رَيْب ليس هو طريق غيره من القضاة، فما كان يطيق سلوك ذلك سواه، ولذلك دعوه إلى أن يتَّبعهم فيما يتَّفقون عليه من مرضاة الأكابر. ومُراعاة الأعيان، «والقضاة للجاه بالصُّور الظاهرة، أو دَفْع الخصوم إذا تعذَّرت، بناءً على أنَّ الحاكم لا يتعيَّن عليه الحكم مع وجود غيره»(١).

وقد استمرَّت الدسائسُ تعملُ عملَها، فكَثُر عليه الشَّغَب من كلِّ جانب، فاعْتَزَل القضاء وسَافَر للحج، وقد نزلت به مصيبة فقد الأولاد.

عزله عن القضاء ودعوته إليه خمس مرات:

استمرَّ معزولاً عن القضاء نحو ثلاث عشرة سنة، عَكَفَ فيها على الدرس والبحث، لا يَني عن الدراسة وتنقيح كتبه، حتى دُعيَ إلى القضاء مرة ثانية، وقد سار في القضاء سيرته الأولى، ولكنه عُزل للأسباب الأولى، ثم تولَّى ثالثة، ثم عُزل، ثم رابعة وعُزل، ثم خامسة، وهي الأخيرة، وكانت سنة وفاته، ولقد ذكر المؤرخون أنه في تَوْليته الأخيرة كان ليِّناً، حتى إنّ ابن حجر العسقلاني يقول: «أعيد إلى منصبه سنة سبع وثمانمائة، فباشر في هذه المرة الأخيرة بلينٍ مُفْرطٍ وعَجْزٍ وَخَوَر»(٢).

ولا ندري ما الذي جعله يَلينُ بعد الشِّدَّة، ويَضْعُفُ بعد العَزْمة، أهي كَثْرة العَزْل، وخصوصاً أنَّ بعضه كان في صُورة قبيحة، أم هي الشيخوخة وضعفها؟ لا

---

(١) يقصد بالصُّور الظاهرة بأن يستمع إلى البيِّنات التي يَصْطنعونها ولو كانت كاذبة، ولا يتحرَّى وراء ذلك ويبحث ويُعَنِّي ويتعب نفسه. (أبو زهرة).

(٢) «رفع الإصر عن قضاة مصر» ـ ورد في «مؤلفات ابن خلدون» للدكتور عبد الرحمن بدوي ص٢٨٣. (أبو زهرة).

نعرف أنَّ ابن خلدون ـ وهو الذي عاش في الشَّدائد، واكتوى بنيران الدسائس الخفيَّة ـ يُؤثِّر فيه العَزْل المتوالي، ولو كان في صورة [قبيحة]، لأنَّ ذلك كان يزيد عَزْمته اشتداداً، وهو العالـمُ الاجتماعيُّ الذي يعلم أنَّ الجهود التي تُبذل لدفع الشرِّ يجبُ أن تكون من القوَّة بقدر حِدَّته، واتّساع شيوعه، فكلما زاد اجْتراماً[1]، كان على المصلح أن يأخذ له الأُهبة، ولذا نحن نُرجِّح أنه ضَعْفُ الشيخوخة وعبءُ السنين.

وإنا نختم كلامنا بأن نُقرِّر ما قلنا من قبل، هو أنَّ ابن خلدون إذا لم يكن فقيهاً، فقد كان من أعظم القضاة الذين رآهم تاريخ الإنسانية، فرضي الله عنه وأرضاه.

* * *

(١) في الأصل المطبوع: احتراماً بالحاء المهملة، والسياق يدل على ما رجحته بالجيم. أي كلما زاد الشر اجتراماً كان على المصلح أن يأخذ له الأهبة والاستعداد لمقاومته.

علماء معاصرون

الإمام محمد عبده[1]

(١٢٦٦-١٣٢٣هـ = ١٨٤٩-١٩٠٥م)

ومنهجه في تفسير القرآن

الحمد لله الذي أنزل القرآن برهاناً ونوراً مبيناً، والصَّلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسل بشيراً ونذيراً وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد،

فهذا كتاب في بيان منهاج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، وهو باكورة تأليف السيد عبد الله محمود شحاته، وقد رأى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية أن يتولَّى طبعه ونشره تشجيعاً لكاتبه، وليكون وراء هذه الباكورة أنضج الثمرات وأينعها وأطيبها إن شاء الله تعالى.

نشأة الأستاذ الإمام:

وقد ابتدأ الكاتب بذكر حياة الأستاذ الإمام ناشئاً نشأته الأولى في بيت ريفي، لربِّ البيت فيه السلطة المطلقة، وقد بيَّن هنا أثر أبيه، وكيف كان يهابه ويرهبه ويحبه

(١) تقديم كتاب: «منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن»، للدكتور عبد الله شحاته، طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٠م.

معاً، ثم انتقل بصاحبنا الغلام إلى الجامع الأحمدي، حيث يطلب العلم، مشيراً إلى حال المتعلِّم والمعلِّم فيه، وطريقة الدرس، وهنا تبدو من الغلام أول ثورة نفسيَّة، ذلك أنه لم يستطع أن يفهم مما يلقى عليه شيئاً. ودفعته هذه الثورة إلى الإعراض، ثم إلى ترك الدرس بعد سنة ونصف.

وإذا كان قد زهد في العلم بعد أن رأى ما رأى في السنة والنصف، وبعد استغلاق مسائل العلم عليه، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد هيَّأ له ما يُرَغِّبه في علم الإسلام. ذلك أنه قد قهره الأب المرهوب المحبوب على العَوْد إلى طلب العلم، وهمَّ بأن يفرَّ هارباً، ولكنه وَجَدَ المأوى والملاذ عند رجل صوفيّ، له بأبيه قرابة خئولة، فقد عرَّج عليه في مَهْرَبه، والرجلُ قد رَاضَ نفسَهُ وسَمَا بها، وسبقت له تجارب أسفار، وفيه قوَّة نفسيَّة تؤثِّر وتَجْذبُ وتُوجِّه، فوجد فيه محمد عبده الثائر مُوَجِّهاً مؤثِّراً، فأخذ يقرأ عليه رسائل وكتباً في التَّصوُّف الخالي من الشوائب، وأخذ هذا يَبُثُّ فيه النُّزوع إلى المثل الإنسانية والدينية العُليا، والتلميذ يتلقَّى ما يُلقَى عليه تلقِّيَ الصَّادي للماء العَذْب الفُرات، وتجاوبت النفسان، والتقى القلبان.

سأل التلميذ الشيخ: ما طريقتك؟ فقال: الإسلام.

وسأل التلميذ شيخه مرةً أخرى: ما وِرْدك؟ فقال: لا وِرْدَ لي سوى القرآن تقرؤه مع الفهم والتدبُّر. فقال: أنَّى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلَّم شيئاً؟ فأخذ الشيخ الموجِّه بيد تلميذه لينقذه من حَيْرته، فقال: أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة، وببركتها يفيض الله عليك التفسير.

عودته إلى الجامع الأحمدي:

أخذ الشاب محمد عبده طريقه، فكان إمامه الإسلام والقرآن وفهمه، وعلم أن السبيل إلى ذلك هو تعلُّم علوم الإسلام، وعلوم القرآن، فعاد إلى الجامع الأحمدي رَغَباً لا رَهَباً، ففتحت الرغبة مغاليق عقله، ففهم ما تعصّى عليه فهمه من قبل، ونبغ بين الطلبة.

انتقاله إلى الأزهر ولقاؤه بالأفغاني:

والجامع الأحمديُّ كان نهراً صغيراً من النهر الأعظم وهو الأزهر، فتاقَتْ نفسُه لأن ينتقل إليه، فشدَّ رحاله إلى القاهرة، وفيها يلتقي بحكيم الشَّرق جمال الدين الأفغاني، فَوَجَد فيه الهدف الذي يَـقصْده، وَجَدَ فيه عقلاً مُشْرقاً نافذاً، وإذا كان قد وجد في الشيخ الصُّوفي توجُّهاً سلبياً، فقد وجد في الشيخ الحكيم فكراً مستقيماً، ونفساً مُتَوثِّبَةً، وإرادةً قويّةً خلّاقةً، قد تعلُو على كلِّ من في الوجود، لتسجد لخالق الوجود، وتفرِّده بحقِّ المعبود.

كان جمال الدين يُعلِّم الحكمة، ويُوعز بالتفكير الحر، واستقلال الفكر مع غَيْرَةٍ على الإسلام وأهله، ورغْبةٍ في جمع أشتات المسلمين، وعمل على ذلك بإزالة الغمَّة عن العقول، وإثارة الهمَّة للعمل، وقد التقى به مع الشاب محمد صفوةٌ من نُبغاء الأزهر، فبثَّ فيهم نزعته بالتدريس والتوجيه وحُسْن الصُّحبة، وما أُخرج من مصر إلا بعد أن بَدَت بوادر الثورة.

كتابة محمد عبده في الصحف ورئاسته لتحرير «الوقائع»:

تهيأ للشاب الأزهري أن ينال شهادة العالمية، فأخذ يكتب في الصحف، وقد بدأت العقول تتفتّح، كما تتفتَّح أكمام الورد، وتولَّى رياسة تحرير «الوقائع»، فاتَّخذ

منها منبراً للتوجيه والدعوة إلى الهدى وإلى صراط مستقيم، وانضمَّ إليه من تلاميذه وصحبه مَنْ عاونوه في رسالته، وقد قبسوا من علم جمال الدين ما قَبَس، وكان لبعضهم في الوطنيَّـة والعلم مقام مشهود.

مشاركته في الثورة السياسية وسجنه ونفيه:

كل ذلك وبوادر الثورة السياسية قد ظهرت، فَخَبَّ فيها الإمام محمد عبده ووضع، ولما احتلت مصر بعد خيانة كبير حكامها كان الشيخ مـمَّن أصابتهم عقوبتها، فَسُجن ونُفي، ولكنه همّـةٌ لا تُفل، وعزيمة لا تَـكل، فالتقى بشيخه وصديقه جمال، وأخذا يعملان على جمع شَمْل المسلمين. وبعد جهود مُضْنِيَـةٍ من الرجلين، رأى التلميذ أن أسلم طريق لإيقاظ الأفهام: تعليم المسلمين، ورأى الشيخ الأستاذ مع ذلك ضرورة إيقاظ الهمم، فافترقا، كلٌّ يعمل على منهاجه.

عودته من منفاه ودروسه الباعثة الموقظة:

أخذ يلقي محمد عبده دروسه في الشام، ثم لما عاد من منفاه أخذ يلقي دروسه الباعثة الموقظة بين الأزهريـين، وقد عُـيِّن في مَنْصبٍ من أعلى مناصب القضاء عسى أن يُصرف عن رسالته التي حملها، وصار وحده الحامل لها، وخصوصاً بعد وفاة صديقه جمال الدين، ولكنه لم يُصْرَف عنها، لأنها مُنْبعثةٌ من قلبه وإيمانه، لا من تكليف حاكم، أو من تعيين في منصب، ورسالته هي التعليم، فأنشأ **الجمعية الخيرية الإسلامية للتعليم**، وعقد الندوات العلمية، وألقى الدروس.

دروسه في تفسير القرآن:

وكان الدرس الذي يمكنه من أداء رسالته العلمية هو تفسير القرآن، فهو معجزة الإسلام، وفيه شريعته، وهو حبل الله الذي يعتصم به المسلمون، وهو برهان الله

ونوره المبين، ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

اتجاهه في تفسير القرآن:

لقد وجَّهه شيخه الصُّوفي إلى القرآن وتدبُّره، وأسلم منهاجه لتفسيره، وهو فهمُ جُمله، ثم التوجُّه من بعد ذلك بصفاءٍ نفسيٍّ إلى معانيه السامية، فإنه لا بدَّ من أن تسمُو نفس طالب علم القرآن، حتى يعْلُو إلى إدراك سُموه، وإنك لترى الإمام محمد عبده يتَّجه في تفسيره اتِّجاهاً لم يسلكه أحد من المفسِّرين، فإن المفسِّرين من قبله كانوا إما أن يعتمدوا على الأثر، وإما أن يعتمدوا على ما تُؤدِّيه الألفاظ من معان، وما يشتمل عليه القرآن في ألفاظه وجمله وأساليبه من بلاغة، وقليلٌ منهم من كان يغوص في تدبُّر هذه المعاني، وإذا كانت معاني الألفاظ هي مفاتيح المعاني كما قال الإمام الغزالي، فوراءها آفاق للتدبُّر والتأمُّل، وقد حاول الإمام بالتزامه منهاج التدبُّر في المعاني أن يوجِّه أذهان تلاميذه إلى أسرار المعاني القرآنية.

وإنك تقرأ ما نقل من تفسيره، وأحسب أن النقل كان مقرِّباً لما قاله الإمام وليس مُـحقِّقاً لكلِّ ما قال، ولا مُصوِّراً لكل ما أراد ـ فتجد المحاولة الجديَّة لمعرفة ما في آيات القرآن من مَرَامٍ وغايات، وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمه كتفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [البقرة: ٢١٣] فتجد فيها المحاولة بيِّنَةً رائعةً عظيمة.

تنقية الإسلام وتفسير القرآن من الشوائب:

والإمام في تفسيره كان حريصاً على تنقية الإسلام وتفسير القرآن من الشوائب، فإنَّ طائفة كبيرة من الإسرائيليات دخلت تفسير القرآن، فكان من عمل الإمام في درسه أن أزال هذه الغواشي فيما نشر، لتبدو صفحة القرآن مُتألِّقة ونورها مُبيناً.

وإنَّ تلك الغواشي كانت كثيفةً إلى درجة أن وقع بعض كبار المفسِّرين في أغلاط بسببها، وإذا كان العابثون بالديانات السماوية قد حرَّفوا الكلم عن مواضعه في بعضها، فإنهم قد عَجَزوا عن ذلك في القرآن، لأنَّ الله حفظه، ولأنه بأسلوبه فوق تحريف الـمُحرِّفين، وأيُّ كلام يلحق به يبدو بادي الرأي مميَّزاً، ولم يحاول أحد ذلك لعجزه ابتداء، وقد حُفظ متواتراً في الصُّدور لا في السُّطور، فلا سبيل لمحرِّف أن يصل إليه، ولكن أولئك جاؤوه من تلك الإسرائيليات ليشوِّهوا جماله. ولكن كان في كل عصر من أئمة الحق مَنْ يردُّ زيفهم، وكان آخرهم الأستاذ الإمام.

لباب المعاني:

ولقد كان الإمام يقرأ ما يقرأ حتى أنه كان يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيراً، ما بين مطبوع ومخطوط، ولكنه يستعين بمجموعها، ليصل إلى لُباب المعنى، لا لينقل ما فيها، أو يتيه فيما يقرأ.

وكان يتَّخذ من منبر القرآن طريقاً لبيان البدع والأوهام، وما فرَّق أمرَ المسلمين بعد الاجتماع، ويُوضِّح الفرقة الفكريَّة والسبيل إلى تلافيها على مائدة القرآن، والأخذ من وِرْدِهِ الصَّفيّ، وعلمه النَّقيّ.

تأثُّر رشيد رضا بشيخه:

ولقد تكوَّنت مدرسة من العلماء والمثقَّفين تطلب علم الإمام وترويه وتنشره، ومن أقوى [تلاميذ] هذه المدرسة تأثراً بالإمامِ السيدُ رشيد رضا، رحمه الله وعفا عنه، فهو راويه وناقل علمه إلينا نحن الذين لم نستمع إلى الإمام، وإن استمعنا إلى صَحَابته المخلصين له.

ولا شك أنَّ السيد رشيد الذي سار في تفسير الإمام بعد أن قبضه الله تعالى إليه قد حاول حكاية طريقة الشيخ، ولكن طريقة الإمام كانت طاقة نفسيَّـة، وليست منهاجاً فقط، ولذلك لا نجد في الأجزاء التي أتـمَّها السيد التَّغَلْغُل الذي كنا نراه في المنقول عن الإمام.

مزايا تفسير المنار عن تفسير شيخه محمد عبده:

ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا في تفسير الإمام:

أولهما: العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النَّبيِّ ﷺ، وذلك بلا رَيْبٍ خيرٌ كله.

وثانيهما: النقل الكثير من المفسِّرين، وإنَّ السبب في ذلك أنَّ الإمام كان يلقي درساً، فكان يُلقي ما تمثَّل في عقله وقلبه مما قرأ وتأمَّل وتدبَّر في القرآن، ولأنَّ كلَّ همّـةَ نفسِهِ كانت مُتَّجهةً إلى لُباب القرآن.

وقد نبَّه السيد رشيد إلى بعض أخطاء للإمام في أدب ووفاء، ولكن ذلك لا يُعليه إلى مرتبته، ولا يُنزل الإمام إلى طبقته، فالناس منازل في العلم، وحسب إمام الجيل أنه فتح عين الطريق، فاستقى منها كلُّ وارد، وكان أشدّ الناس [استقاءً] منها تلميذُه وصفيه السيد رشيد، ولكلٍّ مقام معلوم[(١)].

وقد خاض السيد الكاتب خَوْضاً شديداً نوافقه في بعضِه ونُخالفه في بعضه، ولكنا في الموافقة والمخالفة نُقدِّر اجتهاده، وهو فيه مجْزيٌّ من الله تعالى.

والله وليُّ التوفيق.

---

(١) أنصح القارئ الكريم أن يقرأ كتاب «منهج المدرسة العقلية في تفسير القرآن» للدكتور فهد الرومي ليتعرَّف على المآخذ التي أخذت على هذه المدرسة.

أحمد تيمور

(١٢٨٨-١٣٤٨هـ)

ورسالته «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهيّة»[١]

عالمان عظيمان: أحمد تيمور وأحمد زكي:

كنـا نَشْدُو في طلب العلم، وعالمان عظيمان يتردَّد اسماهمـا في مجالس العلم، وأحدهما: لا نكاد نلقاه، وهو «أحمد تيمور»، وثانيهما: نلقاه في النَّدوات، وفي المجلات وفي الصُّحف، وهو المرحوم العلّامة «أحمد زكي».

ولقد كنَّا ونحن في دروس التَّاريخ في مدرسة القضاء الشرعي، إذا عزّ علينا العلم باسمٍ تاريخي، وشاركنا أستاذنا المحقِّق في ذلك، اقترحنا أن نرسل إلى «أحمد زكي» عن طريق الصحافة سؤالاً، فيُعاجلنا بالجواب كأنه مُهيَّـأ حاضر، يستعدُّ له، كما يستعدُّ الجنديُّ للقتال إذا دعا دَاعيه.

وأما «أحمد تيمور» فإنه كان قد ارتضى عندما شَدَوْنا في طلب العلم ألا يكون إلّا في النَّدوات الخاصّة التي لا يحضرها إلا عِلْيةُ العلماء، ولا يحضرها الطلبة وإن

(١) مقدِّمة للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة لرسالة الأستاذ أحمد تيمور رحمهما الله تعالى، بعنوان: «دراسة تحليلية في تاريخ الفقه الإسلامي»، اقتصرت فيها على ذكرياته عن ذلك العالم الجليل، وكلمته عن رسالته: «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة وانتشارها عند جمهور المسلمين» ص٣٤-٤٦.

كانوا شادين ـ فقد ظهر اسمه بين أوساطنا يتردَّدُ بالإكبار والتقدير، فتُـذْكَر مكتبته وما حَوَتْ، وتُـذكَر إسلاميّـاته، وتذكُر علاقاته بالعلماء، ومُدارَسَاته معهم، وانصرافه للعلم الإسلامي، وجَـمْعُ كل آثاره التي تناولها بيده، سواء أكانت مخطوطة أم كانت مطبوعة، وتركُه المناصب العُليا، ليتفرَّغ لعلم الإسلام، وإحياء مآثر علومه، ونشرها بين الناس في هَدْأة العالِـم، واطْمئنان المتثبِّت.

دراسته على أكابر العلماء:

ولقد ابتدأ يُـكمِّل نفسه بالدراسة على أكابر العلماء أمثال العالم المتفكِّر الزاهد الشيـخ حسن الطويل؛ إذ جعل مزرعتـه مُسْتراضاً للشيخ يستجمُّ كل أسبـوع، ويَسْتذكران الـمُغْلَقات مما يتعسَّر على الأستاذ تيمور الوصول إلى دقيق معناه من مُعْضلات «المنطق» و«الأصول» والأدلة ما بين عقلية ونقلية.

ثم اتصاله بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فَجَعل داره مُلتقىً لتلاميذه، وما كان الإمام يضنُّ عليهم بدرسٍ من دروسه التي أشعل بها نور الحق في الأزهر وبين طلابه، وأراهم بها الحياة، وقال لهم فيها كلمته المشهورة: «العلمُ ما علَّمكَ مَنْ أنت مِـمَّن مَعَك».

كانت حياة أحمد تيمور نوراً يضيء، وفَيْضاً غير هادر يفيض، يعرفه ناس من أهل العلم ويعشون إليه، ولكن ما كان يأنس به إلّا الخاصّة.

وفاة أحمد تيمور:

استمرَّت تلك الحياة الهادئة دائبةً في دراسة كنوز الإسلام، واستخراجها، غير وانية، ولكن في غير ضَجّة، حتى انطفأ ذلك المصباح المنير في مطلع صيف سنة ١٩٣٠، فكانت رنّة النَّاعي مُعَرِّفة للناس مكانةَ مَنْ فقدوا من رجالات الإسلام.

كنت أجلس مع بضعة من شيوخنا الأمجاد الذين كانوا يُصَادِقونه ويذاكرونه، وقد تعوَّدت أن أقبسَ من مجالسهم، وآنَسَ بأخبارهم، وكان لهم في كلِّ يوم ندوة من الأحاديث الـمُطْلَقَة التي يجمعها العلم ولا تضيق بموضوع مُعيَّن، بل إنها سمَرٌ أدبي وديني يجمع بين فكاهات أدبيَّـة، وبيان حقائق إسلاميَّـة وردودٍ على ما يجري على أقلام بعض الكتاب من انحراف في القول.

ولكن في مساء اليوم الذي شُيِّعت فيه جنازة العالم أحمد تيمور صار هو موضوع تلك الندوة المباركة، ومن بينهم مَنْ كان يجاوره، ومنهم من كان يَصْطَفيه ويَسْتفتيه، ومكثنا على ذلك أكثر من ثلاث ليال سَوِيّاً لا حديثَ لنا إلّا عن تيمور، وكنَّا نعود إليه الفَيْنة بعد الفَيْـنة، لأنه لا يُنْسَى.

كتاباته عن أعلام عصره:

وكانت تُنشر له مقالاتٌ مُسَلْسلة عن أعلام عصره في إحدى المجلات الأدبية، فكنت ألمح صِدْقَ القصص، ودقَّة الخبر، واتِّصال السند، في لفظ بَـيِّنٍ من السَّهلِ المُمْتنع، لا يعلُو على العامّة، ولا يَنْبُـو عن آذان الخاصّة، ويجد فيه القارئ نوافذ تُطلّ على آفاق واسعة تكشف عن عصر أولئك الأعلام من غير تَـكَلُّف، في عبارات مقَـرَّبة.

وكنت ترى في الكتابة تصويراً دقيقاً وواضحاً للعَلَم من الأعلام، من وراء تنقُّلاته الفكريَّـة.

ولقد أنصف بهذه الكتابة التي كانت تنشرها المجلات وتسجل في كتب رجال عصرنا.

ومَنْ ذا الذي كان يعرف حياة الإمام حسُّونة النواوي الذي سجّل له التاريخ مواقف مملوءة بعزّة العلم وكرامته.

وما الذي يعرفه الناس عن العالم الذي اعتزَّ بالعلم فقط والذي كان يُقْصد من آفاق الأرض لعلمه، وهو **الإمام حسن الطويل**؛ لولا قلم أحمد تيمور.

إنَّ الأفاضل من علمائنا وكبرائنا الذين عَمِلوا بالعلم، وبالعلم وحده، لا يُـذْكَرُون في أوساط الناس كما يُـذْكَرُ غيرهم، وكان من الوفاء للعلم والعلماء أن يُسَجِّلهم إمامٌ جليل مثلهم في كُـتُب منشورة.

أهمية التعريف بالعلماء المعاصرين:

ولكنَّ الذين أدركهم تيمور، والتقى بهم، وكان لهم النَّصيب الوفير، جاؤوا بعدهم، يحتاجون إلى مَنْ يلتفت إليهم في وَسَط ضجّة غيرهم ممن لم يكن لهم فَضْلُهم، وليس لهم في الدين والـخُلُق والعلم مآثرُهُم، فهل من مُنْصفٍ مُحقِّق ينصفهم، كما أنصفَ أسلافَهم من الأكرمين أحمدُ تيمور رحمه الله تعالى؟!

إنَّ تاريخ علمائنا الذين اتَّصلتْ حياتنا بحياتهم، ونهلنا من معارفهم، وقدَّموا لنا أرْسال الفكر سائغة نقيّـة سليمة، لم يُـرَ فيها رَيْب، ولم يُـخالطها انحراف، إنهم في ذمّـة التاريخ، والتَّعريفُ بهم في أعناقنا.

كتابات أحمد تيمور:

تَـتَّسم كتابة تيمور بِسِمات ثلاث لعلَّه قد اختصّ بها في عصرنا:

السِّمَة الأولى: الدقَّة، وكأنّ اللفظ فيها قد وُضِعَ على قدر المعنى، نسق عليها تنسيقاً حِيكَ عليها، بحيث لا يمكن أن يتَّسع لسواها، ولو أردت أن تضعَ كلمةً مكان أخرى لكان ذلك عسيراً مع السهولة والوضوح، وقُرب المعنى بلا تعقيدٍ ولا إعضال، بل إنك تجد الكلام سهلاً ميسَّراً على طرف الثُّمام[1].

---

(١) أي: قريب سهل التناول.

السِّمَة الثانية: الإيجاز من غير إخْلال، تقرأُ الكلام، فتحسُّ بأنه ما ترك مما تصدَّى له أقلَّ جزء من المعنى، وذلك من غير إبهام.

وإنَّ هذا النوع من الإيجاز الوافي أصعب من الإطناب تُـكتب فيه المعاني عند ورودها مُرْسَلة، وكلما جاءت على الخاطر سطرت على القرطاس، من غير ملاحظة لأن تكون الألفاظ أوسع من المعاني أو لابسة لباسها لا تسع غيرها، أما الإيجاز غير الـمُخلّ، فإنَّ المعنى يُجمع، ويُبْحث له عن أقلِّ لفظ يلبسه من غير إسراف في الثياب، ولا تَـخَلْخُل فيها.

وتعجبني في هذا المقام كلمة للمغفور له سعد زغلول في خطاب أرسله إلى صديق له، وكان فيه إطناب: «اُعذرني في هذا الإطناب فإنّه ليس عندي وقت للإيجاز».

السِّمَة الثالثة: جمالُ العبارات جمالاً هادئاً، ربما لا يكون له بريق، ولكنه جمال يلتقي فيه جمال اللفظ مع جلال الحقائق، فلا يدري القارئ أهو مُـعْجَبٌ بالمعنى وحده أم بها مع كسائها غير البرَّاق، وإن كان متناسقاً منسجماً.

إنشاء دبلوم للشريعة بالدراسات العليا في كلية الحقوق:

في شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤، أنشئت بكلية الحقوق بجامعة القاهرة دبلوم للشريعة بالدراسات العاليـة، لأنَّ الحاجـة العلميَّـة استدعت وجودهـا، إذ إنَّ طلاب هذه الدراسات اتَّجهوا إلى الشريعة يكتبون رسائلهم فيها، ومنهم [من] كان يتعسَّر عليه فهم مصادرها، وفتح مغاليقها، فكان لا بدَّ من دراسةٍ تُوجِّهُهم وتُـهيِّئ لهم السُّبل لذلك، ولأن الأنظار اتَّجهت إلى كلية الحقوق بالقاهرة لتنهل من عَذْبها في الشريعة، ولأنه وَجَبَ أن تقرَّبَ دراسة الشريعة بتعمُّق لطلاب القانون، ليستقيموا على منهاجها،

ولأنه وَجَبَ أن يتَّصل حاضرها بماضيها بدراسة المجتهدين، وليرى فيها الطلاب نورَ الشَّرق ومن انبثق منه، فكانت دبلوم الشريعة موئل الطلاب والباحثين.

وضع مناهج الدراسات العليا:

وقد أُلِّفتْ عند وضع مناهجها لجنةٌ من كبار رجال القانون وأساتذة الشريعة بالكلية، وعلى رأسهم أستاذنا المرحوم أحمد إبراهيم، ومن المصادفات الطيِّبة أنه كان من أصدقاء أحمد تيمور، ومن علماء الشَّرق الأخيار.

وكان من المنهج الذي وَضع دراستُه أحدَ المجتهدين، بحيث يُدرَس كل عام إمامٌ من الأئمة أصحاب المذاهب المشهورة في الأمصار وأصولهم التي تُصوِّر ناحية فكرية من نواحي الفقه الإسلامي، من غير ابتعاد عن مصادره، وإن اختلفت الأنظار حولها، كلّ يقطف منها ويمتص، ثم يخرج من بعد ثماراً مختلفاً ألوانها، وإن اتَّحد في الجملة مذاقها، لأن الينبوع واحد، والتربة خِصْبة، والبذر متشابه وأكُلُه مريء غير وبيء.

الكتابة في تراجم الأئمة المجتهدين:

ولقد عهد إليَّ دراسة مادة أحد المجتهدين، وسِرْتُ فيها في طريق سويّ أو أحسبه كذلك، وكنت أجد للتاريخ مصادره مستوفاة وإن كنت أحياناً أجده ركاماً قد اختلط فيه الجوهر بالحجر، فكان الانتقاء ليس يسيراً سهلاً، والأصول لها بواطنها.

البحث عن البلاد التي انتشرت فيها المذاهب الفقهية:

ولكن أمراً أعياني البحث فيه، وهو البلاد التي حلَّ فيها المذهب من المذاهب بقدر كبير أو قدر قليل، وذلك واجب لتعرُّف مواطنه وأراضيه التي أخذ أعْرافها

واتِّجاهاتها في الأمور التي لا نصَّ فيها، ولأنَّ معرفة ذلك من معرفة أحوال المسلمين، وهو واجبٌ على كلِّ مسلم يشتغل بالدراسات الإسلامية، ولقد ورد في الآثار عن النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَهتمَّ بالمسلِمين فَلَيْسَ مِنْهُم»(١).

كتاب «المذاهب الفقهية الأربعة» للعلامة أحمد تيمور:

ولكني وأنا أبحث في المكاتب، وأتَّجه إلى صغير الأحجام من الكتب ـ دون الضخم كثير الأوراق ـ وجدتُ طلبتي في كتاب «المذاهب الفقهيَّة الأربعة»، وفي غيره من كتب التراجم. فتحقّقت فيها الغاية، وسَهُل عليّ ما صَعُب، وقَرُب ما بَعُد، فأخذتُه.

ومن الحقّ عليّ أن أقول: إنَّ كثيراً ممّا في كتب المذاهب الأربعة التي هداني الله تعالى إلى كتابتها، كثيرٌ مما فيها لكتاب الأستاذ أحمد تيمور حظٌّ فيه موفور، فأخذتُ منه مع غيره الكثير.

وفي هذا الكتاب الصغير في حجمه، الكبير فيما اشتمل عليه، وجدتُ ما يُعتمد عليه، وما يُطْمَأن إليه، لأنّه يُرجع الكلامَ إلى مصادره، والحقائقَ إلى ينابيعها من غير تفريط، شأن العالم الثَّبْت المُنَقِّب عن الحقائق خفيِّها وجَلِيِّها.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٧٣)، من حديث حذيفة بن اليمان رضيَ الله عنه. وإسناده ضعيف. وأخرجه أبو نُعيم في «الحلية» ٣: ٤٨، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٨٦) من حديث أنس بلفظ: «من أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم». وإسناده ضعيف جداً. وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٧١) من حديث أبي ذر بلفظ: «من أصبح وهمه في الدنيا فليس من الله في شيء، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠: ٢٤٣ وقال: «فيه يزيد بن ربيعة الرحبي، وهو متروك». وأخرجه الحاكم في «المستدرك» ٤: ٣٢٠ من حديث ابن مسعود. وقال الذهبي في «تلخيصه»: إسحاق ومقاتل ليسا بثقتين ولا صادقين.

والكتابُ يبتدئ بمُقدِّمةٍ مُوجَزة في تاريخ الفقه الإسلامي وينابيعه، حتى يصل إلى أكبر الأئمة الأربعة وهو أبو حنيفة، فيذكر موطنه الذي وُلد فيه وعاش، وتلاميذه الذين تلّقوا عليه، ويذكر البلاد التي شاع فيها مذهبه وإيثار أصحابه بالقضاء، ويَـتَـتَـبَّـع البلاد التي انتشر فيها بلداً بلداً، يسترسل اسْتِرسالاً مُحكماً دقيقاً في بيان ما يجري بين هذا المذهب وغيره من المذاهب من منافسة، ويخصُّ مصرَ ببيان مقام المذهب مع المذاهب الأربعة، ويَـتَـتَـبَّعه في المواطن التي انتشر فيها، مُتقصِّياً حتَّى يصل إلى البلاد التي يقلُّ فيها ويستعصي عليه أن يعرف مقدار نسبته فيها ومبدأ وجوده، فيقول رحمه الله:

انتشار المذهب الحنفي:

«أما بدء دخول المذهب الحنفي في سائر البلاد، فغاية ما وقفنا عليه من انتشاره في القرن الرابع ما ذكر المقدسيّ في «أحسن التَّقاسيم»، في كلامه في كل إقليم، ومنهُ يُعْلم أنه كان الغالب على أهل صنعاء وصَعْدة باليمن، والغالب على فقهاء العراق وقُضَاته، وكان منتشراً بالشام، تكاد لا تخلو قصبة أو بلد من حنفيّ.

وربما كان القضاة منهم، إلّا أنَّ أكثر العمل فيها كان على المذهب الفاطمي في زمنه، أي كما كان في مصر في عهد الفاطميّن.

ويسترسل في بيان أماكن المذاهب ما كان فيها شائعاً، وما كان فيها من غير شيوع.

انتشار مذهب مالك:

ثم يتَّجه من بعد إلى مذهب مالك، ويُسمِّيه مذهب «أهل الحديث»، فيبيّن موطنه الأصيل، وهو المدينة، ثم ظهوره ببغداد، وضعفه في القرن الرابع الهجري.

ثم ظهوره منتشراً في غرب البلاد الإسلامية، وسيطرته وشيوعه في مصر وما والاها من شمال إفريقيّـة، حتى يصل إلى الأندلس والـجُزر التي تصاقبها من البحر المتوسط، ويتتبَّع المذهب في الشرق، حيث يدخل «الرَّيَّ»، وزيارته للهند... إلى آخره.

ويتقدّم بالتوضيح للمذهب المالكي في مصر، فيبيّن أول دخوله ومن أدخله، ويحقِّق في ذلك مقارِناً بين النصوص جامعاً بينها ـ ثم يشير إلى الحال في العصر الحاضر ـ وسيادة المذهب الحنفي في إفريقيّـة (تونس)، ثمّ غلبة المذهب المالكي عليه.

ويُبيّن أنَّ أوّل ما دخل إلى الأندلس من المذاهب الفقهيَّـة مذهبُ «الأوزاعي» وقد غَلَب عليهـا، ثم أدخل المذهبَ المالكيَّ الأمويُّون بالأنـدلس، وزال مذهـب الأوزاعيِّ حَوْل المائتين.

ويُبيِّن أنَّ شيوع المذهب كان بإلزامٍ من أميرها الأمويّ، لأنه أثنى عليه ثناءً طيِّباً، وفضّله على حكّام الحرَم المدني، وقال لمحدِّثه: «نَسْأَلُ الله تعالى أنْ يُزيِّن حرمَنا بملككم».

ويتقصّى شيوع المذهب المالكي لا يغادر بلداً كان فيه إلّا ذكره.

وهكذا يسير على طريقته في بيان أماكن انتشار المذهبين الشافعي والحنبلي من غير تقصير في بيان المواضع، كما فعل في المذهبين الحنفي والمالكي، وقد ضربنا بهما الأمثال.

ملاحظات على الكتاب:

ويلاحظ في هذا الكتاب القيّم ثلاثة أمور:

أولها: أنه لم يُـعْنَ بدراسةِ حياة الإمام دراسة تحليليَّـة مُـتَـقَـصِّية، ولم يدرس أصول فقهه، ذاكراً ما بنى عليه آراءه، لأنَّ هذين الأمرين لم يكونا غايته، إذ أنَّ فقهه

عملٌ فقهيٌّ يُترك للفقهاء يدرسونه، ويُبيِّنون مبادئه ونهاياته، ويقابلون بينه وبين غيره، ولأنّ تاريخ الأئمة كان قائماً في مناقبهم، وما كان من شأنه أن يُـكرِّر ما هو مجموع مَبْسوط في إطار واحد، إنّـما كانت عنايته مُتَّجهة إلى ما هو منثور غير مجموع، وفي وقت لا نكاد نجد فيه كتاباً جُمع فيه بين ما هو منثور من أماكن المذاهب وبين ما هو شائعٌ في أرضه، وما هو قليل فيها، وقد سدّ الأستاذ أحمد تيمور تلك الثَّغْرة، وملأ ذلك الفراغ، وهو في ذلك محمودُ الصَّنيع.

الأمر الثاني: إنك لا تجد مذهباً من المذاهب قد استولى استيلاءً كاملاً على بلد من البلدان، بل كان يُزاحمه غيرهُ أحياناً، ويُجاوره في أماكن تمكُّنه أحياناً أخرى، ولذلك تراه قد ذكر المذهب الواحد في عدَّة أقاليم، وذكر غيره أيضاً في هذه الأقاليم، ولكن أحدهما يكون كثيراً في هذا الإقليم، والآخر قليل فيه.

الأمر الثالث: الذي يُلاحظ في هذا الكتاب المفيد القيِّم: كثرة نقوله، وذلك من فَضْل التثبُّت عند الكاتب الجليل، وهو يتكلّم في حكايةِ نُـقول؛ فكان لا بد أن يكون ذكرها بالنصِّ مَقْصُوداً، ليأخذ بيد القارئ، ويكون على مَقْربة من المصادر الإسلاميَّة، ولكي يتأكَّد من صدق الحكايـة، وسلامـة النَّـقْل، ولكي ينقـل علم الأسلاف إلينا ليخاطبوا خيالنا، وفي كلام الكثيرين منهم مَشرِق الحكمة.

عبقرية التَّصنيف:

وإن عبقرية التَّصنيف التي اتَّسم بها الكتَّاب السلفيُّون هي في هذا النوع من التأليف المحْكَم، إذ يَصُفُّون النقول القديمة متناسقة يأخذ بعضها بحُجز بعض بحيث لا تجد تنافراً في أجزائها، ولا تَضَارباً في معانيها، ولا تجد كلمة تكون نائية

عن الأخرى غير مُؤْتلفة معها، ولا ناشزة عنها، بل هي [تامةٌ][(١)] في طَوْعها وانقيادها وسَلاسَتها.

وليس ذلك هيِّناً ليّناً، إنّما هو صنيعٌ لا تقوم به إلّا يد ماهرة، ومثلَه مثَل عالم الآثار الذي يجيء إلى الجدار المتناثر في بقعة الآثار، وكأنه حجارة منثورة، فيجيء إليها ويجمع متناثرها، ويؤلِّف بينه، ويجعل منه إناء يُمثِّل أواني عصره، وقد جمعه من قطع غير متآلفة فجعلها متآلفة.

الكتابة العلمية:

فليست الكتابة العلمية إنشاءً فيه جَمال ألفاظ، أو سَبْك عبارات، إنّما الكتابة العلمية تأليفٌ بين الألفاظ والمعاني، وجمعها من بين المتناثر، ليكون كياناً قائماً بذاته.

ولا أحسب أني رأيت كاتبين عظيمين يتشابهان في جَوْدة هذا النوع كالأستاذ أحمد تيمور، وصديقه الفقيه العظيم الأستاذ «أحمد إبراهيم» فقيه عصره.

صناعة التأليف:

إنَّ بعض الذين يَدْرجُون حول الكتابة وتأليف الكتب يحسبون ذلك عملاً صغيراً، ويقولون مستهينين:

إنَّ أقصى ما يدلُّ عليه الكتاب أنَّ صاحبه عنده مكتبة استطاع أن ينتفع بها، وقد سمعتها من أستاذ جامعي تُوفي إلى رحمة الله، وقد وقع الكثيرون في هذا لأنّهم حَسِبوا التأليف ضجّة عبارات، وترديد أقوال، وتغيير كلمات، وتبديل جُمل.

---

(١) كلمة زدناها لتستقيم الجملة.

كَثْرةُ مصادره ونُدْرة نقوله:

إنَّ الأستاذ أحمد تيمور قد جَمَع كتابه من أجزاء منثورة في كتب التاريخ العام، ومعاجم البلدان، والتراجم والمناقب، وغير ذلك، وإنك لتجد في الصفحة الواحدة أحياناً خمسة مصادر، وهي لا تزيد على ستة عشر سطراً، ولا تقل صفحة عن مصدرين.

وإذا كان تَعَارضٌ بينها، عَمِلَ على التَّوفيق، ولولا أنه يَعْزو قوله دائماً إلى مصدره ما ظننت أنَّ أكثر ما فيها منقولات مُؤْتلفة.

وقد حاولتُ إحصاء ما اعتمد عليه من كُتب فوجدت الحسبة قاربت المائة.

وفي الحق إنِّي أعظَمْتُ المجهودَ الذي بُذِلَ في ذلك الكتاب الصغير الحجم، العظيمِ الـجَدْوى، والذي سَدَّ به فراغاً لم يُسُدَّه أحدٌ من قبله، ولم أجد من بعده مَنْ سَايَره أو سار في طريقه.

وإنَّ الفراغ قائم في المذاهب الأربعة الأخرى، وهي: المذهب الزَّيديّ والإماميّ والظَّاهريّ والإباضيّ.

وقد ذكرنا فيما كتبنا بعضاً من ذلك، ولكن دون ما قام به العالم الجليل رضي الله عنه، وأثابه عن الإسلام خيراً، ومكّن الأخْلاف من أن ينتفعوا بما خَلَّف، إنه سميعٌ مجيبٌ.

* * *

ذكرى أساتذتي بدار العلوم(١)

لقد تسابقَ إلى خاطري... شيوخيَ الذين تلقَّيْتُ العلمَ عليهم، أو تنسّمتُ نسيمَ العلم في جوّهم، وتغذّت روحي بأفاويقِ المعرفةِ من فيضهم.. تذكَّرتُ أشياخي الذين تربوا في دارِ العلوم، وتذكَّرتُ الرعيلَ الأولَ ممن تخرّجوا في ذلك المعهدِ الجليل...

تذكَّرتُ أستاذَ الأساتذةِ عاطفاً(٢) العبقري الذي لم يفرِ فريَهُ في التربية أحدٌ..

---

(١) هذا عنوان مقترح وضعته لهذه المقالة، وهي جزءٌ من تقديم الشيخ أبي زهرة لكتاب «المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي» للدكتور مصطفى زيد، ص٦-١١.

(٢) هو المرحوم محمد عاطف بركات باشا. تخرج في دار العلوم عام ١٨٩٤م، وكان أولَ فِرقته طوالَ سني دراستها، مع حداثة سنه بالنسبة لإخوانه؛ فقد تخرج فيها وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين. وكان مع هذه السن عميد إخوانه، لا في العلم فقط، بل في كل ما يتصل بشؤونهم مما يخصهم كطلبة بهذا المعهد العظيم. وقد رمق نبوغه المغفور له علي مبارك باشا، فكان حريصاً على إدنائه منه. وكثيراً ما كان يزور المدرسة فيسأل عنه؛ لأن أقصى ما كان يتمناه أن يكون ناظر دار العلوم التي أنشأها من بين طلبتها؛ ليتولى حمايتها، فوقعت فراسته على عاطف. وقد صدَّق القدر هذه الفراسة فكان ما توقَّعه منه، ولكن في مدرسة القضاء الشرعي التي تخرجت على أبناء دار العلوم.

أُرسل فور تخرجه إلى إنجلترا، فكان أول مبعوث لدار العلوم يعود وهو يحمل شهادة علمية من أوروبا. وقد وكل إليه إصلاح التعليم الأولي في عام ١٩٠٣م، فقام بمهمته خير قيام، وحمى التعليم الأولي مما أراده به ديكتاتور المعارف حينذاك «مستر دنلوب»؛ فقد كان يشتد في معارضة «دنلوب» وهو يعمل استقالته بين يديه، فيضطر «دنلوب» دائماً إلى التراجع أمامه... =

تذكرت فيه ذلك العقلَ الحرَّ المتطلِّع، والرُّوحَ المشْرق، والنفسَ الفيَّاضة، والقلبَ الكبير، والهمَّةَ العالية، والإرادةَ الحازمة، والـخُلقَ القويّ، والـمَنْزعَ العلمي.

وتذكَّرتُ الأستاذَ عبدَ الحكيمِ بنَ محمدٍ[1] في سَمْتِهِ وتُقاه، وشخصيَّـتِه القوية، ونَفَاذِ عقله، وقوةِ ذكائِه.

= وعندما نقل مفتشاً للغة العربية ـ وكان هو المفتش الثاني، والمفتش الأول هو المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ـ كان موقفه في التفتيش على مدارس اللغة العربية كموقفه في إصلاح التعليم الأولي، فوقف حامياً للغة العربية ضدَّ الاستعمار الإنجليزي الذي كان يمثله «دنلوب»، واستمر يناضل حتى تولى وزارة المعارف المغفور له سعد زغلول باشا، فتولى سعد القبض على ناصية دنلوب بيديه القويتين، ونحَّاه جانباً. وكان قد أنشأ مدرسة القضاء الشرعي لينشر تعاليم أستاذه الشيخ محمد عبده، فلم يجد من يحمي هذه التعاليم كعاطف، فاختاره ناظراً لها، فكان القوي الأمين؛ إذ أحسن اختيار مدرسيها، وساس طلبتها سياسة حكيمة، ينفث فيهم من روحه الاعتزاز بالنفس والكرامة، والاستقلال في الفكر والرأي، والتخلق بالأخلاق الكريمة، وحب الاطلاع، والرغبة الصادقة في تحصيل العلوم على اختلاف أنواعها. واختصَّ رحمه الله بدرس علم الأخلاق، فابتدع في المادة والأسلوب.

ولما ثارت مصر ثورتها الكبرى ثار مع الثائرين، وضحَّى بمنصبه في مدرسة القضاء الشرعي، ونال وسام الجهاد إذ نفي إلى سيشل مع سعد وأصحابه الأكرمين. فلما فك عقال سعد فك معه عقاله. ولما تولى سعد وزارة الشعب كان مما اتجه إليه في الإصلاح أن يسند إلى عاطف وكالة وزارة المعارف، وهنا ترك السياسة ليعود للعلم مرة ثانية، ثم لم يلبث أن توفاه الله بعد ستة أشهر في جهاد، كما يتوفى الشهداء. وكان ذلك في ٣٠ من يوليو سنة ١٩٢٤م. [وانظر: تقويم دار العلوم ص٢٧٦-٢٧٨].

(١) تخرج رحمه الله في دار العلوم عام ١٨٩١م، وكان أولَ فِرقته، ومن زملائه فيها الأستاذان الجليلان الشيخ محمد سلامة، والشيخ محمد زيد الإبياني. وقد استمر إلى سنة ١٩٠٦م يدرس بالمدارس الثانوية، ثم انتقل إلى مدرسة الحقوق حوالي سنة ١٩٠٧م، وألقى دروس الشريعة الإسلامية فيها. وممن درسوا عليه الأستاذ الدكتور محمد كامل مرسي مدير جامعة القاهرة، =

وتذكَّرتُ الأستاذَ الـخُضَريَّ(١) الذي كان يَنْسابُ العلمُ على لسانِه في صَوْتٍ كأنّه الموسيقى، وعلى قَلَمٍ يُضيءُ النُّورَ للحقائقِ كأنّه المِصْباحُ المجْلوّ.. تذكَّرتُ فيهِ الفقيه، وتذكَّرتُ فيهِ المؤرِّخَ الذي لم يُسْبَقْ في عصرِه، ولم يلحقهُ أحدٌ مِن بعدِه.

= وإنه ليذكره بأطيب الثناء. وفي عام ١٩٠٨م انتقل إلى مدرسة القضاء الشرعي، فكان من بُناتها الأولين... ومع أنه كان على خلاف دائم مع الأستاذ عاطف بركات باشا ـ فإن عاطفاً كان يقدره كل التقدير، وكان هو من جانبه يقدِّر ذكاء عاطف وعبقريته. وقد كان ذا شخصية بارزة قوية مؤثِّرة، أوتي قدرة على الجدل والإقناع قلَّ أن توجد في كثيرين. وكان يجيد العلوم العربية إجادته للفقه الإسلامي، حتى إن عاطفاً كان حريصاً على أن يعطيه مع دروس الفقه دروساً في اللغة العربية. وقد توفي رضي الله عنه في آخر سنة ١٩٢٣م (=١٣٤٢هـ).

(١) هو المرحوم الشيخ محمد الخضري بك، ابن الشيخ عفيفي الباجوري. وقد لقب بالخضري نسبةً إلى شيخ أبيه الروحي الذي كان يجله ويقدسه. التحق بدار العلوم عام ١٨٩١م، وتخرج فيها عام ١٨٩٥م، ثم أمضى في التدريس ثلاثاً وعشرين سنة من بينها ثلاث سنوات في كلية غوردون بالسودان [كلية الخرطوم الجامعية الآن]، وثلاث عشرة سنة بمدرسة القضاء الشرعي. وفي هذه المدرسة تجلَّت عبقريته العلمية في الدرس والكتابة والإلقاء؛ فقد كان محاضراً مثالياً يسترسل في القول اسْترسالاً، وقد أخذت المعلومات بعضها بحجز بعض، وتنساب نبرات صوته في النفوس انسياب النَّمير العَذْب، وكان اطِّلاعه غزيراً لا مثيل له. وكان يدرس الفقه وأصوله وتاريخه، وهو أول من قسم تاريخ الفقه ذلك التقسيم العلمي. وبجوار دروسه في مدرسة القضاء الشرعي كان يلقي دروساً في التاريخ الإسلامي بكلية الآداب، في الجامعة المصرية القديمة. فكتب في تاريخ النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والدولة العباسية. وما زالت كتاباته إلى الآن مثالاً يحتذى... ولقد نقل إلى التفتيش بعد ذلك، فكان بين المفتشين نسيج وحده؛ إذ لم يكن بالنسبة للمدرسين المترصِّد المترقِّب الذي يعدُّ الهفوات، بل كان الموجِّه المرشد الذي يفيض بعلمه على من يمر به من المدرسين. وقد استمر كذلك إلى أن توفي رحمه الله في مايو عام ١٩٢٧. [وانظر: تقويم دار العلوم ص٢٦٤-٢٦٦].

وتذكَّرتُ فيه الأديبَ الواسِعَ الأُفق، الذي التقى في كتابتِهِ إشراقُ الدِّيباجةِ معَ دقَّةِ الفقيهِ وإحاطةِ المؤرِّخ، فكانَ في عصرِهِ نسيجَ وحدِه.

وتذكَّرتُ الأستاذَ المهديّ[1]، وإعجابَهُ بالأدبِ العربي، وحُسْنَ اختيارِه، ولُطفَ حِسّه، ودقّةَ ذوقه، وأسلوبَهُ الـمُسَلْسَلَ كالنَّميرِ العَذْب، وموازناتِهِ الأدبيةِ المصوِّرةِ للخطباء، وهم يتدفَّقونَ على المنابرِ تدفُّـقَ السيلِ في مُنْحدرِ الوادي.. وللشعراءِ وهم يصفونَ خَلَجاتِ النفوس، وحركاتِ القلوب، في موسيقى تهزُّ النفس، وتوقظُ الحس.

---

(١) هو المرحوم محمد المهدي بك، من قبيلة زوغو الألبانية، تخرج في دار العلوم عام ١٨٩٢م، واتصل بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وأخلص له، فتأثر بأفكاره وتعاليمه.
وقد عُني منذ تولي التدريس ببثٍّ روح النقد بين تلاميذه ومريديه، وكان له ما يشبه أن يكون مدرسة خاصَّة؛ يأوي إليها ليستمع إليه محبو النقد الصحيح للقلم وللسان؛ فقد كان ينقد الكتابات المختلفة، وينقد الخطابة. وذكر رحمه الله أنه كان ممن يرتاد مدرسته هذه الزعيم الشاب مصطفى كامل، وقد كان يومئذ يبدأ حياته الخطابية والسياسية.
عمل رحمه الله مفتشاً للغة العربية في وزارة المعارف، ثم نقل إلى دار العلوم عام ١٩٠٤م، ثم اختاره عاطف بركات عام ١٩٠٧م لمدرسة القضاء. وكان عاطف رضي الله عنه حريصاً على ألا تتخرج فرقه من مدرسة القضاء الشرعي إلا وقد مرت على الشيخ المهدي في دروس الأدب العربي والنقد؛ فقد كان له ذوق جميل للأساليب العربية والشعر العربي، وكان يبثُّ ذلك بين تلاميذه. كما كان يبثُّ في نفوسهم جميعاً روح الحرية والاستقلال. وكتاباته مترسِّلة من السهل الممتنع، فيها جمال وحلاوة وسهولة.
وفي الفترة التي أمضاها مدرساً بمدرسة القضاء الشرعي كان يتولى التدريس بالجامعة المصرية القديمة أيضاً، وقد تخرج على يديه فيها الأستاذ الدكتور طه حسين.
وقد كان رحمه الله ورعاً، كريماً، جواداً، حسن الهندام، مهيب الطلعة، يؤثر سكنى الضواحي، ويلتزم العربية الفصحى في كلامه كله. توفي بالسكتة القلبية في ١٦ يناير عام ١٩٢٤م. [وانظر: تقويم دار العلوم أيضاً من ٢٧٢-٢٧٣].

وتذكَّرتُ بحرَ العلمِ الذي لا تُـكدِّرُهُ الدلاء، الأستاذُ أحمدَ إبراهيم[١].. تذكَّرتُ فقهَهُ الدقيق، وتفكيرَهُ العميق، وأفقَهُ الواسع، ودراساتِهِ الفقهيةِ المقارنةِ المقرِّبةِ للبعيد، والـمُؤْنِسَةِ للغريب، التي تَقْتنصُ أوابدَ الفقهِ فتجعَلُها ذُلُلاً، قريبةً مألوفةً، بيِّنةً مكشوفة. ولقد كان رضي اللهُ عنهُ أوّلَ مَن خرجَ بالفقهِ عن نطاقِ الفقهاءِ الأربعة، فدرسَ معَ مذاهبهم مذاهبَ الشِّيعةِ الإماميةِ، والزيدية، والإباضية، والظاهرية،

---

(١) ولد رحمه الله في يناير من سنة ١٨٧٤م في حي الباطنية بجوار الأزهر، وتعلَّم بمدرسة العقَّادين وبالأزهر الشريف، وفي دار العلوم حيث تخرج فيها عام ١٨٩٧م، وكان الأول في تخرجه، ومن بين من كانوا معه في هذه الفرقة: المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ حسن منصور، وقد عُـيِّن فور تخرجه مساعد مدرس بدار العلوم، ثم تولَّى التدريس ببعض المدارس، ثم درس اللغة العربية بالمدرسة السنية. وفي سنة ١٩٠٦م نقل مساعد مدرس للشريعة الإسلامية بمدرسة الحقوق الخديوية، ثم اختير لمدرسة القضاء الشرعي في أول إنشائها عام ١٩٠٧م فكان من بُناتها الأوَّلين. وقد أمضى فيها ١٧ سنة تفرغ فيها لدراسة الفقه الإسلامي. وفي نوفمبر ١٩٢٤م نقل إلى مدرسة الحقوق مدرساً للشريعة الإسلامية، ثم رُقِّيَ أستاذاً مساعداً فأستاذاً لكرسي الشريعة الإسلامية سنة ١٩٣٠م، وانتخب وكيلاً لكلية الحقوق سنة ١٩٣٣م. ومع أنه أحيل إلى المعاش سنة ١٩٣٤م ـ فقد بقي يدرس لطلبة الدكتوراه حتى لقي ربه سنة ١٩٤٥م (=١٣٦٤هـ).

وقد كان رحمه الله عضواً في مجمع اللغة العربية، وفي مجمع فؤاد الأول للموسيقى العربية، وفي لجنة الأحوال الشخصية التي صدرت عنها قوانين المواريث والوصية والوقف... كما كان وكيلاً عاماً للشبَّان المسلمين، ومندوباً عن جامعة فؤاد الأول في مؤتمر لاهاي للقانون المقارن سنة ١٩٣٢م. واعتبرته دائرة المعارف الأمريكية للشخصيات العالمية رجلاً عالمياً، فنشرت تاريخ حياته، وأسماء مؤلفاته. [ارجع إلى ص٢٦٤-٢٦٦ في تقويم دار العلوم، وإلى مجلة القانون والاقتصاد: العدد الأول من عام ١٩٣٥م]. وينظر أيضاً ما كتبه أستاذنا العلّامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عن فقيه العصر ومُـجدِّد أسلوب الفقه الإسلامي في مصر الشيخ العلامة أحمد إبراهيم في كتابه «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر» ص١١١-١٣٦.

فكشفَ بهذهِ الدراسةِ عن ينابيعِ الفقهِ في مختلفِ اتِّجاهاتِه ونواحيه، فَجَزاهُ اللهُ عن الفقهِ الإسلاميِّ خيراً.

وتذكَّرتُ المفسِّرَ العميقَ الأستاذَ الشيخَ **حسن منصور**(١).. تذكَّرتُهُ بِسَمْتِه الجليلِ الرائع، وتذكَّرتُ صوتَهُ العميقَ في درسه، وعباراتِهِ الأنيقة، وألفاظِه المنتقاة، وأسلوبِه الكلاميّ، وتذكَّرتُ إلقاءَهُ الهادئَ الرتيب.. وتذكَّرتُ خُلقَهُ الدينيّ، وأدبَهُ الـمُحَمَديَّ الذي يحاولُ بهِ أن يكونَ القرآنُ لهُ خُلُقاً، ولقد كانَ رضي اللهُ عنهُ صورةً للسلفِ الصالحِ في دينِه وتقواه.

وتذكَّرتُ الأستاذَ **عبدَ الوهّابِ خيرَ الدين**(٢)، الأديبَ الفقيهَ المفسِّرَ الذي كانَ

---

(١) ولد رحمه الله بالإسكندرية سنة ١٨٧٠م، وتلقى مبادئ العلوم العربية والدينية في مسجد إبراهيم باشا بها، ثم انتقل إلى الأزهر الشريف، ومكث به مدَّة طويلة التحق بعدها بدار العلوم، وتخرج فيها سنة ١٨٩٧م. وقد عُـيِّن مدرِّساً مدة، ثم كان رئيساً لقلم النسخ بمحكمة الاستئناف. ثم اخْتير مدرِّساً بمدرسة القضاء الشرعي عَقِبَ إنشائها، ثمَّ وكيلاً لها، فناظراً لتجهيزية دار العلوم، فوكيلاً لدار العلوم العُليا حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٣٠م. له مذكرات قيمة غير مطبوعة في التفسير والأدب، وكتاب الدين الإسلامي للمدارس الثانوية بالاشتراك مع زميليه عبد الوهاب خير الدين ومصطفى عناني. وفسر جزء تبارك ولكنه لم يطبعه. وحرَّر قسم التفسير والحديث في مجلة الأزهر منذ أنشئت حتى اختاره الله إلى جواره عام ١٩٣٢م (=١٣٥٠هـ)، وكان اسمها حينذاك مجلة «نور الإسلام». [انظر: ص١٥٩ في تقويم دار العلوم].

(٢) تخرج رحمه الله في دار العلوم عام ١٨٩٨م، ثم كان أستاذاً بمدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم، يدرس العلوم الشرعية وخاصة تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكان يجمع بين جلال العلم وعلائم الصلاح والتقوى. وقد أحيل إلى المعاش عام ١٩٣٥م، واشترك في تأليف كتاب «الدين الإسلامي»، كما سبق في التعريف بالأستاذ الشيخ حسن منصور. [وانظر: ص٥٧٢ في تقويم دار العلوم].

يذوقُ الألفاظَ والمعانيَ بِذَوْقِهِ البيانيِّ الـمُرْهَف، كما يَذُوقُ الطاعمُ الـمَطْعوماتِ والمشروبات.. وتذكَّرتُ وقارَهُ وقوةَ إيمانِه بالله وبرسولِه وبالحق. تذكَّرتُ حماستَهُ وحرارتَهُ في درسِه، وصَوْتِه القويِّ المتهدِّجِ الذي يَصِلُ إلى أعماقِ النفس.. وتذكَّرتُ تلاوتَهُ المستمرةَ للقرآنِ كلما أحسَّ بفراغ، حتى إنّهُ ليتَّخذُ منه أنيساً، مذكراً، محدثاً عن الله جلَّ جلالُهُ بحديثِه وكلامه.

وتذكَّرتُ الأستاذَ **محمد عفيفي**(١) في عُمْقِ فقهِه، وإصابةِ نظره، وحسنِ توجيهه، وذكائِه وألمعيته.

رضيَ اللهُ عنهم جميعاً وأرضاهم.

* * *

(١) هو المرحوم الشيخ محمد عفيفي عبد الله. تخرج في دار العلوم عام ١٩٠٤م، وكان أول المتخرجين في فرقته، وهي الفرقة التي تولى امتحانها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وقال في التقرير الذي كتبه عن هذا الامتحان: «تموت اللغة العربية في كل مكان وتحيا في دار العلوم». تولى التدريس في المدارس الابتدائية، ثم نُقل إلى مدرسة القضاء الشرعي عام ١٩٠٨م حيث تولى تدريس الفقه فيها، وقد كان رحمه الله حريصاً في دراساته الفقهية على رد كل فرع إلى قاعدته. وقد تربَّى فيه بذلك ذوق فقهي صادق. حتى إنه كان يتغلغل في فهم الفروع ويربط بينها برباط محكم هو أصل قياسها. ونقل رحمه الله إلى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٩م فتجهيزية دار العلوم سنة ١٩٣٠م، ومنها نُدِبَ لدار العلوم سنة ١٩٣٤م، ونُقل إليها نهائياً في نفس السنة، وبقي أستاذاً للشريعة الإسلامية بها حتى توفي رحمه الله في صيف عام ١٩٣٦م (=١٣٥٥هـ). [انظر: ص٥٨٠ في تقويم دار العلوم].

الإمام الكوثريّ

(١٢٩٦-١٣٧١هـ)

بقيّـة السَّلف الصَّالح:

منـذ أكثـر من عام فَـقَـدَ الإسلامُ[١] إماماً من أئمـة المسلميـن الذيـن عَلَـوْا بأنفسهم عن سَفْسَافِ هذه الحياة، واتَّجهوا إلى العلم اتِّجاهَ المؤمن لعبادة ربه، ذلك بأنه عَلِمَ أنَّ العلم عبادةٌ من العبادات يَطلُبُ العالِمُ به رضا الله لا رضا أحَدٍ سواه، لا يَبْغِي به عُلُوّاً في الأرض ولا فَسَاداً، ولا استطالةً بفضْلِ جَاه، ولا يُريدهُ عَرَضاً من أعراض الدنيا، إنما يَبغِي به نُصْرةَ الحَقِّ لإرضاء الحَقِّ جلَّ جلاله. ذلكم هو الإمامُ الكوثريّ، طيَّب الله ثراه، ورَضِيَ عنه وأرضاه.

لا أعرفُ أنّ عالِـماً مـات فخَلَا مكانُـه في هـذه السنين كما خلا مكانُ الإمام الكوثري، لأنه بَقِيّـةُ السلفِ الصالح الذين لم يجعَلوا العلمَ مُرْتَـزَقاً ولا سُلَّماً لغاية، بل كان هو مُنتهَى الغاياتِ عندَهم، وأسْمَى مَطَارح أنظارِهم، فليس وراء علمِ الدين غايةٌ يتغيَّاها مؤمنٌ، ولا مُرْتَقىً يَصِلُ إليه عالم.

لقد كان رَضِيَ الله عنه عالماً يَتحقَّقُ فيه القولُ المأثورُ: «العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياء»، وما كان يَرى تلك الوِراثةَ شَرَفاً فقط، ليفتَخِرَ به ويَستطِيلَ على الناس، إنما كان يَرى

---

(١) توفي بعد عصر يوم الأحد ١٩ من ذي القعدة ١٣٧١هـ الموافق ١ أغسطس ١٩٥٢م، رحمه الله تعالى.

تلك الوراثةَ جهاداً في إعلان الإسلام، وبيانِ حقائقهِ، وإزالةِ الأوهام التي تَلحَقُ جوهرَهُ، فيُبْدِيه للناس صَافياً مُشْرِقاً منيراً، فيَعْشُو الناسُ إلى نُورِه، ويهتدون بهديه، وأنَّ تلك الوِراثةَ تتقاضَى العالمَ أن يُجاهِدَ كما جاهد النبيُّون، ويَصبرَ على البأساء والضراء كما صَبَرُوا، وأن يَلْقَى العَنَتَ ممن يدعوهم إلى الحق والهداية كما لَقُوا، فليسَتْ تلك الوراثةُ شَرَفاً إلا لمن أخَذَ في أسبابها، وقام بحقِّها، وعَرَف الواجبَ فيها، وكذلك كان الإمامُ الكوثري رَضِيَ الله عنه.

الـمُجَدِّد الحقيقيّ:

إنّ ذلك الإمامَ الجليـل لم يكن من المنتحلين لمذهبٍ جديد، ولا من الدعاةِ إلى أمرٍ بَدِيءٍ لم يُسْبَق به، ولم يكن من الذين يَسِمُهم الناسُ اليومَ بسِمَةِ التَّجديد، بل كان يَنفِرُ منهم، فإنه كان مُتَّبِعاً، ولم يكن مُبتَدِعاً، ولكنِّي مع ذلك أقول: إنه كان من الـمُجَدِّدين بالمعنى الحقيقيِّ لكلمةِ التَّجديد، لأنّ التَّجديد ليس هو ما تَعَارَفَهُ الناسُ اليوم من خَلْعٍ للربْقةِ وردٍّ لعهدِ النبوّةِ الأُولى، إنما التَّجديد هو أن يُعادَ إلى الدين رَوْنَقُه، ويُزالَ عنه ما عَلِقَ به من أوهام، ويُبيَّنَ للناسِ صافياً كجوهرِه، نقِيّاً كأصلِه، وإنه لمن التَّجديد أن تَحيا السُّنّةُ، وتَموتَ البدعةُ، ويقومَ بين الناس عَمُودُ الدين.

إحياء السنة النبويّة:

ذلك هو التَّجديدُ حقاً وصدقاً، ولقد قام الإمامُ الكوثري بإحياء السنة النبوية، فكَشَفَ عن المخبوء بين ثنايا التاريخ من كُتُبِها، وبيَّنَ مناهجَ رُواتِها، وأعلَنَ للناس في رَسَائِلَ دَوَّنها وكُتُبٍ ألَّفَها سُنّةَ النبيِّ ﷺ، من أقوالٍ وأفعالٍ وتقريرات. ثم عَكَفَ على جهودِ العلماء السابقين الذين قاموا بالسنة ورَعَوْها حَقَّ رعايتها، فنَشَر

كتبَهم التي دُوِّنَتْ فيها أعمالُهم لإحياء السنة. والدِّينُ قد أُشْرِبَتْ النفوسُ حُبَّهُ، والقلوبُ لم تُرنَّقْ بفساد، والعلماءُ لم تَشْغَلهم الدنيا عن الآخِرة، ولم يكونوا في رِكابِ الملوك.

العالم الحق:

لقد كان الإمامُ الكوثري عالماً حقّاً، عَرَف عِلمَهُ العلماءُ، وقليلٌ منهم من أدرَكَ جهادَه، ولقد عَرَفتُهُ سِنينَ قبلَ أن ألقاه، عَرَفتُهُ في كتاباتِه التي يُشرِقُ فيها نُورُ الحق، وعَرَفتُهُ في تعليقاتِهِ على المخطوطاتِ التي قام على نشرها، وما كان والله عَجَبِي من المخطوط بقَدْرِ إعجابي بتعليقِ من عَلَّقَ عليه، لقد كان المخطوط أحياناً رسالةً صغيرةً، ولكنّ تعليقاتِ الإمام عليه تجعلُ منه كتاباً مقروءاً، وإنَّ الاستيعابَ والاطِّلاعَ واتِّساعَ الأُفق، تَظهرُ في التعليق باديةَ العِيَان، وكلُّ ذلك مع طَلَاوةِ عبارة، ولطفِ إشارة، وقُوّةِ نقد، وإصابةٍ للهدف، واستيلاءٍ على التفكير والتعبير، ولا يمكنُ أن يجولَ بخاطر القارئِ أنه كاتبٌ أعجمي وليس بعربي مُبِين.

شدّة تواضعه:

ولقد كان لفَرْطِ تواضُعِهِ لا يَكتُبُ مع عنوان الكتابِ عمَلَهُ الرسميَّ الذي كان يتولاه في حكم آل عثمان، لأنه ما كان يَرى رَضِيَ الله عنه أنّ شَرَفَ العالِمِ يَنالُهُ مِن عَمَلِهِ الرسميّ، وإنما ينالُهُ من عملِهِ العِلْميّ، فكان بعضُ القارئين ـ لسلامةِ المبْنى مع دقَّة المعنى، ولإشراقِ الديباجةِ وجَزَالةِ الأُسلوب ـ لا يَجُولُ بخاطره أنّ الكاتبَ تُركيٌّ بل يعتقد أنه عربيٌّ، وُلِدَ عربياً، وعاش عربياً، ولم تُظِلَّهُ إلا بيئةٌ عربية.

في تقصيرها، ليتمكّن طالبُ علوم الإسلام من الاستيعاب وهَضْمِ العلوم، وخصوصاً بالنسبةِ لأعجميٍّ يتعلّم بلسانٍ عربيٍّ مُبين.

العالم النَّزه الأَنِف:

وهو في كلِّ أحواله العالِمُ النَّزِهُ الأنِفُ الذي لا يَعتمِدُ على ذى جاهٍ في ارتفاع، ولا يَتَملَّقُ ذا جَاهٍ لنيْل مَطْلَبٍ أو الوصولِ إلى غايةٍ مهما شَرُفَتْ، فإنه رَضِيَ الله عنه كان يَرى أنَّ معاليَ الأُمور لا يُوصِلُ إليها إلا طريقٌ سليم ومِنهاجٌ مستقيم، ولا يُمكِنُ أن يصِلَ كريمٌ إلى غايةٍ كريمة إلا من طريقٍ يَصُونُ النفسَ فيها عن الهَوَان، فإنه لا يُوصِلُ إلى شريفٍ إلا شرِيفٌ مِثلُه، ولا شَرَف في الاعتماد على ذوي الجاه في الدنيا، فإنّ من يعتمدُ عليهم لا يكون عند الله وجيهاً.

وكيل مشيخة الإسلام:

سَعَى رَضِيَ الله عنه بجِدِّهِ وعَمَلِه في طريق المعالي حتى صار وكيلَ مشيخةِ الإسلام في تركيا، وهو ممَّن يَعرِفُ للمنصِب حَقَّه، لذلك لم يُفرِّط في مصلحةٍ إرضاءً لذي جَاهٍ مهما يكن قوياً مُسيطراً، وقَبِلَ أن يُعْزَلَ من مَنْصِبِهِ في سبيلِ الاستمساك بالمصلحة. والاعتزالُ في سبيلِ الحقِّ خيرٌ من الامتثالِ للباطل.

عَزْله عن وكالة المشيخة الإسلامية:

عُزِلَ الشيخُ عن وكالة المشيخة الإسلامية، ولكنه بَقِيَ في مجلس وكالتها الذي كان رئيساً له، وما كان يَرى غَضّاً لمقامِهِ أن يَنزِلَ من الرياسةِ إلى العضويةِ ما دام سبَبُ النزول رفيعاً، إنه العُلُوُّ النفسيُّ لا يمنَعُ العاملَ من أن يعمَلَ رئيساً أو مرؤوساً، فالعِزّةُ تُستمَدُّ من الحقِّ في ذاتِهِ، ويُباركها الحقُّ جل جلاله.

امتحانه الشديد وإيثاره الهجرة:

ولكنَّ العالِـمَ الأبيَّ العَـفَّ التَّـقِيَّ يُمتحَنُ أشدَّ امتحان، إذ يَرى بلدَهُ العزيزَ وهو دار الإسلام الكبرى، ومناطُ عِزَّتِه، ومَحطُّ آمالِ المسلمين؛ يَسُودُهُ الإلحاد، ثم يُسَيطِرُ عليه من لا يرجو لهذا الدينِ وقاراً، ثم يُصبِحُ فيه القابضُ على دِينه كالقابضِ على الـجَمْر، ثم يَـجِدُ هو نَفْسَهُ مَقْصُوداً بالأذَى، وأنه إن لم يَنْجُ أُلقِيَ في غَياباتِ السِّجْن، وحِيلَ بينه وبين العِلم والتعليم.

عندئذ يَـجِدُ الإمام نفسَه بين أمور ثلاثة: إما أن يَبقَى مأسوراً مقيَّداً، يَنطفئُ علمُـهُ في غَيَاباتِ السجون، وإنَّ ذلك لعزيزٌ على عالم تَعوَّدَ الدرسَ والإرشادَ وإخراجَ كنوزِ الدِّين ليُعلِّمها النّاسَ عن بيِّنة، وإما أن يتَملَّـقَ ويُداهِنَ ويُمالئ، ودون ذلك خَـرْطُ القَـتَاد بل حَـزُّ الأعناق، وإما أن يُهاجِرَ وبلادُ الله واسعةٌ، وتذكَّرَ قولَه تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

رحلاته واستقراره بالقاهرة:

هاجَـرَ إلى مِصْرَ، ثم انتقَـلَ إلى الشام، ثم عاد إلى القاهرة، ثم رَجَع إلى دمشق مرةً ثانية، ثم ألقَى عَصَا التَّسيار نهائياً بالقاهرة، وهو في رحلاته إلى الشام ومُقامِـهِ في القاهرة كان نُوراً، وكان مَسْكَـنُـهُ الذي كان يَسكُـنُه، ضَؤُلَ أو اتَّسَعَ، مَدْرَسَةً يَأوِي إليها طلابُ العلم الحقيقي، لا طلابُ العلم الـمَدْرسِي، فيَهتدِي أولئك التلاميذُ إلى ينابيع المعرفة، من الكُـتُـبِ التي كُتِـبَتْ. وسُوقُ العلوم الإسلامية رائجةٌ، ونفوسُ العلماء عامرةٌ بالإسلام، فـرَدَّ عقولَ أولـئـك الباحثيـن إليها وَوَجَّهَهم نحوَهـا، وهو يُفسِّرُ الـمُـغْـلَـقَ لهم، ويَـفِـيضُ بغزير علمِه وثمارِ فِكرِه.

لقاء أبي زهرة بالشيخ الكوثري واعتزازه بثنائه عليه:

وإنّ كاتبَ هذه السطور لم يَلْقَ الشيخ إلا قبلَ وفاتِهِ بنحوِ عامين، وقد كان اللقاءُ الرُّوحيُّ من قَبْلِ ذلك بسِنين، عندما كنت أقرأُ كتاباتِه، وأقرأُ تعليقَه على ما يُخرِجُ من مخطوط، وأقرأُ ما أَلَّف من كتب، وما كنتُ أحسَبُ أنَّ لي في نفسِ ذلك العالم الجليل مِثلَ مالَهُ في نفسي، حتى قرأتُ كتابه: «حُسْنَ التَّقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي» فوجدتُه رَضِيَ الله عنه خَصَّني عند الكلام في الحِيَلِ المنسوبةِ لأبي يوسف بكلمةِ خير. وأشهَدُ أني سمعتُ ثناءً من كُبَراءَ وعُلَماء، فَمَا اعْتَزَزْتُ بثناءٍ كما اعْتَزَزْتُ بثناءِ ذلك الشيخِ الجليل، لأنه وِسامٌ عِلْميٌّ ممن يَملِكُ إعطاءَ الوِسامِ العلمِي.

كنز في مصر:

سَعَيْتُ إليه لألقاه، ولكنِّي كنتُ أجهَلُ مُقامَهُ، وإني لأسِيرُ في مَيْدانِ العَتَبَةِ الخضراء، فوجدتُ شيخاً وجيهاً وقُوراً، الشَّيبُ يَنْبثِقُ منه كنُورِ الحق، يَلْبَسُ لباسَ علماء التُّرك، قد التَفَّ حولَهُ طلبةٌ من سُورِيَة، فوَقَع في نفسي أنه الشيخُ الذي أسعَى إليه. فما أنْ زايَلَ تلاميذَهُ حتى استفسرتُ من أحدِهم: من الشيخ؟ فقال: إنه الشيخُ الكوثري، فأسرعتُ حتى التقيتُ به لأعرِف مُقامَه، فقدَّمتُ إليه نفسي، فوجدتُ عنده من الرَّغْبة في اللقاء مِثلَ ما عندي، ثم زُرْتُه فعَلِمتُ أنه فَوْقَ كُتُبِه، وفَوْقَ بُحوثه، وأنه كَنْزٌ في مِصر.

اعتذار الشيخ الكوثري عن التدريس في دبلوم الشريعة بكلية الحقوق:

هنا أُريد أن أُبديَ صفحةً من تاريخ ذلك الشيخ الإمام، لم يعرفها إلا عددٌ قليل:

لقد أردتُ أن يَعُمَّ نفعُه، وأن يتمكَّن طلابُ العلم من أن يَرِدوا وِرْدَهُ العَذْب، وينتفعوا من مَـنْهلِـهِ الغزير، لقد اقتَـرَح قسمُ الشريعة على مجلس كلية الحقوق بجامعة القاهرة: أن يُندَبَ الشيخُ الجليل للتدريس في دبلوم الشريعة، من أقسام الدراسات العليا بالكلية، ووافَـقَ المجلسُ على الاقتراح بعدَ أن عَـلِـمَ الأعضاءُ الأجلَّاءُ مكانَ الشيخ من علوم الإسلام، وأعمالَـهُ العلميَّـةَ الكبيرة.

وذهبتُ إلى الشيخ مع الأُستاذ رئيس قسم الشريعة إبَّان ذاك، ولكننا فوجئنا باعتذار الشيخ عن القبول بمَـرَضِهِ ومَـرَضِ زَوْجِه، وضَـعْـفِ بصره، ثم يُصرُّ على الاعتذار، وكُلَّما أَلْـحَحْنا في الرجاء لَـجَّ في الاعتذار، حتى إذا لم نجد جَدْوَى رجوناه في أن يُعاوِدَ التفكيـرَ في هذه الـمُعاونة العلمية التي نَـرْقُـبُها ونتمنَّاها، ثم عُدتُ إليه منفرداً مرةً أخرى، أُكرِّرُ الرجاءَ وأُلِحفُ فيه، ولكنه في هذه المرةِ كان معي صريحاً، قال الشيخ الكريم: إنَّ هذا مكانُ علم حقاً، ولا أُريدُ أن أُدرِّسَ فيه إلا وأنا قَوِيٌّ، أُلقِي درُوسي على الوجْه الذي أُحِبُّ، وإنَّ شيخوختي وضَعْفَ صحتي وصِحَّةِ زوْجِي، وهي الوحيدةُ في هذه الحياة، كلُّ هذا لا يُـمَـكِّنِـي من أداء هذا الواجبِ على الوجْهِ الذي أرضاه.

نفس الكوثري العلويّـة:

خرجتُ من مجلس الشيخ وأنا أقولُ: أيُّ نَفْسٍ عُـلْوِيَّة كانت تُسجَنُ في ذلك الجسم الإنساني؟! إنها نفسُ الكوثريّ.

وإنَّ ذلك الرجلَ الكريم الذي ابْـتُـلِـيَ بالشدائد، فانتَصَر عليها، ابْـتُـلِـيَ بفقدِ الأحبة، ففَـقَـدَ أولادهُ في حياته، وقد اخْتَرَمَـهُم الموتُ واحداً بعدَ الآخر، ومع كل فقدِ

لَـوْعَة، ومع كلِّ لَوْعةٍ نُـدوبٌ في النفسِ وأحـزانٌ في القلب. وقد استطـاع بالعلم أن يَصبِـرَ وهو يقـول مقالـةَ يعقـوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾، ولكنَّ شريكتَه في السَّراء والضرَّاء أو شريكتَـهُ في بأساء هذه الحياة بعدَ توالي النَّـكَبات، كانت تُحاوِلُ الصبـرَ فتَـتَصبَّـرُ، فكان لها مُواسياً، ولكـلُـوُمها مُـدَاوياً، وهو هو نفسُه في حاجةٍ إلى دَوَاء.

ولقد مَضَى إلى ربِّـه صابراً شاكراً حامداً، كما يَمضِي الصِّدِّيقُون الأبرار، فرَضِيَ الله عنه وأرضاه.

* * *

الدكتور محمد صالح[١]

(١٣٠٧-١٣٧٢هـ)

الفقيه المحقِّق والمسلم الصادق:

إنَّ من الحقِّ على مجلةِ «لواء الإسلام» أَنْ تَنْعى إلى العالمِ الإسلامي عالماً من علماءِ القانون، الذين خدمُوا الفقهَ الإسلاميَّ ورفعُوا منارَه، ونشرُوه وأذاعوا ذِكرَه؛ ذلِكُم هو الفقيهُ الـمُحقِّق، الأستاذُ الدكتور محمد صالح الذي كانَ أُستاذاً للقانونِ التجاريّ، وعميداً لكليةِ الـحُقوق، ووكيلاً للجامعةِ المصريّة.

لقد كانَ الدكتور محمد صالح فقيهاً مخلصاً في طلبِ الحقيقة، ومسلماً صادقَ الإسلام، ومؤمناً كلَّ الإيمانِ بحقِّ الشريعةِ الإسلاميةِ في أَنْ تَذيعَ وتَـنْـتَـشِر، وأن يكونَ الفقهُ الإسلاميّ مَصْدرَ القوانينِ في البلادِ الإسلامية، ويُعتبرُ ذلكَ تقدُّماً وسَيْراً إلى الأمام، لا رَجْعةً إلى الوَراء.

تحبيبه الشريعة الإسلامية إلى طلبة كلية الحقوق:

وفي مدّةِ عمادتِه لكليةِ الحقوق، أدارَ الكليةَ بهذهِ الرُّوحِ السّامِية، فكانَ حريصاً على أنْ يُـحَبِّبَ الشَّريعةَ إلى الطلبة، ويجعلَ لها مكانتَها بينَ علومِ القانون، يُشيدُ بذكرِها في دروسِه، ويقبسُ منها في بحوثِه، ويدرسُها متعمِّقاً في دراستِها، ويُعلنُ محاسنَها

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد الثاني عشر، من السنة السادسة: ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م. وله ترجمة في «الأعلام» للزركلي ٦: ٢١، واسمُه هناك: محمد بن عبد العليم صالح.

بقولِه وقلمِه. وقد تولّى العمادة، وللشريعةِ كرسيٌّ واحد، وبمَسْعَاهُ الحميدِ وهمّتِه العامِلةِ المخْلِصة، كان لها كرسيّان.

وبهمّتِه وإخلاصِه نشأتْ في مدةِ عمادتِه دبلومٌ للشريعة، فوَسِـعَ بذلك دراستُها، وأقبلَ على الدراسةِ في هذا القسم الشرعيّ طلابُ القانونِ في مصرَ والبلادِ الشرقية، وقَصَدوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق، وبذلك أسْدى للدراساتِ الفقهيَّـةِ أجلَّ ما يُـقدِّمُه مُـخْلصٌ للفقهِ الإسلامي.

إخلاصه للشريعة وعمله على نشرها:

لقد كان رحِـمَـهُ الله، مخلصاً للشريعةِ الإخلاصَ كلَّه، يعملُ على نشرِها كما جاء بها الكتابُ والسُّنة، وكما اجتَـهَـدَ الفقهاءُ السابقون، وكان يرى فيما استنبطَه الفقهاءُ أعمقَ النظريّات، وأدقَّ القواعد، وأصْلحَ الحلول لمشاكلِ المجتمعِ الإنسانيّ، يطلبُها كما دوَّنها أصحابُها، لا كما يفهمُها الغربيون، ومن يلُـفَّ لفَّهم. وإن الشريعةَ الإسلامية يَدّعي خدمتَها الآنَ كثيرون، ولكن قلَّ فيهم من يكونُ له إخلاصُ الأستاذِ المرحومِ الدكتور محمد صالح، ومَـنْ له فهمُه العميقُ لها، وهضمه لمسائلها، وإدراكُه لِـلُبِّها ومعانيها.

أقسام القانونيين من علوم الشريعة الإسلامية:

لقد وُجِدَ الفقهُ الإسلاميُّ مكتوباً في كتبِ كثيرٍ من كبارِ رجالِ القانون، ومنهم من يدَّعي أنَّـهُ يريدُ نَشْرَ الشريعة، وأنَّـهُ يحملُ لواءَها. وفي الحق أنّـنا نَقسِمُ أولئك القانونيين إلى ثلاثةِ أقسام:

أوّلُهم: من يُـحَمِّلون كتبَهم بالمسائلِ الشرعية لتزدانَ بها تلك الكتب، ويكملُوا موازنتَهم من غير أيِّ إيمانٍ بها، فهم يكتُبونَ المسائلَ الإسلامية، كما يكتبونَ بعضَ

شرائعِ الصينِ والهنود، وشريعةَ حمورابي؛ وأولئك لا يدَّعون أنهم ينشُرون الشريعة، ولا يَدْعُون إليها.

وثانيهم: طائفةٌ أرادتْ أنْ تخدمَ الشريعةَ، ولكن على أنْ تكونَ طيِّعةً لأَفكارهم، خاضعةً لأحكامِ قوانينِهم، فهم لا يفهمونَها كائناً مستقلاً، لها كيانٌ قائمٌ بذاتِه، ولها حُلولٌ اخْتُصَّتْ بها، لكنْ يرَوْنها خاضِعةً لما يرَوْنه صالحاً من قوانينِهم، ويَتَشكَّكون لهذا في فهمِ الدارسين للشريعةِ من المسلمين، ولا يرَوْنَ الطريقةَ المُثْلى لفهمِها إلّا ما نهجَهُ الغربيُّون في فَهْمِها؛ فالمُسْتَشْرِقُون ولوْ لم يكونوا علماءَ قانون، حُجَّةٌ فيما وصَلُوا إليه من الدراساتِ الفقهيَّة، يؤخذُ عنهم، ويُحْتَجُّ بهم؛ ولا يُحْتَجُّ عندَهم بأقوالِ أحدٍ من علماءِ المسلمين إلا في إحدى حالَيْن: إمّا أنْ يكونَ قد درسَ ما قالهُ الغربيّون، وتعمّقَ فيه بلغتِهم؛ وإما أنْ تكونَ آراؤه كلُّها موافقةً كلَّ الموافقةِ لآرائِهم؛ فإنْ قال لهم شخص: إنَّ الفوائدَ التي تتعاملُ بها المصارِفُ الآن، ليستْ من الربا في شيء، فهو العالم الثَّبْت، وإنْ قال لهم: إنَّ اليانصيب ونحوَهُ ليس مِنَ الميسرِ في شيءٍ، قالوا: إنه الفقيه المحقِّق. وهكذا يريدون الشريعةَ في إهابٍ يحبُّونه، ومنطقٍ يريدونه، ولو تَباعدَ ذلك عن ينبوعِها، وأولئك هم الذينَ نعتقدُ أن من رحمةِ الله بالشريعةِ أنْ يكُفَّهم عنها، ويحفظها منهم، ويحميَها دونَهم، واللهُ من ورائِهم محيط.

والقسمُ الثالث: أولئك الذين أخْلَصوا للشريعةِ، وفهِموها حقَّ فهمِها، وعرفوها حقَّ المعرفة؛ ولم يعرِفوها إلّا من ينابيعِها، وعلموا أنّ الدّارسين لها من الغربيين الذين علِموا العربية، إما أنهم لم يفهموها لأنها تدُقُّ عن فهمِهم، لأنها قانون، وليسُوا قانونيين؛ وإمّا لأنهم أرادُوا أن ينشُروها شائهة، ولا يرجونَ لها وقاراً؛ وهم في الحالَيْن ليسوا حُجَّةً تُتَّبَعُ أقوالُهم؛ وعلى رأس هذا القسم محمد صالح؛ وإنه ليذهبُ به فَرْطُ حرصِه

على الفكرِ الإسلامي مِنْ أنْ يُشَوَّهَ إلى أنْ يَظنَّ أنَّ مَنْ يدرسُ في الغربِ بعدَ أنْ يدرسَ الشريعةَ الإسلاميةَ من ينابيعِها في الشرق، لا يستفيدُ شيئاً في دراستِهِ الشرعيَّة، بل إنه قد صرَّح لكاتبِ هذه السطور مرة أنَّه يفسُد تفكيرُه في الشريعة.

خسارة الشريعة والجامعة والقانون والأخلاق:

لقد خسرتِ الشريعةُ الإسلاميةُ بموتِ المرحومِ الدكتور محمد صالح نصيراً قوياً، ومُخلصاً مؤمناً، وخَسِرَ العلمُ بوفاتِه عالماً محققاً عميقَ النظرة، صادقَ الفكرة؛ يغوصُ على الحقائق، ثم يُبرِزُها للناسِ في حُلَّةٍ قَشيبة.

ولم يعلمِ الذين درسُوا القانونَ التِّجاري، عالماً كتبَ في القانونِ التجاريّ خيراً منه؛ أبرز حقائقَه، وضمَّنَ ما كَتَبَ الأَحكامَ التي اسْتَنْبطَها فقهاءُ المسلمين في موضوعِه، وأعلنَ خواصَّها ومزاياها في قلم مُصوِّرٍ مُبيِّن.

وخسرتِ الجامعةُ عالماً جامعياً، انصرفَ للعلمِ انصرافَ الزّاهِدِ للعِبادة، فعاشَ طالباً للحقيقة، وماتَ وهو يطلبُها.

وخَسِرَ القانونُ فقيهاً مشْتَرِعاً، فقد وَضَعَ مشروعَ القانونِ التجاريّ، وكتبَ مُذَكِّرتَهُ الإيضاحية، وأوْفى فيه على الغاية، ولكنْ لكلِّ أجلٍ كتاب، فقد ماتَ قبلَ أنْ يُقدِّمَه هو للملأ في هذه الأمة.

وخسرتِ الأخلاقُ والفضيلةُ رجلاً يؤمنُ بالحقّ، ويؤمنُ بالله، ويؤمنُ بالفضيلة، ويؤمنُ بالوفاء، ويأخذُ عندَ ما تشتدُّ الأمور، ويَحْكُم الشُّحَّ والهوى بقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

رحمَ الله محمد صالح، وجزاهُ بأكثرَ من عملِه، وأثابَه ثوابَ المُخلِصين، إنه سميعُ الدعاء.

الأستاذ عبد الوهّاب خلّاف[١]

(١٣٠٥-١٣٧٥هـ)

مُروءته وكرامته واستقامة فكره ونفسه:

عزيزٌ عليّ أنْ أكتبَ في الأستاذِ عبد الوهاب خلّاف ناعياً، فقد كان رحمه الله مِـلْءَ النفس، ومِـلْءَ العين، ومِـلْءَ القلب. ولقد عاشرتُه أكثر من عِشرين عاماً، فما رأيتُ منه جَفْوةً في لقاء، ولا غَضَباً في خلاف، ولا إسفافاً في معاملة، بل كانَ رضي الله عنهُ عفَّ اللسانِ، سَمْحَ الوجه، يتَّجِه دائماً إلى معالي الأقوالِ والأفعال، ويتجنَّبُ سفسافَها، له مُروءةٌ وكرامـة، ولـو وَجدَ في جَرْعـةِ الماءِ ما يمسُّ الـمُروءَةَ لتركها، ولبقي صادِياً حتى يرتويَ مَعَ الـمُروءةِ والكرامة.

كان رحمه اللهُ مستقيمَ الفكرِ والعقلِ والنفس، كاستقامةِ قامتِه، يتَّجهُ إلى الحقيقةِ في فكرٍ مستقيمٍ لا التواءَ فيه، وإلى التَّعبيرِ عنها في عبارةٍ مستقيمةٍ بيِّنة لا إبهامَ فيها.

الصابر في بلائه الشاكر في رخائه:

رأيتُه مُشرِقاً في آمالِه، كما رأيتُه صابِراً في آلامِه، إن أَصَابتْه الضرّاءُ صَبَر، وإنْ أصابتْـه السَّرّاءُ شَكَر، فكانَ شأنُـه شأنَ المؤمنِ دائماً؛ مأجـوراً في الحاليْـن، لا تبطـره

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد الحادي عشر، من السنة التاسعة (١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م).

النعمة، ولا تُؤْيسُه من رحمةِ الله النقمة، وكثيراً ما سمعتُه في شدائدِه يقولُ في ضراعة المؤمن: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ولقد رأيتُه وقد فَقُدَ عزيزَيْن له من أبنائه يتأسَّى بأقوالِ المؤمنين، ويتذكَّرُ عباراتِ الصّابرين، وينقلُ إليَّ في حديثِ الصابر، كلمةَ صديقٍ لنا نالَه ما نالَه، فقد قالَ كما قال: لا أريدُ أنْ أفقِدَ أبنائي وأفقدَ إيماني. لقد فقدتُ الابن، فليبقَ الإيمان! ثم يُردِّد في إيمانٍ قولَ يعقوب: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ [يوسف: ١٨].

ولقد كنتُ أقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۞ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ٩-١١]؛ وأجدُ أنّ الأستاذَ خلّافاً رضي الله عنه هو من هذا الـمُسْتثنى، الصَّابرُ في بلائه، الشَّاكرُ في رخائِه، رحمه الله رحمة واسعة.

أسلوبه السَّهل الرَّصين:

نحن الذين ارتبطْنا معَ ذلك العالِمِ الجليل، برابطةِ الوِدِّ والصَّداقة، وذُقْنا لُطفَ عِشْرتِه، نُحِسّ بأنّنا فقدْنا جزءاً من أنفسِنا، ولكنْ لا يصحُّ أَنْ تُنسِيَنا أحاسيسُنا ما فَقَدَه فيه العالمُ الإسلاميّ، وما فقدَه فيه البيانُ العربي، فقد انصرفَ رحمه اللهُ إلى الدراساتِ الإسلاميةِ يبحثُ في ذخائرِها، ويُنقِّبُ في دفائِنها، ويكتبُ ويُبيِّنُ ويكشف، في أسلوبٍ سهلٍ رصين، وكانَ رحمه الله لا يَسْتوعِرُ ولا يَسْتَوْحِش، بل يَتَخيَّرُ المعنى السهلَ المألوف، القريبَ المعروف، وما لا يكونُ سهلاً في ذاتِه يُقرِّبُه ويؤْنِسُه،

حتى يصيرَ بيِّناً مكشوفاً. وكان يَختارُ من الألفاظِ والأساليب، أقْرَبَها إلى الأذهان، وأوْضَحها في البيان، وأحْسَنَها جَرْساً في الآذان، حتى لقد كان يُعَدُّ أسلوبُه البيانيّ بحقّ، من السَّهلِ المُمْتَنِع.

إلقاؤه المُصَوِّر للمعاني:

أمّا إلقاؤه، فنوعٌ من الإلقاءِ هو نسيجُ وَحدَه، يستمعُ إليه السامع، فلا يُحسُّ في إلقائِه تكلُّفاً في صوت، ولكنْ يُحسُّ رنَّةً عَذْبةً عميقةً لها صَدىً في النفس، ويُحسُّ في نغماتِه الإلقائيَّة تصويراً دقيقاً للمعاني، من غيرِ أنْ يُحسَّ بأنّ المتكلِّمَ غيَّرَ أو بدَّلَ في صوتِه، وإنِّي مع طولِ العشرةِ ودوامِ المُحادثة، كنتُ إذا فتحتُ المذياعَ وسمعتُه، أُحسُّ برغْبةٍ شديدةٍ في الإنصات، وكأني أسمعُ صوتاً جديداً لم أسمعْه، وأحياناً كنت أُؤَخِّرُ عملاً مطلوباً لأُتمَّ الاستماع، أو بالأحرى لأتمَّ الاستمتاعَ بحُلوِ الحديث، وجمالِ الإلقاءِ الذي لا تكلُّفَ فيه، وسماعِ صوتٍ ليسَ باللّيِّن، وليس بالأجشِّ الخَشِن.

أحاديثه الأخويّة والخاصّة:

أمّا أحاديثُه الأخويّة والخاصّة، فنوعٌ من السِّحْر، أُفُقٌ واسع، وعلمٌ فيّاض، وأخْذٌ بأفانينِ القولِ وشُجونِه، حتى إنّ المستمعين إليه في أحاديثِه الخاصّة ليَتَبَرَّمون بكلِّ مَنْ يُقاطعُه، أو بكلِّ مَنْ يتكلَّم، ويمنعُه من استئنافِ القول، وأشهدُ أني ما سمعتُ في الشيوخ أظْرَفَ حديثاً، ولا أملكَ بفنونِ التَّحديث، وأعلمَ بمداخلِ النفوس، من الأُستاذِ خلّاف. وكأنّ الحديثَ الحُلوَ فَنٌّ في ذاته عنده، تثير عقله المجالس العلمية

الخاصَّة إلى أشْتات المعاني، فيجمعُها في قولٍ يقولُه كأنه السَّلْسَبيلُ العَذْب، وإن استقامَ الحديثُ بينَ يديْه نسيَ همومَه وآلامَه، وأمتعَ مستمعيه.

وإني لأذكرُ أني زرتُه غِبَّ موتِ أكبرِ أبنائه، وقد وجدتُه كأبي يوسُف في همٍّ لا سُرورَ معه، وإنْ كان معه الصَّبْرُ الجميل، فلم أجدْ سبيلاً للتَّسريةِ عن نفسِه، إلّا أن أفتحَ له حديثاً ليدخلَ من بابِه، فشاقَهُ الحديثُ إلى القول، فقال وأنا أُناقِشُه في بعضِ ما قال أحياناً وأُدافِعُه أحياناً، وأشهدُ أني أردتُ بالحديثِ أَنْ يَنسى، فأُنسيتُ ما أردْت، وأخذْتُ أُجاذِبُه أطرافَه، لا مُسلِّياً مُعزّياً، ولكنْ مُحباً للاستماعِ مُسْتطرفاً، ومَكَثْنا أكثرَ من ساعةٍ نَتَحدَّث، أو يَتَحدَّثُ وأستمعُ وأناقش، وكلَّما أحسَسْت منه بفتورٍ أثرتُه، لأستمعَ وأستمتع، لا لأُسَلِّيَ وأُعزِّي، فقد نسيتُ ذلك عند أخذِهِ في شُجونِ الحديث، ومَسَالكِ البيان.

مدرسة الشيخ الإمام أحمد إبراهيم:

ولقد كان أستاذُنا الجليلُ الذي فقدْناه قوَّةً للشريعة، بشخصِهِ الـمَهيب، وبيانِه الرائع، وأحاديثِه العَذْبة، وكتاباتِه السَّهْلة، وبُحوثِه الفيّاضة، وكنّا في كليةِ الحقوق، نُحسُّ بأنّ الشَّريعةَ، ولها مكانتُها القُدُسيَّة، ودقَّتُها الفِقْهيّة، تحتاجُ دائماً إلى شخصياتٍ تُجَلّيها، ولها من المكانةِ في النفوس ما يَرُدُّ زيغَ الزّائِغين.

لقد فقدْنا منذُ عشرِ سِنين أستاذَنا العظيم، **الإمام أحمد إبراهيم**[1]، ولكنْ وجدْنا في أستاذِنا خلافَ عزاء، ولقد قام بحقِّ الأمانة، وحَمْلِ العبء كريماً، وكان

(١) توفي في يوم الأربعاء ١١ من ذي القعدة سنة ١٣٦٤هـ الموافق ١٧ من أكتوبر سنة ١٩٤٥م عن ثلاثة وسبعين عاماً رحمه الله تعالى وغفر له.

خَلَفاً لكريم عظيم[١]، والآن قد فقدْنا الـخَلَف، فاللهمَّ عَوِّضِ الإسلامَ فيه خيراً، وأَثِبْهُ بمِقْدارِ ما أَخْلَصَ لشريعتِك، وبِمِقْدارِ ما قدَّم من عَمَلٍ صالح، وبِمِقْدارِ ما صَبَر وشَـكَر، إنك سميعُ الدعاء.

* * *

(١) قال أستاذنا العلّامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في ترجمة الشيخ أحمد إبراهيم في كتاب «تراجم ستّـة من فقهاء العالم الإسلامي» ص١٢٥: «وقد كان لهذا المنهج والأسلوب الذي سَلكه الشيخ الإمام أحمد إبراهيم رحمه الله تعالى: أوضح الأثر والمزايا في تلامذته ومتَّبعيه، فهذه كتب تلميذه العلامة الفقيه الأصولي الشيخ عبد الوهّاب خلّاف رحمه الله تعالى تَسْلُكُ هذه الوتيرة، وتتَّسم بهذا الطابَع، وقد رَقَتْ ـ فيما دُوِّنت فيه ـ بالعرض والأسلوب والمتانة رقياً ممتازاً.

وكذلك سَلَكَ العلّامة الفقيه الأصولـي المفسِّر الشيخ محمـد أحمد أبو زهـرة رحمه الله تعالـى، في مؤلفاته الكثيرة المسْلَكَ المحمودَ الرفيعَ الذي سَلَكه شيخه أحمد إبراهيم، ورَقى أيضاً ـ في تواليفه الغزيرة ـ بالعرض والأسلوب والمتانة رُقيّـاً مشهوداً. وكذلك سَلَكَ هذا المسلكَ غيرُهما ـ من تلامذة الشيخ من الحقوقيين ـ فيما أَلَّفوه في مباحث الفقه والحقوق ـ مثل إبراهيم دسوقي أباظة باشا رحمه الله تعالى.

وبوقوفنا على مزايا هذا المنهل العذب، والبحر الزخَّار في شخصيته العلمية الفريدة: ينكشف لنا سرُّ نبوغ الشيخ أبي زهرة، والشيخ خلاف... فيما لَـمَعا به من المقام العلمي، والصفاء الذهني، والدقَّة الفقهية البالغة...». انتهى.

كلمةٌ أخرى في رثاء الأستاذ عبد الوهّاب خلّاف[(١)]

ليستْ هذه النَّدوةُ تَـتَّسعُ لمآثرِ الأستاذ عبدِ الوهاب خلّاف، وإنَ مآثِرَهُ خالدات؛ فكُـتُـبُـه وبُحُوثُه ومَقَالاتُه منشورةٌ مُـعْـلَمَةٌ بينَ الناس، وما زالتْ أجوازُ الفضاء، يتردَّدُ فيها صَدَى صوتِه العميقِ العذْبِ الأخَّـاذ، الذي يسترعي الأسماع سواءٌ أرضيَ الناسُ أمْ لم يرضوا، ولكنْ لا بُـدَّ من كلمةٍ هي كدمعةِ وفاء: إن الذي نتألَّـمُ له هو أنّ المكانَ يفرغُ من العالِمِ فلا نجدُ مَنْ يملؤُه. لقد كثُر اسمُ العُلماء، ولكنْ قلَّ العاملون.

والأستاذُ الشيخُ خلاف لم يكنْ له مآثرُ في العلم فقط، بل مآثرُه في الـخُـلُق. ولعلي أكونُ أصدقَ شاهدٍ على خُـلُـقِه. فقد عاشرْتُه أكثرَ من عشرين سنة، اتَّفقْنا فيها واختلفْنا وتَصَافَينا دائماً، ولكنَّ ذلك الصَّفاءَ كانَ لا يخلو من مُغَاضَبةٍ أحياناً، وكانت هذه الـمُغَاضَبةُ من جانبي ولم تكنْ من جانبِه، وأشهدُ أني ما غَاضَبْـتُه مرةً فتلقَّى الـمُغَاضَبةَ بمثلِها، بل كان يَتَلقَّاها بحِلْمٍ وصَبْـرٍ وقُوّةِ إدراك.

لقـد خَـدَم الأستـاذُ الشيـخُ خـلّاف الشـريعـةَ الإسلاميـة؛ خدمَهـا بقلمِـه، وبمحاضراتِه، وبأحاديـثِه؛ خدمَها بشيْءٍ آخَـر، هو شخصيتُه المهيبةُ الوَقورة. رحمه اللهُ وأثابه عمّا عَمِل.

---

(١) ندوة «لواء الإسلام» المنعقدة في مساء الثلاثاء ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٥هـ، الموافق ٢٣ يناير سنة ١٩٥٦م، المنشورة في العدد الحادي عشر، من السنة التاسعة: (١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م).

الشيخ عبد الحليم بَسْيوني[١]

الجندي المجهول:

تنعى مجلة «لـواءِ الإسلام» إلـى قرائها الكـرام، رُكنـاً ركينـاً من أركانِ أُسرتِهـا، وعالماً جليلاً ساهمَ في إقامةِ دعائِمها، ذلكم هو الأُستاذُ المغفورُ له الشيخُ عبدُ الحليمِ بسيوني.

فقد كان رحمهُ الله جنديَّ هذه المجلةِ المجهول، فإنْ كان القارئُ لا يرى في «اللواء» عبارةً نابية، أو فكرةً شاردةً، أو مَيْلاً عن الحقيقة، فَلْيعلمْ أنّ الشيخَ عبدَ الحليم كان عنصراً قويّـاً في ذلك.

كان يقرأُ مقالاتِها وبحوثَها قراءةَ فاحصٍ دقيقِ الفكرة، عميقَ النظرة، له ذوقٌ علميّ، وذوقٌ بيانيّ؛ فإنْ وجدَ كلمةً تخرجُ عن حدِّ الاعتدال الذي اتَّسمتْ به هذه المجلّة، أو فكرةً تَنْبُو عن بعضِ مَقَاصدِ الإسلام، نبَّـهَ كاتبَـها في لطفِ مودّة، وحُسْنِ مَدخل، وكياسةٍ رفيقةٍ هادئة، تجعلُ أشدَّ الناسِ استمساكاً برأيِه يقبلُها مطمئنَّ النفس، وإنْ وَجَدَ في بعضِ المقالاتِ أُسلوباً قد يصعبُ على القارئ فهمُه، بيَّنه بزيادةِ كلمةٍ أو حذفِها، فيبدو المقصدُ واضحاً جليّـاً، فيحمدُ الكاتبُ لهذا المحرِّرِ العميقِ حسنَ صنيعِه.

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد السادس، من السنة العاشرة: (صفر) ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م.

جهوده في ندوة لواء الإسلام:

ولقد كان للفقيدِ الكريم جُهْدٌ مشكورٌ في «ندوةِ اللواء»، فقد أسهمَ فيها برأيِـهِ السَّديد، وعلمِـهِ الغزير، ونقْدِه البريء، ومواقفِـهِ الطريفةِ مع أعضائِها.

ذلك جزءٌ من عملِ الشيخِ عبدِ الحليم في المجلّة؛ لقد كان «رحمه الله» عصبَها وقوّتَها، وكم من مقالاتٍ دبَّـجها قلمُـه، ونُسِبتْ لهيئةِ التحريرِ مجتمعة، وهي له وحدَه؛ وكانَ يقبلُ ذلك في اطمئنانِ العالمِ الذي يريدُ أنْ يصلَ الحقُّ إلى الناس، سواءٌ نُسِبتْ تلكَ المقالاتُ إليه أم لم تُنسَبْ.

العالم المخلص والموجِّه البصير:

كان عالماً مخلصاً، أخلصَ لله، وأخلصَ للحقيقة، فاستقامَ على الجادّةِ في كلِّ أعمالِه، منذُ أنْ تخرّجَ في الأزهر، إلى أنْ قبضَه اللهُ إليه.

كانَ مدرِّساً بالأزهر، فكان الـمُربِّـيَ الـمُخلِص، والـمُوجِّـهَ البصير، وكان بينَ تلامذتِه الأبَ الوَقور، يُنبِّـهُـهم إلى الحقائقِ العلميَّة في رفْقٍ وهدوء واطمئنان؛ يأخذُ بيدِهم إلى ما يهديهم ويُرشِدُهم، يُؤثِّر فيهم بروحِه وفكرِه، ولسانِه وقلمِه، وإخلاصِه لله في رسالتِه.

إدارة معهد القراءات:

اخْتُبر الشيخُ عبدُ الحليم في العملِ الإداريّ فظهرتْ مواهبُه بأجْلى معانيها؛ تولَّى إدارةَ معهدِ القراءات، فكانَ مُرشداً للَّذين يَتولَّـوْنَ التدريسَ فيه، ومُرشداً لطلّابِه، وعن طريقِـهِ اتَّصل بالقـرّاءِ يُرشدُهم ويُبيِّـنُ لهم التلاوةَ الحسنةَ الجيِّـدَة، كما عاونَ معاونةً صادقةً في إنشاءِ مجلةٍ لهم كانتْ تُسمّى «كنوزَ القرآن».

إدارة مكتب شيخ الأزهر محمد الخضر حسين:

وتولّـى الشيخُ عبدُ الحليم عملاً آخرَ جليلاً خطيراً؛ تولّـى إدارةَ مكتبِ «شيخِ الأزهر» عندما كانَ الأستاذُ الأكبرُ الشيخُ «محمدُ الـخَضِر حسين» شيخاً للأزهر، فتجلّى فيه الإداريُّ الكيِّس، لم يحجُبْ طالبَ حاجةٍ عادلةٍ عن الشيخ، ولم يُثبِّـطْ عزيمةَ ذي حقٍّ عن المطالبةِ به، بل كانَ الـمُعينَ الصَّادقَ في معونتِـه، يُعالجُ الأمورَ التي يضيقُ وقتُ الشيخِ عن علاجِها بروحِ العدالةِ والرِّفْقِ والإنصاف.

الأليف المألوف والـمُحبُّ العطوف:

ولقد كان ـ رحمه الله ـ الأليفَ المألوف، والـمُحبَّ العطوف، يُرشد بمحبَّتِـه كما يُـبيِّـنُ بحُجَّتـهِ؛ كان ذا شخصيّـةٍ زاهدةٍ هادئة، وإيمانٍ قويٍّ عميق، عَزُوفاً عن الدنيا ومباهجِها، مُعْرِضاً عن المادةِ ومفاتِنها، شاغِلاً نفسَه بالباقياتِ الصَّالحات.

هذا هو الشيخُ عبدُ الحليم في علمه، وفي خُلُـقِه، وفي ديـنِه، وفي كفايـتِه في كلِّ عملٍ تولاه، فرحمهُ الله، ورضيَ عنه وأرضاه.

* * *

رثاء الشيخَين: عبد الحليم بسيوني، وسلامة العزّامي[1]

الندوةُ تشاركُ الأستاذَ الكبير أحمد حمزة في إحساسِه بأنّ المجلةَ فقدتْ ركناً من أركانِـها التي قامتْ عليها منذُ إنشائها، فلقد كان المرحومُ الشيخُ عبدُ الحليم بسيوني قوّةً في المجلّةِ مثابرةً عاملة، ولا يمكنُ أنْ يَنسى الذين حرَّروا في هذه المجلة ما كان يقومُ به الأستاذ عبد الحليم من مجهودٍ جبَّار.

فإذا كانتِ المجلةُ تخرجُ منذُ عشراتِ السنين في تلك الديباجةِ الـمُمتازة، التي اختصَّتْ بها أو في ذلك الفكرِ القويمِ الذي عُرِفتْ به، فإنه من الإنصافِ أنْ نقولَ: إنَّ للشيخِ عبدِ الحليم عملاً في هذا جليلاً يُذكَـرُ ويُشكر.

والواقعُ يا إخواني أنّ المسلمين كلَّما تُوفِّـيَ رجلٌ عاملٌ من بينِهم أحسُّوا بالفراغِ الذي تَـركَه، فهذا زميلُنا المرحومُ الشيخُ عبدُ الحليم، وقد تركَ فراغاً في هذه المجلةِ التي تحملُ اللواءَ الإسلاميَّ الآن.

وهذا مكانُ أستاذِنا الجليلِ الشيخِ سَلَامة العزَّامي قد خلا، لأنّ المتصوِّفةَ الذين يجمعونَ بينَ علمِ الشريعةِ وعلمِ الحقيقة جمعاً متناسِباً، لا يكادون يُوجدون إلّا نادراً، ومن هؤلاء النادرين: الشيخُ سلامةُ العزَّامي رضي اللهُ عنه.

---

(١) ندوة مجلة «لواء الإسلام» المنعقدة في مساء الثلاثاء ١٣ من صفر سنة ١٣٣٦هـ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٩٥٦م، والمنشورة في العدد السابع، من السنة العاشرة: ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م.

التصوُّف الحقيقي:

فقد كانَ يفهمُ حقَّ الفهم أنّ التَّصوُّفَ الحقيقيَّ هو في الشريعةِ الحقيقية، وأنّ علمَ الحقيقةِ لا يمكنُ أنْ ينفصلَ عن علمِ الشريعة، وأنّ الشريعةَ هي النُّورُ الذي يهدي إلى الحقيقة هدايةً كاملةً لا زَيْـغَ فيها، فإذا كان للشيخِ سلامةَ مَزِيّـةٌ بينَ العلماء، فهي أنه فهم الإسلامَ فهماً حقيقياً كما جاءَ به النبيُّ ﷺ، واتَّـخذَهُ سبيلاً للورعِ والزَّهادةِ الحقيقية.

إنَّ الناسَ كانوا يفهمون، وما زالوا يظنُّونَ أنّ التصوُّفَ شعوذةٌ ومواكبُ تسيرُ في الطُرقات، فقيَّـضَ اللهُ الشيخَ سلامة العزامي ليُعلِّمَهم أنّ التصوفَ روحانيةُ الإسلامِ الحقيقية، وأفْـهَمَهم الشيخُ سلامة بعملِه وبنفاذ بصيرتِـه أنّ المتصوِّفَ ليس هو المنقطعَ عن الناس، فقد كانَ رضيَ اللهُ عنه، دائمَ الاتِّصال بالناس، ولا أنسى إذْ لقيتُه أوّلَ مرَّة، وكانتْ معَ الأسى والأَسَفِ هي الأُولى والأخيرة، فوجدتُه يستمِـعُ إلى شخصٍ يقرأ له أخبارَ الصُّحف، ويستمعُ إلى ما تنشرُه المجلاتُ الحديثة... فيرى أنه من واجبِـهِ أنْ يعلمَ ما يكتبُه هؤلاء، ولقد سمعتُـه يقول وهو يستمعُ إلى بعضِ هذه الصحف: «لقد سمعْنا العلمَ النافع، فأَسمِـعْنا الكلامَ الفارغ»، وما قَصَد باستماعِـهِ إليها أنْ يأخذَ علماً بما فيها، إنما أرادَ أنْ يأخذَ علماً بما يُقالُ على الناس ليستطيعَ أنْ يدفعَ عن الناسِ مضارّه.

ولقد رُوي أن عمر بنَ الخطّاب رضي الله عنه؛ قيل له: إنَّ فلاناً لا يعرفُ الشرّ، قال: ذلك أحْرى أنْ يقعَ فيه، فذلك الهادي الـمُرشِد في عصرِنا كانَ يعلم الخيرَ حقَّ العلم، وكان يريدُ أنْ يعرفَ الشر الذي يتواردُ على نفوسِ الناس، ليستطيعَ أنْ يضعَ حواجزَ بينَ القلوبِ الطاهرة، وبينَ أنْ يدخلَها ذلك الشرُّ المستطير.

ومهما نُحاولْ في هذه الصفحات، فلن نستطيعَ أنْ نُحصِيَ الآثار التي يتركُها مثلُ الشيخِ سَلَامةَ العزامي في نفس مُريديه، من حيثُ اتجاهُـه إلى العلمِ النافع بكلِّ ضروبِه: علمِ الشَّريعة، وعلمِ التَّصوُّفِ الحقيقيّ.

وفاة الشيخين علي الغاياتي ونور المشايخ الـمُجَدِّديّ:

وإننا نشكرُ الشيخَ صبري عابدين إذْ ذكّرَنا في هذه الجلسة التي نتذكَّرُ فيها النافِعين للإسلام برجلَيْن جليلَيْن خَدَما الإسلامَ خدمةً جليلةً في الشَّرقِ والغرب، أمّا أولُـهما: فهو **الشيخُ علي الغاياتيّ**، وهو رجلٌ آثرَ رضاء الله على رِضَاءِ الناس، وآثـرَ الآخِـرةَ على الدنيا، وآثـرَ إرضاء ضميرِه الدينيّ على إرضاءِ ذوي الأهواء والشهوات.

وأمّا الثاني: فهو **نُورُ المشَايخِ الـمُجَـدِّديّ**، فقد عَرَفْناهُ من أخيهِ السَّفيرِ التَّقيِّ الشيخِ محمد صَادق الـمُجَدِّديّ، الذي أعلنَ أنه من أرومةِ التقوى وسلالةِ الـهِداية، فأحبَّـهُ المسلمون. وعَرَفْناهُ من مَسْعاهُ الجليل، في مَنْعِ الفتنةِ التي كان يدسُّها أعداءُ الإسلامِ بينَ الأفغانِ وباكِسْتان، مُـنَـفِّذاً قولَ الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

❊ ❊ ❊

الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز[(١)]

العالـمُ التقيُّ الورع:

رُزِئَ الإسلامُ في عالمٍ تقيٍّ عميقِ النظرة، صادقِ الإيمان، ثَبْتٍ في علمه، قويٍّ في تديُّنِه، آتاه اللهُ تعالى الحظَّ الأوفر، في علومِ الإسلام، فكان فيها العَلَمَ الذي يُشارُ إليه، وأُوتيَ مثْلَ هذا الحظِّ من علـم أوروبا، فكان العالـمَ بها عنـدَ الأوروبيين، وما طغى في قلبِه علمُ هذه الدنيا على علمِ الإسلام، ولا تلك الحضارةُ البرّاقةُ على حقيقةِ الإيمان، ومـا بَـهَرتْه زخارِفُ هذه المدنيّـة عن الثروةِ الروحيّـةِ التي اشْتَملتْ عليها الحقائقُ الإسلامية، ولا عن تلك الذخيرةِ الإنسانيَّـةِ التي اشْتَمَلتْ عليها أحكامُ القرآنِ المقرَّرةُ الثابتةُ الباقيةُ الخالدةُ إلى يومِ القيامة.

ذلك العالمُ الجليل، هو صديقُنا الوَرِعُ العالم، الدكتور محمدُ عبد الله دراز.

اتِّجاهه إلى طلب الحقيقة وحدها:

لقد عرفْتُ ذلكَ الأخَ الطاهر، من نحوِ خمسٍ وعشرين سنة. منذ التقيْنا في كليَّـةِ أصولِ الدين زميليْـنِ عنـدَ إنشائِها. فوجـدْتُ أكرمَ ما يجـدُ المحـبُّ لعلمِ الإسلام: سلامةَ تفكير، وحُسْنَ قصد، واستقامةً في الغايةِ وفي العقل، يتَّجهُ إلى طلبِ الحقيقةِ لا يريدُ سواها، ولا يبغي عِوَجاً ولا أمْتاً، لا يَسْتهويه بدعُ الآراء، ولا يستطيرُ لُـبَّـه

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد الحادي عشر، من السنة الحادية عشرة: ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م.

بَدِيءُ الأفكار، كما لا يَقِفُهُ عن طلبِ الحقيقةِ تقليدٌ لرأيٍ سابق، فلا يتّبعُ الرجالَ على أسمائهم. ولا يأخذُه بريقُ الجديدِ ولَـمَعانُه، بل هو مُسْتقلُّ التفكيرِ في فهمِ النصوصِ وطلبِ الحقائق، لا يُقيِّده إلّا قَيْدٌ واحد، وهو النُّصوصُ القرآنيةُ والنبوية، فعند النصّ الـمُحْكَمِ القاطعِ في سندِه ودلالتِه يقفُ خاشعاً غيرَ مُتهجِّم، لا يحاولُ التأويلَ فيما لا يقبلُ التأويل، ولا إخْضاعَ النصوصِ لتلك المدَنيّـة، التي لم يقمِ الدليلُ على صلاحيّتِها للبقاء.

هكذا رأيتُ الأخَ في زمالتِه، فأنِسْتُ به واطْمَأنَنْت إليه، وانعقدَ بيننا ما هو أكبرُ من زمالةِ المكان، بل صِرْنا زميليْنِ في طلبِ علم القرآن، يتفكَّرُ كلُّ واحدٍ منّا على منهاجه، ثم نلتقي على رأيٍ واحد، وأشهدُ أنّنا منذُ تعارفْنا ما اختلفَ رأْيُنا في أمرٍ كُلِّيٍّ ولا في أمرٍ جُزْئيٍّ إلّا نادراً، ويكونُ ذلك في أطْرافِ الموضوعاتِ لا في جواهرِها.

دراسته في فرنسا واستمساكه بدينه:

ولقد فارقَنا الدكتور محمد عبد الله دراز إلى أوروبا كما فارقَنا غيرُه، وأقامَ في فرنسا ما شاءَ اللهُ أنْ يُقيم، وكانتْ إقامتُه أكثرَ من إقامةِ غيرِه أمداً، وكانتْ أوفرَ إنتاجاً، فقد أقامَ فيها نحوَ اثنتي عشرةَ سنة، نالَ فيها أعلى الدرجاتِ العلميّةِ هنالك.

ولقد عادَ بعدَ هذه الرحلةِ الطويلةِ الشاقّةِ الـمُجْهِدَة، وتوقَّعْنا أنْ نجدَ تغيُّراً في مظهرِه أو مَلْبسِه أو عاداتِه، أو تديُّنِه. كما رأيْنا في بعضِ مَنْ ذهبُوا وأقاموا بعضَ إقامتِه، ولكنّا وَجَدْناهُ كما تـرَكَنا خُلُقاً وديناً وإيماناً، فأثبتَ بذلك سلامةَ جوهرِه، لأن جيِّدَ المعادنِ تجلوه التجاربُ وتصْقلُه الحوادث من غيرِ أنْ يفنى ويَبْلى.

ولقد ازدادَ استمساكاً بدينِه، وتشدُّداً فيه، فزاد بهاءً ونوراً وجلالاً.

لم تُقطَعْ صلتي النفسيَّةُ بذلك الأخِ النابغةِ منذُ تَعَارفْنا، وإنْ غابَ عني أمداً، التقيْنا من بعدِ الغياب، وأُنْسُ اللقاءِ يقضي على زمانِ الابتعاد، وكأنّه يطويه أو يمحوه.

في النَّدوة الإسلامية العالمية بلاهور:

وكانَ آخرَ لقاءٍ بينَنا وأطولَه ملازمة، عندما سافرْنا معَ رُفْقةٍ كرامٍ إلى الندوةِ الإسلاميةِ العالمية، التي انعقدتْ بدعوةٍ من جامعةِ البنجابِ بلاهور في الباكستان، ترافقْنا في السفر، والسفرُ يكشفُ النفوسَ أكثرَ من الحَضَر، خرجْنا معاً معَ صديقِنا الدكتور علي حسن عبد القادر، والتقيْنا في مطارِ القاهرة معَ الأخِ الصديقِ الدكتور محمد خلف الله أحمد، وهنالكَ انعقدتْ بينَنا رُفقةُ طريق، وتلاقي أرواح، وتمازجُ نُفوس، وأصبحَ كلُّ واحدٍ منّا يرى نفسَه في أخيه، والشيخُ الجليلُ إمامُنا، لا نفترقُ عنه إلّا في النوم، حتى صارَ المؤتمرُ كلُّه ينظرُ إلى هؤلاءِ الأربعة، وانطلقَ بعضُ الإخوانِ يُنشِدُ الشعرَ فينا، ونَتَداعبُ بروايتِه.

تلك أيامٌ من الأيامِ الحلوةِ في هذه الدنيا. نقضي أوقاتَ فراغِنا في عبادةٍ أو في سَمَرٍ بريء، وأحاديثَ ذوات شُجون، فإذا جاءَ ميقاتُ النوم، بعد أنْ نُؤخِّرَه الفيْنَةَ بعدَ الفيْنة، حتى لا ينقطعَ من بينِنا ذلك الأُنْسُ الروحيّ، اتَّجهْنا إلى الصَّلاة.

ثم يذهبُ كلٌّ منّا إلى مَضْجعِه بعد أنْ يَؤُمَّنا في صلاةِ العشاء، ولكنه هو يستمرُّ في صَلَواتِه، كان يَتَخفَّفُ من النوم، فكان نومُه قليلاً كنوم الأنبياء، ثم يقومُ الليلَ مُصلِّياً متهجِّداً، أو قارئاً للقرآن، وكان رضي الله عنه قد أخذَ نفسَهُ بقراءةِ سُدُسِ القرآنِ في كلِّ يوم، وما كنتَ تراهُ إذا اخْتَلَى بنفسِه إلا مُصَلِّياً، أو قارئاً للقرآن.

وفاته وسَرْيُ نعيه وتشييعه:

صَاحَبْناه نحوَ ثلاثةَ عشرَ يوماً في أُنْسٍ روحيّ، وسُرورٍ بريء، وحديثٍ كالنَّمِيرِ نَتَسَاقاه، وما كنّا نخشى إلّا ما يُكنُّه المستقبل، وكأنما القَدَرُ سَقَانا حُلوَ هذه الحياةِ لنعرفَ مُرَّها، ولنعرفَ حقيقتَها، ففي الثلُثِ الأخيرِ من الساعةِ الثالثةِ من مساءِ الاثنين السادسِ عشرَ من شهرِ جُمادى الآخرة سنةَ ١٣٧٧ شكا الشيخُ الإمامُ وَجَعاً، فاحتطْنا به، وأرسلْنا إلى الطبيبِ ندعوه، وتداعى إخوانُنا إلينا من سائرِ الحُجُرات، والشيخُ في صَحْوِه الكامل يتلو معَ الآلامِ أدعيتَه الضارعة إلى طَلَبِ مرضاةِ الله تعالى، ثم دَعَوْنا طبيباً آخر، وَوَصفَ دواء، ولكنَّ المنيةَ كانتْ أسبق من الدواء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فأخَذنا نشيجُ البكاء، وتَسَامعَ الناسُ بالخبرِ الفاجع، فتَعَطَّلتِ المَحَافِل، وتوقَّفَ الاجتماع، وسَرَى النَّعيُ في البقاع، وبكى مَنْ عرفه أخيراً، ومَنْ عرفه أولاً، حتى كأنّ لاهور كلَّها صارتْ مأتماً.

لقد صلّى على جثمانِه الطاهر ممثِّلون لكلِّ الأقاليمِ الإسلامية، وشيَّعهُ إلى المطار ممثِّلون لاثنتيْنِ وثلاثينَ دولة.

لقد كانت آخرَ كلماتٍ نطقَ بها: «يا ربِّ إنْ كنتَ راضياً عنّي لا أبالي».

رحِمَ اللهُ الإمامَ محمد عبد الله دراز، لقد ماتَ شهيداً، وكانَ برّاً تقيّاً، وكانَ من الصِّدِّيقين والصَّالحين.

* * *

كلمة أخرى في الدكتور محمد عبد الله دراز(١)

في يوم الاثنين ١٦ مِنْ جُمادى الآخِرة سنةَ ١٣٧٧هـ، الموافقِ ٦ من ينايرَ سنة ١٩٥٨م، استأثرت رحمة الله عزّ وجلّ، بالعالمِ الثَّبْت، والباحثِ الإسلاميِّ الجليلِ فضيلةِ الدكتور محمد عبد الله دراز، عضوِ جماعةِ كبارِ العلماء، والأستاذِ بكليةِ اللغةِ العربيةِ بالأزهرِ الشريف، وقد جاءتْه الوفاةُ فَجْأة، وهو مشترِكٌ في المؤتمرِ العلميِّ الإسلاميّ بمدينةِ «لاهور» بالباكستان، فكان لهذا النَّبأ وقعٌ أليمٌ في نفوسِ الذين عَرَفوا الراحلَ الكريم، وعَرَفُوا فيه العلم الغزير، والـخُلُق الكريم، والهمَّة الرفيعة، والتَّعالي عن الصغائر.

وُلِدَ عليه رحمةُ الله في قريةِ «محلة دياي». وانتسبَ إلى معهدِ الإسكندرية الدينيِّ سنة ١٩٠٥، وحصلَ على الشهادةِ الثانويةِ الأزهرية، سنة ١٩١٢، وكانَ أولَ الناجحين فيها، وحصَلَ على شهادةِ العالمية سنةَ ١٩١٦، وكانَ أولَ الناجحين فيها، ثم تعلّم اللغةَ الفرنسية وكتب بها، وفي سنة ١٩٢٨ اختيرَ للتدريسِ بالقسمِ العالي بالأزهر، وفي سنة ١٩٣٦ اختيرَ للسفرِ إلى فرنسا في بعثةٍ علمية، وحصلَ على شهادةِ الدكتوراه برتبة الشَّرفِ العُليا من السوربون سنة ١٩٤٧م.

وعاد فاشتغلَ بالتدريسِ في جامعةِ القاهرة، وفي دارِ العلوم، وفي كليةِ اللغةِ العربية، ثم نالَ عضويةَ جماعةِ كبارِ العلماء سنة ١٩٤٩. وكان عضواً في اللجنةِ العليا

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد ١١ من السنة ١١: ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م.

لسياسةِ التعليم، وفي المجلسِ الأعلى للإذاعة، وفي اللجنةِ الاستشاريةِ الثقافيةِ في الأزهر، وشاركَ في نشرِ الإسلام بكُتُبِه ومقالاتِه ومحاضراتِه وأحاديثِه في الإذاعة.

وله بحوثٌ ممتعةٌ في تفسيرِ القرآنِ الكريم، وفي الحديثِ النبويِّ الشريف، وفي القانونِ الدوليِّ العامّ في الإسلام، وفي موضوعِ الرِّبا، وفي مكانةِ الأزهرِ الشريف، إلى غيرِ ذلك من البحوثِ والموضوعات.

كان الراحلُ الكريمُ مَثَلاً فاضلاً للعالمِ الأزهريِّ الإسلاميِّ الغيورِ على دينِه، المحافظِ على كرامتِه، المتَصَوِّنِ في مظهرِه وسَمْتِه، الداعي إلى صراطِ ربِّه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة؛ وبموتِه فقدَ المسلمون رُكناً ركيناً من دعائمِ البحثِ الإسلاميِّ والدعوةِ إلى الإسلام.

رحمه اللهُ رحمةً واسعةً، وجزاه خيراً وبِراً بِقَدْرِ ما خَدَمَ دينَه وقرآنهُ وسُنَّـةَ نبيِّه ﷺ، وإنّا لله وإنّا إليهِ راجِعون.

* * *

الشيخ محمد الخضر حسين(١)

(١٢٩٣-١٣٧٧هـ)

العالم السَّلفيُّ بحق:

الأستاذُ المرحومُ الشيخُ الخضرُ أوضحُ العلماءِ السلفيين ظهوراً في هذا العصر، ومن الإسراف أن نقول: إنه آخرُ سلفيّ، لأننا لا ندري مَنْ مِنَ الرجالِ السلفيين لم يَظهروا، ولكنَّ المؤكَّدَ أنه آخرُ سَلَفيٍّ ظهر، وأعلنَ السلفيةَ في وضوحٍ ونور.

المؤمن الجريء الشجاع:

اجتمع لأستاذِنا الخضر صفاتٌ لم تجتمعْ في غيرِه من العلماء، فقد كان مؤمناً جريئاً شجاعاً، يقولُ الحقّ، ولا يخشى فيه لَوْمةَ لائم، يُعذَّبُ ويُضْطَهدُ في سبيلِ الحقّ فلا تَهِـنُ عزيمتُه ولا يَضْعُفُ إيمانُه، ولا يرضى بالاطمئنانِ والسكونِ في ذلّة...

قاوَمَ الفرنسيين في أرضِ تونس، وترك مَنصِباً رفيعاً في ذلك، ولم يَهِنْ ولم يضعُفْ، بعدَ أنْ حُكِمَ عليه بالإعدام، فهاجر من وطنِه مؤْتسِياً بالنَّبيِّ ﷺ في هجرتِه، وأخذَ يطوفُ في الأقاليمِ مدافعاً عن الإسلام، ومقاوِماً أعداءَ الإسلام في كلِّ أرض، حتى استقرَّ به الـمُقامُ في آخرِ المطاف بمصر، فكان نوراً يضيءُ فيها.

---

(١) ندوة مجلة «لواء الإسلام» المنعقدة في مساء الثلاثاء ٢٠ شعبان سنة ١٣٧٧هـ الموافق ١١ مارس ١٩٥٨م، والمنشورة في العدد الأول، من السنة الثانية عشرة، رمضان: ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م.

الفقيه العميق واللغوي الدقيق:

وكان معَ شجاعتِه فقيهاً عميقَ الفكرةِ الفقهيّةِ في المذهبِ المالكيّ، يعرفُ دقائقه ومنطقَه واتِّجاهَه، حتى إنه كان يُفتي فيه من غيرِ مراجعة، وتكونُ فتواهُ صحيحةً سليمة. وكان عالماً لُغوياً دقيقاً، تجيءُ على لسانِه شواهدُ النَّحوِ والصَّرفِ والبلاغة، بأسرعَ ما تجيءُ على لسانِ العالمِ فيها.

الكاتب المجادل المناظر:

وكان كاتباً، لقلمهِ أسلوبٌ مستقيمٌ جيِّد، وكان مُجادِلاً ومُناظِراً، لا باللسانِ بل بالقلم، يستطيعُ أنْ يَضَعَ الحُجّة في مَوْضعِها، وأن يَرُدَّ كيدَ الخصْم في نحرِه.. جَادَل صاحبَ كتاب «في الشعر الجاهليّ»[1] فأفحَمَه وألْجَمَه، وجادلَ صاحبَ كتاب «الإسلام وأصولُ الحكم»[2] فبيَّن الحقَّ في هذا الأمر.

تولِّيه مشيخة الأزهر:

ثم اخْتبرَهُ اللهُ بالدنيا تجيئُه، فوُلِّـيَ أكبرَ منصبٍ دينيّ، فما فتنتْه الدنيا، فقد نجَحَ حينَ اختبارِه بالنِّقمة واختبارِه بالنِّعمة، فلمّا وجدَ المنصبَ يُريدُ منه ما لا يريدُ تركَهُ موفورَ العِزّةِ موفورَ الكرامة، مُقدَّراً من مخالِفيه وموافِقيه على السَّواء.

لقد فقدَ الإسلامُ في الشيخِ الخَضِر سَجَايا ومكارمَ لو وُزِّعتْ كلُّ واحدةٍ منها على رجل، لكانَ من أفْضَلِ الناس، فرحمهُ اللهُ رحمةً واسعةً، ورضيَ عنه.

* * *

---

(١) هو الدكتور طه بنّ حُسين بن علي بن سلامة المتوفى سنة ١٣٩٣هـ الموافق ١٩٧٣م.

(٢) هو الشيخ علي عبد الرازق.

الدكتور عبد الوهّاب عزّام[1]

(١٣١٢-١٣٧٨هـ)

في مدرسة القضاء الشرعي:

لقد عرفتُ المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام منذ أكثرَ من أربعين سنة، كان في السنين العالية في مدرسة القضاءِ الشرعيِّ، وكنت في السنين الأولى، فعرفت شخصاً مستقيماً، عفَّ اللسان، يغار على الإسلام والمسلمين، ويحبُّ أن يجتمع المسلمون.

ترجمته كتاب «اتحاد المسلمين» من التركية إلى العربية:

وإني لأذكر أنه وهو في السنة النهائيّـة بمدرسة القضاء الشرعي، اتجه إلى تعلم التركيّـة، ليتَّخذ من طريق تعلُّمها وسيلةً للعمل على جَـمْع المسلمين، وأول كتاب ترجمه كان في سنة ١٩١٩م، وهو في السنة النهائية بمدرسة القضاء الشرعي، فقد ترجم مع زميل له كان تركيّـاً كتاب اتّحاد المسلمين، وهو أقدم كتاب رأيته في بابه.

أثر عمله في باكستان:

وعندما كنت معه في لاهور، طلبت إليه أن يعيد طبع ذلك الكتاب، فقال: إن شاء الله عندما أتفرّغ قليلاً. ورأيت أثر عمله عندما كنت في باكستان، رأيت رجلاً

---

(١) ندوة مجلة «لواء الإسلام» المنعقدة في مساء الثلاثاء ١١ رجب سنة ١٣٧٨هـ، الموافق ٢٠ يناير ١٩٥٩م، والمنشورة في العدد الثاني عشر من السنة الثانية عشرة: شعبان: ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م.

اتَّجه إلى جعل باكستان دولة عربيّة، فأنشأ مدارس كثيرة بها لتعليم اللغة العربيّة، وكان هو الحامي الحفيظ على هذه المدارس.

انتقاله إلى السعودية:

ومن الغريب أنه بعد أن انتقل من باكستان إلى المملكة العربيّة السعودية، كادت تَضيعُ هذه المدارس، لولا أن تَدَارَكَها أغنياءُ باكستان، بأن جَمَعُوا المعونات الكثيرة لها، وأعادوا بعضَها، ولم يستطيعوا أن يعيدوها كلَّها.

أثره في نشر اللغة العربية:

وأعتقد أن الله لو كان مدَّ في عُمر الدكتور عبد الوهاب عزَّام، وفَرَّغه من الأعمال الحكوميّة في أيِّ بلدٍ من بلاد الإسلام، ثم طوَّف في الأقاليم الإسلاميّة بهذه الرُّوح التي عاش بها في باكستان، لحوَّل الأقاليم الإسلاميّة كلها إلى بلاد عربيّة، رحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام خيراً.

* * *

منصور فَهْمي(١)

(١٣٠٣-١٣٧٨هـ)

انحرافه الفكري في فرنسا وتوبته:

اختـار اللهُ للقائِه عالماً عظيماً، ومؤمناً تقيّـاً، ورَجُلاً ذا خُلُقٍ قويم، هو الدكتور منصور فهمي الذي ينتهي نسبُه إلى الحسنِ بنِ علي.

ابتدأ حياتَه في تربيةٍ مدنيَّة، حتى تخرَّج في الجامعةِ المصريّةِ القديمةِ في فَوْجِها الأوَّل، وذهبَ إلى فرنسا، ونفسُه الحسَّاسةُ قد تأثَّرتْ بها في فرنسا من انحرافٍ فكريّ، فَبَدتْ في كتاباتِه عباراتٌ مُنْحرفةٌ عن الإسلام، ولما قاومَه المتديِّنون وغيرُهم، ازدادَ عُنفاً فيما أصيبَ به عقلُه من انحراف، وكان عَجَباً أنْ يكونَ ذلك من سُلالةِ النبيّ ﷺ، حتى لقد شكَّ العارِفون في هذه النِّسبة، وظنُّوها من أخطاءِ التاريخ، أو افتراءاتِ بعضِ الناس.

ولكنْ فُوجِئ الناسُ بالدمِ الطاهرِ يتغلَّب على انحرافِ فرنسا، فإذا منصور فهمي هو النقيُّ الطاهر، والمحتسبُ كلَّ أعمالِه لله.

كيف دخل الإيمان قلبه؟

لقد تابَ وأناب، وكان كلَّما تذكَّر ما كان منه ذرَفَ الدموع، فكان يُحسُّ بألمِ المعصيةِ إحساسَه برَوْعةِ التُّقى.

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد الثاني، من السنة الثالثة عشرة: ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م.

ولقد ذاكرْناه مرة: كيفَ دخلَ الإيمانُ قلبَك؟ فقال: «لقد ابتلاني اللهُ بالانحرافِ الذي سمَّيْته رِدّة، ولكنَّ اللهَ الذي اختبرني بالانحراف، هداني بالإيمان. ولقد كان انحرافي فكرياً، ثم اشتدَّت بي اللَّجَاجةُ عندما رُميتُ بالكفر، واستمرَرْتُ على ذلك حتى لقيتُ المرحومَ الشيخَ الأكبرَ **حسُّونةَ النَّواوي**[1]، زرتُه في منزِلِه في سنةِ ١٩٢٥، فوجدتُ شيخاً وقوراً يملأ القلبَ بمَهَابتِه وتقواه، وكنت أسمعُ الكثيرَ عن شجاعتِه وهمّتِه واستهانتِه بشؤونِ الدنيا، فلمّا قدمْت إليه قالَ لي: أأنتَ الذي يُقالُ عنك مُلْحِد؟ فقلت: نعمْ يا مولاي، فربَّتَ على كَتِفيّ، وقال لي: «اقرأ القرآن، واقرأ البخاري، إنْ لم تكنْ قرأتَه»، فوعَدْتُ الشيخَ الوقورَ بذلك.

عكوفه على قراءة صحيح البخاري:

ولما خرجْتُ اسْتَحْييْتُ ألّا أَفيَ بعهدي، فَعَكَفْتُ من بعدِ ذلك على قراءةِ البُخاريّ، وعَجِبْتُ لِغَفْلتي الأُولى، وَجَدتُ حِكَماً ونَظْماً، وأخذتُ أقارِنُ ذلك بما دَرَسْتُ من فلسفة، فوجدتُ ما جاء به محمدٌ ﷺ أعلى من كلِّ فلسفة، وأنَّ الإلهامَ الإلهيَّ يبدو في كلِّ حديث، فلم أجِدْ إلّا أنْ أقول: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله، محمدٌ رسولُ الله، تُبْتُ إلى الله، ورَجَعْتُ إلى الله».

قيامه بالدعوة إلى الإسلام ومشاركته في ندوة «لواء الإسلام»:

من ذلك الوقت، والدكتور منصور فهمي يقوم بحقِّ الإسلامِ عليه، يدعو، ويُرشد، ويَهدي، ولا يهمُّه أنْ يقولَ عنه الناس: إنه رجعيٌّ أو مُجدِّد، إنّما يهمُّه أنْ يُعرِّفَ الناسَ بحقائقِ الإسلام.

---

(١) مفتي الديار المصرية وشيخ الأزهر حسُّونة بن عبد الله النَّواوي الحنفي الأزهري المولود في نواي من قرى أسيوط بمصر سنة ١٢٥٥ والمتوفى سنة ١٣٤٣ الموافق ١٩٢٥ رحمه الله تعالى.

وكان أحبَّ المجالسِ إليه المجالسُ التي فيها إعلاءٌ للإسلام، ولهذا دأبَ رحمهُ الله على المشاركةِ في ندوةِ «لواءِ الإسلام» من يوم إنشائِها[١]، وإنّا نقول: إنّ الدكتور منصور فهمي آمنَ بالإسلام كما آمن الصِّدِّيقون، لأنه لم يرثْهُ وِراثة، بل اعتنقَه دراسةً وتفكيراً.

رحمهُ الله، ورضيَ عنه، ورضي عن السُّلالةِ الطاهرةِ الـمُحَمَّدِيَّـةِ كلِّها.

* * *

(١) انعقدت الندوة الأولى في الليلة الحادية عشرة من جمادى الأولى سنة ١٣٧٢هـ بدار اللواء، ونشرت في العدد العاشر من السنة السادسة: (جمادى الآخرة ١٣٧٢هـ = ١٥ فبراير ١٩٥٣م).

كلمةٌ أخرى في رثاء منصور فهمي[1]

الوطنيُّ الخطيب:

أريدُ أن أتكلّم عن الدكتور منصور فهمي وطنيّاً وجامعيّاً وعالماً، فقد التقيتُ به حيثُ كان يخطُب خطبةً وطنيةً آخر سنةِ ١٩١٩، فوجدْتُ رجلاً مديدَ القامة، يُلقي خطبةً بصوتٍ مُهدِّجٍ جيّاش، يصلُ إلى النفوس، فسألتُ: من الرجل؟ فقيل لي: منصور فهمي، وكان يُذكرُ اسمُ رجلٍ آخر، وهو مرقص فهمي، فقلْتُ لـمَنْ بجانبي: أهذا هو الذي يقولون: إنه كان محامياً؟ قال: لا، إنَّ هذا مسلم، فقاطعَنا ثالثٌ وقال: ولكنّه ملحد، ولكنّي معَ كلِّ هذا أنِسْتُ في الرجلِ معنىً كنتُ أتمنّى له الهداية بعدَ هذا الضَّلال.

مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية:

واتَّصلتُ به بعد ذلك تلميذاً له؛ ذلك أنه في آخر سنة ١٩٢٠ عُيِّن مدرساً للفلسفة بالجامعةِ المصريّة، فكان يُلقي هذه الدروس، وبأسلوبٍ عربيٍّ فصيح، يجمعُ بينَ المحاضرةِ والخطابة، وكانتْ تَبْدُو منه عباراتٌ أحياناً لا تخلو من انحراف، ولكنّه سرعانَ ما يَطْويها طيّاً ويسترسل، ولا يلجُّ في الدعوة إلى الشرّ، كما يفعلُ غيرُه من زملائِه الذين ما زلْنا نسمعُ منهم ذلك الضَّلالَ إلى اليوم.

---

(١) ندوة مجلة «لواء الإسلام» المنعقدة في مساء الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٧٨هـ، الموافق ٢١ إبريل سنة ١٩٥٩م، والمنشورة في العدد الثالث، من السنة الثالثة عشرة: ذو القعدة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م.

من الأشراف الحسنيين:

بعد ذلك التقيْتُ بفضيلةِ مولانا السيد محمد البِبْلاويّ رحمةُ الله عليه، فَذَكَرْتُ له ما أُحسُّ به نحو ذلك الرجل، فقال: إني لأرجو ما ترجو لأنه حَسَنيٌّ، وهو عندَنا من الأشراف الحسنيين الثابتي النَّسَب، فقلتُ له: إذنْ فإني مطمئنٌّ بأنّ ذلك الرجلَ سيهديه الله سبحانَه وتعالى.

وأعتقدُ أنه لو لم يشتهرْ بالإلحاد، ولو لم يُناوئهُ ناسٌ بأنه مُلحد، لسَارَعَ إلى الهداية.

من مآثره في كلية الآداب بالجامعة:

بعد ذلك علمْتُ أنّ الله تابَ عليه.. وهو في الجامعة كان حِصْنَ الإسلامِ من سنة ١٩٢٧ إلى أنْ تركها في سنة ١٩٣٥، ولعلّ من مآثرِه: أنَّ كليةَ الآداب، كانتْ أولَ كليةٍ كَثُر فيها الطالباتُ مع الطلبة، فأصرَّ على أنْ يكونَ للطالبات غُرُفاتٌ خاصّة للدراسة، واسْتَمْسَكَ بذلك، ولم يحدثْ الاختلاطُ إلّا بعد أن تركَ الدكتور منصور الجامعة.

تديُّنه عن حُجَّةٍ وبرهان:

لقد أدخلَ اللهُ الإيمانَ إلى قلبِ منصور فهمي بعد أنْ أكثرَ من قراءةِ القرآن وتعمَّق في دراسةِ البخاريّ، ولقد قلتُ مراراً في غيرِ حضرته: إنه آمَنَ كما آمنَ الراشِدون، لأنه لم يرثِ الإيمانَ ميراثاً، بل اعتنقَه بالحُجّةِ والبُرهان.

رحمه الله ورضي عنه، وأثابه بمقدارِ إخلاصِه وبأكثرَ من عملِه.

❋ ❋ ❋

الدكتور حامد الغوابي[1]

رجل الإسلام والطب:

استأثرت رحمة الله الواسعة برجل الإسلام والطب الدكتور حامد البدري الغوابي بعد حياة طويلة مباركة قضاها في خدمة الإسلام والطب والوطن والناس، فقد نشأ رحمه الله نشأة دينية فاضلة، ودرس الطب فكان ماهراً فيه من ناحيةِ البحثِ ومن ناحية التَّطبيق.

داعية الإسلام:

وكان في الوقتِ نفسِه داعيةً من دُعَاةِ الإسلام والأخلاق بخُطَبه التي يُلقيها في مختلف المساجد والجمعيات والأندية، وبمقالاتِـهِ الكثيرةِ الموصولةِ التي أبان فيها الكثير من الصِّلات والروابط بين الإسلام والطب، وبين القرآن والعلم، وبين سُنّـة الرسول ﷺ وحقائق الكون، وطالما زان الدكتور الغوابي صفحات مجلة «لواء الإسلام» بمقالاته القويَّـة الأسلوب، الدقيقة المعنى، الغزيرة الفائدة، وهي تلك المقالات التي كان يُفصِّل فيها الحديث عن الدقائق الطبيَّـة والصحيَّـة والاجتماعيَّـة التي وردت في الكتاب والسنة.

كتابه «بين الطب والإسلام»:

وسيظلُّ عنوان «بين الطب والإسلام» كالعَلَم على الدكتور حامد الغوابي، لأنه آثر هذا العنوان الدائم لمقالاته الطبيَّـة الإسلاميَّـة التي زادت المؤمنين إيماناً بإعجاز

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد الثاني عشر، من السنة الثالثة عشرة: شعبان ١٣٧٩هـ = فبراير ١٩٦٠م.

قرآنهم وعُلوِّ سُنَّـة نبيِّهم وسُمُوِّ ما جاء به دين الله تبارك وتعالى من مَسَالك الخير وطرق السعادة الحسيَّـة والنفسيَّـة في هذه الحياة.

الشاعر الملتزم:

ولقد كان الدكتور حامد الغوابي بجوار هذا شاعراً، ولكنه لم يكن يقول الشعر في لَغْو الحديثِ أو باطِلِه، أو في تافِهِ الغَرَضِ أو خبيثه، بل كان يقول تغنياً بالإسلام، ومَدْحاً في الرسول عليه الصلاة والسلام، وعَرْضاً لمكارم الأخلاق ومَـحَامِدِ الشِّيَم.

حرصه على لغة القرآن:

وكان الدكتور الغوابي فيما يخطب أو يكتب حريصاً على اللغةِ العربيةِ الفصحى لغةِ القرآن التي فاقت كلَّ بيان، وكان الكثيرون من الناس يعجبون كيف يستطيع الدكتور الغوابي خلال شواغله الطبيَّة الـمُرْهِقَة، وعمله الحكوميِّ الـمُضْني أن يُطَالعَ ويكتب ويُؤَلِّف، ويَدَّخر هذه الثروةَ اللغويةَ الهائلةَ التي تدلُّ على تعمُّقه في قراءة الأدب والبيان.

وللدكتور الغوابي طائفة من المؤلفات الطبيَّـة والإسلاميَّـة التي تدلُّ على عُمْق البحث وقُوَّة الحجَّة وبَرَاعة العَرْض.

وإنَّ أسرة مجلة «لواء الإسلام» لَتُوجِّه العزاء في الدكتور الغوابي إلى العالم الإسلامي، وإلى أسرته وأصدقائه وقرّاء مقالاته ومؤلَّفاته، ونسأل الله جَلَّت قُدرته وتعالَتْ كلمتُه أن يُسْبغَ شآبيب رحمتِهِ وفيوضَ رضاه على المرحوم الدكتور الغوابي بِقَدْر ما خَدَم دينه، وبِقَدْر غَيْرتِهِ على قرآنه وشريعته، إنه أفضل مأمول وأكرم مسؤول.

* * *

الأستاذ صبري عابدين[1]

مشاركته في ندوة مجلة «لواء الإسلام»:

يعزُّ على مجلـةِ «لواءِ الإسلام» أن تفقد عالماً جليلاً، كان أحـدَ أعمدتِها القويَّـة، ومُتحدِّثاً بارعاً في ندواتِها التي زوّدها بآرائه القويمة، وبحوثِه المستفيضة، وهو فضيلةُ الأستاذ المرحوم الشيخ محمد صبري عابدين.

ولقد شاءَ اللهُ الذي لا رادَّ لمشيئتِه، أنْ يَختِمَ حياتَه الطيبةَ المباركة، بموقفِه المشرِّفِ العظيم في الندوتَـيْن الأخيرتَـيْن، اللتيْن بحثتـا موضـوعَ الإسلامِ دستـوراً للدولة، وموضوعَ الأزهرِ معقلاً ومَلَاذاً للمسلمين.

العالم العامل والمجاهد المكافح:

كان رحمه اللهُ عالماً عاملاً، وَرِعاً تقيّاً، يقولُ الحقّ، لا يَـخْشَى فيه لَوْمةَ لائم. كما كان مجاهداً مكافحاً، حَمَلَ اللواءَ في سَبيلِ نُصْرةِ العروبة والإسلام، منذ ابتُلِيَ العربُ بالاستعمار الإنجليزيّ والفرنسي، وكان يعيشُ في فلسطين حين كانَ الإنجليز يُمهِّدون لليهودِ فيها، فدَعَا إلى الجهاد وجَـمْعِ الشَّمْل، وما فَتِئَ طُوالَ حياته ينادي بدعـوةِ الجهادِ والخلاص، حتى نـاداهُ اللهُ سبحانـه إليه، فكان مجاهداً صادقَ الإيمان واليقينِ في شطريْ حياتِه، أولاً وآخراً.

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد الثامن، من السنة الخامسة عشرة: ١٣٨١هـ = ١٩٦١م.

وهكذا يَصْدقُ قولُ رسولِ الله ﷺ: «يَذْهَبُ الصَّالحون، الأوَّلُ فالأوَّلُ، ويبقى ناسٌ كغثاءِ السيل، لا يُباليهم الله بالة، وإنما يُعجِّلُ بخياركم» أو كما قال[1].

وخيرُ الكلامِ كلامُ ربِّ العالمين الباقي بعدَ فناءِ خلقِه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

حقّاً إن المغفورَ له الأستاذَ صبري عابدين قد اتَّخذَ ليومِ الرحيلِ زادَه، وقدَّم لنفسِه من الصَّالحاتِ الباقيات، ما يجعلُ طريقَه إلى دارِ النَّعيم، جنَّـةِ المتَّـقينَ الصَّالحين.

إنها كلمةُ وفاء تعبِّـرُ بها مجلة «لواءِ الإسلام» عن حُزنِها العميق، وتسألُ فيها المولى سبحانَـه أن يتغمَّد فقيدَنـا العزيزَ الكريم، بغيْثِ رحمتِـه ورضوانِـه، وأنْ يجعلَ العِوَضَ مضاعفاً في أمثالِه المجاهدين الصَّابرين.

* * *

(١) رواه البخاري (٦٤٣٤) من حديث مِرداس الأسلميِّ قال: قال النبيُّ ﷺ: «يذهبُ الصَّالحون، الأوَّل فالأوَّل، ويبقى حُفَالةٌ كحُفَالة الشعير، أو التَّمر، لا يباليهم الله بَالَـةً». وفي رواية (٤١٥٦): قال مرداس ـ وكان من أصحاب الشجرة ـ: «يُـقْبَضُ الصَّالحون الأول فالأول، وتبقى حفالة كحفالة التمر والشعير لا يعبأ الله بهم شيئاً». والحفالة: الرديء من كل شيء، والحثالة: سقط الناس. ولا يباليهم الله بالة: أي لا يرفع لهم قَدْراً، ولا يقيم لهم وزناً.

الدكتور مصطفى السباعي(١)

في ميدان الجهاد:

قبل أن نبتـدئ النَّـدوة المباركة أنعي إلى العالـم الإسلامي من فوق منبـر هذه المجلة المجاهدة أحد مجاهدي الإسلام منذ شبابه إلى أن بَلَغَ سنَّ الكهولة، هو المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي عالم سوريا، وقد توفي في ميدان الجهاد في النِّصف الأخير من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ.

جهاده العلمي:

وإني أعرفه منذ كان شاباً يطلب العلم في التَّخصُّص في الفقه وأصول الفقه، وأعرفه مجاهداً يحمل القلم ويجاهد، وقد كان يكتب في سنة ١٩٣٣ و١٩٣٤ في مجلة «الفتح»، وكان يكتب مدافعاً عن الإسلام في الموضوع الذي ما زلنا ندافع عنه وهو الدفاع عن السنَّـة.

تدريسه في كلية الشريعة بدمشق وإصداره مجلة «حضارة الإسلام»:

ولما بلغ الشأو وتولَّى التدريس في كلية الشريعة في دمشق، حمل لواء الجهاد

(١) ندوة مجلـة «لـواء الإسلام» المنعقـدة في مساء الثلاثـاء ١٤ من جمادى الآخـرة سنـة ١٣٨٤هـ الموافق ٢ من أكتوبر سنة ١٩٦٤م، والمنشورة في العدد الحادي عشر من السنة الثامنة عشرة: غرة رجب ١٣٨٤هـ = نوفمبر ١٩٦٤م.

هناك، ولما سقط اللواء الذي كانت تحمله بعضُ الصُّحف المجاهِدَة[١]، حَمَل وحده اللواء في مجلة ممتازة ثريَّة بالعلم هي مجلة «حضارة الإسلام»، ولقد استمرَّ يُحرِّر فيها وينفق عليها من موارده المحدودة الضئيلة، ولم يكن يكفُّ عن الجهاد ساعة من زمان، ولما كانت الشديدة تشتدُّ في سوريا، كان هو من الـمُتَصَدِّين لـحَمْل الشَّديدة.

سَجْنُه وحَـمْله لواء الكفاح:

وفي عهد أديب الشيشكلي[٢] أُلقيَ في غَيَابات السجن مدافعاً عن دينه، ولما أُفرج عنه حمل لواء الكفاح مرة ثانية، واستمرَّ بدافع حتى ضَعُفَ جِسْمُه عن حَـمْل العبء، ولكنه ظلَّ يحمله بمقدار طاقته.

زيارته المدينة المنورة:

وقد ذهب إلى المدينة المنورة يلقي دروساً في كلية الشريعة بها لما أحسَّ ضيقاً في دمشق، وأن الإسلام لا ينظر إليه فيها باحترام ولم يمنعه ضَعْفُ جسمه وما أصيب به من أمراض أن يذهب مرة ثانية إلى المدينة.

ومن أعجب الأمور أنه قضى نَحْبه، وهو يُعدُّ الأمتعةَ لزيارة الرسول ﷺ، ولإلقاء الدروس في حَضْرة الرسول عليه الصلاة والسلام. رحمه الله رحمةً واسعة.

---

(١) يشير إلى مجلة (المسلمون) الشهرية، التي كان يصدرها الداعية الإسلامي سعيد رمضان في مصر، ثم احتجبت، وقد حصل السباعي عام ١٩٥٥م على امتياز بإصدارها في دمشق، وظلت تصدر بإدارته حتى عام ١٩٥٨م.

(٢) أديب بن حسن الشيشكلي، رئيس الجمهورية العربية السورية، توفي غيلة في البرازيل سنة ١٣٨٤هـ الموافق ١٩٦٤م عن خمسة وخمسين عاماً.

وإنَّ مجلـة «لواء الإسلام» لتشارك العالم الإسلامي في الأسف على وفاة ذلك العالم المجاهد النابغة الذكيّ.

رثاء القارئ الشيخ هريدي شُوربجي:

وقد تُوفي أيضاً رجل كان يتلو معنا القرآن، وهو الشيخ **هريدي شوربجي**، ومن حقِّه علينا وقد استمتعنا منه بحُسْن الصوت وحُسْن التلاوة أمداً طويلاً، كان يسعى فيه إلينا، من حقِّه علينا أن نَـنْعاه وأن نرثيه، وأن نُبْديَ الأسف لوفاته.

وإنّه لعزيزٌ عليّ أن أقول لكم: إنه كان في الأسبوع الماضي يسألني عن ميعاد الندوة ليحضر ويُرتِّل القرآن، كما تعوَّد أن يرتل، فرحمه الله رحمةً واسعة.

* * *

الأستاذ محمد البنا[1]

أداء الأمانة العلمية:

رضي اللهُ تعالى عن المرحـومِ المغفورِ له الأستـاذ محمد البنّـا، بما قدَّم من خيـرٍ للإسلام، وبما قامَ من حقِّ الله على العلماء، ورثةِ الأنبياء، وأمناءِ الله تعالى على خلقِه، فقد أدّى الأمانة، وبَـلَّغَ المؤمنين الحقَّ في الإسلام فيما تصدّى له من غيرِ مِراء، ولا مُداراة، أجْزلَ اللهُ ثوابَه، وجَزاهُ بأكثر مما عَمِل، وجَعَلَ سيرتَه ذكرى عطرة، لكلِّ مَنْ تَعلَّم علماً يريدُ به وجهَ الله تعالى ورضوانَه.

مشاركته في مجلة «لواء الإسلام»:

إنّ من الحقِّ على مجلةِ «لواء الإسلام» أنْ تكتبَ راثيةً لمحمد البنا، ناعيةً للمسلمين في مشارقِ الأرضِ ومغاربها نعيَه، فإنّ خسارتَها فيه خسارةٌ لكلِّ مَنْ يَـقْرؤُها، ويَـتَـذاكرُ ما تحتويه من هديٍ دينيّ، وإرشادٍ سلفيّ.

لقد شاركَ الفقيـدُ البارُّ المجلـةَ من أولِ إنشائِهـا معَ السابقينَ الأوّلين، أمثالِ العارفِ بالله الإمامِ محمد الخضر حسين، والفقيهِ المستقيمِ العقلِ المنتَظمِ في تفكيرِه وفقهِه الأستاذِ عبدِ الوهّاب خلّاف عفا الله عنه وجزاهُ عمّا قدَّم من قولٍ سديد، وهُدىً رشيد، خيرَ الجزاء.

---

(١) مجلة «لواء الإسلام»: العدد الثالث، من السنة الرابعة والعشرين: ذو القعدة ١٣٨٩هـ = ١٩٧٠م.

واستمرَّ رضي اللهُ تعالى عنه يمدُّ المجلّة بعلمِه السلفيّ، حتى آخرِ رَمَقٍ في حياتِه، وحسْبُنا أننا قرأْنا مقالهُ، ونحنُ ننعاه، ونذرفُ الدموعَ على جثمانِه الطاهر، ونُودِّعُه الوداعَ الأخير.

تدريسه بمدرسة القضاء الشرعي وإمامته في المفوضيّة المصرية بباريس:

كان المرحومُ مُدرِّساً بمدرسةِ القضاء الشَّرعيّ، تولَّى التدريسَ فيها غِبَّ تخرُّجِه فيها، وانتقلَ من كُرسيِّ الطالبِ إلى كُرسيِّ الأستاذ.

ثم انتقلَ إلى إمامةِ الـمُفوضيّةِ المصريةِ بباريس، فقامَ بحقِّ التوجيه والإرشادِ لأبنائنا هناك، وكان مظهرُه، إسلامياً، كما كانَ في مخبرِهِ بَرّاً تقيّاً.

مَكَثَ هناك نحوَ سنتيْن، وعاد إلى مصر قاضياً شرعيّاً، عالماً سلفيّاً، لم تَـخْتلبْ مداركَه أوروبا وزخرفُها، بل تأثَّـرَ بالخيرِ فيها، ولم يأخُذْ بشرِّها، عادَ منها مُجيداً الفرنسية، لأنَّ مَنْ تعلَّم لغةَ قومٍ أَمِنَ شرَّهم.

مزاياه الجليلة:

كان في فقيدِ المجلة العزيزِ الكريم، مزايا جليلة، فهو عالمٌ سَلَفيٌّ، وأديبٌ لَوْذَعيٌّ، يروي أحاديثَ رسولِ الله ﷺ، ويحفظُ الشعر، ويختارُ منه ما فيه حِكمةٌ، ومن النثرِ العربيِّ ما فيه سحر، وإنَّ من الشعرِ لحكمة، وإنَّ من البيانِ لسحراً.

عرفتُهُ منذُ كان طالباً كبيراً، وكنّا نحن صغاراً، ولكنْ قارَبْتُه، لأنّي كنتُ زميلاً لأخيهِ الـهُمامِ المغفورِ له الشافعيّ، رضي اللهُ عنه، وأثابَه.

وقد لازمَهُ طولَ حياتِه سَمْتٌ هادِئ مَهيب في شكلِه وقولِه، يتعالى عن سَفْسَافِ الأمور، ويَتَسامى إلى مَعَاليها.

كنتُ في كثيرٍ من الأحيان أُصاحِبُه في غُدوِّنا ورَواحِنا، فنَتذاكرُ في العلمِ أو الأخبار، فإنْ سكتْنا اتَّجهَ إلى التَّسبيح.

مواقفه من الكبراء في السياسة:

لقد اقتربَ من الكُبراءِ في السياسة، فكان اقترابَ مُعَاوَنةٍ صَالحةٍ، وليس مُمَالأةً آثمة، وما عَكَّرَ قلبَه بعداوةِ مُخالِف، أو مُناوأةِ حِزْبِيّ.

كنّا معاً في الامتحانِ الشَّفَوِيّ لطلبةِ كليةِ الحقوق، فاتَّصلَ أحدُ كبارِ السياسةِ الحزبيةِ ساخِطاً: كيفَ يجلسُ الأستاذُ البنا لامتحان ابني؟ وكان ذلك الرجل عندي كبيراً فبدا لي سخيفاً قميئاً. وطَمْأنْتُه، وحضرَ الطالب، وامْتُحن، ونالَ حقَّه، والذي اقترحَ الدرجةَ الأستاذُ البنا، وكان سخياً، فعجِبْت، وكان البنا في القمّة، والحزبيُّ في الحضيضِ الأوْهَد.

رحم اللهُ البنا عالماً، وكاتباً، وأديباً، ورجلاً[1].

---

(١) لما انعقدت ندوة «لواء الإسلام» في الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء ٢١ من شوال سنة ١٣٨٩هـ، الموافق ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٩م، استهلَّ الأستاذ أحمد حمزة الندوة بالكلمة الآتية:

«إخواني أعضاء الندوة:

بقلب يحمدُ الله في السرَّاء والضَّرَّاء، وتسليم بمشيئته تسليم المؤمنين الصَّابرين، نحتسب عنده جلَّ جلاله رجلاً من بُناة مجلة «لواء الإسلام» ومؤسِّسي هذه الندوة، وعَلَماً من أعلام الفقه والأدب والتاريخ، ومناراً من منارات الخُلُق والتقوى والجهد: هو الأستاذ العلّامة الشيخ محمد البنا نضَّر الله وجهه، وأكرم ذكراه، ورفع درجته في عليّين.

والأستاذ محمد البنا عُرف بين علماء الأزهر باستبحار المعرفة، وشرف الأخلاق، وصفاء الروح، وعفَّة النفس واللسان. =

= وعُرف في القضاء بحصانة الضمير، وذمة الحكم، وشجاعة الرأي.

وعرفه الوطن مجاهداً عن قضاياه، مستقيماً على الطريق، لا تنال منه رغبة ولا رهبة، ولا يعرف إلا الحق؛ يدافع عنه ويحمل رايته.

وقد ظلَّ رضوان الله عليه قرابة خمسين سنة يخدم دينه و أمته سراً وعلناً، فهو يجمع بين شمائل الجندي المجهول وشمائل القائد الموفَّق.

وإني إذ أنعى إلى الندوة وإلى العالم الإسلامي هذا الزميل الكريم، أشعر بفداحة المصاب فيه، ولا يسعني إلا أن أردد قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

رحم الله هذا العالم المجاهد المخلص، وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء».

❊ ❊ ❊

اللواء الركن محمود شيت خطاب[1]

(١٣٣٨-١٤١٩هـ)

(١٩١٩-١٩٩٨م)

صلة الكتاب بمؤلفه:

أما بعد، فقد أطلعني صديقي الكريم اللواء الركن محمود شيت خطاب على كتابه القيم «بين العقيدة والقيادة»، واستمعت إلى بعضٍ قليلٍ منه في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية.

وإنَّ الكتاب يكوِّن صورةً من كاتبه في تفكيره في المعقول، ومَظْهراً لذوقه وإدراكه في المنقول؛ ولا ينفصل الكتاب الذي يكون ثمرة لجهود كاتبه، عن صاحبه؛ كما لا ينفصل السبب عن الـمُسبَّب واللازم عن الملزوم؛ لأنه صورة منه، وصورة طور من أطوار نفسه.

ولا يُمكن أن يَتبيَّن الأثر إلا إذا تعرَّضنا بالبيان لمن أوْجَدَهُ.

---

(١) تقديم كتاب «بين العقيدة والقيادة»، ص٩-٢٨ـ طبعة دار القلم الأولى: ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
وقد اقتصرت على كلام الأستاذ أبو زهرة حول اللواء الركن محمود شيت خطاب.
وتنظر ترجمة اللواء محمود شيت خطاب رحمه الله تعالى، فيما كتبه أستاذنا الفاضل الشيخ محمد فاروق بطل في تقديمه لكتاب «قادة فتح الأندلس» ١: ٧-٥١.

ولذا كان لا بدَّ أن نتعرَّض بكلمةٍ للكاتب، قبل أن نتصدَّى للمكتوب، كما لا نعرف النتائج من غير معرفة مقدِّماتها.

معرفة الأستاذ أبي زهرة باللواء الركن محمود شيت خطاب:

وإنَّ صديقي الكريم اللواء الركن محمود شيت خطاب، القائد العظيم الـمُدْرك، والوزير المخلص ـ وقليل ما هم ـ سعدْتُ بمعرفته من نحو أربع سنين أو أقل[1]، والمدة في الحالين لا تزيد؛ ولكنِّي بمُجرَّد أن التقيتُ به أحْسَسْتُ بأني أعرفه منذ سنين تُعدُّ بالعشرات، لا بالآحاد، وكأنَّ الأرواحَ قد تَعارفت قبل أن تَتلاقى الأشْباح، وكأنَّ الصُّورة قد رأيتُها، وما لقيتُها؛ لأنَّ الأرواح تتألَّف وتَسْبق الائتلاف، وتَتَقَاربُ وتَسْبق الاقْتراب؛ ولذلك سرعان ما تَصَادقنا عندما التقيت به، وكأنَّ صداقتنا ترجع بالماضي إلى آماد، لا إلى وقت قريب.

---

(١) وقد شارك في ندوة مجلة «لواء الإسلام» القاهريّة، مع الأستاذ محمد أبو زهرة، وثلة من العلماء الفضلاء، وكانت أول ندوة يشارك فيها في مساء الثلاثاء ٧ من رجب سنة ١٣٨٨هـ، الموافق أول أكتوبر سنة (١٩٦٨م)، وقد رحَّب به صاحب المجلة الأستاذ أحمد حمزة وقال: يسرُّ مجلة «لواء الإسلام» أن تُرحِّب بتشريف سيادة الأخ اللواء الركن محمود شيت خطاب، أحد رجالات العراق الشقيق، الذي كرَّس وقته في خدمة الإسلام والمسلمين، يؤيِّد ذلك كتاباته القيِّمة، ومؤلَّفاته التي لا نظير لها، وخاصَّة ما يتعلَّق منها بتاريخ العرب والإسلام والمسلمين. وإنا لنرجو له مزيداً من التوفيق في خدمة الدين الحنيف.
ثم عقب الأستاذ أبو زهرة بقوله: «نوافق السيد رئيس الندوة على ما قاله بالنسبة للصديق الكريم اللواء محمود شيت خطاب، وأضمُّ إلى تقديره وثنائه، ثنائي على أخينا الأستاذ مصطفى الزرقا، فهو عالـمٌ محقِّق، وفقيه دقيق، وإذا سمحتم فإنِّي أُرحِّب به باسمكم شاكراً لهما تفضُّلهما بالحضور، وتشجيعهما لندوتنا المباركة إن شاء الله». مجلة «لواء الإسلام» العدد ١٢ من السنة ٢٢: (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م).

إذا اجتمعنا منفردَيْن أو في جَمْع، وتَبَادلنا الأفكار، أحْسَسْتُ بأني لا أنوي فكرةً إلا سبقني إليها، وقد أسارع إلى القول بها في خاطره، قبل أن يُبْدِيَهُ؛ وكان ذلك لامتزاجِ نفوسنا، وصفاءِ ما في نفسه، وابتعادِهِ عن الالتواء في القَوْل أو الفكر أو الاتِّجاه، فهو يسير بفكره وقوله وعمله في خطٍّ مستقيم، كاستقامةِ قامته؛ والخطُّ المستقيم يعرف ابتداؤه، كما يُعرَف وَسَطُه وانتهاؤه.

وكانت مجالس نَتَبادَلُ فيها الحديث على نُورٍ من الله، وروحانيَّة نفوس، واستقامة قلوب بيننا؛ فكنتُ أتذكَّر في هذه الصُّحبة قول النبي ﷺ: «إنَّ من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شُهداء، يغبطهم الأنبياء والشُّهداءِ لِـمَكانهم من الله»، قيل: «ومَنْ هُم يا رسول الله؟» قال: «هم قوم تَـحَابُّوا بروح من الله على غير أرْحَامٍ تربطهم، ولا أموال يَتَعاطَوْنها؛ والله إنَّهم لَنُور، وإنَّهم لَعَلى نور؛ لا يخافون إذا خَافَ الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢][(١)].

تذكَّرتُ هذا الأثرَ النَّبويَّ إذا اكتمل بالعمل جَمْعُنا، لكني ولست ممَّن يَتَسَامى إلى هذه المكانة، وأحسب أنَّ صاحبي يَتَسَامى إليها، أو أني أرجو ذلك له.

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (١١١٧٢)، وأبو يعلى (٦١١٠)، وابن حبان (٥٧٣)، وابن جرير ١١: ١٣٢، من حديث أبي هريرة وسنده صحيح. وله شاهد عن عمر رضي الله عنه رواه أبو داود (٣٥٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» ١: ٥، وجوَّده ابن كثير لكنه منقطع ولا يضر. وله شاهد ثان عن أبي مالك الأشعري، رواه أحمد ٥: ٣٤١، ٣٤٣، وابن المبارك في «الزهد» (٧١٤)، وأبو يعلى (٦٨٤٢) وسنده حسن.

صفات اللواء خطاب:

وقد جَـمَع الله تعالى لصديقنا اللواء خطاب من الصِّفات ما تَسْمُو به واحدة منها عن سَفْسَاف الأمور، وتَتَّجه به إلى معاليها.

أولها: **الإخلاصُ في القول والعمل**؛ والإخلاصُ إذا كان في قلب أشرق، وقَذَفَ الله تعالى فيه بنور الحكمة، وكان تفكيره مستقيماً، ولسانه قوياً، وعمله حكيماً، فلا يكون التواء، ولا عوج.

وثانيها: **الإدراكُ الواسعُ**، والعلمُ بما حَوْله، وتعرُّف الأمور من وجوهها، وإدراكها من مَصَادرها؛ فقلمُه نقيٌّ، وله فكر ألمعيٌّ.

قائد يعرف خَصْمَهُ، ويُدْرِكُ مَرَاميه، حتى أنه لَيَتوقَّع الحرب أو الهجوم من عدوِّه في مقاتها قبل أن يُعْلِنَها، وقبل أن يفكِّر فيها من سيكونون حَطَبها؛ لأنه يعلم الخصْمَ، ومآربَهُ، وحالَهُ، ويتعرَّف من ذلك مآله..

عَلِمَ بهجوم اليهود سنة ١٩٦٧ قبل أن يُعلنوه، وقبل أن يُقدِّره الذين كانوا في زعمهم يُدبِّرون الأمور، ويَلْبسون لكلٍّ لبوسها.

وثالثها: **إيمان صادق بالله، ورسولِهِ النَّبيِّ الأمين**؛ ولذلك يَتَتَبَّع سيرة السالفين، ويجعل منهم نُوراً يهتدي به، ويعلم منه أعلام الهداية.

همَّـةٌ عالية وتجربة ماضية:

ويكمل هذه الصِّفات التي هي منه بمنزلة السجايا والـمَلَكَات؛ همَّـةٌ عالية، وتجربةٌ ماضية، وخِبْرة بالعلم والحروب، وخصوصاً ما كان بين العرب واليهود.

صفاته العلمية والـخُلقية:

وهو عالـمٌ في العربيَّـة، ومُلمٌّ إلماماً عظيماً بشُؤون الدين، وقارئٌ يَتَقصَّى الحقائق فيما يقرأ؛ يتعرَّف ما تَسْطُره الأقلام، وما وراء ما تسطره؛ ينفر من تقليد الفِرَنْجَة، ويُؤْثِر ما في القرآن والسنة وما كان عليه السَّلف الصالح؛ وهو ممن يُؤثِرون الاتِّباع، ولا يرضَوْن عن الابتداع؛ سلفيٌّ في إيمانِهِ وعملِهِ، قويٌّ في تفكيره، يهضم ما جدّ في العصر، بما في قلبه من إيمان راسخ، واتِّباع مستقيم.. وله مع كلِّ هذا قلمٌ بارعٌ مُصَوِّر، وكتابته من قبيل السَّهل الممتنع؛ وفقه الله تعالى وهداه(١).

* * *

(١) قال اللواء الركن محمود شيت خطاب في آخر تقدمته لكتابه «بين العقيدة والقيادة» ص٣٦: «فأعمق الشكر وأعظم التقدير لفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة، شيخ العلماء، وعالم الشيوخ على مقدِّمته الضافية، وقد حرصت على إثباتها في الكتاب تقديراً لفضله وعلمه وشجاعته في الدفاع عن الإسلام، ثم هي رأي الدين الحنيف باعتباره من أكبر علماء المسلمين في العصر الحديث في تقرير العلاقة الوثيقة بين العقيدة والقيادة». انتهى.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
ترجمة العلّامة محمد أبو زهرة، بقلم الدكتور عدنان زرزور	١٣
أ) تراجم الفقهاء:	٢٩
١ ـ أبو حنيفة	٣١
٢ ـ مالك بن أنس	٤٧
٣ ـ الشافعي	٦٦
٤ ـ أحمد بن حنبل	٧٩
ب) تراجم المحدثين:	٩٣
١ ـ البخاري	٩٥
٢ ـ مسلم بن الحجاج	١٠٥
٣ ـ أبو داود السجستاني	١١٤
٤ ـ الترمذي	١٢١
٥ ـ ابن ماجَهْ القزويني	١٣٠
جـ) تراجم المفسِّرين:	١٣٩
١ ـ ابن جرير الطبري	١٤١
٢ ـ الزمخشري	١٥٤
٣ ـ الفخر الرازي	١٦٤
د) تراجم الوعّاظ والمتكلمين:	١٧٧
١ ـ الحسن البصري	١٧٩
٢ ـ واصل بن عطاء	١٩٣

الموضوع	الصفحة
٣ ـ أبو الحسن الأشعري	٢٠٣
٤ ـ أبو منصور الماتريدي	٢١٤
٥ ـ أبو بكر الباقلاني	٢٢٣
٦ ـ أبو الحسن الماوردي	٢٣٣
٧ ـ ابن حزم الأندلسي	٢٤٢
٨ ـ ابن خلدون	٢٥٢
هـ) علماء معاصرون:	٢٨٩
١ ـ الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير	٢٩١
٢ ـ العلامة أحمد تيمور	٢٩٨
٣ ـ ذكرى أساتذتي بدار العلوم	٣١٠
٤ ـ الإمام الكوثري	٣١٧
٥ ـ الدكتور محمد صالح	٣٢٧
٦ ـ الأستاذ عبد الوهاب خلاف	٣٣١
٧ ـ الشيخ عبد الحليم بسيوني	٣٣٧
٨ ـ محمد عبد الله دراز	٣٤٣
٩ ـ الشيخ محمد الخضر حسين	٣٤٩
١٠ ـ الدكتور عبد الوهاب عزام	٣٥١
١١ ـ الدكتور منصور فهمي	٣٥٣
١٢ ـ الدكتور حامد الغوابي	٣٥٨
١٣ ـ الأستاذ صبري عابدين	٣٦٠
١٣ ـ الدكتور مصطفى السباعي	٣٦٢
١٤ ـ الأستاذ الشيخ محمد البنا	٣٦٥
١٥ ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب	٣٦٩
فهرس المحتويات	٣٧٥